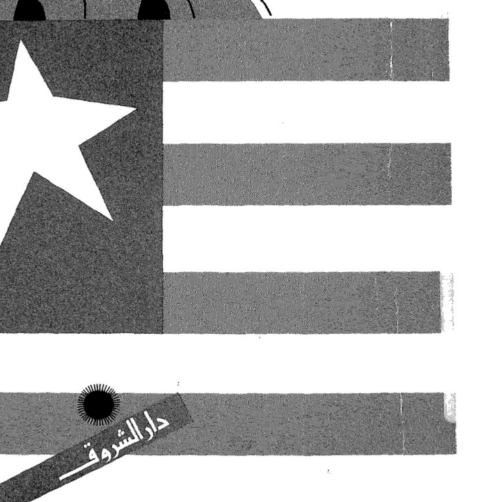
أرض الميعاد والدولة الصليبية

أمريكا فى مواجهة العالم منذ ١٧٧٦

والتر أ. مكدوجال

ترجمة : رضا هلال



دار الشروق

أرض الميعاد والدولة الصليبية

أمريكا في مواجهة العالم منذ ١٧٧٦

الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى

- رابعة العدوية - مدينة نصر

ص . ب: ٣٣ البانوراما

تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

بيروت: ص . ب: ٨٠٦٤

هاتف: ٨١٧٢١٣-٣١٥٨٥٩

فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

والتر أ. مكدوجال
ترجمة : رضا هلال



دار الشروق

مقدمة للمترجم

الاستثنائية الأمريكية
وتناقضات السياسة الخارجية

عندما وصل المهاجرون الأوائل من إنجلترا إلى العالم الجديد، اعتبروا أمريكا هى «أورشليم الجديدة» أو « كنعان الجديدة» . وشبهوا أنفسهم بالعبرانيين القدماء، حين فروا من ظلم فرعون (الملك الإنجليزى چيمس الأول) وهربوا من أرض مصر (إنجلترا) ؛ بحثًا عن أرض الميعاد (الجديدة) .

قال القس البروتستانتى صمويل ويكمان فى موعظته الشهيرة على ظهر السفينة «أرابلا» ؛ التى حملت مجموعة من البروتستانت البيورتانيين (التطهريين) إلى خليج ماساشوستس :

« . . إن أورشليم كانت، لكن نيو إنجلاند (المستعمرة الأولى) هى الموجودة الآن، وإن اليهود كانوا، لكنكم أنتم (البروتستانت التطهريون) شعب الله المختار وعهد الله معكم، فضعوا اسم نيو إنجلاند مكان اسم أورشليم» .

وعندما وصلت المجموعة الثانية من المستوطنين إلى شاطئ نيوإنجلاند على ظهر السفينة «ماى فلاور» عام ١٦٢٠ ، وقعوا فيما بينهم «عهد ماى فلاور» ؛ الذى حددوا فيه طريقة الحياة التى يرغبونها وأسس المجتمع المثالى فى أورشليم الجديدة أو إسرائيل الجديدة (أمريكا)(*) .

(*) رضا هلال : تفكيك أمريكا، الإعلامية للنشر، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٩٥ .

من هنا؛ فإن نشأة أمريكا كانت نتيجة اندفاعة دينية، بل إن مغامرة كولمبس لم تكن إلا مغامرة دينية. وبكلمات كولمبس؛ فإن الرب جعله رسولاً للجنّة الجديدة والأرض الجديدة بعد أن حدثه بها يوحنا المقدس في سفر الرؤيا، وأراه النقطة التي يجدها عندها. . إن اكتشاف أمريكا قبل أي شيء آخر، كان نهاية حج عظيم ونهاية للبحث الروحي العظيم(*).

بيد أن وجود قارة «شمالي أمريكا» غير مأهولة وغنية بالأرض الخصبة الشاسعة والغابات والمعادن التي تنتظر الاستغلال، ولّد اندفاعة نفعية. فالرواد المستكشفون تحركوا من الساحل الشرقي لاجتياح الغرب الأوسط ثم الغرب الأقصى، حتى انتهوا من فتح القارة بنهاية القرن التاسع عشر. وكانت شخصية الفرونتيير (الحدودي) الذي اندفع صوب الغرب هي التي شكلت الشخصية الأمريكية. وكما قال والتر سكوت ويب في كتابه «الفرونتيير العظيم»، فإن الفرونتيير الذي تحرك من ساحل المحيط الأطلنطي إلى ساحل المحيط الهادي، أضفى طابعه على سيكولوچية الولايات المتحدة وأفكارها ومؤسساتها.

وكان على الإنسان الجديد (الأمريكي)، الذي استوطن قارة جديدة (أمريكا)، يفصلها محيطان عن العالم القديم، أن يخطط نظامه الاجتماعي بادئا بعهد «ماي فلاور»، وعلاقاته الخارجية دون قيود جغرافية ومتحرراً من التاريخ، مستهلا تاريخه الخاص(**).

وبالنتيجة؛ فإن أمريكا استثناء ديني، واستثناء جغرافي، واستثناء تاريخي. وتلك الاستثنائية الأمريكية، طبعت السياسة الأمريكية بسمات المثالية، والنفعية، والتجريبية. فقد اقتضى تغير الظروف تجريب مفاهيم ومبادئ سياسية عديدة، كانت مثالية أحيانا ونفعية في الغالب، حتى إن ناقداً للدبلوماسية الأمريكية مثل الدبلوماسي السوڤييتي الشهير «أندريه جروميكو» عاب على أمريكا عدم قدرتها

(*) الاقتباس من: Edwin, Scott Gaustad, A Religious History of America, Harper Collins New York,1990,p.15.

(**) الاقتباس من: Society,Vol.32.No.3,1995.

على صياغة سياسة ثابتة ومتماسكة، لأن للدبلوماسية الأمريكية مفاهيم ومبادئ عديدة أعلنت فى أوقات مختلفة، واستمرت تغذى السياسة الأمريكية!

وهذا الكتاب «أرض الميعاد والدولة الصليبية» يتناول معضلة السياسة الخارجية الأمريكية بين المثالية والنفعية والتجريبية. . فمؤلفه «والتر ماكدوجال» يستعرض دور الولايات المتحدة فى السياسة العالمية خلال القرنين الماضيين.

وكما هو واضح من عنوان الكتاب «أرض الميعاد والدولة الصليبية»، يلجأ المؤلف إلى الاستعارة الدينية. فتعبير أرض الميعاد مستعار من العهد القديم «اليهودى»، وتعبير الدولة الصليبية قصد به الإشارة إلى العهد الجديد وإلى الصليب كرمز للتبشير وللتضحية من أجل خلاص البشرية. ومن ثَمّ، فإن أمريكا أرض الميعاد، تعكس فكرة المهاجرين الأوائل، وكذلك الأمريكيين حتى نهاية القرن التاسع عشر عن أمريكا؛ أما فكرة الدولة الصليبية، فتعكس تصور الأمريكيين عن أنفسهم وسلوك أمريكا فى الشئون العالمية خلال القرن العشرين، من منطلق أن أمريكا لها رسالة لخلاص البشرية. . رسالة لنشر الحرية والتقدم.

وبمعنى آخر؛ فإن أمريكا القرن التاسع عشر وظّفت سياستها الخارجية من أجل الحرية فى أرض الميعاد ـ أمريكا. أما أمريكا القرن العشرين، فكانت سياستها الخارجية «توسعية» لنشر الحرية فى العالم!

ولجوء ماكدوجال إلى الاستعارة الدينية، لا يعنى أنه يقدم رؤية دينية لدور أمريكا فى العالم، ولكنه يشى بدور العامل الدينى فى السياسة الخارجية الأمريكية، ويركز على التمايز بين العهد القديم للسياسة الخارجية الأمريكية، والذى استهدف الحرية فى الداخل، والعهد الجديد الذى حاولت فيه أمريكا توسيع دورها فى العالم ثم قيادته.

ففى العهد القديم الأمريكى، اعتبر مؤسسو أمريكا أنها «إسرائيل الجديدة» التى هاجروا إليها من أجل الحرية، وأرسوا قواعد السلوك الأمريكى الخارجى من أجل أن ينعموا بالحرية فى الداخل. وفى العهد الجديد الأمريكى بعد عام ١٨٩٨ (عام اكتمال الاستيطان حتى الساحل الغربى) تحرك الأمريكيون من أجل تشكيل العالم

وفق تصورهم، من خلال قواعد جديدة للسياسة الخارجية الأمريكية، يأتى ضمنها تبرير التوسع واستخدام القوة فى شكل أقرب إلى الحملة الصليبية لتحضير العالم «على الطريقة الأمريكية».

بيد أن العهد الجديد الذى من أهم قيمه «التوسعية»، اصطدم بميراث العهد القديم الذى كانت قيمته العليا «العزلة»، وانعكس ذلك فى أداء السياسة الخارجية الأمريكية، ليحكمها التناقض بين المثالية والواقعية، بين الأخلاق والقوة، بين القومية والعالمية، كما حدث فى حرب ڤيتنام. بل إن ذلك التناقض أصبح يَسِمُ السياسة الخارجية الأمريكية بالتردد والعجز أحيانا، ويجعلها تستغلق على الفهم فى أحيان أخرى. فمقابل الصورة الشائعة بأن السياسة الخارجية الأمريكية «شريرة»، توصف تلك السياسة فى أحيان أخرى بأنها «طيبة».

وقد وصف المؤرخ الشهير آرثر شليزنجر التاريخ الأمريكى بأنه دورات من الحرب بين الواقعية والمسيحانية، بين التجريب والقدرية. وتحدث كسينجر عن الازدواجية بين العزلة والعالمية، بين المثالية والقوة. كما أن المؤرخ مايكل كامن وصف الشعب الأمريكى بأنه «شعب متناقض» والسياسة الأمريكية بأنها سياسة البراجماتية المثالية.

إنها، مرة أخرى، الاستثنائية الأمريكية.

إن هناك ثمانية تقاليد للسياسة الأمريكية، يحددها والتر ماكدوجال. فخلال العهد القديم الأمريكى، أى حتى نهاية القرن التاسع عشر، حكمت السياسة الخارجية الأمريكية أربعةُ تقاليد هى :

- الحرية فى الداخل؛ أى أن توظف السياسة الخارجية للدفاع عن حرية أمريكا.
- العزلة؛ أى أن يكون لأمريكا الحرية فى صنع سياسة خارجية باستقلال عن مطامع القوى الأوروپية، وأن تقف موقف الحياد من الحروب الأوروپية إلا عندما تتعرض الحرية الأمريكية للخطر.
- مبدأ مونرو؛ الذى نص على أنه لا يجوز لأى دولة أوروپية أن تعد القارتين الأمريكيتين مكانا صالحًا للاستعمار، أى عدم تدخل أوروپا فى القارتين الأمريكيتين.

• التوسعية؛ وهى تقليد قام على مقولة «المصير المبين» لجون أو سوليفان، بمعنى أن القدر فرض على الأمريكيين أن مصيرهم الاستكشاف والغزو باتجاه الساحل الغربى وصولا إلى المحيط الهادى.

لقد انتهى العهد القديم لأمريكا عام ١٨٩٨ باكتمال غزو «أرض الميعاد» فى شمالى أمريكا بين ساحل الأطلنطى شرقًا وساحل الهادى غربًا.

وخلال العهد الجديد لأمريكا، الذى بدأ منذ نهاية القرن التاسع عشر، حكمت السياسة الخارجية الأمريكية أربعة تقاليد هى:

• الإمبريالية التقدمية؛ بمعنى أن الأمريكيين مختارون لتحضير البشرية ونقل التقدم إلى الشعوب الأخرى.

• مبدأ ويلسون أو الليبرالية العالمية؛ وهو التقليد الذى اتبعه الرئيس ودرو ويلسون من أجل أن يكون العالم أكثر سلمًا وديمقراطية بعد الحرب العالمية الأولى، وتمثل فى النقاط الأربع عشرة الشهيرة لويلسون.

• الاحتواء؛ وهو التقليد الذى تبلور بعد الحرب العالمية الثانية لمواجهة التهديد الشيوعى دون قيام حرب عالمية.

• تحسين العالم؛ أى التعبير الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى فى رسالة أمريكا لجعل العالم أحسن. وقد تجسد فى مشروع مارشال لإعادة إعمار أوروپا والنقطة الرابعة، ثم التدخل الأمريكى فى ڤيتنام الذى كان مثالا لمحاولة أمريكا وإخفاقها فى أن تكون لها رسالة عالمية (النموالاقتصادى والديمقراطية)، وأن تكون شرطىّ العالم.

ولكن هل كان لابد أن تتحول أمريكا أرض الميعاد إلى دولة صليبية؟

يجيبنا ويليام فولبرايت بأن كلا من تقاليد العهد القديم والعهد الجديد فى أمريكا هى تعبير عن جانبين بارزين فى الشخصية، جانب أخلاقية النقص الإنسانى (الاكتفاء بصلاح النفس)، وجانب أخلاقية الثقة فى الذات الإنسانية (إصلاح العالم). وبعد عام ١٨٩٨، أفسحت الأخلاقية الأولى المجال للأخلاقية الثانية

(الصليبية). ومع الإمبريالية التقدمية، أصبحت أمريكا بولس الرسول الذى ينشر الرسالة بين الشعوب الأخرى. وبالويلسونية حاولت أمريكا أن تكون الكنيسة العالمية وليس مجرد إسرائيل الجديدة.

بيد أن حدث أمريكا الإمبريالية مع دخول القرن العشرين، فرضه أن الولايات المتحدة أصبحت قوة عالمية. ففى عام ١٩٠٠ أصبح تعداد السكان يزيد على ٧١ مليون نسمة، وبما يفوق تعداد أى أمة أوروبية فيما عدا روسيا. ووصل إنتاج الفحم إلى ٢٤٤ مليون طن سنويا (بما يساوى إنتاج بريطانيا) وإنتاج الحديد ١٠ ملايين طن سنويا (ضعف إنتاج ألمانيا؛ الدولة الثانية عالميا فى إنتاجه). وبواسطة المخترعين الأمريكيين مثل أديسون وبيل والأخوة رايت، والممولين مثل روكفلر ودى پون، أصبحت أمريكا رائدة الثورة الصناعية الثانية التى اعتمدت على الكهرباء والكيمياويات والبترول.

وبتوافر النقل الرخيص بالسكك الحديدية والسفن التجارية، أصبحت أمريكا سلة خبز العالم. وفى ذلك الوقت أيضا، تحولت أمريكا إلى قوة تصديرية عالمية. ومع اكتمال غزو الفرونتيير بالوصول إلى الغرب الأقصى الأمريكى، وبدخول القوى الأوروبية مرحلتها الاستعمارية الأخيرة، فى الوقت الذى بنت فيه أمريكا قوة بحرية عالمية، دخلت الولايات المتحدة طور «الإمپريالية» وإن وصفت بأنها إمبريالية تقدمية. وجاءت الحرب العالمية الأولى؛ لتقدم لأمريكا الفرصة التاريخية لكى تصبح قائدة عصبة العالم وصاحبة دور عالمى ليبرالى، كما كان يخطط لذلك الرئيس ويلسون.

ولكن الولايات المتحدة لم تنضم إلى عصبة الأمم، وكان الفشل مصير «الحلم العالمى الليبرالى» للرئيس ويلسون، واتجهت أمريكا إلى «الانغلاق»، وكثرت المناداة بالعودة إلى «العزلة»، حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية وهاجمت اليابان الولايات المتحدة فى پيرل هاربر. وكان دخول الولايات المتحدة الحرب بمثابة بداية لنصف قرن (١٩٤١ - ١٩٩١) من الانخراط الأمريكى فى شئون العالم، وهو مدى زمنى يمثل ربع عمر الولايات المتحدة. وحكم سلوك السياسة الخارجية خلال هذا المدى الزمنى

تقليدان هما: الاحتواء لمواجهة التهديد الشيوعى، والتطورية الكوكبية من خلال دعم النمو الاقتصادى وتشجيع الديمقراطية للحيلولة دون انتشار الشيوعية.

ولئن كان العهد الجديد متصلاً بالعهد القديم، فقد ظل التناقض بين المثالية والواقعية فى السياسة الخارجية، وبين تقاليد الدبلوماسية الأمريكية، وظهر ذلك بشكل أوضح فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة.

فالرئيس بوش، تحدث عن «نظام عالمى جديد»، كما أن الرئيس كلينتون حاول مقاربة دور عالمى مثالى لأمريكا، وأرسل قوات أمريكية إلى الصومال والبوسنة وهايتى، ولكن محاولته قوبلت بنقد من اليمين بأن التدخل الأمريكى فى الخارج يجب أن يحدث فقط عندما تتهدد المصالح الأمريكية، بينما انتقده الليبراليون بأن سياسته مترددة.

والواضح أن كلا من بوش وكلينتون تأثرا بالتناقض الأمريكى الرئيسى بين الواقعية والمثالية، أو بين المصلحة القومية والدور العالمى. وبمعنى آخر بين العهد القديم والعهد الجديد، بين أرض الميعاد والدولة الصليبية.

لقد دار الجدل، الذى ميز مرحلة ما بعد الحرب الباردة، حول أى تقاليد السياسة الخارجية مازال صالحًا وفاعلاً.

من تقاليد العهد القديم، سيظل تقليد حماية الحرية فى الداخل كوظيفة للدبلوماسية الأمريكية، وتقليد الأحادية بمعنى تأكيد القوة الداخلية قبل الارتباطات الخارجية، ومبدأ مونرو برغم غياب أى قوة أوروبية يمكن أن تهدد الفناء الخلفى للولايات المتحدة. بافتراض عودة روسيا أو صين عدائية أو يابان أعيد تسليحها. أما تقليد المصير المبين، أى التوسعية الذى كان مضمونه «فتح أمريكا»، فقد أصبح هدفه «فتح العالم» تجاريًا.

ومن تقاليد العهد الجديد، فإن تقليد الإمبريالية التقدمية كان انتقاليا بين العهدين القديم والجديد. ولم يزل تقليد الاحتواء الأكثر فعالية وإن أصبح يطبق على نطاق إقليمى مثلما حدث مع إيران والعراق وليبيا والسودان (الدول المنبوذة) دون نجاح

أكيد. ويبقى تقليدان هما الويلسونية (الليبرالية العالمية) وتحسين العالم بتعديلهما لخدمة التجارة الأمريكية وتطبيق التشريع الأمريكى خارج الولايات المتحدة، بذريعة الديمقراطية وحقوق الإنسان، مثل قانون بيرتون ـ هيلمز لتشديد الحصار على كوبا، وقانون داماتو لفرض عقوبات على الشركات المتعاملة مع إيران وليبيا، وقانون سبيكتر ـ وولف للحرية من الاضطهاد الدينى.

غير أن الجدل حول تقاليد السياسة الخارجية الأمريكية، مرتبط بالجدل حول النظام العالمى بعد الحرب الباردة. هل هو نظام حرية السوق (نهاية التاريخ) كما بشر به فوكوياما، أم هو نظام يتجه لأن يكون متعدد الأقطاب كما قال كيسنجر، أم أن الذى سيحدد شكله «صدام الحضارات» كما يروج هنتنجتون، أو الجغرافيا الاقتصادية كما يرى إدوارد لوتوراك، أو انتشار أسلحة الدمار الشامل ومشكلات النمو الديموجرافى والبيئة؟

إن تعدد التصورات للنظام العالمى وطبيعة الصراع داخله، يقابله تعدد لتصورات السياسة الخارجية الأمريكية ولخيارات التقاليد الدپلوماسية، ليستمر التناقض بين المثالية والواقعية فى السلوك الأمريكى، ولنجد أنفسنا أمام «أمريكا طيبة» أحيانا، و«أمريكا شريرة» فى أحيان أخرى.

لقد كانت، وما زالت، معضلة السياسة الخارجية الأمريكية: أين تلتقى الواقعية بالمثالية، والعالمية بالقومية؟ ومتى تختار بين التوسعية والانعزالية؟

ولكن الاستثنائية الأمريكية، كانت تفرض دائما تناقض السياسة الخارجية الأمريكية.

وقد نجح والتر ماكدوجال فى كتاب «أرض الميعاد والدولة الصليبية» فى تقديم سيرة ذاتية قومية لأمريكا، من أجل استنباط التقاليد الدپلوماسية التى حكمت الدور الأمريكى فى العالم منذ إعلان الاستقلال الأمريكى عام ١٧٧٦. وبرغم أن الكتاب ينتمى إلى علم تاريخ العلاقات الدولية، فإن ماكدوجال حرص على كتابته كقطعة من الأدب. وفى الحق أننا أمام كتاب يجمع بين التحليل التاريخى الرصين والأدب الرفيع فى آن معًا.

وقد كان ذلك مشجعا على ترجمته . أما المشجع الآخر ، فهو الناشر «عادل المعلم» الذى بمجرد أن قرأ مقالى الذى راجعت فيه الكتاب فى جريدة «الأهرام» ، حتى سألنى ترجمته متوسما فيه الفائدة لصانع القرار وللقارئ فى عالمنا العربى .

رضــــا هـــــلال

القاهرة ـ مايو ١٩٩٩

مقدمة

البذرة التى نمت فى هذا الكتاب غرست عام ١٩٨٨ ، عندما قبلت كرسى العلاقات الدولية فى جامعة پنسلفانيا . فزملائى الجدد فى قسم التاريخ سألونى ذات مرة عمّا إذا كنت راغبا فى تدريس التاريخ الدپلوماسى للولايات المتحدة، بما أن بروس كوكليك ـ الذى كانت تلك مادته ـ سيغادر فى ذلك العام، فوافقت . ولذلك أمضيت فصلى الدراسى الأول فى پنسلفانيا، أكُدّ ثلاث ساعات أسبوعيا كأستاذ مساعد جديد فى كتابة وإلقاء محاضرات جديدة .

وفى بداية ذلك، كان لدى إلهام فى هيكلة قصة طويلة لمدة مائتى عام، كان علىّ أن أقصها . وظهر لى أنه خلال ذلك المدى، طوّر الأمريكيون ثمانية تقاليد متفردة فى توجهاتهم وسياساتهم تجاه العالم الخارجى .

واستوقفنى أيضا أن أيا من تلك التقاليد لم يمت موتًا مطلقا، حتى يومنا هذا ،كلها تضم قدرا محددا من الإخلاص بين قسم من الشعب الأمريكى، بينما العديد منها يتعايش بصعوبة داخل صدور الأفراد . وما هو أكثر، أنه ظهر لى أنها تشرح التناقضات والتشوش الظاهر فى دپلوماسية الولايات المتحدة عبر العقود، بشكل أفضل من الثنائيات القديمة : المثالية والواقعية، الانعزالية والعالمية .

اثنان من الناس ـ أحدهما والدى، والثانى آلان لوكسنبرج من معهد بحوث السياسة الخارجية ـ قرآ محاضراتى واقترحا علىّ جمعها فى كتاب . وقد رفضت طالما أنى كنت مشغولا بتأليف تاريخى لشمالىّ المحيط الهادى، ولكن فى النهاية قلت نعم لثلاثة أسباب : الأول، كرئيس تحرير أوربس : مجلة العلاقات الدولية، فقد تابعت بغيظ متعاظم جدلنا العقيم حول أى مبادئ أو مذاهب يجب أن تحدد السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة . ربما، كما

اعتقدت، أن منظورا تاريخيا كان مطلوبا لإثراء الجدل. ثانيا، إنى كنت منزعجا من الطريقة التهكمية التى يتناول بها علماؤنا وسياسيونا مصطلحات مثل العزلة والويلسونية، وغالبا ما كانوا يوظفونها ككلمات أسوأ قليلا من أن تكون قذرة.

وفكرت أن كتابا يشرح التقاليد الحقة للسياسة الخارجية للولايات المتحدة، متى ولماذا ظهرت؟ ماذا عنت وكيف تغيرت عبر الزمن؟ يمكن أن يساعد فى طرد بعض «الكليشهات» من حوارنا القومى. ثالثا، اعتقدت أن هذا الكتاب سيكون سهلا فى كتابته. وكما تخيلت، فالمسألة كانت أن أنسج مذكرات المحاضرات القديمة وأصل إلى استنتاج ذى صفة معاصرة.

وكم كان ذلك التخيل خطأ فادحا!

فبمجرد أن تفحصت مذكرات المحاضرات تلك، تحققت من أننى كتبتها فى عجالة، واعتمدت على ما قدرت أنها فى حساب الكتب الأساسية فى عصب التاريخ. وكانت النصوص التى استخدمتها ـ خصوصا نصوص توماس چى. باترسون ووالتر لافبر ـ كانت ممتازة. ولكن بقيت الحقيقة أنه إذا كنت أريد لهذا الكتاب أن يكون موثوقا به، كان على أن أراجع الأدب ذا الصلة بالموضوع فى كل القضايا والحقب التى لم تسنح لى الفرصة لبحثها بنفسى من قبل. وخلال تلك القراءة، وصلت إلى استنتاج مؤداه أن تفسيرى للتاريخ الدبلوماسى للولايات المتحدة كان فى حاجة إلى تعديل جذرى. ولذلك، أرجعت تلك المحاضرات إلى الرف ولم أرجع لها منذ ذلك.

والنتيجة هى كتاب مختلف تمامًا فى اللهجة والحجة عن ذلك الذى توقعت أن أكتبه. وفى بعض الأحيان، فإن المؤرخين الذين قرأت لهم أقنعونى بأن ما عرفته ـ خلال السنوات السابقة ـ أبعد ما يكون عن الحقيقة. وفى أوقات، أكدت أن ما عرفوه ـ خطأ ـ هو الأبعد عن الحقيقة. وفى أحيان أخرى، أكدت ما يُعد إجماعًا فى المهنة، ولكننا نحن المؤرخين فشلنا كثيرا فى التأكيد عليه فى عقول الجمهور. وفى كل الأوقات وجدت نفسى راضيا عن أن الكتاب تحول ليصبح صعبا فى النهاية، بما أنه علمنى كثيرا. تلك بهجة الذى يغوص فى الموضوع، ليس ليصوغه وفق نظرية متخيلة مسبقًا وإنما ليصاغ به. وفضلاً عن ذلك، نتذكر مرة أخرى لماذا يقع امرؤ فى حب التاريخ.

ولهذه الأسباب، أدين لآلان لوكسنبرج ودوجالد اس. ماكدوجال بحثّى على إنجاز هذا الكتاب. وأشكر العميدة روزمارى ستيفنز وكلية الفنون والعلوم فى جامعة پنسلفانيا على منحى تفرغا فى خريف عام ١٩٩٥. وأشكر معهد بحوث السياسة الخارجية لتشجيعه ودعمه، خصوصًا هارفى زفرمان الذى تعلمت منه الكثير ومعه ضحكت دائما، وزملاء البحث المتقدمين روس مونرو، ألفنى زد. روبنشتاين وآدم جارفنكل. وأشكر أيضًا روچر دونواى وشاينى سنايدر من «أوربس». وفرانك بلانتان ودونا شوللر من برنامج العلاقات الدولية فى پنسلفانيا، فبدون مساعدتهم كنت سأعطى وقتًا أقل كثيرًا لهذا الكتاب.

وريتشارد بيمان وبروس كوكليك ومارك تراختنبرج وچون لوكا، قرءوا أقسامًا كبيرة من المخطوطة وقدموا اقتراحات قيمة.

و أتعجل بأن أضيف ـ مع ذلك ـ أنه أيا كانت أخطاء الحقيقة أو التفسير، فتظل أخطائى وليست أخطاءهم. وتوم شيلدرز صديقى العزيز وجير ماكولى صديقى الجديد، ومحررى المخلص ستيف فراسر ساعدونى على كتابة المخطوطة. والطاقم الخبير لهوفتون ميفلين خصوصا المحررة المساعدة لينورا تودارو والمحرر الرئيسى للمخطوطة لارى كوپر، والمصنف روث كروس ـ كلهم مهنيون عظام ـ باشروا الكتاب حتى الطباعة. . وأخيراً أشكر زوجتى چونا وأطفالى لأنهم تركوا «دادى» وحيدا لكى يستطيع أن ينهى هذا الكتاب. وأصلى لأن يكون جيدا بشكل ما، أو على الأقل لا يخلف ضرراً، للوطن الذى سيرثونه.

والتر ماكدوجال

فيلادلفيا

مـدخـل
الكتاب الأمريكى المقدس
للشئون الخارجية

مازال فيلم المخرج سيرچيو ليون «الطيب والسيئ والقبيح» ـ بالرغم من أنه أصبح «كليشيه» ـ أفضل فيلم لفترة ڤيتنام، من أى أفلام أخرى عن حرب ڤيتنام. فقد دارت أحداثه خلال حملة قصيرة فى نيومكسيكو أيام الحرب الأهلية. إذ سُرقت رواتب الجيش الاتحادى ودُفنت فى مقبرة، وجاء ثلاثة رجال للبحث عنها، يسابق كل منهم الآخر إلى الغنيمة، رغم أنه يعتمد على الاثنين الآخرين فى حل لغز مكان الغنيمة.

الأول، كلينت إيستود، صياد معطاء يتعاون مع الخارجين على القانون الذين يقبض عليهم (ثم ينقذهم من حبل المشنقة حتى يمكنه القبض عليهم من جديد من أجل مكافأة أخرى). غير أن حياته تدور حول الدفاع عن نفسه وعمن اختار حمايتهم. وهو يريد ـ أيضًا ـ أن يكون ثريًا. أى أنه ليس لديه ما يؤهله لأن يكون طيبًا.

أما السيئ، الذى لعب دوره لى ڤان كليف، فهو سادى ويعمل رقيبا بالجيش الأمريكى، حاز رتبته من التعذيب والقتل والسلب، واغتال الجشع ضميره، وهو أسوأ من أن يكون ممثلاً مفترضًا للحضارة. وإيلى والاش، المجرم المتهور الثالث، أمريكى مخلط وقاطع طريق. وهو بذلك يمثل أقلية عرقية (كان إيستود يُدَلِّلُهُ بـ«الأشقر»). هو أيضًا نموذج للرجل فى حالته الطبيعية: بسيط، ماكر، يمكن التنبؤ بما تمليه عليه مصلحته على المدى القصير، يُدافع عن لصوصيته أمام أخيه الكاهن بقوله: إن ما يفعله كل منهما كان الطريق الوحيد المتاح له للهروب من الفقر، وما الفارق بين الطريقين إلا فارق فى الجرأة. والاش ليس شريرًا ولكنه فقط قبيح.

وينتهى الفيلم عند مفترق طرق على مقربة من المكسيك فوق مقبرة، وكل رجل ينظر إلى الآخرين متسائلا، أيهما يطلق عليه النار أولاً.

وفى حدود مجازية، فإن الثلاثة هم نحن (الأمريكيين)، فقط لنقول إن الأمريكيين أولا كائنات إنسانية معيبة (ناقصة)، متفردون فى فرديتهم، يسيطر عليهم هاجس تحقيق العدالة وحيازة المال، ومواطنون فى بلد هو الأقوى، ومن ثم، الأكثر فسادا على وجه الأرض.

هذه الملاحظة قد تكون غير عميقة، ولكنها بداية الحكمة عن السلوك الأمريكى فيما يُسمى السياسة العالمية. وفى أوقات من تاريخنا، كانت السياسة الخارجية الأمريكية حكيمة ومحترمة بما يتجاوز التوقع، ولكن أمريكا ليست المدينة فوق التل التى حلم بها مؤسسوها المتطهرون.

وفى أوقات، كان السلوك الأمريكى أحمق أو مسيئا، ولكنها ليست «الشيطان الأكبر»، كما يعرِّفها الإسلاميون الأصوليون.

معظم الوقت، كنا نحن الأمريكيين، ببساطة، بشرا يسعون وراء مصالحهم فى المدى القصير بمهارة تزيد أو تنقص، واللعنة على بقية العالم.

وكل حاجتنا لتذكر ذلك الحس العام، تجسدها المجادلات (المناقشات) الحالية حول المبادئ التى ينبغى أن ترشد الإستراتيجية الأمريكية فى عالم ما بعد الحرب الباردة. بالطبع، لا أحد يقترح أن سياستنا الخارجية يجب أن تكون سيئة بمعنى استغلال سيطرتنا العسكرية لنهب أو تخويف الأمم الأخرى.

حتى الآن، وطبقًا للمؤرخين التصحيحيين الراديكاليين، فإن ذلك، ما فعلته الولايات المتحدة تمامًا، مرات.

إنهم يقولون إننا (الأمريكيين) مارسنا «التطهير العرقى» و «الإبادة الجماعية» بحق الهنود، واستولينا على ربع أراضينا الشاسعة فى حرب وحشية ضد المكسيك[1]. اقتنصنا مستعمرات وراء البحار، ثم قتلنا ١٠٠ ألف فلپينى عندما لم يسمعوا لنا. إنهم يقولون إن انعزاليتنا الأنانية مكنت لهتلر من أن يرتكب جرائمه، بينما عنصريتنا المعادية لليابان ساعدت على التحريض على قصف «پيرل هاربور». استخدامنا

للقنابل الذرية، لإنهاء الحرب، كما سمعنا ـ بتقزز ـ فى عام ١٩٩٥، لا يمكن الدفاع عنه، واستعمارنا الاقتصادى آثار الحرب الباردة، وسببت عسكريتنا سباق التسلح النووى وحرب ڤيتنام.

إذا تمسكنا بهذه النظرة لأمريكا السيئة، فعندئذ لا شىء فى ماضينا (سوى عادة الانشقاق) يرشد سياستنا الخارجية فى القرن الحادى والعشرين. بل إن ما يغلب على الحالة النفسية للطبقة الأمريكية المسيطرة (وكذلك العرق والجنس) هو الندم، وإن السياسة الصحيحة لديها هى الانعزالية الجديدة (فكل شىء تلمسه أمريكا يتحول إلى خبث) أو التعويض والإصلاح إبداءً للندم.

يتناقض كل ذلك مع الصورة القديمة لأمريكا الطيبة التى تثنى على نفسها. فبالرغم من نوبات الجبن والتهور، حرصت الولايات المتحدة دائما ـ برغم الزلات والسقطات من حين لآخر ـ على أن تكافح لتثبت دورها فى العالم الخارجى بصورة أكثر تعقلاً من الملكيات الإمبريالية فى القرن التاسع عشر، أو ديكتاتوريات القرن العشرين.

من خطاب الوداع للرئيس واشنطن، ومبدإ مونرو إلى سياسة الباب المفتوح، ونقاط وودرو ويلسون الأربع عشرة، ومن ميثاق الأطلنطى لفرانكلين روزڤلت، إلى الأمم المتحدة، وخطة مارشال، والانهيار النهائى للاتحاد السوڤيتى، فإن الولايات المتحدة مثلت ثقلاً ووزنًا فى كفة الكرامة الإنسانية والتقدم والحرية. **وبعبارة إبراهام لنكولن(*)، فإن أمريكا هى آخر أفضل أمل للعالم.**

ولأولئك الذين يؤكدون الرسالة الليبرالية لأمريكا، فإن مهمتنا بعد الحرب الباردة هى إعادة تحديد العالم من حولنا وليس إعادة تحديد تقاليدنا الدبلوماسية. فيجب أن نستمر فى الوقوف إلى جانب المثاليات الويلسونية، ونعد للدفاع عنها بقوة مطلقة، **ونحمل على أكتافنا دور القيادة الذى يخص الولايات المتحدة وحدها.**

(*) إبراهام لنكولن (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥). الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة (١٨٦١ – ١٨٦٥). جمهورى. أعلن فى عام ١٨٦٣ تحرير العبيد. اغتيل فى عام ١٨٦٥. (المترجم)

● مصدر الهوامش إن لم يذكر غيره:

Webster's New World Encyclopedia, Helicon Pubishing and Simon & Schuster Inc. NY, 1993.

ويتطلب ذلك، بالطبع، أن نتبين الاتجاهات والتهديدات والفرص الرئيسية المحتملة فى النظام العالمى الجديد. ولإنجاز ذلك، فإننا نحتاج فقط لتكييف مبادئنا معها.

وأخيراً، هناك القلة الجسورة التى لا تتخلص من لقب الواقعى، وبالنسبة لهم، فإنه لا ينبغى ـ مطلقا ـ أن نناقش تاريخ السياسة الخارجية على أسس أخلاقية، لأن كل حكومة مسئولة، تسيِّر شئونها طبقا لميزان القوة ومصلحة الدولة، حتى إن البعض يرى أن الأخلاقية الأمريكية، كانت مظهراً، حيث يمكن تفسير حياد الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر والانخراط مع العالم فى القرن العشرين، على أساس حسابات الچيوپولتيكا والمصلحة الذاتية الواعية. ومع ذلك، فكثير من الأمريكيين يحبون أن يقنعوا أنفسهم بأنهم الأتقياء الصالحون، وأنهم على الحق، قبل الإجهاز على عدوهم المقبل.

واعتمادا على أى صورة نختار، فإن تصميم إستراتيچية جديدة اليوم سوف يتطلب منا أن نعيد التفكير فى المعنى الرئيسى لأمريكا، أو الطبيعة الرئيسية للعلاقات الدولية المعاصرة.

ولكن إذا طبقنا نظرة سيرچيو ليون أن أمريكا كانت دائما طيبة وسيئة وقبيحة ـ مثالية، منافقة، وواقعية غالبا فى الوقت نفسه ـ فإننا مضطرون لإعادة التفكير فى أمريكا وفى العالم المعاصر ثم فى العلاقة بينهما. ربما لذلك لم يظهر چورچ كينان(*) جديد ليعطينا وصفة ما بعد الحرب الباردة التى يمكن أن يتفق حولها الشعب الأمريكى. الواجب الرسولى الآن أكثر صعوبة، ولو كان أقل عجلة أو خطورة مما كان عليه فى نهاية الأربعينيات. ببساطة: أى تقاليد أمريكية يجب علينا أن نعيد تأكيدها، وأن نطبقها فى دپلوماسية اليوم؟ وأى تقاليد علينا أن نطرحها جانبا باعتبارها غير مناسبة أو حتى غير مستحبة؟ فالتنبؤ هو قياس الحاضر على الماضى وإسقاط ذلك على المستقبل.

❊ ❊ ❊

(*) مخطط السياسة الأمريكية عقب الحرب العالمية الثانية.

يجب أن نبدأ بحسبان أن نهاية الحرب الباردة لم تقفز بنا إلى حالة من التشوش عن دورنا فى السياسة العالمية. إنها، فحسب، كشفت من جديد التشوش الذى ينتاب الأمريكيين حول السياسة الخارجية، إلا عندما يلوح خطر واضح وحالىّ.

إن أعراض ارتباكنا الحالى واضحة: التردد ونقص الثقة بالنفس فى قضايا فادحة مثل البوسنة، توسع الناتو، التجارة الحرة، حقوق الإنسان والأمم المتحدة، وتحول حمائم الحرب الباردة إلى مدافعين عن التدخل العسكرى والصقور السابقين إلى حمائم، عجز الليبراليين والمحافظين عن أن يقرروا - حتى فيما بينهم - أى من تحالفاتنا وروابطنا التجارية يجب أن تتوسع أو تتراجع أو تُطرح جانبا.

ولكن، ليس ذلك بجديد، إذا تذكرنا الائتلافات التى شكلت، لتأييد أو معارضة، المكاسب الإمپريالية عام ١٨٩٨، معاهدة ڤرساى عام ١٩١٩، الانعزالية فى الثلاثينيات، مبدأ ترومان عام ١٩٤٧، حتى حرب ڤيتنام.

وما هو أكثر، فإن الارتباك والتضارب أصبحا القاعدة فى العلاقات الخارجية الأمريكية، ليس بسبب افتقادنا المبادئ التى ترشدنا، ولكن لأننا قنَّنا مبادئ دپلوماسية عديدة منذ عام ١٧٧٦، تتجاذبنا كلها فى وقت واحد، والسبب أن الأمريكيين - منذ البداية - كانوا شعبا متدينا بعمق. ولا أعنى أن كل الأمريكيين لديهم إيمان شخصى، ولا أن لديهم كلهم الإيمان نفسه.

إننا (الأمريكيين) مثل أهل أثينا، الذين قال عنهم بولس الرسول إنهم يجب أن يكونوا متدينين جدا، لأن لديهم معابد لآلهة كثيرة.

وهذه بالضبط هى النقطة. فالأمة أو الإمبراطورية ذات الإيمان الواحد، خصوصًا إذا كانت كنيستها مستقرة، يمكن أن تمارس سياسات القوة، لأن ما يخدم الدولة يخدم عقيدتها، ويمكن فى أى حال قهر المنشق. أما ديمقراطية متعددة العقائد الدينية والعلمانية، فهى بالمقارنة، دائما فى حرب مع نفسها حول مسائل الصواب والخطإ، الحكمة والحماقة. فى السياسة المحلية ساحة المعركة هى القانون، وفى السياسة الخارجية هى التقاليد المقدسة - النص المقدس - التى عليها أن تقود دپلوماسيتها.

نملك نحن الأمريكيين «كتابًا مقدسًا» للشئون الخارجية، استغرق تقنينه قرنين، وانقسم إلى عهدين كل منهما من أربعة كتب. عهدنا القديم ساد على

خطابنا، وعلى الجانب الأكبر من ممارساتنا الدپلوماسية منذ عام ١٧٧٦ وحتى تسعينيات القرن التاسع عشر، وبشّر بتعاليم الحرية فى الداخل، والأحادية فى الخارج، والنظام الأمريكى للدول(*)، والتوسع.

التقاليد الأربعة الأولى حول كيف نكون وكيف نصبح، وصممت بواسطة الآباء المؤسسين لنمنع العالم الخارجى من فرصة أن يشكل مستقبل أمريكا.

وعهدنا الجديد فى الشئون الخارجية، هو الآخر، سيطر على خطابنا، وعلى الجانب الأكبر من ممارسة دپلوماسية الولايات المتحدة، خلال القرن العشرين، وبشر بمذاهب: الإمپريالية التقدمية والويلسونية والاحتواء والتقدم العالمى، أو الاعتقاد بأن أمريكا عليها مسئولية أن تنمى الديمقراطية والنمو الاقتصادى فى العالم. هذه التقاليد الأربعة الأخيرة تدور كلها حول العمل وترتيب العلاقات، وقد صممت لتعطى أمريكا الفرصة لتشكل مستقبل العالم الخارجى.

تقاليد العهد القديم كانت متماسكة متعاضدة، وتعكس صورتنا الأصلية عن أمريكا باعتبارها «أرض الميعاد»، إسرائيل الجديدة، منفصلة بعيدا من أجل الحرية فى ظل الرب. ولكن العهد الجديد كيفما اشتققناه من القديم، جلب التباين والغضب إضافة إلى وعد عظيم. ولأن تقاليده كانت أقل انسجاما، فقد تصادمت كل منها بالأخرى، وبحكمة العهد القديم، وعكست صورة لأمريكا ليس فقط كأرض ميعاد،و لكن كدولة صليبية، رسالتها إنقاذ العالم.

والحقيقة، أنه حتى اليوم، مازالت تلك التقاليد الثمانية تحوز ولاء جزء من الشعب الأمريكى، وذلك يفسر لماذا يصعب علينا كشعب، أن نتفق على كيفية التصرف خارج حدودنا، باستثناء أوقات الخطر الداهم. لذلك، وفى حدود استعارات الكتاب المقدس، كنا نحاول طوال قرن ـ إلى الآن ـ أن نكون يهودا طيبين ومسيحيين طيبين ـ بكل طوائف المسيحية ـ كل ذلك فى وقت واحد. هل يتطلب منا تراثنا المبارك كأرض للحرية، أن نشن حملة صليبية فى الخارج من أجل الآخرين وفقا لما يطلبه عهدنا الجديد للسياسة الخارجية؟ أم أن الخضوع لإغراء أن نفرض إرادتنا فى الخارج ـ سواء

(*) يقصد به مبدأ مونرو. (المترجم)

كان ذلك علنيًا أو مضمرًا ـ ينتهك مبادئ العهد القديم التى جعلت من أمريكا عظيمة فى المكان الأول؟ . . باختصار، هل بإمكان الولايات المتحدة أن تكون دولة صليبية وتظل أرض الميعاد؟ يتعلق هذا السؤال بقرننا الثالث.

❋ ❋ ❋

كان تساؤل القرن الأول: هل الولايات المتحدة ـ الوليد الجديد ـ سوف تعيش فى عالم خطر؟

كان التصور عن الولايات المتحدة أنها ـ بالتأكيد ـ «مخلوقة» للعلاقات الخارجية.

وإذا كنت تشك فى هذا التأكيد، فلتأخذ فى الاعتبار ـ منذ البداية ـ أولئك الممثلين للمستعمرات الثلاث عشرة فى المؤتمر الذى عقد عام ١٧٧٦، وقرروا بعد مدة أن يعلنوا الاستقلال عن بريطانيا العظمى ـ مخاطرة بعمل من أعمال الخيانة ـ لأن ذلك وحده كان كفيلا بإقناع فرنسا لإمدادهم بالأسلحة، وفى الوقت نفسه، التحالف معهم من أجل مقاومة بريطانيا. وثانيا: لم توجد الولايات المتحدة ككيان قانونى إلا عندما اعترفت القوى الأوروبية باستقلالها فى الاتفاقات التى تضمنها «سلام باريس» ـ ولذلك فإن ٣ من سبتمبر عام ١٧٨٣ وليس ٤ من يوليو عام ١٧٧٦ هو ميلادنا القومى الحقيقى. وثالثا: فإن واضعى الدستور كانوا يتحركون لتصميم اتحاد أكثر كمالا ـ فى جزء كبير ـ بواسطة قلة ومرونة المواد الخاصة بحالات الدفاع والسياسة الخارجية.

«نحن الشعب» حددنا ذواتنا منذ البداية فى مقابل البريطانيين والفرنسيين والإسبان والهنود والقراصنة البربر، أو أى أجانب ملعونين آخرين، أولئك الذين تهدد مؤامراتهم الوقحة وعمليات السلب التى يقومون بها، ما أسماه ألكسندر هاملتون فى مقاله في الأوراق الفيدرالية: إمبراطورية من نواح عديدة أكثر إثارة وشدًا للانتباه من أى مكان آخر فى العالم. . إنها الولايات المتحدة الأمريكية.

وإثبات أن الأمريكيين أنشئوا وطنا قوميا، واضح أيضا فى نشاطهم على المسرح العالمى. نحن كأمة صنعنا الحرب والسلام، هكذا كتب «چون چاى» فى الأوراق الفيدرالية[٢] ـ المقالة الثانية: «كأمة نحن هزمنا أعداءنا المشتركين، كأمة قد شكلنا تحالفاتنا وعقدنا معاهداتنا ودخلنا فى اتفاقيات واتفاقات عدة مع دول أجنبية».

بالفعل، فإن التسع والعشرين مقالة الأولى من مقالات الأوراق الفيدرالية الخمس والثمانين، تتألف من طرح ممتد لإقرار الدستور على أرضية السياسة الخارجية. فقط في المقالة الثلاثين، حول واضعو الدستور اهتمامهم للقضية التالية من ناحية الضغط ـ نعم ـ وهى الضرائب، وبعد ذلك لمجالات الحكم المحلى(٣).

ليس فقط المولد، ولكن نمو الولايات المتحدة عبر القارة، كان بالتحديد، قصة كيف كانت السياسة الخارجية الحكيمة تمهد الطريق نحو الغرب لأجيال من السكان الأصليين والمزارعين المهاجرين والتجار دون إثارة عداء الأوروبيين. نحن نحتاج فقط إلى أن نتساءل: كيف كان يمكن أن يختلف التاريخ الاجتماعى والاقتصادى والثقافى إذا ظلت حدودنا الغربية عند نهر المسيسيبى أو جبال روكى؟(٤)

لذلك، فما ينبغى على الأمريكيين عمله ليعرفوا أنفسهم من خلال تاريخهم، أن يفحصوا بدرجة ما من الموضوعية، المبادئ والعادات والاتجاهات خلال حقبة ٢٢٠ عاما من الانخراط فى العالم، نمت خلالها عظامهم. وأقول بدرجة ما من الموضوعية، لأن الموضوعية الكاملة إزاء أمريكا، فى وسع الرب فقط، ومعه الكسى دى توكفيل! وأتكلم عن المبادئ والعادات والاتجاهات بصيغة الجمع، لأننى لا أعتقد أن نظرية واحدة، حتى نظرية لويس هارتز «التقليد الليبرالى»، أو أطروحة ويليام أبلمان ويليام عن «الباب المفتوح»، يمكن أن تشرح تعارضات التاريخ الأمريكى. وعلى كلٍّ، فإنه ربما كان آرنولد توينبى على حق عندما قال مازحًا: **«إن أمريكا كلب ضخم ودود فى غرفة صغيرة جدًا. وفى كل مرة يهز فيها ذيله فرحًا، يحطم شيئًا»**. ولكن أحدًا لم يتقدم بنظرية «الكلب الضخم الودود كثير الصدمات» فى تاريخ الدبلوماسية الأمريكية. وبدلا من ذلك، حاول المؤرخون احتواء خليط كلمات وأفعال أسلافنا داخل عدة أنماط وتصنيفات.

وضع توماس إيه. بيلى ست سياسات خارجية أساسية، تتضمن: العزلة، حرية البحار، مبدأ مونرو، حركة الجامعة الأمريكية (پان أمريكانيزم)، الباب المفتوح، الحل السلمى للنزاعات(٥).

براد فورد پيركنز، كان يعتقد أن المصلحة الذاتية المادية، والمبدأ الجمهورى، والفردية، والسيادة الشعبية، شكلت دپلوماسية أمتنا الشابة(٦).

وبالنسبة لروبرت فيريل، كانت هناك ثلاثة مبادئ هى: الاستقلال، والتجارة الحرة، والتوسع فى القارة الأمريكية(٧).

وعند كوشنج ستروت، كانت المبادئ هى: الانعزالية، التوسع الجمهورى، وضرب مثل الحرية للآخرين(٨).

وحدد پول ڤارج إطارين متنافسين، أحدهما اقتصادى، والثانى أيديولوچى، ولكنه لاحظ أنه فى الممارسة لم يكن هناك ما يمنع الآباء المؤسسين عن أخذ المنهج النفعى بقوة(٩).

وكذلك، فإن فيليكس جيلبرت، تتبع الترددات العالية بين الواقعية والمثالية فى دبلوماسية الولايات المتحدة، والدوافع التى جذبت المستعمرين إلى أمريكا من بادئ الأمر، الرغبة فى معيشة أفضل ماديًا والحلم الطوباوى بمجتمع أفضل(١٠).

وتتبع آرثر شليزنجر - الابن - دورات متتابعة فى التاريخ الأمريكى من الحرب بين الواقعية والمسيحانية، بين التجربة والقدر المحتوم(١١).

ورأى هنرى كيسنجر ثنائيات دائمة بين الانعزالية والعولمة المثالية وسياسات القوة، بينما سمَّانا مايكل كامن بأننا «شعب المتناقضات»، الذى (على الأقل فى أحسن أحوالنا) تغريه سياسة «اليوتوبيا الپراجماتية»(١٢). ورأى إدوارد ويزبراند أعراف السياسة الخارجية الأمريكية فى تقرير المصير ثنائية، نحن والآخر تجاه العالم، اعتقاد بأن الحرب عادلة فقط للدفاع عن النفس(١٣).

وأخيرا (ويمكن أن تتواصل القائمة)، اعتقد مايكل هانت أن هناك ثلاث أفكار مركزية شكلت شئوننا الخارجية: طلب العظمة القومية والحرية، اعتقاد فى هيراركية عرقية صارمة، الريبة فى الثورات بالرغم من تراثنا الثورى(١٤).

وكشعب انعزالى كما يُزعم، يبدو الأمريكيون وكأن عندهم شهية من القلب لمذهبة السياسة الخارجية.

وكما لخصنا أوچينى ڤى. روستو «نحن ننجذب إلى المبادئ المتعارضة بحماسة متساوية، ونتمسك بها بعناد متساو. هل يجب أن تؤسس سياستنا الخارجية على

القوة أو الأخلاق؟ الواقعية أو المثالية؟ البراجماتية أو المبدإ؟ وهل ينبغى أن يكون هدفها حماية المصالح أو تشجيع القيم؟ وهل يجب أن نكون قوميين أو عالميين؟ ليبراليين أو محافظين؟ ونجيب بخليط من الفرح والسذاجة: كل ما سبق ذكره»[١٥].

والآن، تخيل كيف يكون ذلك مربكا للمؤرخين، ناهيك عن طلابهم والناس الأذكياء. أولئك الذين قرءوا كتابا واحدا عن توماس چيڤرسون(*) على سبيل المثال، سوف يستخلصون أنهم حصّلوا إحساس رجل الدولة. ولكن أولئك الذين قرءوا كتابين أو ثلاثة، لن يكونوا أبدًا متأكدين. هل كان توماس چيڤرسون حقا ذا عقل ريفى زراعى، أو أنه فى الحقيقة كان ذا عقل تجارى مثل هاملتون؟ هل كان وودرو ويلسون مثاليا أم واقعيا فى طريقته مثل ثيودور روزڤلت(**)؟ هل التزموا بمبادئ عالمية أو كانوا فى الحقيقة قوميين بإخلاص؟ أو حتى عنصريين؟

إن مؤرخا قديرا قد يبنى تصورًا جذابا مفاده أنهم كانوا كل ما سبق ذكره!

وذلك ما قادنى لكى أعتقد بقدر ما أن چيڤرسون وويلسون كانا كائنين إنسانيين حقيقيين، وربما كانت انقساماتنا بين الثنائيات المتناقضة مضللة، وأن أيا من تلك التوائم التى ذكرت، أيا كان عمقها لا تستطيع أن تشرح العلاقات الخارجية الأمريكية.

وأكثر من ذلك، فإن حججنا عن تلك التجريدات (الواقعية مقابل المثالية، الانعزالية مقابل التدخلية) تبدو أحيانا كأنها لفظية أكثر منها حقيقية، بما أنها تستخدم فى لغة يصعب الإمساك بها. وعندما يستشهد المؤرخون بالاعتراف الثقيل للكاتب إيه. تى. ماهان ـ أنا إمپريالى لأنى لست انعزاليا ـ فإنهم يمكن أن يتركوا للقارئ أن يتخيل ماذا تعنى هذه المصطلحات، أو يفرضون تعريفهم، أو يحاولون شرح ما كان يقصده ماهان بتلك الكلمات. والطريقة الأخيرة هى المنهج التاريخى الأفضل، ولكنها لا تجعلنا أفضل إذا كنا نريد أن نعى الأفكار التى حركت الأمة لمدى

(*) توماس جيفرسون (١٧٤٣ ـ ١٨٢٦) الرئيس الثالث للولايات المتحدة (١٨٠١ ـ ١٨٠٩). كان حاكم فيرجينيا (١٧٧٩ ـ ١٧٨١) وسفيرا لدى فرنسا ١٧٨٥ ـ ١٧٨٩ ووزيرا للخارجية (١٧٨٩ ـ ١٧٩٣) ساهم فى تعديل الدستور. (المترجم)

(**) ثيودور روزڤلت (١٨٥٨ ـ ١٩١٩) الرئيس السادس والعشرون للولايات المتحدة (١٩٠١ ـ ١٩٠٩) جمهورى. (المترجم).

طويل من الزمن . هل قصد بـ «الانعزالية» فى تسعينيات القرن التاسع عشر الشىء نفسه الذى أصبحت تعنيه فى ثلاثينيات القرن العشرين ، ناهيك عما تعنيه اليوم؟ قادتنى تلك المسألة لأستخلص أن أى مدخل لتصنيف تقاليد السياسة الخارجية الأمريكية يجب أن يسمح بحقيقة أن التقاليد ليست فقط كلمات : فالتقاليد تعيش وما يعيش يتغير .

وهناك صعوبة لفظية أخرى أثارتها حاجة المؤرخين للاعتماد على مصادر حرفية ، مثل الوثائق والخطب والمذكرات ، التى تكون مشبعة بما تعودنا أن يحاط بالتبجيل ، ولكن الآن ـ غالبا ما ينظر إليها على أنها بلاغية .

فهل يمكن أن نأخذ الخطب الفصيحة لفرانكلين . د . روزفلت وقت الحرب على شكلها الظاهر ، أم أنه كان يدارى دوافعه الحقيقية خلف شاشة دخانية ويلسونية؟ ربما تكون الفجوة بين التفكير الحقيقى لصانعى السياسة والبلاغة التى يوظفونها لشحذ العامة ، سمة ضرورية للسياسة الخارجية فى الديمقراطية .

حقا كيف يمكن أن يكون كل من تصعيد وتهدئة حرب ڤيتنام، حيازة القنبلة النيوترونية والتنكر لها، الارتباط البناء بجنوب إفريقيا أو الصين والعقوبات ضدهما، كيف لكل مما سبق وعكسه أن يُعرّف ـ بثقة ـ على أنه أخلاقى، وأحيانا خلال مدى إدارة رئاسية واحدة؟

لا يمكن ذلك إلا عند أمة قوية للغاية، ولكنها ـ بإصرار ـ خائفة أو خجلى من استخدام هذه القوة.. أمة تفخر بالاعتماد على الذات، وفى الوقت نفسه تعزز حكومة كبيرة وتكنولوچيا كبيرة وأعمالا خاصة كبيرة.. أمة من الداخل هى الأمة الغربية الأكثر تدينا، وفى الوقت نفسه من الخارج تظهر علامات التفسخ.. أمة أكثر كرمًا من أى شعب فى التاريخ، وفى الوقت نفسه يأسرها جمع الثروة المادية.. أمة تقوم على التنوع، وفى الوقت نفسه تفرض قيمها على الآخرين.. أمة تقبل القيادة العالمية وتظهر كما لو أنها تأمل أن يبتعد عنها بقية العالم.

أمة تفخر بنفسها، بمثاليتها وبپراجمتيتها بالقدر نفسه، وتحب أن تعتقد بتماثل المثالية والبراجماتية!

وذلك ما دفعنى لأن أتشكك فى أن التوتر الذى نحسه فى سياستنا الماضية والراهنة ليس ذلك الذى بين المثالية والواقعية بالمرة، ولكن بين المفاهيم المتنافسة حول ما هو مثالى وواقعى فى الوقت نفسه.

أخيرا، سألت نفسى: ماذا يصنع الأجانب إزاء هذا التشوش الأمريكى (تشوش اليانكى)(*)؟! ومن وجهة نظر الأوروبيين والآسيويين والمسلمين والأفارقة والأمريكيين اللاتينيين، فإن الولايات المتحدة تبدو فى الوقت نفسه أنها أقوى من أن تتجاهل، أوسع فكرًا من أن تُخدع أو يُسخر بها، أكثر غرورا من أن تُعجب بها، أكثر تقلبًا من أن يثق بها أحد، عصية على الفهم!

وفى الوقت نفسه، لا شىء يضايق الأمريكى العادى أكثر من النقد بالهمز واللمز من وراء البحار، كأن يكون من شارل ديجول، هيلموت شميت، شينتارو أزيهارا، أو لى كوان يو (بعد كل ذلك الذى فعلته من أجلك؟ كما قال إيستود لولاش فى الطيب والسيئ والقبيح). لم يعبر أحد عن هذا الاشمئزاز الأمريكى من هذا العالم (المعوج ـ الفاسد) أكثر من راندى نيومان فى أغنيته الهجائية الساخرة «علم السياسة»:

لقد منحناهم المال، ولكن هل كانوا ممنونين..؟

لا، إنهم حاقدون، إنهم كارهون..

إنهم لا يحترموننا،دعونا نفاجئهم..

لسوف نُسقط كبيرهم ونسحقهم..

بووم.. تذهب لندن.. بووم.. تذهب باريس..

مكان أكبر لك ومكان أكبر لى

كلهم يكرهوننا على أى حال..

لذا، دعنا نسقط أكبرهم الآن..

(*) يقصد به الأمريكى من الساحل الشرقى خصوصًا والشخص الأمريكى عمومًا. (المترجم)

لاحظ أن نيومان لم يقل بووم تذهب موسكو . . بووم تذهب بكين . . إنه ازدراء لأصدقائنا الذين حصلوا على عنزتنا .

دائما هذه اللعنة التى تزدرى بها أعينكم(*) كل من يهدد أو يقاوم، أو حتى لا يلهج بالامتنان لنا ، هى سمة أخرى لها مكانة ، عند تقدير الاتجاهات التى شكلت علاقاتنا الخارجية .

هذه التأملات حول دور السياسة الخارجية فى تشكيل الشخصية الأمريكية : القصور الواضح من جراء جذب ثنائياتنا المتناقضة المعتادة ، النزعة الأمريكية للمساواة بين الأخلاقية والسياسة العملية ، مفهوم التقاليد باعتبارها حية ومتغيرة ، التحريفات اللفظية والأساطير التى تظهر من ترديد مصطلحات فضفاضة جدا ، مثل الانعزالية ، محاولة أن نرى أنفسنا من خلال عيون الآخرين ، والازدراء الجميل الذى يرى به الأمريكيون الأجانب ـ كل ذلك يتضافر لإقناعى بتأليف قائمة جديدة للتقاليد الدبلوماسية الأمريكية تتأسس وفق المعيار التالى :

إن أى مبدإ أو إستراتيجية ، ليتأهل كتقليد أصيل ، يجب أن يحوز دعم الحزبين ، وأن يعمر بأبعد من المدى الذى ولد فيه ، ويدخل المعجم الدائم لخطابنا القومى ، ويكون له صداه عند عامة الأمريكيين ، حتى فى الفترات التى لم يلهم فيها السياسة .

وهنا التقاليد الفائزة :

عهدنا القديم :

١ ـ الحرية ، المسماة الاستثنائية .

٢ ـ الأحادية ، أو المسماة الانعزالية .

٣ ـ النظام الأمريكى ، أو المسمى مبدأ مونرو .

٤ ـ التوسعية ، أو المسماة المصير المبين .

(*) الخطاب للقراء الأمريكين.

عهدنا الجديد :

٥ ـ الإمبريالية التقدمية .

٦ ـ مبدأ ويلسون ، أو المسمى الليبرالية العالمية .

٧ ـ الاحتـــــواء .

٨ ـ إصلاح العالم .

لقد حاولت أن ألاحظ تلك التقاليد بالتشكك نفسه الذى أحطت به القوائم الأخرى للتقاليد التى ذكرت من قبل . ولذلك ألحقت بها (المسماة) مرات عديدة ، مقترحًا أن التصورات المعهودة لتلك التقاليد سيجرى التحقق منها فى هذا الكتاب .

وكمثال ، هل تعلمت فى المدرسة أن «الاستثنائية» الخاصة بنا ـ الفكرة بأن أمريكا عنيت بأن تكون مختلفة وأفضل من البلاد الأخرى ـ أثمرت من خلال المثالية الويلسونية؟

ذلك ما أعتقد أنه ليس صحيحًا .

وهل تعلمت أن مبدأ مونرو قد صمم لحماية استقلال أمريكا اللاتينية ، أم أنه بالعكس ، لتبرير إمبريالية اليانكى؟ أعتقد أن هذه التأويلات غير صحيحة .

وهل تماثل التوسع الأمريكى صوب الغرب مع فكرة المصير المبين؟ أعتقد أن ذلك خطأ .

وهل تعتقد أن إمبريالية الولايات المتحدة فى القرن العشرين كانت نكوصًا عن التقليد المثالى التقدمى؟ أعتقد أنها دشنت ذلك التقليد .

هل تعلمت أن الالتزامات العالمية التى صاحبت الاحتواء خلال الحرب الباردة كانت علامة على ثورة فى دبلوماسية الولايات المتحدة؟ لم أعد أقتنع أنها أحدثت ذلك .

أخيرا ، فإن استخدامى لمصطلحات الكتاب المقدس لا تعنى أنى أقترح أن «اللاهوت» ألهم بشكل مباشر السياسة الخارجية للولايات المتحدة ، بالرغم من أن تأثير الأفكار الدينية (خصوصًا البدع) سيكون واضحًا فى الفصول التالية ، بل على

الأحرى أن استعارة الكتاب المقدس قصد بها اقتراح أن القادة الذين أسسوا وقادوا الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر، تخيلوا الأمة بشكل ما «إسرائيل الجديدة» التى قدر لها أن تشغل أرض الميعاد «الغنية» وأن تنعم بنعم الحرية، طالما أن شعبها يحفظ وصايا عهدهم القديم.

والوصية الرئيسية بين تلك الوصايا كانت: **«إنك لا تقايض الأغيار حتى ولو لغرض تحويلهم لليهودية»**.

وعلى وجه التأكيد، قام تيار قوى معاكس، فى كل من الفكر الدينى والفكر العلمانى، يتحدى ذلك التحفظ من منطلق ألفية المسيح. ولكن صناع السياسة الخارجية للولايات المتحدة لم يخضعوا للنداء الصليبى.. حتى عام ١٨٩٨، عندما بدءوا رسم «عهد جديد»، تمَّ حث الأمريكيين على الخروج والعمل الطيب بين الأمم الأخرى. ولذلك، أسسنا فى القرن العشرين أربعة تقاليد أخرى عنيت بمساعدة عالم تعصف به الثورة والحرب. ولكن كلما زاد اعتقاد الأمريكيين بأن واجبهم المحدد إصلاح العالم والتباهى بقوتهم لعمل ذلك، زاد ضلالهم عن «الدين الحقيقى والفضيلة» كما تجسدا فى العهد القديم للسياسة الخارجية. **وما يمكن تأكيده، فإن ما صنعته الولايات المتحدة «الطيبة» كان عظيما وضخما، ولكن ذلك أيضًا كان ما فعلته أمريكا «السيئة»، و «القبيحة»**.

❊❊❊

إذا أخذت على عاتقك أن تقبل قائمة التقاليد الخاصة بى، فأى فائدة منها لنا اليوم؟ ألم نكن فى حاجة بائسة - حتى عندما صنع ميخائيل جورباتشوف جميلا بوعده أن يحرمنا من عدونا - إلى إستراتيچية كبرى، جديدة كليا، مشابهة لإستراتيچية «الاحتواء» لكينان والتى كانت دليل سياساتنا خلال الحرب الباردة؟ ربما، ولكن هناك على الأقل كاتبين فى سجل من يجيبون بلا. أنا أحدهما[١٦]، والثانى هو كينان نفسه، الذى يلح على أن الأمريكيين أحسنوا الصنع لمدة ١٥٠ عامًا من غير مذهب عملياتى شديد التحديد، وأنهم اليوم يحتاجون فقط إلى الالتزام ببعض مبادئهم القديمة. والمبدأ الذى كان فى ذهنه هو ما اعتنقه چون

كوينسى آدامز(*) فى خطابه فى الرابع من يوليو عام ١٨٢١ «أمريكا لن تذهب إلى الخارج بحثًا عن كائنات وحشية لتدميرها» . . هكذا حذر آدامز .

وفعل ذلك يورط الولايات المتحدة «فيما هو أبعد من استخدام قدرتها على فض المنازعات، كالحروب والمصالح والخدع، فى جشع الأفراد وطموحهم وحسدهم . . ستصبح ديكتاتور العالم ولن تعود قادرة على التحكم فى روحها»(١٧) .

يعتقد كينان أن مبدأ آدامز مازال صالحا لليوم الذى تتساقط فيه الإمبراطوريات مرة أخرى، وتمزق القومية الخريطة، كما كانت صالحة فى عشرينيات القرن الثامن عشر . ولكننا كأمة لا يمكن أن نقدر أى حكمة تبقى فى تقاليدنا حتى يخبرنا أحد عن كنهها، ومتى وكيف صعدت، وكيف تغيرت معانيها عبر الزمن، وما هو طيب وسيئ وقبيح فى النتائج التى حققتها . هذه مهمة ـ فى المقام الأول ـ للمؤرخين . وهذه هى المهمة التى أتقدم لها فى هذا الكتاب، ليس بسبب أننى أطمح فى خلافة كينان، ولكن بسبب أننى آمل بطريقة متواضعة أن أساعد من له ذلك الطموح فى خلافته .

(*) چون كوينسى آدامز (١٧٦٧ ـ ١٨٤٨) الرئيس السادس للولايات المتحدة (١٨٢٥ ـ ١٨٢٩) . الابن الأكبر للرئيس چون آدامز . كان المفاوض الأمريكى لمعاهدة جينت التى أنهت حرب عام ١٨١٢ بين أمريكا وبريطانيا . وكان وزير خارجية الرئيس مونرو وأول من صاغ مبدأ مونرو . (المترجم)

الجـــزء الأول

عهـــدنا القـــديم

□ ..يجعلك الرب إلهك مستعليًا على جميع قبائل الأرض، وتأتى عليك جميع هذه البركات وتدركك إذا سمعت لصوت الرب إلهك. □

«التثنية: ٢٨ : ١ ـ ٢»

الفصل الأول
الحرية (أو المسماة) الاستثنائية

بلادى . . إنك

الأرض الطيبة للحرية

لك نغنى :

الأرض التى مات فيها آباؤنا

الأرض مفخرة الحجاج

من كل سفح جبل

دع الحرية تقرع

كل واحد يعرف هذه الكلمات . . أمريكا هى - أو يفترض أن تكون كذلك - أرض للحرية . ولكن كم من الأمريكيين يتذكرون المشاعر الواردة فى آخر مقطع من ترنيمتنا الوطنية؟

لك يا إلهنا

يا صانع الحرية

لك نغنى :

أطل عمر ضياء أرضنا

بنور الحرية المقدس

احمنا بقدرتك

أيها الرب ملكنا . .

كتبت هذه الأبيات عام ١٨٣٢[١]، ولكن معظم الأمريكيين قبل وخلال وبعد حرب الاستقلال، اشتركوا فى الافتراض بأن الحرية هبة من الرب . ربما كانوا قد

اختلفوا بحدة حول «اللاهوت» وهل الحرية اشتقت فى البداية من الصليب، أو من القانون الطبيعى. وعلى سبيل المثال، فقد فضل توماس چيفرسون أن يتحدث عن إله الطبيعة، الخالق، أو العناية الإلهية، بدلا من إله الكتاب المقدس. ولكن التطهريين والإنجيليين، والأصحاب (الكويكرز) والموحدين، والربانيين، كانوا مُعَدِّين لتسمية الإله ليس على شاكلة إنسانية، كالقول بأنه صانع الحرية. كان نور الحرية ليس فقط ساطعًا ولكنه كان مقدسا، ودعا الأمريكيون الرب لأن يحميهم، لأنه ـ وليس چورچ الثالث ـ كان ملكهم.

ومن المسلم به أن المتمردين أيام المستعمرات الذين أسسوا الولايات المتحدة كانوا يعتقدون أن بلدهم قد قدر له أن يكون مختلفًا وأفضل من البلاد الأخرى على ظهر الأرض. ذلك ما يعنيه المؤرخون عندما يشيرون (بتهكم غالبا) إلى الخلاص على الطريقة الأمريكية، والشعور بمهمة لها هدف، والمثالية، والمصطلح الأخرق ولكنه محايد أخلاقيا، وهو «الاستثنائية» الذى عممه ماكس ليرنر(٢).

وأكثر من ذلك، فإن العديد من المؤرخين أخذوا كأمر مسلم به حقيقة أن ذلك الاعتقاد، سواء كان نوعا من الغرور أو مجرد اتجاه، كان الأساس للعلاقات الخارجية للولايات المتحدة. وعند البعض، كل ما نعتقده جيدا فى العلاقات الخارجية الأمريكية، مرده تلك المثالية الأساسية، وكل ما نَعُدّه سيئا، مرده الغطرسة والنفاق الكامنين فى سلوك من يرى نفسه أكثر قدسية من الآخرين(٣). وربما يكون هذا الزعم الغريب بأننا «جيل جديد من البشر» هو أقدم التقاليد الأمريكية السياسية. ولكن هذا يعنى أننا يجب أن نتخذ احتياطات استثنائية لمعرفة ما الذى حققه هذا الزعم وما لم يحققه.

إن العامل الواضح الذى ميز المستعمرات الثلاث عشرة هو العامل الجغرافى.. فقد كانت أراضيها لا حدود لها من الناحية الوظيفية (مواثيق المستعمرات خصصت لهما على الورق ثلث القارة)، وكانت عظيمة الخصوبة، ويفصلها عن أوروبا محيط. ولم تكن المستعمرات تمثل بلدا بمقاييس العالم القديم، بل تمثل عالما جديدا.

وكان هناك خلاف ثان واضح، هو العامل السكانى. فالمستعمرون كانوا مهاجرين أو أبناء مهاجرين جاءوا من أمم عديدة (بالرغم من أن غالبيتهم كانوا من البريطانيين)

وطوائف دينية عديدة. وتضاعفت أعدادهم بفضل القادمين الجدد والخصوبة فى النسل التى أذهلت الأوروبيين. . لقد تحدوا مخاطر عبور شمالى الأطلنطى وقفار الشمال الأمريكى وراء الآمال فى الفرص. . ومجتمع أكثر حرية وعدلا[٤] .

كان بينهم كما هى العادة عدد من الأوغاد الذين لا يتكيفون مع مجتمعهم، ولكن حتى الأوغاد كانوا توّاقين للحرية، ربما أكثر من الباقين.

باختصار، كان المهاجرون الإنجليز والإسكتلنديون والقادمون من ويلز والأيرلنديون كوكبة من المختارين ذاتيا من الرجال والنساء الشجعان والمغامرين.

وكان الاختلاف الثالث سياسيا. فبفضل مواثيقهم وعزلتهم، تمتع المستعمرون بالحكم الذاتى كأمر مسلم به، بكيفية تزيد على أى مقاطعة فى أوروبا. فمن اجتماعات مجالس المدن فى نيو إنجلاند إلى مجلس نواب فيرچينيا، أخذ الأمريكيون يعتادون إدارة شئونهم الخاصة.

قد يسخر المتهكمون من هذه الآراء القديمة. فأى أمة أو شعب ليس متفردًا؟ فلكل أمة جغرافيتها، وطقسها ومؤسساتها وأعرافها وتراثها الثقافى. كما أن معظم الأمم تتباهى بتفوقها، وتزعم أنها صاحبة رسالة خاصة بها عند نقطة ما من الزمن. يضاف إلى ذلك أن أى ميزات ينسبها الأمريكيون لأنفسهم لم تزهر من عدم، بل كانت تعبيرات للمجتمعات الأوروبية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، التى أتى منها أولئك المستعمرون. كل هذا صحيح، ولكن فى نظر الآباء المؤسسين ورجال الدين ورجال الدعاية وقادة الرأى الآخرين، كانت الأمة الجديدة عصارة الفضائل الكامنة فى الحضارة التى خلّفوها وراءهم، ولكنها تحققت فقط فى أمريكا.

والدليل على أن المستعمرين كانوا يعتقدون أن أمريكا أرض مقدسة (مختلفة عن بقية العالم)، كان متوافرا لحد الابتذال. ومبكرا فى عام ١٦٣٠، خاطب چون ونثروب حاكم ماساشوستس شعبه قائلا: «لنحسب أننا سوف نكون مدينة على قمة التل، وستتعلق أنظار كل الناس بنا»[٥] .

وبينما كانت الحماسة الكالڤينية تخبو عند سكان نيو إنجلاند (وتخمد أحيانًا) طوال الأعوام الـ١٥٠ التالية، لم ينكر واعظ أو كاتب قول أوليڤر كرومويل بأن الدين والحرية المدنية كانا أعظم ما أودعه الله فى العالم[٦] .

وبالتأكيد أصبحت بريطانيا أكثر ترحيبا بغير الملتزمين دينيا بعد ثورة عام ١٦٨٨ العظمى التى طردت آل ستيوارت الكاثوليك. ولكن الغالبية العظمى من سكان نيو إنجلاند تعلموا من خلال تجربة صعبة أن يكونوا شكاكين فى الملوك والأساقفة، وأن يرتبط التنظيم الكنسى بحكومة نيابية. وزيادة على ذلك، فإن الكهنة المستعمرين طلبوا مباركة الرب للمطلب الأمريكى بالحرية المدنية والدينية. فكلتاهما لا تبقى دون الأخرى. وأعلن الكونجرس أياما للصوم القومى والصلاة فى أثناء حرب الثورة، ثم عندما تم الاستقلال فى عام ١٧٨٣، ثم عندما جرى الانتهاء من وضع الدستور. وقد نسب الوعاظ فى شمالى وجنوبى ساحل البحر الاستقلال الأمريكى إلى يد العناية الإلهية الواثقة: «هنا أعد الرب ملجأ للمضطهدين فى كل مكان من العالم»(٧).

وفى الذكرى الثلاثمائة لاكتشاف كولمبس لأمريكا، شكر ألهنان ونشستر عناية الرب لتخصيصها مكانا للمضطهدين من كل الأمم «وجعله المكان الأول فى العالم الذى تأسست فيه الحرية المدنية والحرية الدينية متساويتين». «الكنيسة والدولة منفصلتين.. كلاهما تعيش وتزدهر». «ولن يكون الرب غاضبا على أمريكا لمنحها اليهود، مع الأمم الأخرى، الرعاية المتساوية للحماية والحرية والملكية». حتى إن ونشستر راقب تنفيذ نبوءة القديس يوحنا فى كنيسة فيلادلفيا القديمة: «انظر، لقد أعددت، أمامك بابا مفتوحا ولن يغلقه أى رجل» (رؤيا ـ ٢ : ٨)(*). ذلك هو باب الحرية المدنية والدينية الذى بدأ ينفتح فى فيلادلفيا فى شمالى أمريكا.. ولسوف تنتشر الحرية عبر العالم»(٨).

وقد يرد النقاد بحق أن مستعمرات عديدة لم تلتزم بحرية الدين كما نفهمها اليوم، بأكثر من بريطانيا التى خلفوها وراءهم. لقد أسست معظم المستعمرات كنائس، وبعضها تأسس خلال القرن التاسع عشر. **وكان أول عمل للكونجرس الذى يمثل قارة أمريكا الاحتجاج على قانون التسامح إزاء الكاثوليكية فى كندا، الذى وافق عليه البرلمان.** ومن ثم، فإن الحرية الدينية بالنسبة لروح الأمريكيين التى ترسخت فى الإصلاح أكثر منها فى التنوير، وكانت تعنى الحرية بعيدا عن نفوذ روما

(*) لم أستطع أن أجدها فى الكتاب المقدس سواء المطبوع فى مصر: ISBN086660407,409,412 طبعات ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩ ـ ١٩٩١، ولا فى طبعة بيروت: Arabic Bible43/26.5M-1999 (المترجم)

وكانتربرى، ليس أكثر. ولكن بقيت حقيقة أن المستعمرات الأمريكية ككل، وبمعايير القرن الثامن عشر، كانت متنوعة ومضيافة للمنشقين مثل أى مكان فى تاريخ العالم.

فى عام ١٧٨٣، قدم عيزرا ستايلز تأويلا نهائيا للاستثنائية الأمريكية طبقا لمصطلحات العناية الإلهية. وفى موعظته للاحتفال بالاستقلال، وعد بأن «الرب لم تزل لديه تبريكات عظيمة لهذه الكرمة التى غرستها يده اليمنى». لأن «الحرية، المدنية والدينية لها طلاوتها ومفاتنها الجذابة. ملأ الاستمتاع بها، وبالملكية الخاصة، المستعمرين الإنجليز بروح مدهشة. . ولم يسبق لامرئ من قبل أن يكون قد حاول التجربة بهذه الفاعلية فيحصد ثمار عمله ويشعر بمشاركته فى نظام السلطة العام». لقد تخيل ستايلز أمة من ٥٠ مليونا خلال قرن. وإذا حدث ذلك، فإن الرب سيصنع «إسرائيل الأمريكية» عالية فوق كل الأمم التى خلقها[٩]. وباختصار، كان الأمريكيون شعبا مختاراً خلص من العبودية إلى «أرض الميعاد»، ولا يمكنك أن تجد استثناءً أكثر من ذلك.

لقد شبّه المستعمرون العلمانيون والدينيون الولايات المتحدة بجمهورية الرومان فى الأزمنة القديمة. ووظف چون آدامز ذلك التشابه عدة مرات[١٠]، كما امتلأت كتابات چيفرسون وبنچامين فرانكلين وألكسندر هاملتون وچون چاى بإشارات وابتهالات من القيم الجمهورية التى احتفى بها شيشرون(*) وكاتو(**) وفيرچيل(***). ولقب الأمريكيون چورچ واشنطن بـ«سنسناتيوس»، كما كان مجلس الشيوخ تقليدا للمؤسسة الرومانية. وكانت رموز الدولة والمعمار، وحتى أسماء الأماكن، تستدعى عظمة أثينا وروما[١١]. ومثل الجمهوريات العظمى منذ القدم، بدت الولايات المتحدة وقد قُدِّر لها الازدهار والنمو فى إطار ما أسماه چيفرسون «إمبراطورية الحرية»[١٢].

(*) ماركوس توليوس شيشرون (١٠٦ـ٤٣ ق. م) خطيب وسياسى رومانى. (المترجم)
(**) ماركوس بروسيوس (٢٣٤ـ١٤٩ ق. م). سياسى رومانى، اشتهر بعدائه الشديد لقرطاجة. (المترجم)
(***) مارو فيرجيل (٧٠ـ١٩ ق. م) شاعر رومانى. (المترجم)

وبالتأكيد، وجدت الاستثنائية الأمريكية صوتها الأعلى فى كراسة توم پين «الفطرة السليمة» التى حركت الدعم الشعبى للاستقلال. **هل تجبر المصالح التجارية المستعمرات لتبقى مرتبطة ببريطانيا؟ لا.. كتب توم پين أن ازدهار المستعمرين هو ثمرة عملهم. بريطانيا، كانت فقط طفيلية تعتمد على الغير. هل يتطلب الأمن الاتحاد مع بريطانيا؟ لا.. كتب توم پين أن طموحات بريطانيا الاستعمارية هى بالتحديد التى جرت المستعمرات إلى حروب غير مرغوبة وبوّرت تجارتها.**

هل كان الأمريكيون يدينون بدين عاطفى للوطن الأم؟ لا. كتب توم پين: «لأن هذا العالم الجديد كان الملجأ للمضطهدين المحبين للحرية المدنية والدينية من كل مكان فى أوروپا، ومن هنا، فإنهم هربوا ليس من الأحضان المعطاءة للأم، ولكن من قسوة وحش. وإذا كان الصوت الشرعى للناس يجب أن يعلن الاستقلال فلدينا كل فرصة وكل تشجيع أمامنا، لنضع أنبل وأنقى دستور على وجه الأرض. ولدينا من قوتنا ما يمكننا من أن نعيد بدء العالم»(١٣) .

ماذا يتوقع الأمريكيون أن يكسبوه من الاستقلال؟ لماذا هو مخاطرة ذات قيمة؟ هل حلم موقعو الإعلان وجنود الجيش القارى والمزارعون وسكان المدن والزوجات فى المستعمرات الثلاث عشرة بالثورة الاجتماعية وإعادة توزيع الملكية وإلغاء الطبقة الإقطاعية والرأسمالية، والمساواة الكاملة، والعرق المسيطر، فتح العالم، والجنة على الأرض؟ لا، مع استثناءات قليلة. لم يتخيلوا المشروعات التى غذت حماسة الثورات التالية فى فرنسا وروسيا وألمانيا أو الصين، ولم يضطهدوا أحدا إلا أولئك الذين أيدوا بغباء الملكية البريطانية.

وللتأكيد، كتب الفرنسى ميشيل كريڤيكور فى «خطاب من مزارع أمريكى»، (نشر فى عام ١٧٨٢ لأول مرة) عن «المجتمع الأكثر كمالا الموجود الآن فى العالم» وسأل «ما هو إذن الأمريكى، هذا الرجل الجديد؟»، ولكنه لم يكن يفكر، بالمفاهيم نفسها، كما كان لينين وستالين فى «الإنسان السوڤيتى الجديد»، أو ماو عن ثورته الثقافية. وأبعد من ذلك، كتب كريڤيكور: إن الفرد الأمريكى هو **«من يترك وراءه كل الأحكام المسبقة والسلوكيات القديمة، ويحتضن أخرى جديدة من طريقة الحياة الجديدة التى عشقها، والحكومة الجديدة التى يطيعها، والمرتبة الجديدة التى يشغلها»**(١٤) . للأمريكيين خصوصياتهم لأن الحياة فى أمريكا غيرتهم: إنهم يجب

أن يكونوا قد أصبحوا رجالا جدداً ليصنعوا الثورة بادئ ذى بدء، أو كما كتب چون آدامز: صنعت الثورة فى عقول الشعب خلال الفترة بين ١٧٦٠ ـ ١٧٧٥، قبل أن تراق قطرة دم فى لكسنجتون(١٥).

والآن، صاغ المؤرخ چوردون وود، إطارا متينا لراديكالية الثورة الأمريكية. وفى سياق عالم ما قبل عام ١٧٨٩، كانت بالتأكيد راديكالية. فالمستعمرون ألغوا الأرستقراطية والملكية، وصعدوا بالعامة إلى درجة من الكرامة والمشاركة فى الحياة العامة غير مسموع بها، وشنوا الحرب على كل أشكال التبعية التى كانت تعادل العبودية. «**هناك نوعان من الرجال فى العالم، الأحرار والعبيد**» هكذا كتب چون آدامز «**وحتى الأمريكيين الأثرياء كانوا مثل العبيد طالما تبعوا بريطانيا**»(١٦). ولكن أولئك الذين يدعون أن الثورة كانت محافظة (وكان إدموند بيرك أولهم) يمكن أن يشيروا إلى غياب أى أچندة أيديولوچية، أبعد من تأمين الحرية(١٧). وأيا كان قدر طبيعة الحرية ـ ناهيك عن كيف تحافظ عليها من خلال المؤسسات ـ أصبح موضوعا خلافيا لسنوات بعد الاستقلال، وظلت السياسة غاية فى حد ذاتها، و«تقنية» توظف فى «تشكيل» الحرية، وليس كسلاح لحرب أكثر راديكالية(١٨). كما أن الثوريين الأمريكيين لم يصدروا رسالة لبقية أرجاء العالم. فكانوا يأملون فى أن تشترك كندا فى حرب ضد بريطانيا. ولكنهم كانوا ينفضون الرمال عن أقدامهم، عندما يشرع فى الاعتراض، الكنديون المتحدثون بالإنجليزية أو حتى المتحدثون بالفرنسية. واعتقد بعض الأمريكيين أن موقفهم الشجاع من الحرية يمكن أن يساعد فى إصلاح الوطن الأم، ويحفظ بريطانيا من الانهيار(١٩). ولكنهم اعتقدوا أن ضربهم المثل أفضل من قوة السلاح. وأخيرا، فإن الرؤيويين مثل ستايلز وپين، تخيلوا أن العناية الإلهية قد توظف أمريكا لرسالة عالمية تنشر الدين الحقيقى والجمهورية. ولكنها ـ لمرة أخرى ـ يمكن أن تقود فقط بمثال: فلا أحد يمكن أن يرغم الناس والأمم لتكون حرة. إذن، هل من الإنصاف القول بأن الولايات المتحدة لم يكن لديها أيديولوچيا أو أچندة خارجية، وأن الأمريكيين لم يحسوا بدافع لأن يصلحوا عالما شريرا (أو يسيطروا عليه) باسم تقرير المصير وحقوق الإنسان وحرية التجارة؟! ربما فعلوا ذلك فيما بعد، ولكن فى الجيل الذى أسس الولايات المتحدة وصمم حكومتها ووضع سياساتها، كانت الرسالة الخاصة للشعب الأمريكى ألا يفعل شيئًا خاصًا فى الشئون الخارجية، ولكن أن تصبح الولايات المتحدة سراجًا لتنير العالم.

والدليل على استثناء السياسة الخارجية من متطلبات المثالية، يمكن أن نجده فى الاستجابات الأمريكية لأربعة تحديات واجهتها الجمهورية فى عقود تكوينها. تحديات أعطتها خيار الالتزام بنوعين من الدبلوماسية المسيحانية، إحداها، كانت حقيقة «دبلوماسية جديدة» تخلت عن سياسة القوة، وتوازن القوى، والخديعة، من أجل المسالمة والمثالية والاعتماد على الإقناع الأخلاقى. وكانت الأخرى دبلوماسية ثورية حقيقية، التزمت للأمة بحملة صليبية متشددة ضد ملكية وإمبريالية العالم القديم. وقد استهوت كل سياسة منهما بعض الدبلوماسيين الأمريكيين البارزين. ولكن فى النهاية، تجنبتهما الجمهورية، وفى عرض مشهود للإجماع وبحكم صائب، وافقت على الاكتفاء بالاستثنائية الأمريكية فى الحرية فى الداخل.

***

كان التحدى الأول الذى دفع الآباء المؤسسين لتحديد ما يعدونه خاصًا بأمتهم الجديدة، هو الصراع من أجل الاستقلال. ولقد بدأ - حتى لا ننسى - فى تمرد الضرائب. ولا يهم كيف تبدو الأمور مملة لنا الآن، أو كيف كانت النتائج المتضمنة، أو كيف برر البرلمان البريطانى سعيه وراء المزيد من عوائد المستعمرات، فقد كان مبدأ الحكومة التمثيلية على المحك. عرض المستعمرون الأمر مرات ولكن البريطانيين لم يفهموه. لقد ظهروا كما لو كانوا عميانًا (كما شكا فرانكلين عام ١٧٦٥) أمام «إمكانية أن يتحرك الشعب بناء على أى مبدإ سوى مصالحه، وأن خفض ضريبة الشاى بمقدار ثلاث پنسات لما قيمته جنيه ستكون كافية لتجاوز وطنية الأمريكى»[٢٠].

وسبب آخر لربط اشتعال الثورة بتمرد الضريبة، هو أن المالية العامة (حتى إذا كانت مضجرة) واحدة من أهم المسائل فى أى عصر من التاريخ. وذلك كان صحيحا، خصوصا فى بداية العصر الحديث عندما قاتلت الملكيات لتخمد بقايا الإقطاع الريفى، وتشكل دولا مركزية. ولينجز الملوك ذلك، احتاجوا إلى جيوش متأهبة وبيروقراطيات لتؤسس احتكار القوة، وتنظم التجارة، وتطبق القانون وتجمع الضرائب قبل كل ذلك.

مثلت الحروب الأهلية فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا تكلفة التوصل إلى تسويات. وكمثال، فإن حكام بروسيا أبرموا صفقة مع النبلاء وسكان المدن تعطى الطرف

الأول الحق فى استعباد مزارعيهم، وتعطى الطرف الثانى حرية التجارة مقابل ضرائب جديدة دائمة.

وبمرور الوقت، جعل ذلك من بروسيا قوة عسكرية، ولكنها كبحت الحكومة التمثيلية فى شمالى ألمانيا. وسحق ملوك فرنسا سلطات الأرستقراطية والكنيسة، ولكن الثمن كان ألا تمس امتيازاتهم وإعفاءاتهم الضريبية. وهذا جعل من أسرة البوربون ملكية مطلقة، ولكنه بمرور الوقت قادهم إلى الإفلاس وأشعل الثورة. وبالعكس، كان التاج البريطانى قد وافق فى النهاية على اقتسام السلطة مع البرلمان، مقابل أن تقدم الطبقة الأرستقراطية والتجار الضرائب التى تحتاج إليها المملكة.

وفقد البريطانيون مستعمراتهم، لأنهم تنكروا لمبدإ الحكومة التمثيلية وراء البحار. كره المستعمرون الأمريكيون أن تحصل منهم الضرائب، خصوصا بواسطة هيئة تشريع متعجرفة فاسدة بعيدة، أصواتها معروضة لأصحاب المصالح الخاصة، الذين كونوا ثروات من القيود المفروضة على التجارة مع المستعمرات. ولكن الأمريكيين تدبروا المسألة طويلا لأنهم كانوا مهددين بكندا الفرنسية فى الشمال وفلوريدا ولريزيانا الإسبانيتين فى الجنوب والغرب، والسفن الفرنسية والإسبانية فى البحر، والهنود فى وسط الأمريكيين. وخلال حكم لويس الرابع عشر (١٧٤٠ و١٧٦٣) تقاتلت بريطانيا وفرنسا مجددا فى سلسلة من الحروب التى أثارت المتاعب للمستعمرات الثلاث عشرة. وكانت الميليشيات الاستعمارية - أحيانا - مؤثرة. ولكن صَعُبَ على الأمريكيين تأمين أنفسهم وتجارتهم من دون عون الجنود البريطانيين والبحرية الملكية.

وقرر البرلمان عقب حرب السنوات السبع فى عام ١٧٦٣، أن الوقت قد حان للمستعمرين لأن يدفعوا من أجل حصة أكبر من الساحل، ولم يكن هناك توقيت أسوأ! فاحتلال بريطانيا لكندا فى تلك الحرب أزال من أمام المستعمرات أكثر أعدائها خطورة. وأكثر من ذلك، رد المستعمرون على كل عمل غير متسامح من البرلمان، كما لو كانوا إنجليزاً طيبين، طالبين تمثيلهم أو إصلاح المظالم. وكان الجانبان يلومان تصعيد الصراع: البريطانيون كانوا يرفضون بعناد المساومة ويغلقون ميناء بوسطن ويرسلون جنودهم الذين أطلقوا النار - بدون لزوم - على الجماهير، أما المستعمرون، فاعتدوا على الأملاك، قاطعوا البضائع البريطانية، قاوموا الضرائب، وتحرشوا بالموظفين.

وبمجرد أن بدأ إطلاق النار فى لكسنجتون وكونكورد ، كان على المستعمرين أن يقرروا ـ بأى شكل ـ ما إذا وكيف يمكن إرشاد الكونجرس القارى للاقتناع بالاستقلال . وكانت صياغة الإعلان التى بررت التمرد تمرينا نظريا لچيفرسون الذى استخدم نظرية عقد الحكومة والحقوق الطبيعية ، التى استخدمها چان لوك لتبرير طرد البرلمان للملك چيمس الثانى فى عام ١٦٨٨ . ولكن تحقيق الاستقلال (والهروب من المشانق البريطانية) ، كان مسألة حرب ودبلوماسية للوفود فى فيلادلفيا .

كانت المفاهيم الأمريكية فى النظرية والممارسة للسياسة الخارجية، أيضا، بريطانية الأصل. فخلال القرن الثانى عشر، انشغل القادة، خصوصا من الهويج (أعضاء حزب الأحرار) فى بحث جدلى حول المبادئ التى يمكن أن تحكم سياستهم. ورأوا أن الحكمة فى البقاء بعيدا عن القارة طالما توازنت القوى هناك. وإذا ظهر اختلال فى التوازن، وجب على بريطانيا أن تتدخل كما فعلت فى وقت مارلبورو. ومن ناحية أخرى، كما وصفها رئيس الوزراء روبرت والپول فى عام ١٧٢٣ «إن سياساتى أن نبقى أحرارا من كل التعهدات بقدر ما نستطيع»[٢١] . وكان الاستثناء هو الروابط التجارية، وأصبح ذلك حكمة تقليدية، كما جاء فى عام إحدى المقالات فى عام ١٧٤٢ بأنه «يجب أن يتجنب قائد الدولة كل المعاهدات عدا تلك التى تشجع التجارة أو الصناعات»[٢٢] . وحتى فى أثناء حروب ١٧٤٠ ـ ١٧٦٣ لم ترسل بريطانيا جيوشًا للقارة، وبالعكس استغلت تلك الحروب لطرد الفرنسيين من الهند وأمريكا الشمالية.

وقد طبق المراقبون ـ مثل فرانكلين والوكلاء الآخرين الذين مثلوا المستعمرات فى لندن ـ دون تردد ، هذه المبادئ على السياسة الأمريكية . وقدروا ـ أيضا ـ تحرك بريطانيا النموذجى الذى بلغ أوجه فى الاتحاد بين إنجلترا وإسكتلندا وويلز ، وقمع أيرلندا وقمع آخر تمرد إسكتلندى فى عام ١٧٤٦ .

وكان استمرار بريطانيا فى مواجهة تمردات داخل جزرها تدعمها قوى أجنبية ، على وجه التأكيد ، يشل سعى بريطانيا وراء القوة والثروة فيما وراء البحار . وشجع مجلس التجارة البريطانى المستعمرات ـ أيضًا ـ لتؤمن بالوحدة . وأوصى فى عام ١٧٢١ بقيادة واحدة لـ «الإمبراطورية فى أمريكا»[٢٣] .

وأثارت المشكلة الدائمة مع الهنود - فيما بعد فى عام ١٧٥٤ - خطة ألبانى(*) حول حكومة عظمى لكل تلك المستعمرات، تخول السلطة لتقود الميليشيات وتحد من التسويات وتتفاوض مع الهنود. ورفضت المستعمرات الغيورة بازدراء تلك الخطة، حتى بدأت تفكر وتتحرك كوحدة فى مواجهة بريطانيا نفسها!

وكان الكونجرس القارى يعرف ويحترم هذه المدركات: الوحدة، الانعزال عن أوروبا، استغلال توازن القوى، والتأكيد على الدبلوماسية التجارية. ولكن هل كان ذلك كل ما نحتاج إليه لشرح أصول العلاقات الأمريكية الخارجية؟ ألم يحلم بعض الآباء المؤسسين، على الأقل، بدبلوماسية «جمهورية» جديدة تكتسى بروح العقل وتخالف السياسات الميكيافيلية لأوروبا؟ لقد دعا بين الأمريكيين «لبدء العالم من جديد».

وكان جيفرسون يعتقد أن الجمهوريات لن تصنع حروبًا إلا للدفاع عن الذات، وأن أمريكا المستقلة هذه لن تحتاج إلى دبلوماسيين، وإنما قناصلة تجاريين. وكتب جيمس مادسون: «إن السلطة والقوة حكمتا العلاقات الدولية فى العصور المظلمة، التى ولت. لا أعرف إلا نظاما واحدا لأخلاق الإنسان، سواء تصرف منفردًا أو جماعيا»[٢٤].

وأصر جون آدامز على أنه بينما كانت الدبلوماسية الأوروبية سرية مولعة بالقتال، مبطنة بالمكيدة، فإن السياسة الأمريكية ستكون مفتوحة سلمية أمينة. وعندما سأله وزير الخارجية الفرنسى الكونت دى فيرجين أن ينزل من على حصانه العالى، أجاب آدامز بأن كرامة أمريكا الشمالية لا تتكون من دبلوماسية احتفالية أو فى مراعاة لطائف الإتيكيت. إنها تتكون فقط من العقل والعدل والحقيقة وحقوق الإنسانية[٢٥]. وأخيرا فإن الدبلوماسيين الأمريكيين الأوائل، مثل الدبلوماسيين البلاشفة فى عشرينيات القرن العشرين، تمسكوا بتجنب الملابس والألقاب ومظاهر الترفيه الفاخرة وكل مظاهر البروتوكول، حتى يكونوا رموزًا تنطق وتمشى بالولاء للجمهورية.

ربما لم يكن ذلك شيئًا أكثر من حماسة عابرة ولدتها الثورة، أو ربما كان دليلاً - لأول وهلة - لإثبات أن العديد من الأمريكيين يعتقدون فى «استثنائية» امتدت لما

(*) عاصمة ولاية نيويورك حاليًا. (المترجم)

وراء حافة المياه. والإجابة تعتمد على كيفية تفسير المرء لأول الأعمال المثالية للسياسة الأمريكية الخارجية: نموذج معاهدة عام ١٧٧٦ التى وضع مسودتها آدامز ورحب بها الكونجرس كتعبير حقيقى عن المبادئ الأمريكية. كيف تأتت؟ ماذا كانت دوافعها؟ وفوق كل ذلك: ماذا كان مصيرها؟

فى خريف عام ١٧٧٦، عرف الكونجرس القارى أن أى نتيجة طيبة لصراعه مع لندن، تعتمد على المساعدة الخارجية. فالميليشيات المهلهلة للمستعمرات يمكن أن تكسب المناوشة الطارئة، لكنها لا يمكن أن تفوز بمجرد اشتراك جاد للقوة البريطانية ما لم تجد الميليشيات سبيلها إلى المال والذخائر. لذلك شكل الكونجرس لجنة المراسلة السرية وكلفها مسئولية البحث عن أصدقاء بالخارج، سبعة أشهر قبل إعلان الاستقلال.

وغادر سايلاس دين إلى باريس فى مارس عام ١٧٧٦، ليلحقه فى وقت تال فرانكلين وآدامز وآخرون. ولكن ماذا كان بوسعهم تقديمه إلى المحافل الأجنبية؟ ولماذا ينبغى على فرنسا ـ بلا مبرر ـ أن تساعد التمرد؟ الإجابة كما اقترحها پين فى «الفطرة السليمة» هى أن فرنسا كانت شبقة للتجارة الأمريكية. ذلك كان مفهومًا حماسيا ولكن ليس سخيفا. ومبكرا فى عام ١٧٥٤، تباهى البوسطونى ويليام كلارك بأن المستعمرات كانت ذات قيمة مهمة لبريطانيا، وطالما احتفظت بها كاملة، ستكون قادرة ليس فقط على الحفاظ على استقلالها، ولكن على تفوقها كقوة بحرية عظمى.

ومن الناحية الأخرى، إذا فقدتها، واغتنمتها فرنسا، فسوف تتقلص بريطانيا نفسها بالضرورة إلى خضوع مطلق للتاج الفرنسى. ووافق وزير الخارجية الفرنسى شويزول فى عام ١٧٥٩ على أن توازن القوى الحقيقى يعتمد على التحكم فى التجارة وفى أمريكا[٢٦].

لذلك، وافق الكونجرس على «خطة المعاهدات» فى يونيو عام ١٧٧٦، وأعلن الاستقلال فى يوليو ليقنع پاريس بالنية الطيبة للمستعمرين، كما وافق على «المعاهدة النموذجية» فى سبتمبر. وأمل آدامز أن المعاهدة يمكن أن تفوز بحليف فرنسى، وذلك ماعناه بالاعتراف القانونى بالولايات المتحدة: «إننى لا ألتمس أى ارتباط سياسى أومساعدة عسكرية أو بحرية حقا من فرنسا. إننى لا آمل شيئا إلا التجارة، مجرد معاهدة بحرية معهم». ولم يكن غرضه أن يصلح السياسة العالمية،

ولكن أن يؤمن مساعدة فرنسية دون أن يصبح الأمريكيون رهنا للإمبريالية الفرنسية، كما كانوا من قبل رهنا للإمبريالية البريطانية. واعترف فيما بعد أنه «ليس هناك ما يكفى لإغراء فرنسا لتنضم لنا»[٢٧]. ولكنه كان يتخوف من أن حلفا سياسيا أو عسكريا كاملا سوف يجبر الأمريكيين على الإذعان لإعادة الاحتلال الفرنسى لكندا أو الهند الغربية. وإذا كان هناك ظل حول عدم مصداقية الدبلوماسية الأمريكية، فإنه يتمثل فى السذاجة والحذر والمبالغة فى تقدير جاذبية التجارة الأمريكية - وليس فى فرط المثالية. وفى صمت، وضع الكونجرس والوفد إلى باريس المعاهدة النموذجية على الرف.

ومنذ ذلك الحين، فإن طلب الأمريكيين للاستقلال، تواصل بالحرب والدبلوماسية كالمعتاد. وهرّب العملاء السريون الأسلحة الفرنسية إلى أمريكا حيث حفظت للاستخدام الجيد فى الانتصار على الجنرال بيرجوين فى ساراتوجا. وحفز ذلك بالمقابل من شعروا بالسلام من البريطانيين، وهو الأمر الذى استغله فرانكلين لتحقيق حلف فرنسى كامل. سأل فيرجين: ماذا يكفى ليحبط التقارب الأنجلو أمريكى، ويضمن أن المستعمرين يلتزمون «الاستقلال الكامل والمطلق»؟ الأحلاف التجارية والعسكرية بين فرنسا والكونجرس الأمريكى. أجاب بذلك فرانكلين.

وعندئذ، صنع مستشارو لويس السادس عشر - باستثناء وزير المالية المحاصر - قرارا مصيريا بالرهان على أمريكا. لم تتح الفرصة لأى دبلوماسية جديدة أو مثالية فى غمار صنع السلام. لقد وعد فرانكلين - بشكل مقدس - ألا يفاوض بريطانيا مستقلا على بند السلام المنفرد فى التحالفات. لكنه لم يتردد فى أن يتنكر للفرنسيين بعد النصر الفرنسى - الأمريكى فى يورك تاون، وأرسل البرلمان مبعوثا إلى باريس لمناقشة بنود السلام.

وخرج الوفد الأمريكى بمعاهدة منحت الولايات المتحدة الوليدة كل الأراضى فى شرقى نهر المسيسيبى عدا فلوريدا الإسبانية. وفى اعتراف فرانكلين لفيرجين عن افتقاد اللياقة فى تعاملاته، أكد له أن الحلف الفرنسى - الأمريكى يمكن أن يظل فاعلاً بعد السلام، بينما كان سكرتير الكونجرس للشئون الخارجية روبرت لفنجستون متألما، لأن المبعوثين الأمريكيين شوهوا «سمة الصدق والإخلاص والغبطة بالارتباطات، و التى ينبغى أن يتميز بها شعب عظيم»[٢٨].

ولكن لم يأسف أى رجل كونجرس أو مؤرخ ـ فيما بعد ـ على أساليب فرانكلين، والنقد الوحيد له أنه لم يكسب لأهل نيوإنجلاند حق الصيد فى الضفاف الكبرى لـ «نيوفاوندلاند»، وحتى چون آدامز التطهرى صاحب الضمير الرقيق، ومؤلف المعاهدة النموذجية، تباهى بأنه وتابعيه من المبعوثين قد أثبتوا «تكتيكات أفضل مما كانوا يتخيلون»(٢٩).

بعد صلح باريس، تبددت الأوهام التى تعلق بها الأمريكيون فى إمكان تحقيق دبلوماسية مختلفة وأفضل. فبريطانيا وفرنسا وإسپانيا والإيروكيون، والقراصنة البربر، أذلوا مرات، الدول ذات السيادة التى ربطتها مواد «الاتحاد» برباط واهن. فقد رفضت بريطانيا أن تخلى الحصون التى شيدتها فيما هو الآن الجانب الأمريكى من البحيرات العظمى (جريت ليكس)، مشتركة مع الهنود، قدمت مزايا لأهالى ڤيرمونت بأمل تصدع وحدة اليانكى، وأغلقت موانئ الهند الغربية أمام السفن الأمريكية. وصد بلاط سان چيمس أول وزير للولايات المتحدة چون آدامز لدى بريطانيا، لأنه أطلق دعوة حرية التجارة والمعاهدات النموذجية، حتى آل به الأمر لأن يوصى «بحظر متبادل للاستثناءات والاحتكارات والرسوم»(٣٠).

وبالمثل، فإن السفير چيفرسون فشل فى إقناع فرنسا بالتعامل بالمثل فى أمور التجارة، بينما تناوبت إسپانيا إغلاق ميناء «نيو أورليانز» أو فرض رسوم قهرية لاستخدامها. كما أن مراكب القرصنة فى شمالى إفريقيا أوقفت السفن الأمريكية وقبضت على البحارة مقابل فدية.

فى غضون ذلك، سرحت الولايات المتحدة جيشها وبحريتها، وكانا يفتقدان إلى مسئول مركزى، وسمحت للولايات الثلاث عشرة أن تكتب نظمها التجارية الخاصة.

إنها فقط مبالغة طفيفة إذا قلنا إن الأمريكيين يدينون للإهانة الخارجية التى سببت مؤتمرهم الدستورى، والذى لا يقارنه شىء فى تاريخهم(٣١).

لقد كان فى عقول رجال الدولة الأمريكيين هدفان عظيمان ـ ولكنهما غامضان بما يثير الدهشة ـ عندما دعوا إلى دستور جديد. تشكيل «اتحاد أكثر اكتمالا»، وإعطاء سلطة مركزية ـ كونجرس أو إدارة تنفيذية ـ قادرة على الدفاع عن الولايات ضد الأجانب، دون تهديد حرياتها فى الداخل. إنهم لم يكونوا مثاليين وأقل كثيرا

من أن يكونوا أيديولوچيين، وسواء كان إلهامهم الكتاب المقدس أو فلسفة التنوير، فإنهم لم يغفلوا مطلقًا عن الطبيعة المفسدة للرجال والحكومات. وقد ساعد ذلك على شرح المخاوف الصدامية، وانشقاق الآراء التى هددت أكثر من مرة بتفجير المؤتمر الدستورى. ألا تكون حكومة فيدرالية قوية بما فيه الكفاية أمام بريطانيا وفرنسا، تمثل فى الوقت نفسه ـ وبقدرتها نفسها ـ تهديداً لمواطنيها وولاياتها؟

كيف تستقيم متطلبات ولايات متحدة مستقلة وحرة مع متطلبات استقلال وحرية الأمريكيين؟ ويمكننا من المناقشات التى جرت فى فيلادلفيا عن التمثيل النيابى، القوى العسكرية للإدارة، السلطة التجارية والمالية للكونجرس، ثم فيما بعد «إعلان الحقوق»، أن نتبين أصول الاتجاهين الفيدرالى والجمهورى الديمقراطى فى تسعينيات القرن الثامن عشر. . نزع الفيدراليون إلى تأكيد الحاجة إلى حكومة قوية مركزية وقللوا من مخاطرها، بينما نزع الآخرون إلى التضخيم من أخطارها والتساؤل عن ضرورتها(٣٢).

ويستحق ممثلو الولايات المديح على إخلاصهم الشديد وصبرهم وسعة صدورهم فى مناقشاتهم، بقدر ما يستحقون المديح على الحلول التى ابتدعوها. وفى آخر الأمر، تمت الموافقة على تجربة التوفيق بين السلطة والحرية بأن يجعلوا الأسد يرقد إلى جانب الحمل على أساس الفصل بين السلطات، الضبط والتوازن بينها(٣٣).

وفى السياسة الخارجية، منحوا الرئاسة («الفرع الملكى»، كما أسماه المعادون للفيدرالية) سلطات القائد العام ورئيس الدبلوماسيين، ومنحوا مجلس النواب (الفرع الشعبى)، سلطة التصويت على تمويل الجيوش والبحرية والبعثات الخارجية، ومجلس الشيوخ (الفرع الأرستقراطى) سلطة النصح والموافقة على المعاهدات والتعيينات. والكونجرس ككل (مجلس النواب ومجلس الشيوخ)، سلطة إعلان الحرب وتنظيم التجارة لدول الاتحاد، ومسائل محددة فى السياسة الخارجية، وزيادة أعداد الجيوش وتحديد أماكنها وفرض الرسوم، وإبرام المعاهدات والتصديق عليها، تجارة الرق، وحتى حجم السلك الخارجى(٣٤)(*).

(*) ضمن الأفكار التى ساهمت فى توزيع الاختصاصات، ألا تجمع يد واحدة بين المحفظة (المال) والسيف (القوة العسكرية). (المترجم)

كان الخلاف دائمًا حول الخوف من أن تستخدم الحكومة الفيدرالية سلطاتها فى السياسة الخارجية لإيذاء الحريات فى الداخل، وما من مكان فى الدستور حدد فيه واضعو الدستور كيف يجب أن تمارس الحكومة سلطاتها فى مواجهة الدول الأجنبية! كما أن كاتبى «الأوراق الفيدرالية» لم يتوقعوا أن تتصرف الولايات المتحدة بشكل أكثر قدسية من جراء فضيلة أن تكون جمهورية. وفى المقالة الفيدرالية الثالثة، كتب چون چاى أن بين كل غايات شعب حكيم وحر يبدو «توفير الأمان» هو الغاية الأولى. وقد عنى بذلك حفظ السلام، وكذلك الحماية ضد المخاطر من جيوش ونفوذ خارجى. وقد ذهب بعيدا فى تعداد الطرق العديدة التى تجعل الضعف القومى يتسبب فى أن تقوم القوى الأجنبية بممارسة الإذلال أو حتى الحرب ضد الولايات المتحدة. وكذلك، فإن ثلاث عشرة دولة مستقلة أو ثلاث أو أربع كونفيدراليات للدول، ستصبح حتمًا تربة صالحة للاختلاف والنزاع، لتسمح للقوى الأجنبية بأن تلعب بكل منها ضد الأخرى[٣٥].

وأكمل هاملتون الطرح: «إن المرء يذهب بعيدا فى تخيلات وأوهام طوباوية إذا تشكك فى أن هذه الدول ستصبح إما مفككة تمامًا وإما متحدة فقط فى كونفيدراليات ستولد تنافسات وصراعات متكررة وعنيفة بينها».

ثم حطم الأسطورة التى تزعم بأن الجمهوريات لا تشعل الحروب باختيارها، وسرد الحروب العادلة وغير العادلة التى اندلعت من إسپرطة، وأثينا، وروما، وقرطاچة، والبندقية، وهولندا، وبريطانيا البرلمانية، لأسباب أو حتى لأهواء: «لقد اشتعلت حروب شعبية بعدد ما اشتعلت حروب ملكية»[٣٦]. إن غرض الولايات المتحدة لم يكن تقديم وجه مثالى لعالم يحكم بسياسات القوة - فذلك طريق مؤكد لتخريب السلام والحرية فى الداخل - ولكن بالعكس السماح «بنظام أمريكى عظيم، أكبر من القوة والنفوذ العابرين للأطلنطى، ولفرض شروط الارتباط بين العالمين القديم والحديث»[٣٧].

«ها قد أنجز» هكذا كتب بنچامين راش عندما وصلت أخبار التصديق النهائى على الدستور.. «كفت أمريكا عن أن تكون القوة الوحيدة فى العالم التى لم تستفد من إعلان الاستقلال... إننا لم نعد مسخرة أعدائنا»[٣٨].

فالحرب الثورية، والمعاناة من الإذلالات التى جرتها الكونفيدرالية، أثبتت أن أحلاما دپلوماسية وأخلاقية جديدة أبعد من أن تكون ضرورية حتى لاستثنائية أمريكية، بل ألحقت تلك الأحلام أضراراً بالغة بها. ولذلك، فإن العملية الدستورية، التى بلغت أوجها مع تدشين الرئيس چورچ واشنطون، أعطت الميلاد لحكومة قادرة على ردع، أو إذا لزم الأمر، محاربة كل ما يهدد الحرية الأمريكية. وكانت سلطات السياسة الخارجية للفرع الإدارى، الدرع والسيف والمحامى للاستثنائية الأمريكية، ولم يكونوا أنفسهم تعبيرا عنها.

❊ ❊ ❊

كان التحدى الثانى الذى دفع الأمريكيين لتحديد طبيعة سياستهم الخارجية هو الثورة الفرنسية. فقبل عام ١٧٨٩، وجدت الولايات المتحدة فى عالم أطلنطى للملكيات الإمپريالية. ولا عجب أنه كان على الأمريكيين أن يواجهوا النار بالنار، فهم مازالوا محاطين بأعداء، وكانوا يأملون فقط فى أنهم قد يثيرون المتاعب بينهم بأكثر مما يثيرونها لأمريكا. عندئذ أعلنت الثورة الفرنسية حقوق الإنسان والمواطن. وفى عام ١٧٩٢، كانت الجمهورية الفرنسية فى حرب مع أوروپا الملكية.

إنها أوقات إعجاز! قالها وودرو ويلسون مبتهجا لدى سماعه بإطاحة الروس بالقيصر عام ١٩١٧، ولكنها لا تقارن بالابتهاج الذى شعر به الأمريكيون عندما علموا أن فرنسا اختارت الحرية.

فهل حركتهم الثورة نحو هدف مشترك مع حلفائهم الفرنسيين؟ أم أنهم لم يكونوا محاربين من أجل الديمقراطية فى الخارج كما فى الوطن؟

لا.. ولا.. بالرغم من أن الأمريكيين أخذوا بعض الوقت ليقرروا. فغالبية الشعب الأمريكى ـ بالتأكيد ـ باركت الفترة الأولى للثورة الفرنسية (١٧٨٩ ـ ١٧٩١)، التى ألغت فيها الجمعية الامتيازات الإقطاعية وصادرت أملاك الكنيسة الكاثوليكية، وصممت ملكية دستورية. وعندما توقفت الحرب فى أوروپا، بارك الأمريكيون أيضا سياسة الرئيس واشنطن نحو حياد صارم، ولكن الرغبة المجردة فى أن يظل بعيدا، لم تجنب البلد جدلاً داخليا «مُعذبا» كان وراء ميلاد نظام الحزبين فى أمريكا. فالمزارعون وعديد من الجنوبيين وكل من كانوا يتطلعون لقيادة

جيفرسون وماديسون أصبحوا يعرفون بأنهم: «جمهوريون ديمقراطيون» وفضلوا المسار الفرنسي (لم تكن كراهية ومخافة البريطانيين أقل الأسباب في ذلك). التجار وكثير من أهل نيوإنجلاند، وكل الذين تطلعوا لقيادة هاملتون وچاي كانوا يُعرفون بـ«الفيدراليين»، فضلوا المسار البريطاني (لم تكن كراهية الفرنسيين ومخافة ثورتهم أقل الأسباب في ذلك).

وأكد هاملتون (*) خطر مخاصمة بريطانيا التي كانت لديها القوة لتخريب تجارة الولايات المتحدة والإمساك برأس المال الذي يعتمد عليه النمو الاقتصادي الأمريكي. بينما رأى چيفرسون وماديسون في ذلك اعتمادا على بريطانيا، مما يمثل مخاطرة أكبر، لذلك فإن استقلال الولايات المتحدة يصان أكثر بالميل تجاه حلفائها الفرنسيين. واشتعلت العواطف بتلك الشحناء التي تفاقمت بشكل يجعل المرء يخشى نشوب الحرب الأهلية. واتهم هاملتون چيفرسون وأصدقاءه بالتحيز لفرنسا لأسباب نسائية، والعزوف عن بريطانيا لأسباب نسائية أخرى..

وإذا تركنا هؤلاء الرجال لشأنهم، فلن تمر ستة أشهر، إلا وهناك حرب مفتوحة بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى.(٣٩) وفي المقابل، لعن الجمهوريون الديمقراطيون الفيدراليين على رقصهم كالقردة على أنغام بريطانيا مقابل المال. وعندما عاد چون چاي من لندن في عام ١٧٩٤ بمعاهدة تجارة، شنقت الجماهير دميته، وطالبت برأسه. «چون چاي المكير الخائن [هكذا كتب أحد المحررين . .] قيدوه. . ألقوه في اليم. . أحرقوه. . اسلخوا جلده»(٤٠).

محتج آخر غطى حائط الدار الفيدرالية باللعنة على چون چاي! اللعنة على كل من لا يلعن چون چاي!! اللعنة على كل من لا يضع شموعا في نوافذه ليقف طوال الليل يلعن چون چاي(٤١).

وچيفرسون ـ أيضًا ـ انتابته الهيستيريا أحيانا. فقد أعلن أن حرية العالم معلقة

(*) ألكسندر هاملتون (١٧٥٧ـ١٨٠٤) سياسي أمريكي كان عضواً في المؤتمر الدستوري. وقاد الحزب الفيدرالي وعمل وزيراً للخزانة. وكان منحازاً لرأس المال. (المترجم).

على فرنسا . وأبعد من ذلك أنه يفضل أن يخلو العالم من كل سكانه عدا آدم وحواء حرين فى كل بلد، على أن تفشل الثورة الفرنسية[٤٢] .

وفى المقابل، فإن الفيدراليين حصلوا على كل الذخيرة التى يحتاجون إليها من إرهاب روبسبيير . فقد سموا الجمهوريين الديمقراطيين «غوغاء حقراء»، «ذئابا فرنسية» ، «أكلة ضفادع، أكلة لحوم البشر، متوحشين مصاصى دماء» . وحذروا من أن الأمريكيين اليعقوبيين سيحرقون الكنائس وينصبون المقاصل فى كل مدينة[٤٣] .

ما الذى خبره آباؤنا المؤسسون (ملمومو الشَّعر)، الذين أظهروا صبرا جميلا قبل سنوات قليلة فى فيلادلفيا، حتى إنهم أصبحوا يتبادلون اللعنات واللكمات فى الشوارع؟ هل كان جانب أو آخر يريد الاشتراك فى الحروب الأوروبية؟ لا ـ ما عدا اتجاها متطرفا من الفيدراليين فى نهاية تسعينيات القرن الثامن عشر . فلو كانت هناك شخصية رائدة تريد التخلى عن الحياد، فإن دافعه، كان ـ حقيقة ـ يتمثل فى تأثير معاداة فرنسا أو بريطانيا على السياسة المحلية .

وفى الجانبين، كانت هناك الرؤى المتعارضة حول ماذا يجب أن تكون عليه أمريكا، من خلال تعريفهم للحرية . وكما كتب المؤرخ چويس آپلباى، فإن الثورة الفرنسية والحرب الأوروبية «تتابعتا فى أن تظهرا على سطح الحياة العامة المفاهيم المتعارضة للمجتمع»، وأوجدتا «تعاقب أحداث جعل الفرقاء المتحمسين يراجعون ويسائلون بعضهم الأسئلة الرئيسية حول الطبيعة الإنسانية والمعايير الاجتماعية»[٤٤] . لقد حدث صدام الأرستقراطية ـ الشعب، مرة أخرى، كما رأى الجمهوريون الديمقراطيون موقف الفيدراليين الموالى للبريطانيين دليلا على تفضيلهم لمجتمع هيراركى طبقى، فى الداخل، كما رأى الفيدراليون موقف الجمهوريين الديمقراطيين الموالى للفرنسيين مؤشرا على تفضيلهم لديمقراطية متطرفة فى الداخل .

أصبح خطر تأثير الحروب الأوروبية على المجتمع الأمريكى ماثلاً، عندما عينت الجمهورية الفرنسية إدموند شارلز «المواطن» البالغ الثلاثين من عمره، سفيراً للجمهورية الفرنسية لدى الولايات المتحدة. فجازى احتفاء الأمريكيين به عند استقباله عام ١٧٩٣ بمحاولة أن يحول الرأى العام ضد سياسة الحياد. وعندما فشل ذلك، قام

سرا بشراء سفن وبعث بها للسطو على التجار البريطانيين فى المياه الساحلية الأمريكية. وكانت مؤامراته الأكثر شراسة: «أننى أسلح الكنديين للتخلص من نير إنجلترا، وأسلح أهالى كنتاكى، وأعد لحملة بحرية لدعم الانشقاق فى نيو أورليانز»(٤٥) ، لكنها لم تسفر عن شيء. وفى أقل من عام من وصوله، طلبت واشنطن رحيله.

وعند هذه النقطة، استقال چيفرسون من منصبه كوزير للخارجية، ومنعت المعارضة الجمهورية التصديق على معاهدة چاى بالرغم من حقيقة أن بريطانيا وافقت على الانسحاب من قلاعها فى البحيرات العظمى، ومنحت الولايات المتحدة وضع الدولة الأولى بالرعاية فى تجارة الهند الغربية. ولكن چاى لم يحصل على تعويضات لسفن الولايات المتحدة وشحناتها والعبيد الذين استحوذت عليهم البحرية الملكية، واعترف بحق بريطانيا فى حظر البضائع المتجهة إلى الموانئ الفرنسية.

كان الاحتجاج العام عارمًا عندما طلب واشنطن من الكونجرس التصديق على معاهدة چاى، إلى أن ظهرت خيانة إدموند راندولف، سلف چيفرسون، فأحبطت المعارضة. كشفت رسائل حصلت عليها بريطانيا أن راندولف طلب أموالاً من فرنسا بغرض تأييد تمرد الويسكى فى پنسلڤانيا عام ١٧٩٤.

أظهرت مشكلتا إدموند تشارلز وراندولف نظرية «الفيدرالست» حول تأثير الشقاق فى دعوة القوى الخارجية للتدخل فى الشئون الداخلية للأمريكيين وتخريب دبلوماسيتهم.(٤٦) لذلك لم يكن لغزا السبب الذى من أجله ضمَّن واشنطن فى خطبته للوداع فى سبتمبر عام ١٧٩٦ التحذير من أن «لا شيء أكثر ضرورة من تجنب الكراهية المستحكمة الدائمة تجاه أمم محددة، والتقرب العاطفى من أمم أخرى. فالأمة التى تعتاد كراهية أو حب أمة أخرى، تصبح ـ بدرجة ما ـ فى عداء الأمة المستعبدة، ويجب أن تكون غيرة الشعب الحر دائمًا يقظة ضد الخداع الدفين للنفوذ الخارجى (أناشدكم أن تصدقونى، مواطنىّ)، بعد أن أثبت التاريخ والتجربة أن التأثير الخارجى هو أكثر الخصوم وبالا على الحكومة الجمهورية»(٤٧).

وخلال حكم الرئيس چون آدامز (الذى تلقت حملته الانتخابية دفعة قوية من رسالة واشنطن)، انحدرت العلاقات الأمريكية ـ الفرنسية إلى القاع. وعندما أصبحت معاهدة چاى سارية المفعول فى عام ١٧٩٦، طلب الفرنسيون الحق نفسه

فى توقيف السفن المتجهة إلى عدوهم بريطانيا، واحتجزت أكثر من ٣٠٠ سفينة أمريكية فى العام الأول وحده لتلك الحرب التجارية.

وحاول آدامز المراهنة، ولكن تاليران، وزير الخارجية الفرنسى العظيم، أظهر ودًا أيديولوچيًا تجاه الأمريكيين، أقل مما أبداه الأمريكيون تجاه الفرنسيين. وقال إن أمريكا لا تستحق من الاحترام أكثر من چنيف أو چنوه(٤٨).

وكان المضمون التضييق على التجارة الأمريكية على أمل أن يكون ذلك لحساب فرنسا. دوّخ تاليران المبعوثين الأمريكيين فى سلسلة من النكرات (سماها اليانكى السادة إكس. واى. زد) الذين لمحوا أن على الولايات المتحدة أن تشترى السلام بالرشا والقروض للحكومة الفرنسية. وذلك ما أوحى بالشعار الأمريكى «ملايين من أجل الدفاع ولا سنت جزية»!

وأقنع الرئيس چون آدامز الكونجرس بالتصويت لتخصيص أموال للجيش وبناء السفن الكبيرة، وأنشأ وزارة البحرية . . لو أراد الرئيس أن يشارك بعض الفيدراليين لهفتهم على شن الحرب ضد فرنسا، لفعل ذلك فى عام ١٧٩٨، ولكنه لم يكن يريد أن يقاتل فرنسا بأكثر مما أراد چيفرسون أن يقاتل من أجلها. وكذلك، فإنه عندما أبدى تاليران إشارة على اعتزامه التفاوض بجدية، فإن وفود آدامز حملت معها معاهدة مورتفونتين فى عام ١٨٠٠، وأسقطت الولايات المتحدة كل المطالب المالية التى نشأت عما يشبه الحرب، فى مقابل إلغاء الحلف الفرنسى - الأمريكى لعام ١٧٧٨.

وبذلك، فإن الأمريكيين فى كل صراعهم الداخلى، قاوموا الضغط المكثف الأيديولوچى والعسكرى، الذى وضع على عاتقهم فى تسعينيات القرن التاسع عشر، ليخضعوا لإغراء تحول سياستهم الخارجية لتكون صليبية.

***

كان الاختبار الثالث لمبدإ أن الاستثنائية الأمريكية لم تكن تعتزم إملاء أوفرض سياسة خارجية، بطريقة أو بأخرى، إعادة للاختبار الثانى. فبعد سلام قصير فى عام ١٨٠٢، أشعلت القوى الأوروبية حربا لا تطاق لمدة ١٢ عاما. ورفض

الفرنسيون والبريطانيون بازدراء «حقوق الحياد» لأمريكا، وخربت بحرياتهم وحصاراتهم التجارة الأمريكية.

ولكن، بطريقة أو بأخرى، كان الموقف مختلفًا عما كان عليه فى تسعينيات القرن الثامن عشر. ففرنسا لم تعد جمهورية، بل دولة عصابة عسكرية تتخفى كإمبراطورية أوروبية تقليدية. وكان لنابليون بونابرت قلة من الأصدقاء فى أمريكا (معظمهم من الأيرلنديين)، إضافة إلى من يمكن لعملائه أن يشتروهم. وعنى ذلك أن بريطانيا أصبحت بطل الحرية وإن كان كثير من الأمريكيين يمتعضون من الحريات التى صادرتها. وأخيرا فإن مياه التغيير السياسى قد ظهرت فى الداخل: فالفيدراليون خرجوا من السلطة وتلقاها الجمهوريون الديمقراطيون. فهل يطلق الرئيس جيفرسون الفرصة لممارسة سياسة خارجية مثالية أو ثورية؟

هذا ما يجب أن نسأل عنه هنا، مرة وللأبد، فى مغزى استغراقات جيفرسون الفلسفية. وقد يجد المرء دليلا على المثالية من خلال كتابات جيفرسون أو من خلال حديثه حول المائدة، ولكنه يبحث عنها بلا جدوى فى إدارته للدولة. وحتى المؤرخين الذين ركزوا على الجدل بين الجيفرسونيين والهاملتونيين، يبدو أنهم لمسوا تلك الحقيقة.

نقرأ أن جيفرسون كان غاضبًا من الأوروپيين بسبب تدخلهم ضد التجارة الأمريكية بما جعله يأمل لو أن الولايات المتحدة تخلصت من التجارة الخارجية ككل وأصبحت «منعزلة» مثل الصين[٤٩]، ولكن فى الممارسة كان يعلم أن ذلك سخف وهراء.

ونقرأ أن جيفرسون كان يأمل لو أن الولايات المتحدة تصبح مجتمع مزارعين جمهوريين أفاضل، حيث إن العمل بالأجر والصناعة ومسائل التمويل المالى تفسد الرجال وتجعل منهم عبيدًا. ولكن ذلك كان نظريا، وفى الممارسة، كان يعلم أن الأمريكيين مختلفو النوعية، وأن على قادتهم المنتخبين أن يخدموا مصالحهم المتنوعة.

ونقرأ أن جيفرسون كان يحلم بعالم من الجمهوريات، خال من الحرب، وتصبح فيه الدپلوماسية شأنا مقصوراً على القنصليات فقط. ولكن ذلك كان نظريا. ففى الممارسة، كان يعلم أن الأمم لها مصالح متعارضة، يجب أن تدافع عنها بحد السيف عند الحاجة.

ونقرأ أن چيفرسون، كان يريد ممارسة دبلوماسية جديدة، ولكنه التزم دائمًا بالانحناء أمام الواقعية، أو «مزج- بتفرد- بين المثالية أو حتى الطوباوية وحرفة التشكيك»[٥٠].

لماذا لا نقول بدلا من ذلك إن چيفرسون كان حساسًا ومتحملاً للمسئولية؟ وفى حياته العامة، لم يسمح أبدًا بأن تكون نزواته الشخصية محل مساومة مع المصلحة القومية؟ وعلى وجه التأكيد، لقد اختلف مع هاملتون حول الأهداف فى الداخل، ولكن أساليبه فى الخارج كانت پراجماتية، سواء كانت خاطئة أم لا.

وإذا تبنينا هذا التصور لچيفرسون، فإن أشياء عديدة ستأخذ مكانها الصحيح فى الصورة، ليس فقط اكتسابه لمعظم سياسات إدارة واشنطن، ولكن أيضا سياساته الصعبة. لقد بدأ - فى خطابه الافتتاحى - بتقرير أن «كلنا فيدراليون، كلنا جمهوريون»[٥١]. وبعد ذلك عمل بشدة لدفع مصالح الولايات المتحدة، بما يمكن أن تسمح به قوة أمة شابة. فأرسل البحرية الجديدة التى أسسها آدامز وقوة من رجال المارينز إلى سواحل طرابلس، لهزيمة القراصنة البربر. فقد كان خائفًا جداً من منظور الإمبراطورية الفرنسية فى شمالى إفريقيا، حتى إنه هيأ نفسه لمنظور التحالف مع بريطانيا، قبل قرار ناپليون بيع لويزيانا، الذى جاء كثروة من السماء.

ولم ينكر أحد حماسة چيفرسون للتوسع الحكيم، وحتى إدراكه للاستثنائية الأمريكية إذا وضعناه تحت الفحص، يصبح ٩٠٪ منه، ما يجب أن تكون عليه الولايات المتحدة، وليس ما يجب أن تفعله أو لا تفعله، فى الحروب ضد الأمم[٥٢]. لقد كانت مشكلة چيفرسون المستعصية هى المشكلة القديمة المتعلقة بالحقوق الحيادية فى البحر. فى عام ١٨٠٥ أقرت محكمة البحرية البريطانية فى قضية «إسيكس» أن السفن المحايدة التى تحمل بضائع للعدو تكون عرضة للاستيلاء عليها حتى لو كانت غيرت حمولاتها فى موانئ الولايات المتحدة.

وكانت السفن البريطانية الحربية والخاصة، تكمن عند الساحل الأمريكى لتصادر الغنائم متى تشاء. كما أنها قبضت على بحارة، كما فى الحالة سيئة الذكر «شيزاپيك» عام ١٨٠٧، حين سخرت للبحرية الملكية من زعمت أنهم هاربون من الخدمة. وعندئذ، فإن أمر بريطانى، ومرسوم برلين لناپليون، أعلنا الحظر المتبادل على أوروپا والجزر البريطانية، وأصبح المحيط الأطلنطى زاخرًا بأعداء التجارة الأمريكية. وأصبح

چيفرسون يفكر مليا فى الحرب، وطلب زيادة فى ميزانية البحرية. ولكنه فى البداية جرب الأسلحة الاقتصادية: الحظر وقوانين حظر الاستيراد لعام ١٨٠٧ التى حظرت الصادرات الأمريكية عن الدول التى تتدخل ضد تجارتنا.

لم تجد الحرب الاقتصادية. وفى الحقيقة، كان الخطأ هو نفسه الذى ارتكبه واضعو المعاهدة النموذجية: أى المغالاة فى تقدير القدرة الاقتصادية الأمريكية. فلو أن الأوروبيين قد تضرروا من رفض الولايات المتحدة تحدياتهم، لهلك التجار الأمريكيون وعلا صراخهم مطالبين برأس چيفرسون !.

وفى عام ١٨٠٩، خفف الكونجرس الحظر بمرسوم حظر التجارة فقط إلى الموانئ البريطانية والفرنسية، على أمل حث تلك القوى على أن تبطل معوقاتها. ولكن ذلك أيضًا لم يُجد. ولذلك حاول الكونجرس اقترابا ثالثا فى عام ١٨١٠ بإلغاء كل الاشتراطات، ولكن تم تفويض الرئيس (الآن، چيمس ماديسون) فى الرد بالمثل على بريطانيا وفرنسا.

وأعلن نابليون رفع الحظر. بناء على ذلك حظر ماديسون التجارة مع إنجلترا. واسترعى ذلك فى النهاية انتباه لندن. وبعد جدال طويل قرر مجلس الوزراء البريطانى فى يونيو عام ١٨١٢ رفع الأمر السابق للمجلس، وأنهى التحرش بالسفن الأمريكية. ولكن قبل أن تعبر الأخبار الأطلنطى، كان اليانكيون فى النهاية قد فقدوا صبرهم. واختاروا أن يشعلوا حرب الأتقياء الصالحين.

لماذا حرب الأتقياء الصالحين؟ هل عكست حرب عام ١٨١٢ الاستثنائية الأمريكية بشكل لم يعكسه الحظر وأشباهه؟ لقد سخرت الحكمة التقليدية من ذلك، واقترحت بدلا من ذلك أن الحرب على أحسن الظنون، كانت تصرفا غبيا، وعلى الأسوإ عدوانيا، بتأثير صقور الحرب فى الكونجرس.

إنهم، وليس ماديسون، قد دفعوا الولايات المتحدة إلى الحرب. وظهر للوهلة الأولى أن معظمهم شباب من الغرب والجنوب. فالممثلون من الدوائر الشمالية والحضرية، على العكس، صوتوا فى معظمهم ضد الحرب.

لماذا كان ذلك؟ لماذا كانت أقسام البلد الأقل تأثرا بالأضرار البحرية يصرخون من أجل الحرب، بينما اليانكيون الذين كانوا عرضة للمضايقات يرفضونها؟ وفى محاولاتهم للإجابة عن هذه الأسئلة، كشف المؤرخون عن أسباب أخرى ممكنة،

مثل الغضب الزائد من التواطؤ البريطانى المزعوم مع الهنود، والشهوة فى الحصول على الأرض، خصوصا فى كندا.

ومهما كان هناك أمريكيون (مثل المتهور أندرو چاكسون) أملوا أن ينتهزوا هذه المناسبة لغزو أراض جديدة، فإن مسائل الحدود لم تكن لتقلب الميزان. والدليل على ذلك ببساطة، أن التصويت على الحرب لم يكن قطاعيًا، بل كان على حزبية. كما لا يمكن القول بأن الاقتصاد كان هو الموضوع الأساسى لأن الفيدراليين كانوا يمثلون المصالح التجارية التى تعارض الحرب(٥٣). كما أن ماديسون لم يوص بالحرب فى رسالته: هو سماها فحسب «مسألة مهيبة، حيث إن الدستور عهد بها بحكمة للفرع التشريعى للحكومة». وبعد ذلك مضى يعدد «الأضرار والإذلالات التى تراكمت على بلدنا»، وضمن كلامه أن «حالة الحرب ضد الولايات المتحدة، قد وُجدت بالفعل»(٥٤)، ولكن كان يمكن قول ذلك فى عام ١٨٠٧ أو عام ١٨١٠، فلماذا فى يونيو عام ١٨١٢ صوت مجلس النواب فى النهاية بأغلبية ٧٩ ضد ٤٩، ومجلس الشيوخ بأغلبية ١٩ ضد ١٣ مع الحرب؟

تعرض ثلاثة تفسيرات - من الحس العام - نفسها: التفسير الأول والأكثر وضوحًا هو أن الشعب الأمريكى كان قد ضاق ذرعا باقتناص السفن والشحنات والبحارة عامًا بعد عام. وعندما ظهر دليل جديد على استعمال البريطانيين للهنود، ونوبة جديدة من تسخير المقبوض عليهم فى عام ١٨١١، انعقد الكونجرس بمزاج عاصف. والتفسير الثانى أن كل تلك الأخبار السيئة ظهرت أيام الجمهوريين. فمنذ ١١ سنة، اتخذ چيفرسون وماديسون، إجراء بعد إجراء، ولكن ذلك جعل الأمور تسير من سيئ إلى الأسوإ لأصحاب السفن الأمريكيين وقطاعات التصدير التى تعتمد عليهم. وحقق الجمهوريون الديمقراطيون مكاسب انتخابية أخيرا فى عام ١٨١٠، ولكن إذا لم يتبرَّءوا من السياسات الفاشلة فى الماضى، ويتخذوا إجراءً حازما، فإن الحزب قد يتعرض للانشقاق أو لفقد أصوات الناخبين.

والتفسير الثالث أن الانتهاكات البريطانية للسيادة الأمريكية جعلت قرار الحرب مسألة شرف قومى أكثر منها مسألة مصالح مادية. فالاستقلال الأمريكى أصبح محل سخرية، وكانت الحرب الطريق الوحيد لاستعادة شرف الاستقلال. فقد

استخلص مجلس وفود ڤيرچينيا النتيجة: «أصبح السلام الذى نحظى به الآن شائنًا، والحرب أصبحت مُشَرِّفة».

وخطب ماديسون فى عام ١٨١٣ عن أن «الإحجام تحت الظروف الحالية عن مقاومة رجولية قد يهيئ... الاعتراف بأن الأمريكيين ـ بخلاف الأمم المستقلة ذات الحقوق المتساوية ـ ليسوا إلا مستعمرين تابعين». وحذر چون سى كالهون من ساوث كارولينا من أننا «إذا خضعنا لادعاءات بريطانيا التى أصبحت علنية واضحة، فإن استقلال هذه الأمة سيضيع.. إنه الكفاح الثانى من أجل حريتنا»(٥٥).

لقد كانت حرب عام ١٨١٢ نتيجة جانبية سيئة للحرب العالمية التى أشعلها ناپليون. إذ بدأت فقط بعد أن بطلت أسباب الحرب (لم تكن معروفة للأمريكيين!)، وانتهت قبل نشوب معركتها الكبرى فى نيو أورليانز، واستعادت ببساطة معاهدة السلام فى ديسمبر من عام ١٨١٤ الوضع القائم قبل الحرب: لا إلحاقات أرض، لا تعويضات.

إنها لم تكن مجيدة برغم أنها تضمنت مآثر مجيدة، وكانت مصدرًا للشر والخير فى حكم أحد مبعوثى السلام، ألبرت چالاتين (أهمل ذكر «القبيح»)(٥٦). ولكن فى عقول معظم الأمريكيين، حققت الحرب غرضها الذى كان تحذير البريطانيين منهم، وتذكير العالم أنه بينما لم يكن لدى الأمريكيين نية التدخل فى شئون الآخرين، فإنهم كانوا غيورين بشراسة على حريتهم هم.

❊❊❊

إذا كانت حرب عام ١٨١٢ صدًى بشكل أو بآخر لحرب الاستقلال، فإن التحدى الذى فرضته الثورة الفرنسية قد وجد صداه فى الاختبار الرابع لدپلوماسية الولايات المتحدة. أى: ثورات أمريكا اللاتينية. ستوصف سياسة الولايات المتحدة تجاه الهيجان الكبير فى الأراضى الجنوبية للعالم الجديد بشكل أفضل فى الفصل الثالث، فى سياق ما يُسمى مبدأ مونرو، ولكن النتيجة، كما فى الاختبارات الثلاثة الأولى، أنه بعد بدايات زائفة وآمال زائفة هربت الولايات المتحدة من مفهوم صنع أرضية مشتركة مع الثوار الأجانب، كما ستفعل مع محاولة إغراء لوسيفير. وكان الروح المرشد، چون كوينسى آدامز، الذى من خلال دحضه

مذهب الهرطقة عن أمريكا الصليبية، شكل مرة وللأبد العقيدة الأرثوذكسية عن «الاستثنائية الأمريكية» فى خطاب الرابع من يوليو عام ١٨٢١ :

أمريكا لن تذهب إلى الخارج بحثا عن وحوش لتقضى عليها، إنها ترغب فى الحرية والاستقلال للجميع. إنها بطلة نفسها فقط، وسوف توصى بالمصلحة العامة بالاعتماد على صوتها، وبضربها المثل فى تعاطفها اللطيف.

إنها تعلم جيدا أنه بمجرد أن تجند نفسها تحت رايات أخرى غير رايتها، حتى لو كانت رايات الاستقلال الخارجى، فإنها سوف تورط نفسها فيما أبعد من قوى التحرير، فى كل حروب المصالح والمكائد والجشع الفردى، والحسد والطموح، واغتصاب الحريات. إن الولايات المتحدة يمكن أن تكون ديكتاتورة العالم، ولكنها لن تعود المسيطرة على روحها هى[٥٧] .

إذن ماذا عنت الاستثنائية الأمريكية عندما تطرقت إلى السياسة الخارجية؟ هل لن تصنع الولايات المتحدة تحالفات ؟ لن تقاتل حروبا، وسترفض بازدراء الخدع والمكائد؟ بالطبع لا . ومع كل، فإن القابلية الأمريكية للاختراق من عام ١٧٧٦ إلى عام ١٨٢٠ أثبتت فقط الحكمة السرمدية للشعار الرومانى : «إذا أردت السلام ، فاستعد للحرب» ، وستجد هذا القول الفصل فى كتابات واشنطن وآدامز وجيفرسون وهاملتون وفرانكلين وجاى وباتريك هنرى وجون مارشال وجيمس جادسدن وريتشارد هنرى لى[٥٨] . هل عنت الاستثنائية الأمريكية أن الآباء المؤسسين التزموا فقط بنهايات مثالية يتم ا لتوصل إليها بطرق حافلة بالتدقيق والورع؟

يمكن أن يكون جيفرسون قد أمل أن تكون كذلك ، ولكنه لم يتوان عن الانحناء أمام المصالح القومية .

هل يعنى ذلك أن الولايات المتحدة سوف تأخذ مسار الحرية فى كل مكان وتختار أصدقائها على أساس المبادئ الجمهورية؟ لا، مطلقا... فإذا اختلفت السياسة الخارجية الأمريكية عن تلك التى كانت لقوى العالم القديم، أو تحسنت عنها، فقد كان ذلك فحسب لفضيلة حقيقة أن الولايات المتحدة كانت جمهورية، ومن هنا،فإن سياساتها عكست مصالح الشعب وليس مصالح سلالة حاكمة.

❋ ❋ ❋

لقد تحددت الاستثنائية الأمريكية ـ كما تصورها آباؤنا المؤسسون ـ بما كانت عليه أمريكا فى الداخل. ووجدت السياسة الخارجية لتدافع ـ وليس لتحدد ـ عما كانت عليه أمريكا. وطبقًا للظروف، فإن كل صنوف التكتيكات يمكن أن تكون مناسبة، عدا ما يؤدى لتآكل الوحدة والحرية الداخلية. وهذا الاستثناء السابق ليس بأى معنى تافها. عنى ذلك أن على الولايات المتحدة أن تعيش فى توتر تهرب منه الدول التسلطية: توتر بين مطالب الدفاع القومى وحريات الأفراد المطلوب الدفاع عنهم. ذلك التوتر كان واضحًا فى مقاومة الجمهور للضرائب التى جمعت للأغراض العسكرية. وكان واضحًا فى الاحتجاج على القوانين الفيدرالية ضد الفتن والأجانب التى كانت تعنى قمع مثيرى الاضطراب من الفرنسيين و(الأيرلنديين)، لحد الإضرار بحرية التعبير والاجتماع. وكان واضحًا فى احتجاجات التجار ضد الحظر، الذى أضر بحريتهم فى التجارة بأكثر من البريطانيين والفرنسيين. وقد تنبأ واضعو الدستور بتلك التوترات، ولكنهم وثقوا بأن الوحدة الوطنية وفهم الحرية سوف يتوافقان مع متطلبات الدفاع، مادامت السياسة الخارجية حكيمة وليست أيديولوچية.

ولكن نجاح التجربة الأمريكية تطلب أكثر من الحكمة لدى الحكومة. فقد تطلب الفضيلة بين الناس: الفضائل الكلاسيكية والتوراتية، من الوطنية والتضحية والتسامح وضبط النفس. فالآباء المؤسسون تنبهوا لما كان مستبعدًا فى التزامهم: إغراء القوة وخطورة انتشار الرذيلة فى المجتمع الحر. حتى أن چون آدامز توقع أنه عاجلاً أو آجلاً سوف تسقط أمريكا مثل إسرائيل ويهوذا وأثينا وروما، وترفض عبء الحرية، فتستسلم للانحطاط والرضا عن النفس، وحتى كراهية الذات، وتدخل فى طور انحدارها وسقوطها. ولذلك، فإن الجانب الزلق للتباهى بالاستثنائية كان تحذيراً، ذهبت قلة لتضمينها، ولكن ذلك كان إنذار «مدينة فوق التل».

وتقليدا لخطبة وداع موسى فى سفر التثنية، حذر ونثروب من أنه «إذا تعاملنا بزيف مع الرب، فإنه سوف يسحب عونه الحالى لنا، وسنكون حكاية وموضع سخرية العالم، وسوف نفتح أفواه الأعداء لتتحدث بالشر بطرق الرب وبكل ما أعلنه الرب للأشرار، وسوف نخيب آمال خدام الرب ونجعل صلواتهم تتحول إلى لعنات علينا حتى نهلك فى الأرض الطيبة التى نحن ذاهبون إليها»[٥٩].

وواشنطن، أيضًا، التمس العناية الإلهية فى التجربة الأمريكية، وناشد جنوده وشعبه لغرس الفضيلة خشية أن تفسد الحرية. وتحدث چيفرسون بتعابير علمانية، ولكنه وافق على أن الشعب الأكثر حرية، عليه أن يمارس أكثر الضبط الذاتى. وكان چون آدامز يعتقد أن الكتاب المقدس قدم «النظام الوحيد الذى عمل دائما وسيحفظ دائما الجمهورية فى العالم»[٦٠]. وفى أوقات تلت، استمر الأمريكيون يقيمون مؤسساتهم بمعايير الفضيلة، ودائما ما وجدوها فى حاجة للازدياد، وما لم يتطلبوه هو أن تكون علاقاتهم مع الأجانب بالتدقيق ذاته.

الفصل الثانى

الأحـــــادية

أو

(المسماة) الانعـــزاليـــة

(« ويل للبنين المتمردين» يقول الرب: الذين يـنفذون خطة ولكنها ليست خطتى، والذين يسعون إلى تكـوين عصبة ولكنها ليـست من روحى، والذين يذهبون لينزلوا إلى مصـر ولـم يطلبوا نصيـحتى ولم يسألوا فى والذين يلتـجئون إلى حصن فـرعون ويحتمون بظل مصر)[1].

[سفر أشعيا_أصحاح ٣٠: ١_٢]

❊ ❊ ❊

إن موقـفنا المنعزل والمتـباعد يدعـونا ويمكننا من أن نتبع منهـجًا آخـر. لماذا نضيع مـزايا هذا الوضع الخاص جـدًا؟ لماذا نهـجر مـالدينا لنقف عـلى أرض غيـرنا؟ لماذا نشبك مـصيرنا بـأى جزء من أوروپا، ونربك سلامنا وازدهارنا بمـكايدات الطموح، والتنافس، والمصلحة، والدعابة أو الهوى الأوروبى[2].

لـم تكن أيامـهم وأماكنهم وطرق إقناعـهم تختلف كثيرا، فالنبى أشعيا والرئيس واشنطن كانوا يعظون بالدرس نفسه: لا تضع ثقتك فى الحلفاء، خصوصـا أولئك الذين هم أقوى منك، ففى أفضل الأحوال سيجعلونك قطعة شطرنج فى ألعابهم. وبالعكس، عليكم أن تثـقـوا فى الرب وفى أنفسكم فى تعاملكم مع الغـرباء، ولا تكونوا بعيدين عن الحماية التى تكفلها العناية الإلهية الكريمة.

وثانى أكـبر التقـاليد فى السيـاسة الخـارجيـة للولايات المتحـدة ما يسـمى عـادة «الانعـزالية»، ذلك بالرغـم من الجهـود التى أصر عليـهـا المؤرخـون الدپلومـاسيون ليبلغونا أن مثل هذا المبدإ لم يؤثر أبدا فى أى حكومة أمريكية، وأن الكلمة نفسها دخلت الاستخدام العام فقط فى ثلاثينيات القرن العشرين. ولكن بكل تأكيد ترجع الإشارات لـ «انعـزالية» أمريكا إلى الأزمان الكـولونيـالية، ولكن واضعيـهـا كانوا يشيرون فقط إلى حقيقة جغرافية. وفى عقود ما بعد الحرب الأهلية، ترددت كلمة

«انعزالية» بأكثر مما هو معتاد، ولكن كصدى لشعار بريطانيا أيام الملكة ڤيكتوريا حول «العزلة الرائعة».

والمؤرخون الأمريكيون، الذين راجع كتاباتهم بدقة تامة چيرالد كومبس، أكدوا سياسة «الحياد الرجولى»، ولكنهم لم يذكروا العزلة حتى تسعينيات القرن التاسع عشر[٣].

ولكن ما جاء بـ «العزلة» إلى وعى الجمهور الأمريكى، هى الدعاية التى أثارها بحارة مثل الكابتن أ. ت. ماهان، الذين أرادوا أن يلصقوا بنقادهم المعادين للإمپريالية صفة تقول إنهم أفظاظ من الطراز القديم، وعلى هذا أعلنت صحيفة واشنطن پوست، فى وقت الحرب الإسپانية ـ الأمريكية«أن سياسة العزلة قد ماتت»[٤].

كما أن قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية، كانت إشارته الأولى للمفهوم فى عام ١٩٠١، يقول: «من هنا. . الانعزالى، الشخص الذى يفضل العزلة أو يدافع عنها. وفى السياسة الأمريكية، فإنه الشخص الذى يعتقد أنه ينبغى على الجمهورية أن تتبع سياسة العزلة السياسية».

والمثال الذى ذكره قاموس أكسفورد جاء من المقال الافتتاحى فى صحيفة «فيلادلفيا پرس» عام ١٨٩٩ مشيرا إلى شعوب ما وراء البحار الذين استوعبتهم الولايات المتحدة بعد الحرب الإسپانية ـ الأمريكية: «إن موافقتهم كان يجب أن تتم أولا ـ طبقًا لعقيدة الانعزاليين». وأول ذكر فى قاموس وبستر لـ «الانعزالى» (وليس الانعزالية حتى الآن)، يبدو أنه ظهر فى طبعة عام ١٩٢١. ولم تضع الموسوعة البريطانية أبدا «الانعزالية» عنوانا إلا بعد الحرب العالمية الثانية، حين أشارت موضوعاتها عن الدپلوماسية إلى الظاهرة.

ومما يدل على ذلك أكثر أنه حتى انعزاليى ثلاثينيات القرن العشرين، لا يستخدمون هذا اللفظ (انعزالى) ويفضلون أن يسموا أنفسهم بالحياديين أو القوميين. لذلك، فإن تقليدنا المتبجح المتعلق بالانعزالية، ليس تقليداً على الإطلاق، ولكنه كلمة قذرة يقذف بها التدخليون ـ خصوصا بعد پيرل هاربر ـ فى وجه كل من يشك فى سياساتهم.

ودعنا نستغنى عن المصطلح نهائيا، ونحل محله كلمة تصف حقيقة التقليد العظيم الثانى فى العلاقات الخارجية الأمريكية وهو: الأحادية. لقد كان طبيعيا وناتجا حتما عن التقليد الأمريكى الأول، لأنه إذا كان جوهر الاستثنائية هو الحرية فى الداخل، فإن جوهر الأحادية أن تكون حرا لتجعل السياسة الخارجية مستقلة عن «مكائد الطموح الأوروبى».

فالأحادية لم تعن أبدا أن الولايات المتحدة، يجب أن أو سوف (لهذا الغرض)، تعزل نفسها، أو تتبع سياسة محاكاة النعامة تجاه الأقطار الأجنبية. إنها تعنى ببساطة، كما أكد كل من هاملتون وچيفرسون، أن مسيرة الولايات المتحدة الواضحة كانت أن تتجنب الأحلاف المربكة الدائمة، وأن تبقى محايدة فى حروب أوروپا إلا عندما تكون حريتنا ـ أول تقاليدنا المقدسة ـ فى خطر.

❋❋❋

لقد ظهرت أحاديتنا ـ بشكل طبيعى تماما ـ نتيجة للمداولات السياسية فى القرن الثامن عشر حول الموقف الملائم لبريطانيا (ومن ثم لأمريكا) تجاه القارة الأوروپية. ولخص روبرت والپول رئيس الوزراء العظيم المعارض لحزب المحافظين (من حزب الأحرار)، هذه الحكمة البريطانية فى عام ١٧٢٣ عندما كتب: «سياستى أن نكون متحررين من كل الارتباطات بقدر ما نستطيع». وكان إيرل پومفرت قد أخبر مجلس اللوردات فى عام ١٧٥٥: «أن الطبيعة فصلتنا عن القارة (أوروپا). وكما أنه ما من أحد ينبغى أن يسعى لفصل ما ربطه الإله الأعظم، فلا أحد ينبغى أن يسعى ليربط ما فصله الإله الأعظم»(٥). لذلك، كانت سياسة إنجلترا الحقيقية أن تستغل مزايا كونها جزيرة منعزلة وتغذى توازن القوى فى القارة الأوروپية، بينما تتجنب الحروب على الأرض قدر الإمكان. وتعتمد على بحريتها وتسيطر على تجارة العالم. وإذا مَثّل هذا حكمة لبريطانيا، فما بالك به بالنسبة للمستعمرات «المنعزلة» عبر البحار؟!

لقد كان فرانكلين أحاديا مقتنعا، حتى قبل أن يعلن الكونجرس الاستقلال، والمعاهدة النموذجية هى التى تصف بدقة الروابط السياسية مع القوى الأجنبية، وقد سماها پين «مصلحة أمريكا الحقيقية فى أن تبتعد بوضوح عن النزاعات الأوروپية».

وألح چون آدامز على أننا «يجب أن نحسب كل إجراءاتنا، ومفاوضاتنا الأجنبية بطريقة تجعلنا نتجنب الاعتماد أكثر من اللازم على أى قوة فى أوروپا»[٦].

ولكن ماذا كانت دوافع الأحادية الأمريكية؟ هل كانت إستراتيچية، أو تجارية، أو أخلاقية؟ أو مجرد تعبير عن الميل الانفصالى للمهاجرين الذين هجروا أوروپا ويريدون أن يبقوا بعيدا عنها؟ حتى المؤرخين المدققين مثل فليكس جلبرت لجئوا إلى منطق معين ملتو فى محاولة تبرير التحفظ الأمريكى، فهو يقول:

لقد جرت العادة عند شرح السياسة الخارجية للجمهورية الشابة وتأكيدها على التجارة وعلى تجنب الارتباطات السياسية اعتبارها سياسة عزلة. ومما لا شك فيه، أن الخلفية الإنجليزية للأفكار التى أسهمت فى تكوين نظرة أمريكا للسياسة الخارجية تضمنت عنصرا انعزاليا. ولذلك، إذا وضعنا الأفكار إلى جانب تلك الفلسفات الأوروپية، فسيصبح واضحا أن التفسير الانعزالى أحادى الجانب وغير كامل:فالسياسة الخارجية الأمريكية كانت مثالية وعالمية مثلما هى انعزالية[٧].

ولكن الحاجة للتوفيق بين تلك التناقضات الواضحة تختفى إذا نظرنا إلى «الاستثنائية الأمريكية» كرسالة (مهمة) ليست فى سبيل المبادئ العالمية ولكن فى سبيل الحرية فى الداخل، وبعد ذلك نطرح مفهوم «انعزالية» لم يوجد على الإطلاق، لمصلحة الأحادية. وفجأة، يخف التوتر الظاهر بين المثالية والواقعية، كما أن السياسة الخارجية الأمريكية المبكرة تكشف عن حقيقتها وهى أنها كلٌّ متماسك ومتسق داخليا.

هل ترى هذا العالم السعيد بعيدا عن كل عدو؟...

وعن إيذاءات أوروپا وعن كل متاعب وأحزان أوروپا[٨]؟

كان المنطق وراء مثل تلك التركيبة المعادة، مذهلا.

أولا: إذا انخرطت الولايات المتحدة فى الحرب والإمپريالية على غرار النموذج الأوروپى، فقد كان عليها أن تبنى جيوشًا وأساطيل كبيرة، وأن تفرض الضرائب والتجنيد الإلزامى على شعبها، وتحد بشكل عام من حريتها الداخلية (هى أساس وجود الجمهورية).

ثانيا: أن الولايات المتحدة إذا أصبحت منخرطة فى الصراعات الأوروبية، فإن الولايات المتحدة ستضطر إلى لعب دور الشريك الأصغر فى الأحلاف مع الإمبراطوريات العظمى، وربما تخسر. . أو تخسر رعاية مصالحها القومية.

ثالثًا: أنها إذا أصبحت منخرطة فى الصراعات الخارجية، فإن القوى الأوروبية كانت ستتنافس على مودة الأمريكيين، وبما تفسدهم بالدعاية والرشا، وتفرقهم شيعًا.

رابعًا: إذا ارتبطت الولايات المتحدة بالمنافسات الأوروبية، فإن ساحات المعركة ستطول بالتأكيد الأراضى والمياه الأمريكية ذاتها، كما حدث لما يزيد على قرن.

لذلك كان الحياد الطريق الوحيد الأخلاقى والپراجماتى (النفعى) للأمة الجديدة. فعقد الأحلاف لا يمكن إلا أن يأتى بالفساد فى الداخل والخطر من الخارج، بينما الحياد يحمى الحرية والنمو القومى، هل كانت هذه الخيارات السياسية سهلة دائما بحيث يستطيع المرء أن يكون ناجحا عندما يفعل الشىء الصحيح؟ ولكن هذه كانت الدولة المباركة التى وجد الأمريكيون أنفسهم فيها. فموقعهم الجغرافى والسياسى كان مفضلا، وكانوا هم أنفسهم وحدهم الذين يمكنهم أن يفسدوه. .

وقد أدرك الأوروپيون ذلك. وكتب توماس پاونال، السياسى البريطانى صاحب الخبرة الكبيرة فى المستعمرات، يقول أثناء الثورة: إن على ملوك أوروپا أن يستعدوا جيدا لظهور تحدٍّ عظيم لهم فى الجهة الأخرى من الأطلنطى. وتنبأ بأن أمريكا بمرور الوقت ستكون «الحكم» فى التجارة ووسيط السياسة العالمية إذا (جلست فقط) واستغلت ميزان القوى الأوروپى لتوسع سيطرتها على القارة الأمريكية(٩).

وفى عام ١٧٤٨، عبَّر الوزير المفوض السويدى فى لندن عن النقطة ذاتها بتعبير آخر أكثر بساطة عندما قال لچون آدامز: سيدى: «إننى أعده أمرا مسلما به أنك سوف يكون لديك الإحساس الكافى لترانا فى أوروپا يقطع كل منا رقبة الآخر بينما تراقبنا بهدوء فلسفى»(١٠).

ولكن الحرية الكاملة للحركة ـ الأحادية ـ كانت شبه مستحيلة لأمة شابة لم تزل هشة، كما أن العزلة التامة كانت حلما مثل اليوتوبيا. فمحيط تناثرت فيه

الفرقاطات الأوروبية كان خطرا كما لو كان خندقا، والأمريكيون كانوا يحتاجون إلى التجارة ورأس المال من أجل النمو، وبأى حال، فإن أمن الولايات المتحدة اعتمد على توازن القوة بين بريطانيا وفرنسا، كما اعتمد الأمن البريطانى على توازن أوروبا. ولكن أى ظهور لميل أمريكى تجاه بريطانيا أو فرنسا كان سيراه الجانب الآخر ليس كعمل أحادى لطرف محايد، بل كتحالف مع عدو.

لذلك، كيف كان يمكن للولايات المتحدة أن تناور تجاه وضع الأحادية الحقيقية؟ فقط بالنمو الشعبى الموسع، المزدهر، الذى لا يمكن اختراقه من المحيط، لتتمكن من أن تتعامل مع أوروبا من موقع القوة. وذلك بالضبط، ما تنبأ پاونال، وواشنطن، وچيفرسون، وهاملتون، وآدامز بأنه يمكن أن يحدث فى مدى قصير، بافتراض بقاء الأمة على قيد الحياة سليمة، خلال عقود تكوينها.

فخبرة الأمة طيلة العشرين عامًا الأولى أثبتت نفعية «الأحادية» مرة بعد الأخرى. ما أسرع ما أبرم فرانكلين سلامًا مع بريطانيا، إثر التحالف الفرنسى ـ الأمريكى، لما قد يثيره مثل ذلك التحالف مع فرنسا ـ وبالتالى حليفتها إسپانيا ـ من مخاطر الاعتماد عليهما، تلك المخاطر التى سرعان ما عاينها مبعوثو الكونجرس فى پاريس.

ولكن انطلقت فجأة محاولة أكثر إغراء لتحاشى «الانفرادية». فالحياديون الأوروبيون، خلال حرب الاستقلال الأمريكية ترابطوا جميعًا تحت قيادة روسية فى عصبة الحياد المسلح، ضد كل المولعين بالقتال. وكان شعار العصبة: «سفن حرة وبضائع حرة»، قد بدا كصدى لمبادئ المعاهدة ـ النموذج الأمريكية، وفى عام ١٧٨٣ اعتقدت هولندا أن الأمريكيين سوف يتعاطفون مع العصبة، وحثت الولايات المتحدة على الانضمام لها. تدبر الكونجرس الأمر، ثم رفضه صراحة: «المصلحة الحقيقية للولايات تكمن فى التقليل بقدر الإمكان من اشتباكها مع سياسات وتناقضات الأمم الأوروبية»[١١].

وفى العقد التالى، كما رأينا، كان على الولايات المتحدة أن تصارع للحد من ارتباطاتها خلال حروب الثورة الفرنسية. ولم تكن هناك أبدًا مسألة عزلة، ليس فقط بسبب هشاشة الولايات المتحدة بحريًا، ولكن بسبب المالية العامة. فالبلد كان مدينا بشدة بسبب صراعه من أجل الاستقلال وبسبب أن سنداته القارية وعملته كانت أوراقا

مضحكة . ولذلك كانت الثقة فى الولايات المتحدة ترتفع وتهبط اعتماداً على العوائد الفيدرالية . ولكن جاء الجانب الأعظم من تلك العوائد من التعريفة على الواردات الأجنبية ، التى كان ما يزيد على ٩٠٪ منها يأتى من بريطانيا العظمى .

وبالنسبة للفيدراليين ، خصوصاً وزير الخزانة هاملتون ـ الذى كان يفضل بريطانيا بأى حال ـ كانت النتيجة واضحة . فالولايات المتحدة عليها أن تتجرع قدراً مؤكدا من التدخل البريطانى ضد الشحن المحايد ، الأمر الذى تولد عن حرب بريطانيا ضد فرنسا من أجل تشجيع التجارة الصديقة بقدر ما تستطيع : من هنا كانت معاهدة چاى الخلافية فى عام ١٧٩٤ .

وهذا الميل الواضح تجاه بريطانيا ، هو ما أثار حنق ممثلى الثورة الفرنسية ، چينيت الأسوأ سمعة ، الذى تآمر لتحويل الرأى الأمريكى ضد السياسات الفيدرالية .

وبحلول عام ١٧٩٦ ، دفعت النظرية والتجربة الأمريكيين من كل المشارب ، إلى استخلاص لا مفر منه ، بأن الولايات المتحدة ـ وعلى وجه التحديد ـ بسبب أنها لاتستطيع أن تعزل نفسها عن التجارة والصراع فى الأطلنطى (ناهيك عن ذكر الإمبراطوريات الأوروبية المجاورة فى شمالى أمريكا) ، يجب أن تناضل لتقلل تورطها ، باتباع سياسة «إننى لا أحب أن أكون مرتبطًا بالسياسة الأوروبية» قالها چون آدامز ثاقبًا . « [أمريكا] بعيدة عن أوروبا ، ولا ينبغى أن تنخرط فى سياستها» . قالها ماديسون . «إنه قول شائع بيننا ، وأعتقد أنه صائب ، ألا نربط أنفسنا بالشئون الأوروبية» كتب چيفرسون . «إنه ينبغى أن تبعد عنك ـ كصندوق الپاندورا(*) هرطقة الحلف الوثيق» كتب هاملتون[١٢] . وكانت الأكثر إثارة للانتباه كلمات نجل آدامز الذكى صاحب الخمسة وعشرين عاما ، كوينسى ، التى كتبها فى عام ١٧٩٣ :

هل هان الإخلاص البطولى والجود بالنفس من آلاف الأصدقاء والإخوة الذين أقبلوا على التضحية عند الهيكل المقدس للاستقلال الأمريكى ، حتى يتبخر ذلك الاستقلال لفقاعات ينفخها النفوذ الأجنبى فتتطاير كالهباء ، ويتلاعب بها طبقًا لمصالحه وأهوائه ؟ !

(*) صندوق الويلات والشرور والأعاجيب ، طبقًا للأساطير الإغريقية . (المترجم)

الهلاك للأمريكى الذى تكون روحه قابلة للخضوع لمثل هذه العبودية المتدنية!

فالأمريكيون، على الأصح، كانوا «أمة تتكون سعادتها فى استقلال حقيقى، وانفصال عن كل المصالح الأوروبية والسياسة الأوروبية»(١٣).

وواشنطن لم يقرأ فقط الرسائل المستعارة لكوينسى (ممتدحًا چون آدامز على حصافة ابنه) ولكن ـ أيضًا ـ عيّنه سفيرا للولايات المتحدة فى هولندا. ولذلك، ففى حالة الأحادية كما فى حالة الاستثنائية، (وتقليدين آخرين لاحقين)، كان چون كوينسى آدامز حاضراً فى الميلاد، ولكنه لم يكن كاتب خطاب وداع واشنطن، الذى أسس لأجيال، القاعدة العظيمة للأحادية الأمريكية.

واشنطن هو الآخر، تخيل وداعا قرب نهاية فترة رئاسته الأولى، واحتفظ بالخطاب حتى نهاية الفترة الثانية، وعمل على المخطوط الأول الخشبى، ثم طلب من ماديسون وهاملتون تنقيحه. وفعل ماديسون ذلك. ولم يفعل هاملتون.

ومنذ أن أعطاه واشنطن إجازة لنشره فى شكل آخر، وضع هاملتون مخطوطا رئيسيا أصليا، توسع فى تحذير الرئيس من مخاطر الانشقاق حول «المبدأ العام للسياسة»(١٤). ولن يفشل قارئ متيقظ فى عام ١٧٩٦ فى أن يلتقط إشاراته للمشكلات التى نجمت من الحلف الفرنسى، وقضية چينيت، والقتال حول معاهدات چاى وپنكنى. ولكن هاملتون تجاوز سياسات ذلك اليوم باستخدام أسلوب أعاد إلى أذهان الأمريكيين المتيقظين كلمات «الإدراك المشترك»، رفض الكونجرس لعصبة الحيادية ا لمسلحة، الأوراق الفيدرالية، والانتقادات الشعبية مثل خطابات كوينسى آدامز.

وللتأثير، كان هاملتون يذكر الأمريكيين بتقليد كانوا قد أكدوه على مدى عقدين، وكان يستخدم هيبة واشنطن ليضفى على ذلك التقليد نفخة حكمة سرمدية. ونحن نعرف النتائج(١٥):

احتفظ بإيمان قوى وعدل إزاء كل الأمم. ازرع السلام والوئام معها كلها. يفرض الدين والأخلاق هذا السلوك. وهل يمكن لسياسة أن تكون طيبة إلا بالسير فيهما بالتوازى؟ وسوف يكون مقدراً لأمة حرة متنورة، وبعد فترة قصيرة أمة عظيمة، أن تعطى للبشرية المثال الشهم والجديد لشعب يسترشد دائمًا بالعدل السامى والخير.. من

يشك فى أن هذا المنهاج سوف يؤتى ثماره الغنية، والتى تتجاوز أي ميزات مؤقتة تفوت باتباعه؟ هل يمكن ألا تربط العناية الإلهية نعيم أمة بفضيلتها؟

وبكلمات أخرى، كتب هاملتون / واشنطن، لا صراع بين الأخلاقيات والمصلحة الذاتية طالما ليس للأمريكيين انحيازات خارجية، ولا يجب أن يسمحوا لأنفسهم بابتلاع طعم أن يبتعدوا عن المردود طويل المدى لذلك السلوك الأخلاقى لحساب مزايا عابرة يمكن كسبها من المشاركة الخارجية. فالرب سيكافئ الفضيلة، التى تعتمد عليها التجربة الأمريكية على كل حال.

فى تنفيذ مثل هذه الخطة، فلا شيء أكثر جوهرية من أن الكراهية الدائمة والمتأصلة ضد أمم محددة والتعلق العاطفى بأخرى يجب أن يستبعدا، يجب أن تزرع - بدلاً من ذلك - أحاسيس الالتزام بالإنصاف واللطف تجاه الكل. فالأمة التى تبدى تجاه أخرى كراهية اعتيادية أو إعجابا اعتياديًا هى بدرجة ما فى عداد العبيد. والقاعدة الأعظم لسلوكنا تجاه الأمم الأجنبية، هو أن نوسع علاقاتنا التجارية مع ارتباط سياسى ضئيل ما أمكن. لننفذ - بحسن نية - ما أبرمناه حتى الآن من اتفاقيات، ولنتوقف على هذا.

ولكن هاملتون / واشنطن لم يتوقفا. أعادا أن الحرية سوف تفتح طريقا للعبودية إذا أغوت القوى الأجنبية المواطنين، وقسّمتهم فى الداخل. وذهب المؤلفان يغريان أبناء وطنهما بالمجد الذى سيمتد طالما ظلوا ثابتين على اهتماماتهم:

لدى أوروبا مصالح رئيسية، منفصلة - أو بعيدة تمامًا - عنا. من هنا، فإنها ستنخرط فى خلافات دائمة، لأسباب بعيدة تماما عن اهتماماتنا. ولذلك فمن الحكمة ألا نورط أنفسنا فى روابط اصطناعية خلال التقلبات العادية لسياستها.

إذا حافظنا على وحدتنا تحت حكومة كفئة، فلن يكون بعيدًا الوقت الذى نستطيع فيه أن نتحدى الاعتداءات الخارجية علينا، بحيث نفرض احترام حيادنا، وتحذر الأمم مخاطر استفزازنا، ويصبح بمقدورنا اختيار السلام أو الحرب طبقًا لمصالحنا، ووفقًا للعدل.

إن موقفنا المنفصل والبعيد يدعونا ويمكننا من أن نتبع سبيلاً مختلفًا..لماذا نضيع مزايا هذا الموقع المتميز؟ لماذا نتخلى عن وطننا لنقف على أرض أجنبية؟ لماذا - بربط

مصيرنا بمصير أى جزء من أوروبا ـ نربط سلامنا وازدهارنا بمكائد الطموح والمصالح والتنافس الأوروبى، أو الدعابة والهوى الأوروبى؟

. . ومن ثم إلى القاعدة العظيمة :

إنها سياستنا الحقيقية أن نسير بوضوح بعيدا عن الأحلاف مع أى قسم من العالم الخارجى. لا تفهم من قولى أنى أقبل خيانة الارتباطات الموجودة، فأنا أقبل بالقول الشائع الذى لا يقل قبوله فى المسائل العامة عن الخاصة: إن الأمانة هى دائما السياسة الأفضل. أكرر، لذلك، دع تلك الارتباطات تُراعى فى جوهرها، وفى رأيى، ليس من الحكمة ولا الضرورة توسيع تلك الارتباطات.

ولكن لاحظ أن هاملتون / واشنطن لم يقولا «ألغى حلف عام ١٧٧٨ مع فرنسا» (أيا كان قدر أملهما أن يفعلا ذلك)، ومن ثم، فيمكن للقراء أن يصرفوا النظر عن الوثيقة بحسبانها دعاية فيدرالية. ولكن «تُراعى فى جوهرها»، «ليس من الحكمة ولا الضرورة توسيع تلك الارتباطات»، عنيا بوضوح اقتراح الحكمة فى احترام التحالف مع فرنسا رسميا فقط. وخشية أن تقود لهجة الفقرة القراء ليخلطوا بين القاعدة العظمى، والشجب البين لكل أنواع التعاون مع القوى الأجنبية (ذلك حقيقة الانعزالية)، فإن الكاتبين وازناها بهذا:

الحرص دائما على أن نحفظ أنفسنا بنظام مناسب فى وضع دفاعى محترم، يمكننا أن نثق ـ بأمان ـ فى أحلاف مؤقتة، فى أوضاع طارئة غير عادية.

لذلك، فإن الأمن الأمريكى يمكن أن يتطلب ـ فى أوقات ـ تحالفات المدى القصير. طبعا، كان الخطر دائما أن الحلفاء الأقوى يستطيعون تقليص الولايات المتحدة إلى وضع الدولة ـ الزبون، من هنا، كانت الحاجة إلى استعدادات عسكرية مناسبة. وفى النهاية، خشية أن يبالغ القراء فى التصديق بالتحالفات المؤقتة على حساب العزلة، ختم هاملتون / واشنطن بتذكرة أخرى بأن الأجانب لا يوثق بهم:

توصى السياسة والإنسانية والمصلحة، بعلاقات ليبرالية متجانسة مع كل الأمم. حتى سياستنا التجارية، يجب أن تتوحد قواعدها تحت مبدإ المساواة بين الدول.. مع الأخذ فى الحسبان ـ دائمًا أبدًا ـ أنه من الحماقة أن تطلب أمة من أخرى معروفًا لا يتفق مع

مصالحها... ولا يتم هذا إلا بالتنازل عن جزء من استقلالها... ليس هناك خطأ أعظم من أن تتوقع أمة - أو تعمل حسابها - على مساعدة أو جميل من دولة أخرى.

إن ذلك محض وهم تبدده التجربة وترفضه الكبرياء الصحيحة.

إن خطاب وداع واشنطن وثيقة جديرة بالملاحظة[١٦] . فقد تطلبت «ضوابطها وتوازناتها» الداخلية أن تقرأ وتستوعب كاملة، مثل الكتابة المقدسة، خشية أن عبارة أوفقرة تبتر من سياقها وتصبح نصا للهرطقة. لقد كان الخطاب نتاج منتصف تسعينيات القرن الثامن عشر، ولكنه يرجع إلى أيام الثورة ويتطلع أيامًا إلى عهد توسع الولايات المتحدة وقوتها. إنه لا يضع سياسة تنقصها المرونة، ولكن بالأحرى يضع مجموعة مبادئ.

أولا: يجب أن تكون السياسة الخارجية الدرع الذى لا غنى عنه للجمهورية، ولكن الحماقة والتحيز، والتحزب والطموح المتعجل يمكن أن تحول السياسة الخارجية إلى خطر على الاستقلال والحرية.

ثانيًا: تتطلب السياسة الخارجية الحكيمة علاقات طيبة مع كل الدول الأجنبية، ولكن تتحاشى أى روابط سياسية مع أي منها، باستثناء حالات الطوارئ غير العادية.

ثالثًا: يجب أن تزيد الولايات المتحدة قوتها من أجل أن تدافع عن مصالحها ضد الأعداء، والحلفاء المؤقتين كذلك، بما أنها مازالت تفتقد القوة لردع أو دفع الأذى.

أخيرا، إذا حفظت هذه المبادئ الحصيفة، فإنه ليس ببعيد اليوم الذى يملك فيه البلد زمام القوة.

كل ما احتاج الأمريكيون إلى عمله، كان أن يتجنبوا الارتباطات غير الضرورية وأن يهتموا بنموهم السكانى والتجارى والحدودى.

لقد جرت العادة على حسبان أن الحياد، العزلة أو (كما أفضل) الأحادية أصبحت «تقليدا لحظيًا»، ولذلك كانت عظيمة سلطة واشنطن على مواطنيه.

تلك لم تكن الحال تماما. فكيفما أعجبوا بخدمته العسكرية، واشنطن كان فيدراليا قحًا، وكانت سياساته محل امتعاض شديد. تحدث فيلادلفيا چورنال بلسان كثيرين عندما اقترح أن يوم تقاعده سيتحول إلى يوبيل: «رب اجعل خادمك

يغادر في سلام فقد رأت عيناى الخلاص . . فالرجل الذى هو مصدر تعاسة بلده، نزل اليوم إلى مرتبة تابعيه المواطنين، ولم تعد لديه السلطة ليضاعف بلايا هذه الولايات المتحدة!»[١٧] .

وسيمر عقدان قبل أن يقوم صانعو الأيقونات والنحاتون مثل ماسون ويمز ، ونوح وبستر، وچون مارشال بتحويله إلى تمثال رخامى[١٨] .

وبمعنى آخر، فإن القاعدة العظمى لواشنطن لم تتطلب أن يكون مؤلفها أيقونة مبجلة، لأنها كما رأينا قد وضعت مبادئ، أقرها - تقريبًا - كل الآباء المؤسسين .

فقط هناك بعض المراقبين الأجانب الذين خدعوا فى البداية عندما مشطوا نص واشنطن من أجل تلميحات لتغير فى السياسة الأمريكية . وكمثال، فإن وزير الخارجية الفرنسى پيير أوجست آدى، فرح فى البداية للخدمة الشفهية التى أعطت لـ «الارتباطات الموجودة»، ثم أجاب بعد ذلك بمرارة، عندما تحقق من النية الحيادية للمؤلفين . ولكن آدى كان مخطئا عندما لام هاملتون وحده عما أسماه «الوقاحة» و«اللاأخلاقية»، فقد التزم چيفرسون أيضا المبادئ التى وضعها واشنطن، وفى العام التالى كتب : «رجال بلدنا قسموا أنفسهم بعواطف قوية تجاه الفرنسيين والإنجليز، ولن يؤمنهم شيء داخليا، إلا الطلاق من الأمتين»[١٩] .

وفى الوقت الذى ألغى فيه الحلف الفرنسى - الأمريكى فى عام ١٨٠٠ ، كان تاليران ينصح ناپليون بألا يتوقع شيئًا من سياسة الولايات المتحدة، حتى لو حصل الجمهوريون الديمقراطيون على الرئاسة : «إن چيفرسون سيجعل واجبه أن يوحد حوله الأمريكيين الحقيقيين ليستأنف بكل قوته نظام التوازن التام بين فرنسا وإنجلترا، والذى - وحده - يناسب الولايات المتحدة» .[٢٠]

وإذا كانت هناك شكوك حول أن الأحادية شكلت - بحسن نية - التقليد الأمريكى مع تحول القرن، فإن سلوك الرؤساء الجمهوريين الديمقراطيين (سلالة فرچينيا) ووزراء خارجيتهم، قد أزالوا تلك الشكوك . فچيفرسون تلمس «القاعدة العظمى» فى خطابه الافتتاحى وأورثنا العبارة : «لا انخراط فى الأحلاف» . واعتبر باختصار أن الحلف مع بريطانيا فى عام ١٨٠٢ ، كان فقط «الطارئ غير عادى» : منظور الإمبراطورية الناپليونية فى وادى المسيسيپى .

وفى عام ١٨٠٤ بعد أن أصبحت لويزيانا آمنة فى أيد أمريكية، ونابليون فى حرب مرة أخرى، قدم وزير الولايات المتحدة فى باريس اقتراحا سريا أن تنتزع الولايات المتحدة تكساس الخاوية من الحليف الإسپانى لناپليون. وچيفرسون كان مفتونا بذلك، ولكن وزير الخارجية ماديسون أشار بأن كل شيء يتوقف على الحصول على ضمان من بريطانيا أن تحجز البحرية الفرنسية ـ الضمان الذى لن تكفله بريطانيا إلا إذا كلفها حرب الولايات المتحدة[٢١]. وعندما واجه الاختيار بين توسع سهل وصيانة سياسة أحادية، اختار چيفرسون الأخير بلا تردد.

وفى عام ١٨١٢ ، دخلت الولايات المتحدة الحرب، ولكن بعيدا عن أن تتخلى عن الحياد، فقد فعلت ذلك دفاعًا عن الحقوق الطبيعية.. وبأحادية. فبالرغم من أن فرنسا والولايات المتحدة كانتا فى حرب ضد بريطانيا، فإدارة ماديسون لم تقل بأنها «مشاركة» (بعبارة ودرو ويلسون اللاحقة) وأقل كثيرا من «متحالفة» مع ناپليون. وبعد استعادة السلام عام ١٨١٥، كرر چيفرسون: «كلما قل تعلقنا بصداقات وعداوات أوروپا كان ذلك أفضل». [٢٢]

وأخيرا، عندما أطرى چورج كاننج لدى السفير الأمريكى فى لندن حكمة التأكيد الأنجلو ـ أمريكى المشترك على استقلال جمهوريات أمريكا اللاتينية، أقنع وزير الخارجية چون كوينسى آدامز مجلس الوزراء أن يرفض بازدراء مثل هذا الاقتراح الظاهر البراءة، كتهديد ـ فى جوهره ـ لحرية أمريكا فى التحرك. ولذلك، تحرك الرئيس چيمس مونرو، بانفراد، فى عام ١٨٢٣. ولم تنظر أي إدارة أمريكية فى أى ارتباط ـ ناهيك عن تحالف ـ حتى نهاية القرن.

***

لقد أصبحت القاعدة العظمى لواشنطن، خلال فترة ما أسماه مؤرخ ما قبل الحرب چورج توكر «اختبار استقامة الوطنيين الأمريكيين»[٢٣]. اختلف الباحثون الأمريكيون فى ثلاثينيات وأربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر، حول سداد تكتيكات الفيدراليين أو الجمهوريين الديمقراطيين، ولكن أكد كل منهم الأحادية. وهم كذلك فهموا، كما كتب دبليو. هـ. ترسكوت، أن الآباء المؤسسين عرّفوا

الحياد على أنه «الاستقلال التام للولايات المتحدة، وليس انعزالها عن الشئون العظمى فى العالم»[٢٤] . فعدم عزلة الولايات المتحدة لا تحتاج إلى دليل .

وكما أظهر ـ بإقناع ـ المؤرخ پول ڤارچ، فإن أمريكيى القرن التاسع عشر كانوا أعضاء حميمين فى الجماعة الأطلنطية، من كل وجه إلا ما يمس حيادهم وديمقراطيتهم المميزة .

وكمثال، فإن كثيرا من التكنولوچيا التى دفعت الثورة الصناعية الأمريكية، والملابس القطنية والصوفية التى كست الأمريكيين، جاءت من الخارج . وبين عامى ١٨٢٠ و١٨٥٠، تضاعفت الواردات الأمريكية أربع مرات لتصل إلى ١٤٤ مليون دولار سنويًا، كان ثلثاها من أوروبا . وظلت قيمة جمارك تلك الواردات المصدر الرئيسى للعوائد الفيدرالية . وجاء ـ أيضًا ـ معظم رأس المال الذى موّل المصانع والمناجم وَشَيَّد السكك الحديدية من الخارج، وكان حوالى ثلثى سندات الدولة الأمريكية والسندات البلدية فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر بأيدى أوروپيين، وحتى عام ١٨٥٣ كان الأوروپيون يمتلكون ما يزيد على ثلث الدين الأمريكى العام . وفى ذلك العام قدرت الخزانة الأمريكية إجمالى الاستثمار الأجنبى فى أمريكا بـ ٢٢٢ مليون دولار .

أتت العمالة من الخارج، كما أتى رأس المال . كانت الخصوبة الأمريكية هائلة . ولكن لم يكن بإمكان السكان الأصليين حفر القنوات ومد السكك الحديدية، وتنظيم نقل البضائع فى موانيهم المزدحمة، وإدارة الورش والمصانع، وتهيئة غرب الوسط للزراعة بتلك السرعة، لولا ملايين الإنجليز والإسكتلنديين والأيرلنديين والألمان الذين عبروا الأطلنطى قبل الحرب الأهلية .

وأظهر تعداد عام ١٦٨٠ أربعة ملايين مهاجر، وعدد المولودين فى الخارج فى ولايات غرب الوسط من ١١٪ فى أوهايو إلى ٣٦٪ فى ويسكنسون . وكان التأثير الخارجى على الثقافة الشعبية الأمريكية ضخما، ولكن ليس بأكثر منه على الثقافة الأمريكية العليا . ففى الصالونات من بوسطن إلى فيلادلفيا وقاعات الدراسة العمومية من دارتماوث إلى پرنستون، ناقش الأمريكيون المتعلمون مبدأ المنفعة عند چيرمى بنتام، والفلسفات الأخلاقية عند عمانويل كانت ودوجلاد ستيوارت

وروايات وشعر والتر سكوت وصمويل كوليردج ولورد بايرون وتشارلز ديكنز وتطلعوا إلى أوروبا القائدة فى العلم والطب واللاهوت والقانون.

لم يكن هناك عند الكتاب والعلماء الأمريكيين تقدير أكبر من أن تعترف أوروبا بهم. وكما قال ڤارج، فإن الولايات المتحدة «ظلت ثابتة على حيادها تجاه الصراعات الأوروبية. وبهذا المعنى فقط، كانت خارج الجماعة الأطلنطية»[٢٥].

ولم تكن الانعزالية ظاهرة فى السياسة الأمريكية التجارية. فمنذ سريان المعاهدة النموذج، شجعت الولايات المتحدة ـ بمثابرة وإصرار ـ التجارة مع كل الدول التى كانت راغبة فى التبادل. وتتضح جيداً مبادراتها فى نصف الكرة الأرضية الغربى وحافة المحيط الهادى، فى سياق التقاليد الأخرى. ويكفينا الآن أن نقول إن الحملة البحرية التى أرسلتها إدارة ڤان بورين إلى المحيط الهادى (بقيادة شارلز ويلكز) من عام ١٨٣٨ إلى عام ١٨٤٢ ، وتدخل إدارة تايلور من أجل استقلال هاواى فى عام ١٨٤١ ، والسعى القوى (والعنيف أحيانا) من إدارات تايلور، بوكانان وأندرو چاكسون وراء معاهدات تجارية مع الصين فى أعوام ١٨٤٤، و١٨٥٨ و١٨٦٨، إرسال إدارتى فيلمور وپيرس للقائد البحرى پيرى إلى اليابان، عرض إدارة جرانت حماية هاواى، وتأكيد إدارة كليفلاند الأولى على حماية ساموا ـ كل ما سبق إنما هو على سبيل المثال لا الحصر ـ لندلك على أنه من الصعوبة بمكان الزعم بأن ما قام بكل ذلك أمة منعزلة.

ولذلك، فإن ما نلاحظه عندما ننظر إلى التاريخ الأمريكى فى القرن التاسع عشر، أنها أمة مقتنعة بحكمة الأحادية. فما لم تحافظ الولايات المتحدة على حريتها فى أن تحدد توجهاتها الخارجية، فإنها يمكن أن تصبح عالقة فى تحالفات وانحيازات القوى الأوروبية، ترى مصالحها يدوسها الأعداء ويخونها الحلفاء، تخاطر بإعادة فتح القارتين الأمريكيتين للعبة الإمبراطوريات المتنافسة وتنحنى أمام الحاجة لصيانة جيش وبحرية بعيدين تمامًا عن مؤسسة واشنطن الملائمة لوضع «نحفظ أنفسنا بنظام مناسب فى وضع دفاعى محترم» ـ وكل ذلك ينزع إلى المساومة على تقليد الأمريكيين الأول والأعز، استقلالهم وتمسكهم بالحرية، حيث يجب أن يختاروا الدفاع عنهما.

***

ويظل سؤال: كيف كانت الولايات المتحدة قادرة على التمسك بأحادية صارمة لفترة طويلة جدا فى تاريخها؟ وكيف أفلحنا فى ذلك؟ الإجابة القصيرة هى أن الأمة ـ لحسن الحظ ـ لم تواجه طوارئ غير عادية من النوع الذى يستلزم مساعدة خارجية. ولكن أسباب عدم حدوث أى طارئ، متداخلة لدرجة أن أهميتها النسبية عصية على التصنيف.

أولا: أن الولايات المتحدة حققت بسرعة، قوة كامنة كافية لردع الأوروبيين عن تحديها فى قارتها.

قد يبدو ذلك مُناقضا الحكمة المأثورة التى طبقًا لها تمتعت الولايات المتحدة بـ«أمن مجانى» خلال القرن التاسع عشر. . يرجع الفضل فيه ـ لحد كبير ـ للبحرية الملكية، «وكانت حامية ـ بلا قصد ـ للانعزالية الأمريكية»(٢٦). وفى الحقيقة، السبب الأكبر فى أن الولايات المتحدة لم يكن عليها أن تنفق كثيرا على الدفاع، كان أن قوتها ملموسة. وللتأكيد، فإن جيش الولايات المتحدة كان صغيرا وميليشيات الدولة كانت غير محترفة لدرجة مضحكة. ولكن ذلك لم يكن مقياسا لما يمكن للجمهورية الناشئة تحت السلاح أن تفعله إذا ما تصاعد غضبها.

وبحلول عام ١٨٥٠، كان سكان الولايات المتحدة الثلاثة والعشرون مليونا، أكثر من سكان إنجلترا وسكوتلاند وويلز، وكانوا يتكاثرون بمعدل مرتفع يصل إلى ٣٣٪ فى العقد. وهل نسى البريطانيون سلسلة الهزائم الصاعقة عندما وضع اليانكيون أيديهم على سفنهم الحربية فى حرب عام ١٨١٢ ؟! وكانت الكفاءة الأمريكية فى بناء السفن والملاحة مساوية لتلك البريطانية والفرنسية، وكان حجم البحرية التجارية للولايات المتحدة قد جعل التوسع السريع فى البحرية ممكنا عند الحاجة.

وكما اتضح، لم يكن على الأمريكيين أن يذهبوا إلى حرب مشاة جادة حتى عام ١٨٦١ . ولكن الأوروبيين حادى الإدراك مثل أليكس دى توكفيل(*) رأوا القدرة الكامنة فى ثلاثينيات التاسع عشر: «الحقيقة التى تفهم جيدا فى الولايات المتحدة

(*) أليكس دى توكفيل (١٨٠٥ ـ ١٨٥٩) قانونى وسياسى فرنسى زار الولايات المتحدة فى بداية القرن التاسع عشر، ومؤلف كتاب «الديمقراطية فى أمريكا» الذى صدر جزؤه الأول عام ١٨٣٥ . (المترجم)

كما فى أى مكان آخر : الأمريكيون أصبحوا قادرين على جعل رايتهم محترمة، وفى سنوات قليلة سيجعلونها مخيفة»(٢٧).

وما هوأكثر، أنه ما من حاكم أوروبى سليم العقل، سوف يحلم بتحدٍّ بعدد وحجم الولايات المتحدة. وحتى إذا استطاع غاز التغلب على الصعوبات اللوجستية فى إطلاق حملة عسكرية ذات حجم إلى شمالى أمريكا، فكيف سيمكنه فرض إرادته على أمة قارية؟ ولم ينجز البريطانيون كثيرا بإحراق مدينة واشنطن فى عام ١٨١٤ أكثر مما أحرز الفرنسيون بإحراق موسكو فى عام ١٨١٢.

إن ممثل ولاية إلينوى إبراهام لنكولن لم يبعد عن الصواب عندما تباهى عام ١٨٣٦ قائلاً: «هل ستتوقع ماردًا عسكريًا يعبر المحيط الأطلنطى ويسحقنا بضربة؟ أبدًا! كل جيوش أوروبا، وآسيا، وإفريقيا، مالكة كل كنوز الأرض (كنوزنا مستثناة) تحت رايتها العسكرية، يقودها بونابرت، لن تستطيع بالقوة أن تأخذ شربة من أوهايو أو تشق طريقها فى بلو ريدج، ولو حاولت ألف سنة»(٢٨).

ومادامت الولايات المتحدة تحصر - بحكمة - مصالحها الحيوية فى نصف الكرة الأرضية الغربى، فلن يظهر تهديد يضطر الأمريكيين للتخلى عن الأحادية فى سبيل التحالفات الأجنبية.

ثانيًا: لم يكن لدى القوى الأوروبية ترف أو وسائل تحدى الولايات المتحدة فى مجالها. فرنسا كانت مشغولة بالثورات (١٨٣٠ - ١٨٤٨ - ١٨٧١) والحروب والأزمات فى الشرق الأدنى وأوروبا (١٨٢٠ - ١٨٢٣، ١٨٤٠ - ١٨٤١، ١٨٥٤ - ١٨٥٦، ١٨٥٩، ١٨٦٦، ١٨٧٠). وكان لدى بريطانيا قوة عسكرية ضئيلة فائضة، بعد تأمين مياهها، المتوسط، المحيط الهندى والحدود الهندية، بحر جنوب الصين، بينما كانت قلقة من التوسع الروسى ومحاولات فرنسا الدورية لانتزاع السيطرة البحرية(٢٩).

لذلك، لم تكن هناك سوى مناسبات قليلة خلال القرن رأت فيها بريطانيا فائدة للنيل من الولايات المتحدة، لا يهم حجم المخاطرة. أخيرا، فإن الأيديولوچية الليبرالية التى سيطرت على السياسة البريطانية بعد عام ١٨٣٢، وخصوصا بعد ١٨٤٦، دعت إلى حكومة صغيرة، تجارة حرة، معاداة الاستعمار (الهند دائما

كانت مستثناة)، وقللت المصادر الممكنة للاحتكاك - أساسًا - مع الولايات المتحدة المماثلة ذهنيا. وأيا كانت أفضال بريطانيا تجاه الولايات المتحدة، فقد كانت نتيجة فحسب لما فعله البوناپرتيون والهند وآدم سميث لبريطانيا.

وظلت حقيقة أن الإمبراطورية البريطانية كانت القوة الوحيدة التي كانت تستطيع - إذا أرادت - أن تمثل تهديدا للمصالح الأمريكية.

وبالمقابل، احتجزت الولايات المتحدة كندا كرهينة. هذه التهديدات غير المتساوقة عززت التوتر النفسي الذي ولده ميراث علاقة الدولة الأم مع المستعمرات المتمردة، ونسج علاقة خاصة بين أكبر دولتين ناطقتين بالإنجليزية. ففي عام ١٨١٦ صاح چون آدامز غاضبا: «بريطانيا لن تكون أبداً صديقتنا حتى نكون سيدها»[٣٠].

ولكن كان ذلك مجرد كلام. فالحقيقة كانت أنه لا الصداقة أو السيادة ولكن التعايش الحذر المشوب بالاستياء، كان هو فقط القاعدة المحسوسة للعلاقات الأنجلو أمريكية. فچون كوينسي آدامز ونظيره وزير الخارجية لورد كاستلريف أدركا وعملا طويلا من أجل إذابة القضايا التي خلّفتها حرب عام ١٨١٢ العقيمة.

وعقدت معاهدة تجارية جديدة في عام ١٨١٥، ونزع اتفاق روش - باجوت سلاح البحيرات العظمى. وثبت تعاقد عام ١٨١٨ الحدود الأمريكية - الكندية من بحيرة الأخشاب (منيسوتا الآن) إلى جبال روكي عند خط عرض ٤٩. ومنح أهالي نيوإنجلاند حرية محدودة للصيد في جراند بانكز. وفي عام ١٨٣٠ وافق البريطانيون على فتح موانيهم في الهند الغربية للتجار اليانكي، للمرة الأولى منذ عام ١٧٧٦.

عندئذ، اشتعلت كندا في تمرد. أو، لأكون أكثر دقة، فإن انشقاقا صغيرا من الساخطين الجمهوريين تحت قيادة ويليام ماكنزي تمردوا في عام ١٨٣٧ ضد الحكم البريطاني، وجندوا قراصنة أمريكيين، واعتصموا في محل في بافلو - نيويورك. وفرح كثير من اليانكيين لما ظهر لهم كأنه حرب استقلال كندية متأخرة. وقدموا العون والسلوى. ولمرة أخرى، سنحت لحكومة الولايات المتحدة فرصة لحملة صليبية من أجل المبادئ. ومرة أخرى، رفضت ذلك الإغراء. والتزم الرئيس مارتن ڤان بورين الحياد الصارم، وكان متضايقًا عندما نقل المواطنون الأمريكيون ماكنزي إلى جزيرة كندية على نهر نياجرا، ونقلوا إليه الإمدادات في السفينة البخارية

«كارولين»، وعندما عبر الجنود الكنديون النهر بعدئذ وأشعلوا النار فى السفينة تاركين مواطنًا أمريكيا قتيلاً، فإن آلاف الأمريكيين الغاضبين شكلوا «مساكن الصيادين» وأقسموا على «مهاجمة وقتال والمساعدة فى تدمير . . كل قوة أو سلطة ذات أصل ملكى فى هذه القارة»[٣١] . وبالمقابل، فإن الرأى البريطانى قد اشتعل فى عام ١٨٤٠ عندما تباهى مسئول كندى سكير، ألكسندر ماكلويد، فى حانة بنيويورك بأنه ساعد فى حرق «كارولين». وحوكم بواسطة المحليين المتحمسين بتهمتى القتل وإشعال الحريق. وسرعان ما احتشد الحطابون الكنديون والأمريكيون ورجال الميليشيات لمعركة فى شمالى مين عند خط الحدود الذى وضعه ـ بغير اتقان ـ رسامو الخرائط فى عام ١٧٨٣ . ولم يمت أحد فى تلك الحرب «حرب آروستوك» ولكن الكونجرس وافق على بناء جيش ضم ٥٠ ألفا وصندوق حرب بمبلغ ١٠ ملايين دولار، ودعم البريطانيون كندا.

كانت تلك أيضا سنوات ما سميت «حرب الفصول»، حيث كان المتناظرون البريطانيون والأمريكيون يشجب كل منهم الآخر بالكتابة دوريا. فالزائرون البريطانيون (تشارلز ديكنز الأجدر بالذكر) كانوا يعلمون أهل بلدهم أن الأمريكيين جمهور جاهل قذر، ماضغو تبغ ذوو أصوات أنفية (خنفاء) و «أمة غشاشين» حتى أخمص القدم، لأنهم غشوا كثيرا من السندات العامة بعد الذعر المالى فى عام ١٨٣٧[٣٢] .

ومن جانب الأمريكيين، فإن البريطانيين كانوا متعجرفين، متخنثين، متغطرسين، احتكاريين حسودين، ويستحقون أن يندقوا تحت وتد.

ولأكثر من عامين بدت نذر الحرب. . لكن فقط ظهرت كذلك. وفى الحقيقة، فإن ڤان برين والرئيس تايلر (مات ويليام هنرى هاريسون بعد ٣ أسابيع فى مكتبه) لم يكن لديهما نية لقتال بريطانيا. وكان اللورد پالمرستون، وزير الخارجية الليبرالى النارى، يعرف ذلك. وذلك ما يفسر لماذا استطاع أن يلف چون بول لحساب الرأى العام البريطانى، وأن ينذر بتعليم اليانكيين غير المكترثين «درسا جيدًا»[٣٣]. وفى النهاية، وعندما عُفى عن السيد ماكلويد ـ المثير للسخرية ـ وسقطت حكومة پالمرستون، فإن اللورد أبردين ووزير الخارجية دانييل وبستر، رعيا معاهدة وبستر ـ آشبرتون عام ١٨٤٢ التى حلت ذلك اليوم كل الخلافات الحدودية الأمريكية الكندية[٣٤] .

إن أزمات نهاية ثلاثينيات القرن التاسع عشر وأوائل أربعينياته كاشفة، لأن كل من الحكومتين تجنبت إشعال الحرب، متخوفة فقط من أن يشعلها تهور الطرف الآخر، وبسبب ذلك، بمجرد أن جلسوا، حلوا خلافاتهم فى لمح البصر. فلم تكن الأزمة نتيجة لتصادم المصالح السياسية بقدر ما كانت تعبيرا عن الشحناء التى يكنها الأمريكيون لبريطانيا، والبريطانيون للولايات المتحدة. وكما لاحظ المراقب أليكس دى توكڤيل: «لا شىء أكثر خبثًا من الضغينة التى توجد بين أمريكيى الولايات المتحدة والإنجليز. ولكن بالرغم من تلك المشاعر العدائية، فإن الأمريكيين يجلبون معظم سلعهم الاستهلاكية المصنعة من إنجلترا، لأن إنجلترا تمدهم بها بأرخص سعر. ويتحول الازدهار المتزايد لأمريكا، برغم كراهية الأمريكيين، إلى فائدة المصانع البريطانية»[٣٥].

وضح اللورد ليڤربول رئيس الوزراء البريطانى ذلك ببساطة قائلاً: «من يأمل فى ازدهار إنجلترا يجب أن يأمل فى ازدهار أمريكا»[٣٦].

وفى الديپلوماسية مثلما فى الاقتصاد. وكما بينها أوچين روستو، فإن المصالح الأمنية لبريطانيا والولايات المتحدة، ليست متماثلة، ولكنها بشكل كبير منسجمة[٣٧]. فكلتاهما تعتمد على توازن القوى الأوروپى، ولكن تأمل أن تكون بمنأى منه. كلتاهما ترفض أن تحيى الإمپريالية فى الأمريكتين، كلتاهما تأمل تجنب الانخراط فى الأحلاف. كلتاهما تريد تجنب عوائق التجارة، خاصة بينهما، ولكن لم يكن البريطانيون مرتاحين لخطورة أن تتفوق عليهم الولايات المتحدة فى المدى الطويل، فتبزغ شمسها وتنكسف شمسهم، بينما أحب الأمريكيون أن يعتقدوا فى تآمر البريطانيين الحسودين على تقدمهم وازدهارهم، حتى ولو كانوا يتطلعون لاحترام البريطانيين لهم.[٣٨] ولكن الحكومتين، أيا كان من فى السلطة، كانتا حريصتين على احتواء أى صراعات قد تندلع بينهما. فأى حرب أنجلو أمريكية -بعد كل شىء- تبين أنها تعود بالفائدة على مصالح فرنسا وروسيا فقط.

لماذا هذه الجولة الطويلة فى العلاقة الأنجلو-أمريكية؟ هناك سببان، لنفرغ تماما من فكرة أن الولايات المتحدة كانت انعزالية فى القرن التاسع عشر، أو كانت حرة لتكون كذلك بسبب الحماية -المجانية- التى وفرها لها الأسطول البريطانى. ولنعلم أن التقليد الثانى للسياسة الخارجية للولايات المتحدة -الأحادية- كانت مشروطة

بتعايش سلمى مع القوة الوحيدة التى تستطيع تدبر إلحاق الأذى بالولايات المتحدة. ويااللسعادة! فقد أدرك البريطانيون المخاطر التى سوف يتحملونها فى حرب أمريكية، وأدركوا أيضًا تشابك المصالح الحيوية للولايات المتحدة وبريطانيا.

قد يسمى المؤرخ العلمانى ذلك حظا طيبا، أو محصلة لا مفر منها للجغرافيا والاقتصاد والديموجرافيا. ولكن عند عديدين، وربما عند أغلبية الأمريكيين، مثلت الحرية التى تمتعوا بها فى الداخل، مع إفلاتهم من التحالفات والتورطات الخارجية، آية من آيات العناية الإلهية بهم. چون كوينسى آدامز - بالرغم من أزمة الايمان بعد خسارته أمام أندرو چاكسون فى انتخابات عام ١٨٢٨ - لم يستح من الاعتراف بأن «إعلان الاستقلال كان حدثا رائدًا فى عمل البشارة الإلهية». وأن المبادئ الصحيحة للسياسة الأمريكية يُمكن اكتشافها فى القوانين العلمية التى وضعها الله فى الخلق والنصوص المقدسة(٣٩).

وبعد قرن، فى عام ١٩٣٣، ردد پروفيسور جامعة ييل، أدوين بورشارد، هذا الإيمان. وبعد إعادة إحصاء الخسارة التى وقعت - من وجهة نظره - بسبب إمپريالية الولايات المتحدة والحرب العالمية الأولى، قال: «إننى أرى الحيادية الهبة العظمى التى وضعها الرب فى أيادى الشعب الأمريكى»(٤٠).

الفصل الثالث

النظام الأمريكى
أو
(مايسمى) مبدأ مونرو

أعرب الوزير النمساوي كليمنز ڤون ميترينيخ عن أسفه لـ «لتلك الولايات المتحدة التي شهدناها تظهر وتنمو». وكتب: «فجأة، تركت مجالا ضئيلا للغاية لتطلعاتهم (الأوروبيين). وأدهشت الأوروبيين بعمل ثوري جديد، غير مُستَفز، كامل الجرأة، ولا تقل خطورته عن جرأته»[1]. ورأت الحكومة الروسية أنه يستحق «فقط أعمق احتقار»[2]. وسخرت صحيفة پاريسية منه، وهي تردد في الوقت نفسه رأي البلاط الفرنسي، فقالت: «من هذا الرئيس لأمة عمرها لا يزيد على أربعين عامًا، ويجرؤ على إظهار نفسه كديكتاتور يسلح نفسه بحق السيادة على العالم الجديد كله؟!»[3] ولعنه أوتو ڤون بسمارك في وقت لاحق، واعتبر أنه «مبدأ وقح وضرب من الغطرسة الأمريكية الشاذة، لا مبرر له»[4].

لقد كانوا يشيرون بطبيعة الحال إلى الرسالة التي وجهها الرئيس الأمريكي چيمس مونرو(*) إلى الكونجرس عام ١٨٢٣، وأعلن فيها أن الأمريكتين لم تعودا محلاً لاستعمار جديد.. ولكن الأمريكيين دون استثناء تقريبا هللوا فرحا، لأن مونرو لم يكن أقل من چورچ واشنطن في خطاب وداعه، فقد كان حاسما في تأكيد مبادئ فرضت فضائلها الخاصة على الأمة منذ ذلك الوقت.

وكتب رئيس البعثة البريطانية يقول: «يبدو أن الرسالة حظيت بترحيب بالغ في مختلف أنحاء الولايات المتحدة وتردد صدى تأثيرها في البلاد من أولها لآخرها. وفي الحقيقة، إنه في بلد مؤلف من عناصر بهذا القدر من التباين، يصعب على المرء أن يجد إجماعًا - في كل مكان - أفضل من ذلك»[5].

وبعد ذلك بقرن من الزمان، ربما كانت الحماسة الأمريكي أكثر قوة، «أؤمن أشد الإيمان بمبدإ مونرو، وبدستورنا، وبقوانين الرب»، هكذا ذكرت ماري بيكر إدي

(*) چيمس مونرو (١٧٥٨ - ١٨٣١) الرئيس الخامس للولايات المتحدة (١٨١٧ - ١٨٢٥)، خدم وزيرا للخارجية (١٨١١ - ١٨١٧) وارتبط اسمه بمبدإ مونرو. (المترجم)

المفكرة المرموقة ذات الاتباع لفلسفة «الكريستيان ساينس» فى عام ١٩٢٣[٦] . «قد يكون أبسط تعبير عن قواعد سلوكنا، مبدأ مونرو والقاعدة الذهبية، وبهذه الخريطة البسيطة لن نسير بعيدا فى أى اتجاه خاطئ» . هكذا قال وزير الخارجية چون هاى[٧] . وأجمعت المراجع الدراسية الأمريكية جميعها فى مطلع القرن العشرين على ذلك .

والمشكلة هى أنه بين الحين والآخر، ولنقل خلال الفترة من عام ١٨٢٥ إلى عام ١٨٩٥، اختفى مبدأ مونرو تقريبا من السياسة ومن الكتب التاريخية، وعندما عاود الظهور، بدا أنه لا يعنى ما نعتقد أن هذا المبدأ يعنيه! ويرجع هذا إلى أن مصطلح مبدإ مونرو لم يدخل الاستخدام العام إلا بعد عقود من ذكره فى ذلك الخطاب الذى كان إلهاما به. وفى نصف القرن التالى، اكتسب هذا المبدأ ملامح الأسطورة[٨] . فمنذ الحرب العالمية الثانية، عكف المؤرخون على كشف غموض الأساطير التى اكتنفت مبدأ مونرو، غير أنهم فشلوا فى تغيير الحكمة الشائعة عنه مثلما فشلوا فى تبديد أسطورة العزلة. . ولنحاول مرة أخرى لتصحيح السجل .

أولا، لم يكن مبدأ مونرو مبادرة أمريكية بأى حال، بل كان بمثابة رد سريع وجرىء على فكرة بريطانية مقابلة .

ثانيا، أنه لم يصمم لإجهاض محاولة من جانب «الحلف المقدس» لسحق استقلال أمريكا اللاتينية، لأن أيا من القوى القادرة على التدخل فى أمريكا اللاتينية، وهى إسپانيا وفرنسا وبريطانيا لم تكن أعضاءً فى هذا الحلف المقدس .

ثالثا، لم ينقذ موقف مونرو المناهض للاستعمار الجمهوريات الأمريكية الإسپانية الوليدة، ولم يوفر ملاذا لها لأنها لم تكن فى حاجة إلى ذلك . كما أن إدارة الرئيس مونرو لم تكن تملك الإرادة أو الوسائل لإنقاذ هذه الجمهوريات بأى حال .

رابعا، لم تكن الولايات المتحدة تتحرك بالتعاون مع بريطانيا، بصورة رسمية أو غير رسمية، عندما أبلغت أوروپا بالابتعاد عن الأمريكتين، لأن بريطانيا كانت الهدف الأكبر للسياسة الأمريكية .

خامسا، لم يكن مبدأ مونرو يحمل اسمه إلا من الناحية الظاهرية فقط، وتحول إلى مبدإ فعلى بعد ذكره بعشرين عاما على الأقل، ومن الواضح أنه لم تترتب عليه أى نتائج لدرجة أن المؤرخين الدپلوماسيين لم يلتفتوا إليه قبل السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر[٩] .

والآن، ما هذا التقليد الراسخ للسياسة الخارجية الأمريكية الذى نربطه بمبدإ مونرو؟ وهل كان و. ودرو ويلسون محقًا عندما قال إن هذا المبدأ كان محيراً للدرجة التى يتعذر معها تعريفه؟ . . هذا أمر يصعب تصديقه، لأن چون كوينسى آدامز وزير الخارجية الذى شارك فى صياغة الخطاب لم يكن يلجأ إلى الشعوذة!!

لقد كان خطاب مونرو فى حقيقة الأمر دقيقًا ومباشرا، ولكن كى نكتشف فحواه علينا أولا أن نخلصه مما وصفه المؤرخ توماس بيلى بـ «عبادة المونروية» ، ولنحاول أن نلم بالوضع العالمى فى ذلك الوقت، والعملية المنطقية التى كانت الدافع وراء نشأة ذلك التقليد الثالث للشئون الخارجية للولايات المتحدة. وأفضل وسيلة لذلك هى أن نعادل فى عقولنا، بين ما عرف اصطلاحا بـ «مبدأ مونرو» مع مصطلح أكثر توصيفًا وهو «النظام الأمريكى».

إن فهم عملية تفكير الساسة الأمريكيين فى عشرينيات القرن التاسع عشر، أسهل من استيعاب الوضع العالمى، لأن مفهوم النظام الأمريكى لدول نصف الكرة الغربى، جاء على إثر تقليدين أوليين هما «الاستثنائية» و «الأحادية»، تماما مثلما يتبع الحرف (C) الحرفين (A) و (B) . فإذا كان على الولايات المتحدة أن تحافظ على استقلالها وحريتها فى الداخل، فيتوجب عليها أن تنأى بنفسها عن حروب أوروپا وأطماعها، وأن تحمى حرية حركتها. وهكذا جاءت أقوال واشنطن وچيفرسون المأثورة ضد الوقوع فى شراك التحالفات.

غير أن رفض الانتقال إلى أوروپا والتورط معها لم يكن كافيا. إذ كان على الولايات المتحدة أيضا أن تحرص على عدم انتقال القوى الأوروپية إلى أمريكا؛ لأنها إن فعلت ذلك ستهدد بلاشك المصالح الأمريكية، وستجبر الولايات المتحدة على لعب دور فى ميزان القوى الأوروپية. بل، الأسوأ من ذلك، ستقيم ميزان قوى ثانيا فى نصف الكرة الغربى. ومن ثم كان على الولايات المتحدة أن تصوغ - على قدر محدودية وسائلها - نظامًا عالميًا أمريكيًا فريداً.

إن التطور المنطقى من «الاستثنائية» إلى «الأحادية» إلى «النظام الأمريكى» جاء ضمنا فى كُتَيِّب «پين». وببساطة، جعل مونرو منها أمراً جليًا عن طريق الرد على كثير من الخدع - المنذرة - والمتعلقة بالأمريكتين بعد عام ١٨١٥ . لذلك، فإن سوء الفهم من جانبنا لم ينجم عن فهم خاطئ لما قاله مونرو، بل عن فشلنا فى تقدير ما

لم يقصد مونرو أن يقوله. ولذا، يمكن حسبان ما يلى هنا بحثا فيما لم يعنه مونرو فى خطابه عام ١٩٢٣.

❊❊❊

إننا نميل إلى الاعتقاد بأن العقود التى تلت الإطاحة النهائية بناپليون كانت هادئة إلى حد ملحوظ، والحقيقة أنها كانت كذلك فعلا كذلك مقارنة بالفترة من عام ١٧٨٩ إلى عام ١٨١٥، ولكن كما أن للزلازل الأرضية القوية هزات تابعة، فإن الثورات استمرت فى الاندلاع بمنطقتى حوض البحر المتوسط وأمريكا اللاتينية خلال عشرينيات القرن التاسع عشر. وإضافة إلى ذلك، فإن حقيقة أن القوى الأوروبية أصبحت فى ذلك الوقت غير منشغلة بعد ربع قرن من الحروب. . وتفرغت لأن تستأنف خططها بعيدة المدى للتوسع فى آسيا والمحيط الهادى وأمريكا، عرضت الولايات المتحدة لخطر جديد. وفى نهاية المطاف بدأت القوى الكبرى تنسيق سياساتها الخارجية بعد عام ١٨١٥، مع تعبئة قواها لمنع أو سحق أى تهديدات جديدة لفترة الراحة والهدوء التى تنعم بها أوروپا. وكان أسوأ كوابيس أمريكا: أوروپا الموحدة.

أعادت القوى الأوروپية المتحالفة التى هزمت ناپليون، أسرة البوربون إلى العرش فى فرنسا وإسپانيا. ثم عقدت مؤتمر ڤيينا لبناء نظام أوروپى جديد ينعم بالهدوء ويقوم على خمسة أعمدة: تسوية النزاع على الأراضى كَحَلٍّ وسط، وتوازن القوى، ومبدأ الشرعية الملكية والتضامن (بما يتناقض مع مبدأى السيادة الشعبية والنظام الجمهورى)، وتطبيق مبدإ الاجتماع فى مؤتمر للتشاور حول الأزمات حال اندلاعها، واتفاق غير رسمى بين روسيا وبروسيا والنمسا، عرف باسم الحلف المقدس. وكان هدف القيصر ألكسندر الأول من هذا التحالف الأخير، دعمَ العلاقة الأخوية بين الملوك استنادا إلى المفاهيم المسيحية. وعمليا، كان الحلف المقدس يرمز إلى تصميم هذه الأسر الملكية الثلاث الأكثر محافظة على الإطاحة بالجماعات «اليعقوبية» الثورية كلما أطلت برأسها.

وكان المحور الرئيسى لنظام المؤتمر هو وزير خارجية بريطانيا المحافظ اللورد كاسلريج، إذ إن استعداده لإدخال بريطانيا فى تحالفات دائمة مع القارة الأوروپية

تناقض مع التقاليد البريطانية والتعاطف البريطانى مع الحركات الدستورية فى مناطق أخرى، علاوة على نوازع التشكك والريبة لدى بريطانيا تجاه منافستيها الإمبرياليتين روسيا وفرنسا .

وانطلاقًا من هذا، لم يكن غريبا أن يبدأ التصدع فى هذا المؤتمر بمجرد أن واجه أول التحديات. وتعرض وزير خارجية بريطانيا لضغوط داخلية لكى تبتعد بريطانيا عن القارة. أما ما يعنيه هذا كله للولايات المتحدة، فلم يكن واضحا. فأوروبا الموحدة الرجعية يمكن نظريا أن تشكل تحديا قويا للمصالح الأمريكية. لكن لأن وزير خارجية بريطانيا كان مهووسا بتحقيق الاستقرار فى أوروبا، فإنه كان مستعدا للتصالح مع الولايات المتحدة.

لقد بدأ نظام «المؤتمر» فى التصدع عام ١٨٢٠ ، عندما حشد الملك فرديناند السادس ملك إسپانيا ـ العنيد الغبى ـ جيشًا لقمع حركات التمرد فى أمريكا اللاتينية. وتمردت قواته فى ميناء «قادش»، وامتدت الثورة إلى مدريد، ثم فى عام ١٨٢١ إلى إيطاليا. وفى مؤتمر «تروپاو» ، أعلن القيصر عن حقه العام فى التدخل لقمع هذه الثورات، وهو ما رفضه وزير الخارجية البريطانى فى حينه. ولكن المؤتمر ـ فى غيبة بريطانيا ـ فوض النمسا حق غزو الولايات الإيطالية المتمردة ولذلك فوض فرنسا (تحت حكم البوربون) لإعادة النظام فى إسپانيا. وانتحر وزير خارجية بريطانيا، وفضّل خلفه من الأحرار چورج كانينج فصل بريطانيا فورًا عن نظام «المؤتمر الأوروپى»، لكنه لم يمنع مائة ألف جندى فرنسى من عبور جبال البرانس فى إبريل عام ١٨٢٣ ، لتقمع هذه القوة الثورة الإسپانية بمنتهى الشراسة .

هل يستأنف الملك الإسپانى فرديناند فى هذا الوقت مشروعه بتجريد الجيوش إلى أمريكا، وربما هذه المرة بدعم فرنسى؟ إذا كان هذا صحيحا، فإنه سيكون التهديد الثانى لعزلة العالم الجديد الذى تشغله الولايات المتحدة وكتلة النظم الإسپانية المستقلة، لأن التهديد الأول جاء عام ١٨٢١ عندما أصدر ألكسندر الأول مرسوما قيصريا بحظر التجارة بكامل صورها فى مياه شمالى المحيط الهادى التى تمتد أكثر من ٩٠ ميلا من جزيرة ألوشيان، وحتى شمال غربى الساحل الأمريكى إلى شمالى خط عرض ٥١ (أى عند طرف جزيرة ڤان كوڤر مباشرة). وكان هدفه

من ذلك تخويف قباطنة السفن الأمريكيين والبريطانيين الذين اعتادوا مقايضة ـ وبربح عظيم ـ جلود وفراء حيوانات الفقمة وثعلب الماء على طول سواحل ألاسكا. وبدأ هذا النمط التجارى عقب اكتشاف روسيا جزيرة ألاسكا عام ١٧٤١. ونظمت التجارة بأمر إمبراطورى منح حقوق الاستغلال للشركة الروسية الأمريكية للتجارة عام ١٧٩٩. ولم يزد عدد الروس الذين عاشوا فى ألاسكا عن ٣٠٠ إلى ٥٠٠ رجل، لكن مديرهم الدءوب ألكسندر بارانوف الذى طالت معاناته بالمنطقة، أسس مستوطنات فى جزيرة كودياك وسيتكا، ونصب نقطة متقدمة لخفر السواحل بالقرب من منبع ما يعرف الآن بالنهر الروسى. وكان توفير الإمداد والمؤن لهذه النقاط الحدودية النائية، أكبر من قدرة الأسطول الروسى الكسيح والمراكب التجارية، خاصة خلال الحروب النابوليونية. لذا، لجأ بارنواف إلى مقايضة جزء من حصيلة بيع الفراء بالأغذية والمشروبات والسلاح والعدد، مع التجار الزائرين. لكن القيصر ألكسندر الأول أقصى بارانوف من منصبه وكلف الأسطول الروسى بحماية ألاسكا وأمر بفرض الاحتكار.

أثار ذلك الاستياء البالغ للحكومتين الأمريكية والبريطانية، فلم يكن الأمر مجرد تهديد قيصرى بوقف تجارة مربحة ومعاملة بحارة الدولتين معاملة القراصنة، بل إنه كان بصدد تحرك جرىء لمد نفوذ المستعمرة الروسية إلى عمق أراض تدعى بريطانيا وأمريكا السيادة عليها فى وقت واحد. وعَدَّ أنصار التوسع التِّجارى والإقليمى داخل الكونجرس الأمريكى المرسوم القيصرى إعلان حرب إلا قليلاً. (وذلك وفقا لوصف أحد تجار بوسطن ويدعى ويليام سترجس). وعبئوا جهود الإدارة الأمريكية للقيام بإجراء حاسم. (١٠)

وكان الاتجاه الواضح هو تحالف بريطانيا والولايات المتحدة لردع روسيا، لكن نوازع الريبة المتبادلة بين الدولتين حالت دون ذلك. وعندما علم الوزير البريطانى ستراتفورد كانينج (ابن عم وزير الخارجية چورج كانينج) بأن الولايات المتحدة تعتزم توسيع نطاق مطالب السيادة لتشمل إقليم أوريجون بأكمله (ويعنى ذلك فى عصرنا الحالى كولومبيا البريطانية بأكملها وواشنطن وأوريجون) طالب بأن يحيطه اليانكيون علما إذا كانوا يضعون أعينهم على كندا كذلك!

وصرخ چون كوينسى آدامز : «احتفظ بما تملك واترك ما تبقى من القارة لنا» .[١١] واتجه آدامز إلى الروس، فحذرهم من التعرض للسفن الأمريكية التى تقوم بأنشطة تجارية مشروعة، وزجر مبعوثى القيصر، وكلف السفير الأمريكى فى سان بطرسبرج بالتفاوض مع روسيا بصورة مستقلة عن بريطانيا. وكان الحد الأدنى لمطالبه سحب ادعاءات السيادة الروسية على ما دون خط عرض ٥٥، وحقوق تجارية كافية للتجار الأمريكيين فى منطقة أمريكا الروسية. . وبعدها ، سطر آدامز فى ١٥ من يوليو عام ١٨٢٣ فى رسالة إلى أحد أعضاء مجلس الشيوخ العبارة التالية : «أى حق هذا الذى تملكه روسيا فى أى بقاع قارة أمريكا الشمالية؟ هل تملك أى حق يتعين علينا الاعتراف به؟ ألم يحن الوقت للأمم الأمريكية لإبلاغ السادة الأوروبيين بأن القارتين الأمريكيتين لم تعودا مفتوحتين أمام إقامة مستعمرات أوروبية جديدة؟!»[١٢] ومن ثم، عبّر آدامز ـ لأول مرة ـ عن مبدإ أعلنه مونرو فى وقت لاحق.

وبعد شهر ويوم، استدعى السفير الأمريكى فى بريطانيا ريتشارد راش للقاء كانينج. توقع راش جلسة تشاور واسعة حول تهديد الحملة الفرنسية ـ الإسبانية لاحتواء أمريكا اللاتينية ودعاوى روسيا فى شمال غربى أمريكا، وربما أيضا القتال الضارى الذى اندلع أخيرا عندما تمرد اليونانيون على حكامهم الأتراك فى ظل الحكم العثمانى. لكن الوزير كانينج دار حول الموضوع بدهاء إلى أن اضطر راش ـ المتطلع إلى المعلومات ـ لطرح القضية التى كانت تدور برأس الوزير البريطانى، وتساءل الأمريكى: أليس الأمر كذلك: حتى لو نجحت فرنسا فى إخماد نيران الثورة فى إسبانيا «فلن تسمح لها بريطانيا العظمى بالتمادى وبسط يدها على المستعمرات الإسپانية»؟! ولم يجب الوزير البريطانى برد. بل سأل السفير الأمريكى عن طبيعة رد حكومته المتوقع تجاه اقتراح بأن تتعاون الولايات المتحدة مع بريطانيا فى هذا المجال[١٣].

لقد كان الاقتراح مخادعا ومثيرا للدهشة، أى قيام علاقة شراكة إستراتيچية بين الولايات المتحدة الفتية وأعظم قوة فى العالم: القوة التى قاتلها الأمريكيون مرتين بالفعل، ولكنها تشترك فى المصالح نفسها مع أمريكا، على الأقل فيما يتعلق بالمستعمرات الإسپانية.

واستعد السفير الأمريكى للعودة إلى بلاده للتشاور. وقبل مغادرته أعد وزير الخارجية البريطانى قائمة مبادئ دعا الولايات المتحدة لقبولها، أو على حد وصفه «من أجلنا معا» لا يجب أن نخفى شيئا. وتضمنت هذه المبادئ المقترحات الآتية:

١ - نرى استعادة إسپانيا للمستعمرات هذه أمراً ميئوساً من تحقيقه.
٢ - نرى مسألة الاعتراف بهذه المستعمرات دولا مستقلة مسألة وقت وظروف.
٣ - لا نضع أى عقبة فى طريق المفاوضات الودية بأى شكل كان.
٤ - لا نسعى إلى الاستحواذ على أى جزء منها لأنفسنا.
٥ - لا يمكننا أن ننظر لاستيلاء أى قوة أخرى على أى جزء منها بعين اللامبالاة. (١٤)

هل كان هذا العرض جيداً وحقيقيّاً؟ أم أنه كان جيدا جدّاً وأفضل من أن يكون حقيقيّاً؟ أم أنه كان حقيقيّا ولم يكن جيداً بأى شكل؟

إن المسألة كانت أكبر بكثير من مجرد العلاقات مع بريطانيا، إنها العلاقات مع أمريكا اللاتينية، مفهوم نظام الدول الأمريكية الذى لا يعوق العلاقات مع أوروپا فضلا عن تقليد الأحادية الأمريكى المتوقف على طبيعة الرد الأمريكى.

❊ ❊ ❊

تتسم حركات استقلال الأمريكيين الإسپانيين بالتعقيد والإبهار، وتحمل شبها طفيفا للغاية مع حركات الاستقلال بالمستعمرات الثلاث عشرة الأمريكية الشمالية. لقد كان الحدث المدوى هو الانقلاب الذى دبره ناپليون فى إسپانيا عام ١٨٠٨، حيث أطاح بأسرة البوربون الملكية ورفع چوزيف بونابرت على العرش فى مدريد، وقوض سلطة الشرعية الملكية فى المستعمرات. وتجاهلت الولايات المتحدة حركات التمرد الآخذة فى الانتشار بأمريكا الجنوبية حتى أوقفت معاهدة چينت حرب عام ١٨١٢. وطرح الرئيس مونرو هذه القضية على أعضاء حكومته فى اجتماع مهيب فى عام ١٨١٧. وتمثلت المسألة فى السؤال التالى: هل يملك رئيس الدولة صلاحية الاعتراف بالدول الجديدة المتمردة على سادتها الاستعماريين؟ وهل من المصلحة القومية عمل ذلك؟ وباختصار، هل تقدم الحكومة الأمريكية العون والتأييد للشعوب التى تبدو مناضلة من أجل المبادئ نفسها التى قامت على أساسها الولايات المتحدة؟!

فى ذلك الوقت، كانت قلة من اليانكيون المستعمرين - باستثناء تجار الرقيق

والمهربين ـ لديها خبرة كبيرة بأمريكا الإسپانية. وكان التصور السائد لدى الأمريكيين عن تلك الإمبراطورية مترامية الأطراف إلى الجنوب من بلادهم يلخصه ما ذكره المؤرخ فرانسيس پاركمان فى القرن التاسع عشر حيث قال:

«كانت غامضة ومذهلة، تلقي بظلالها المهلكة لتخيف العالم: طغمة من رجال الدين ومدعى التفتيش وأسرابهم من الجواسيس والبصاصين. وبما ملكوا من دواليب التعذيب المخيفة والسجون تحت الأرض، سحقوا أى حرية للفكر أو التعبير. واجتمع الاستبداد التجارى مع الاستبداد الدينى والسياسى فيها». (١٥)

أما وقد ثار الرعايا الإسپان ضد هذا كله، فقد أصبح الأمريكيون أكثر تطلعا للإشادة بالنجاحات العسكرية التى سجلها سيمون بوليڤار وسان مارتين وأعجبوا بوطنية الزعيمين وما لبثوا أن قارنوهما بجورج واشنطن.

وصاح هنرى كلاى رئيس مجلس النواب وحامى حمى الحدود: «إن الوطنيين الجنوبيين يناضلون من أجل الحرية والاستقلال وهو بالضبط ما ناضلنا من أجله». وفى مارس عام ١٨١٨، قدم للمجلس مشروع قرار يدعو الولايات المتحدة للاعتراف بالنظم الأهلية الجديدة فى أمريكا اللاتينية وتشجيعها، بالطريقة نفسها التى رفعت بها فرنسا معنويات الأمريكيين باعترافها «بالكونجرس القارى» عام ١٧٧٨. (١٦)

ولكن مشاعر التعاطف مع القضية اللاتينية لم تكن نتاجا خالصا لمساعى إرضاء الذات الأمريكية. فقد دأب قادة وممثلو المجالس العسكرية بالجنوب الثائر على صياغة نداءاتهم للمساعدة باسم الأخوة الجمهورية وبمهارة يشهد لهم بها. وفى مطلع عام ١٨١١، كتبت القيادة فى بيونس أيرس إلى الرئيس ماديسون: «إن أمارات الشهامة والإحسان التى أبديتموها تجاه إقليم كراكاس هى شهادات لا تدحض على الاهتمام الذى تولونه للحقوق الإنسانية.. ويمنحنا الحق فى أن نأمل أن تدعم الولايات المتحدة سلسلة الأمم المشتركة فى مقاطعات «ريو بلاتا» بمودة قلبية أشد وأوضح تعبيرا»(١٧). وهنأ سان مارتين دى پويردون الرئيس مونرو بمناسبة تنصيبه رئيسا بهذه الرسالة(١٨):

إن المبادئ الحرة والخيرة التى يتسم بها حكمكم، تدفعنى للاعتقاد بأن الانتصارات التى حققتها الحرية أخيرا فى هذه الأقاليم المتحدة بأمريكا الجنوبية، ستتنامى إلى أسماعكم وأسماع المواطنين السعداء فى جمهوريتكم بكل الفرح.. إن الثقة واتساق المبادئ التى تحرك سكان هذا النصف الغربى من الكرة الأرضية مع تلك المبادئ التى أثارت الجهود البطولية للولايات المتحدة فى الشمال لتحقيق هدف الاستقلال، تشجعنى لأن أعلن لسيادتكم استعادة حكومة مملكة شيلى ـ الوافرة بالخيرات ـ بواسطة القوات الوطنية لحكومتى.

لذا عندما وقف مجلس النواب فى الكونجرس لحث السلطة التنفيذية على دعم الثورات، لم يكن لديه سوى الاستناد إلى المديح الذى عبر عنه اللاتينيون أنفسهم. كما جذبت الفرص التجارية أعين الأمريكيين إلى الجنوب. ففى حين لم تسترجع تجارة اليانكى مع إسپانيا والبرتغال عافيتها بعد الضربة التى أقعدتها بسبب حرب ١٨٠٨ ـ ١٨١٤ (حرب شبه الجزيرة)، انتعشت الصادرات الأمريكية إلى أمريكا الإسپانية لتصل إلى ٨ ملايين دولار بحلول عام ١٨٢١، واستحوذت على ١٣٪ من إجمالى صادرات الولايات المتحدة(١٩) .

ويتعين الإشارة هنا إلى أن الولايات المتحدة لم تكن تتطلع إلى التغلب على بريطانيا فى مجال المنافسة على أسواق أمريكا اللاتينية. فالمصنوعات البريطانية كانت أفضل وأرخص بكثير، واستثمر البريطانيون ٢٢ مليون جنيه إسترلينى فى المنطقة خلال النصف الأول من عشرينيات القرن التاسع عشر.

لكن العلاقات الودية مع أمريكا لاتينية مستقلة، قد تفيد الاقتصاد الأمريكى. وهذه هى النقطة التى أكد عليها كلاى مرارا، على أساس وثيقة عام ١٨١٦ المؤثرة التى وعدت أرباب الصناعة الأمريكيين بسوق سنوية بقيمة ١٠٠ مليون دولار لمنتجاتهم(٢٠) . وجعل التحول التدريجى فى مراكز الجذب السكانى والاقتصادى فى الولايات المتحدة من الأراضى المحيطة بخليج المكسيك منطقة أكثر إغراء وبصورة متزايدة. فخلال الفترة من عام ١٨١٢ إلى عام ١٨١٩ أصبحت لويزيانا والمسيسيبى وألاباما وإنديانا وإلينوى ولايات.

وقد اعتمدت جميعها على موانئ الخليج عند مصبات نهرى أوهايو / مسيسپى وتومبجبى / ألاباما لتصل سلعها إلى الأسواق البعيدة. وإذ كان الأمريكيون

الغربيون قد نظروا بانزعاج إلى احتمالات خضوع نيو أورليانز للحكم الفرنسى والإسپانى عام ١٨٠٣ ، فكيف سيحتجون إذا ما أصبح خليج المكسيك بأكمله موطئا لأساطيل القوة الأوروبية الاحتكارية؟

وبالرغم من هذا كله . . . ؟!

لم تدفع هذه المصالح الولايات المتحدة لمساعدة وعون الثورات اللاتينية ، بل بالعكس من ذلك ذكر وزير الخارجية مونرو عام ١٨١١ «أن مصير هذه الأقاليم يجب أن يقع على عاتقها». [٢١] واتصل الرئيس ماديسون سرا بالكونجرس لاستنباط قرار يلزم الولايات المتحدة بالدفاع العسكرى عن أمريكا اللاتينية فى حالة واحدة فقط : محاولة نقل أراض من إسپانيا إلى قوة إمبراطورية أخرى (إنجلترا وفرنسا مثلا) . [٢٢] ليس من الصعب الوصول لأسباب ذلك السكوت . فالأحادية والاستثنائية الأمريكيتان ، منعتا أى اشتباكات عسكرية مجانية بالخارج ، مهما يكن الدافع مقدسًا ، وأى اقتراح تبديه الولايات المتحدة لابد وأن يفسد علاقاتها بـ «المؤتمر الأوروپى الموحد» المخيف فى ذلك الزمان . وإضافة إلى ذلك ، فإن التجربة العملية مع الأمريكيين الإسپان أعطت المسئولين الأمريكيين الذريعة للتشكك فى أن اللاتين سيقلدون الثورة الناجحة فى أمريكا الشمالية ، بل إنهم على الأرجح سيسيرون على نهج الفوضى والترويع والاستبداد الذى اتسمت به الثورة الفرنسية .

فعلى سبيل المثال ، استجاب ماديسون للنداءات الأولى لتقديم العون ، عقب اندلاع الحرب فى المكسيك وفنزويلا ولاپلاتا (الأرجنتين) بتعيين ثلاثة ممثلين للبحرية والتجارة لتدعيم وحماية المصالح الأمريكية . وحاول الممثلون الأمريكيون معالجة السياسات العاصفة للمجالس العسكرية حتى أحرقوا أصابعهم فى نهاية المطاف .

وفى عام ١٨١١ ، عين چويل پوينست ـ الجمهورى المتحمس ، عدو الإنجليز ، صاحب المزارع ـ قنصلا عاما فى بيونس أيرس وپيرو وشيلى .

وفى هذا الوقت ، كانت أسرة چوسيه ميجيل كاريرا مسئولة عن مدينة فالپاريسو عاصمة شيلى . وعمد القنصل العام إلى الفوز بحظوة الأسرة ، فقدم لها نسخة من الدستور الأمريكى . وبعد فترة وجيزة ، بدأ فى حث أبناء شيلى لإعلان الاستقلال الكامل ورتب لهم شراء السلاح من الخارج ، بل إنه شارك بنفسه فى معاركهم ضد

القوات الملكية. ثم انقسم المجلس العسكرى على نفسه بسبب نزاع عائلى. وأرسل كاريرا إلى المنفى، ثم قتل فى وقت لاحق. وأُبلغ القنصل الأمريكى بأنه شخصية غير مرغوب فيها!

وبدأ المنتصرون الوطنيون بزعامة سان مرتين وبرناردو أوهجنز فى البحث عن الدعم لدى بريطانيا لا الولايات المتحدة.[٢٣] وليس مدهشا أن مستشارى الرئيس مونرو نصحوه بنسيان الاعتراف بحكومات أمريكا اللاتينية عندما سألهم المشورة.

وذكر ثيودوريك بلاند، وهو تاجر من بلتيمور، المفترض أنه صديق للثورات اللاتينية: «ما لم تعالج الخلافات الأهلية الحالية ويسود السلام والهدوء بين الأقاليم المتحاربة وتتحقق المصالحة بينها، فإن قدرا كبيرا من المنافع والمزايا التى حققتها الثورة، إن لم تكن جميعها، ستذهب أدراج الرياح، أو على الأقل ستتضاءل وتتأخر»[٢٤].

كذلك، أفاق الأمريكيون اللاتينيون من أوهامهم. فقد دأب ممثلوهم على التوجه إلى الولايات المتحدة، وحظوا دائما باستقبال حار، ولكن دائمًا ـ أيضًا ـ كانوا يعودون إلى بلادهم بخفى حنين. وعلى سبيل المثال، قوبل چوزيه ـ برناردو جويتريز دى لارا الموفد المكسيكى بحفاوة بالغة فى أوساط واشنطن، ولكن التماساته للحصول على البنادق الأمريكية ـ القديمة ـ واعتراف واشنطن، لم تجد من إدارة مونرو آذانا صاغية، بل دعوة مستترة للتنازل عن تكساس لمصلحة الولايات المتحدة حال حصول المكسيك على الاستقلال! ونجح الموفد المكسيكى بمساعدة حوالى ٤٠٠ من قراصنة نيو أورليانز واعتماد مالى خاص، فى إعلان نفسه كقائد لمجلس عسكرى فى تكساس، غير أن هذا الانقلاب سرعان ما انهار وتفرق هو ومؤيدوه اليانكيون، كل إلى حال سبيله، يتبادلون اللعنات[٢٥].

أما حكم الرءوس التى حثت الولايات المتحدة على التعقل، فكان وزير الخارجية چون كوينسى آدامز، فقد حدد ـ دون غيره ـ أخطار التحرك السريع فى أمريكا اللاتينية، والمزايا التى يمكن جنيها بالتمهل. وكان أكبر المخاطر على الإطلاق هو إغضاب الولايات المتحدة للحكومة الإسپانية نفسها، لأن كبرى المزايا ـ على الإطلاق ـ التى يمكن للدبلوماسية الأمريكية الفوز بها هى ضم مستعمرة فلوريدا

الإسپانية وترسيم الحدود بين لويزيانا المشتراة وإسپانيا الجديدة (المكسيك)، وامتصاص المطالبات الإسپانية بشأن شمال غربي المحيط الهادى المتنازع عليها.

وكانت إسپانيا بطبيعة الحال فى موقف يائس، فالإمبراطورية التى أقامتها فى أمريكا بدأت فى التداعى. وكما نعلم فإن جنودها يفضلون التمرد على السفر إلى ما وراء البحار، ونتج عن ذلك أن تحول لسان فلوريدا إلى إقليم مهجور، وملاذًا آمنا للعبيد المارقين والهنود الحمر العدوانيين، إقليم لا يحكمه أى قانون. وتحت الضغوط المتزايدة من النواب الغاضبين وحكومة ولاية چورچيا، طالب آدامز إسپانيا، إما بفرض الانضباط فى الإقليم (وهو أمر يعلم الجميع استحالته) وإما تسليمها إلى الولايات المتحدة. وعمد الوزير الإسپانى لويس دى أونيس إلى التشويش بقدر الإمكان على هذه المطالب. وفى المقابل، حاول انتزاع وعد أمريكى بعدم مساعدة مختلف حركات الاستقلال فى أمريكا الإسپانية أو الاعتراف بها.

وبعدئذ، فى عام ١٨١٨، فرض الچنرال أندرو چاكسون(*) القضية بعبور الحدود إلى داخل فلوريدا فى مطاردة ساخنة لجماعة العصا الحمراء المغيرة، واحتل ثلاث قلاع إسپانية، وأعدم اثنين من الرعايا البريطانيين للاشتباه فى بيعهم أسلحة للهنود. واحتج الوزير الإسپانى بشدة معولاً على دعم فرنسا وبريطانيا. ولم يكن هذا ممكنا، فقد اختار البريطانيون الحياد. ويرجع هذا - من جانب - إلى أن أحد البريطانيين المعدمين كان مذنبًا بالفعل. أما الفرنسيون فعزفوا عن التدخل فى قضية خاسرة، لذا أمرت الحكومة الإسپانية وزيرها بمحاولة الحصول على أفضل اتفاق ممكن. ونتج عن ذلك توقيع معاهدة «آدامز - أونيس» - العابرة للقارات - فى عام ١٨١٩، وبمقتضاها ضمت الولايات المتحدة فلوريدا، وجرى ترسيم الحدود بين الأراضى الأمريكية والإسپانية حتى المحيط الهادى. ومن ثم انتقلت مطالبات إسپانيا بالسيادة على جميع الأراضى بشمال غربى أمريكا فوق خط عرض ٤٢ شمالا إلى الولايات المتحدة. وفى المقابل، أسقط آدامز مطالب أمريكا فى

(*) أندرو چاكسون (١٧٦٧ - ١٨٤٥) الرئيس السابع للولايات المتحدة (١٨٢٩ - ١٨٣٧). كان القائد العام فى حرب عام ١٨١٢ ضد بريطانيا. وقاد الحرب التى أدت إلى شراء فلوريدا عام ١٨١٩. وتُعَدّ المؤسسة السياسية التى بناها وقت رئاسته أساس الحزب الديمقراطى الحديث. (المترجم)

تكساس، وسداد ٥ ملايين دولار كتعويض. ولم يعد بعدم الاعتراف ـ للأبد ـ باستقلال أمريكا اللاتينية.

ولم يكن آدامز كذلك مستعدا للاعتراف بهذا الاستقلال. فالحكومة الإسپانية لم تصدق على المعاهدة فى عام ١٨١٩، وانهارت هذه الحكومة بسبب الثورة فى عام ١٨٢٠. لذلك كان على آدامز الانتظار.. والانتظار والإبقاء على مستعمرات إسپانيا المتمردة فى متناول اليد، وإحباط المتحمسين للقفز إلى النزاع دون التفكير فى عواقبه، وذكرهم بمبدإ منع الحملات الأيديولوچية الصليبية، خصوصا فى خطابه المشهور فى ٤ من يوليو عام ١٨٢١[٢٦]. وشدد أيضا على هشاشة النظم اللاتينية، وخطورة إغضاب الأوروپيين، وأهمية تطبيق المعاهدة الموقعة مع إسپانيا، وقال: «لم أشك لحظة فى أن القضية النهائية لكفاحهم الراهن ستكون استقلالهم التام عن إسپانيا. ومن الواضح ـ بالدرجة نفسها ـ أن سياستنا الحقيقية وواجبنا ألا نشارك فى النزاع. إن مبدأ الحياد تجاه كل الحروب الأجنبية هو فى رأيى أمر جوهرى لبقاء حرياتنا واتحادنا. وطالما أنهم يسعون إلى الاستقلال، فإننى أتمنى لهم النجاح فى مسعاهم، ولكننى لم أر إلى الآن أى إمكانية لأن يقيم اللاتينيون مؤسسات حكم حرة وليبرالية»[٢٧]. أما عن النظام الأمريكى، فكتب: «إن لدينا هذا النظام وقد قنناه كله، وليست هناك مصالح ولا مبادئ مشتركة بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية»[٢٨]. وقال شارحا لچاكسون: «وبهذه السياسة لم نخسر شيئا، وبإبقاء الحلفاء بعيداً عن النزاع، يجب أن تكون فلوريدا لنا عما قريب، ويجب أن تحصل المستعمرات على استقلالها، فإذا لم تستطع هزيمة إسپانيا فهى لا تستحق أن تكون حرة». [٢٩]

وواصل كلاى قرع الطبول من أجل التضامن الجمهورى، لكن دفاع آدامز العنيد عن نمط سياسته الخارجية الذى يقوم على المصلحة الوطنية، وفر له الوقت الذى يريد، ففى عام ١٨٢١ صدقت إسپانيا فى نهاية المطاف على المعاهدة، واتجه البريطانيون إلى الاعتراف بالجمهوريات اللاتينية. وقنع الكونجرس بقرارا يخول الرئيس «صلاحية الاعتراف بالدول الجديدة فى الوقت الذى يراه مناسبا»، [٣٠] وحققت الأرچنتين وپيرو وشيلى والمكسيك وڤنزويلا استقلالاً واقعيّا، مما سد الطريق على حملة ثورية فرنسية إسپانية مضادة ـ بطبيعة الحال ـ وهو ما يعيدنا إلى

عرض كانتج غير العادى فى أغسطس سنة ١٨٢٣ بقيام علاقة شراكة إستراتيچية بريطانية أمريكية.

❊ ❊ ❊

لم يعرف مونرو ماذا يفعل إزاء الأخبار التى حملها ريتشارد راش إلى البلاد، إلا دعوة مجلس وزرائه للانعقاد ومستشاريه المخلصين من فيرچينيا: چيفرسون وماديسون، وكلاهما مال لقبول الاقتراح البريطانى، ورد چيفرسون من مونتيسيللو:

«إن القضية التى طرحتموها فى رسائلكم إلىّ هى الأكثر خطورة - فى فكرى - منذ الاستقلال. إن ما جعل منا أمة.. وما وضع أمامنا بوصلة تشير إلى الاتجاه الذى يجب علينا الخوض فيه فى بحر الزمن الذى ينفتح أمامنا.. أن مبدأنا الأول والجوهرى وجوب ألا نورط أنفسنا فى ألسنة اللهب الأوروبية. والمبدأ الثانى بألا نجعل أوروبا تنشغل بالتطفل فى شئون هذا الجانب من المحيط الأطلنطى. إن أمريكا بشماليها وجنوبيها لها قاعدة من المصالح التى تتباين مع المصالح الأوروبية وتتسم بخصوصية فريدة، ومن ثم يجب أن يكون لأمريكا نظام خاص بها، منفصل عن أوروبا ولا شأن له بها».

وقد شعر چيفرسون بالإطراء لأن «بريطانيا العظمى هى الأمة الوحيدة التى يمكن أن تلحق بنا أسوأ الضرر من بين كل الأمم على وجه الأرض، وإذا أصبحت فى صفنا فلن نخشى العالم بأسره». ولكنه لم يخف قلقه من النقطة الرابعة فى اقتراح كانتج التى تقول إن على بريطانيا والولايات المتحدة أن يتخليا عن أى تطلعات إقليمية لنفسيهما. وقال: «علينا أن نسأل أنفسنا أولا إذا كنا نريد أن نضم إلى اتحادنا واحدة أو أكثر من المقاطعات الإسپانية، وأعترف أننى طالما نظرت إلى كوبا على أنها أفضل إضافة على الإطلاق لنظامنا»(٣١).

ولم يختلف چون كوينسى آدامز كثيرا فى ذلك، فقد نجح أخيرا بالفوز بفلوريدا، ولن يغلق الباب أمام أى مكاسب مستقبلية جديدة. وللحق فقد ساورته الشكوك تجاه العرض البريطانى، وشعر أنه فخ يهدف إلى احتواء الولايات المتحدة. ولذا، تقدم باقتراح بديل لا يقل استفزازاً عن الاقتراح البريطانى، ومفاده أن تصدر

الولايات المتحدة إعلانا منفرداً يشمل الأمريكتين بالكامل ويسقط النص على مسألة ضم الأراضى(٣٢).

ولم يزل المؤرخون مختلفين فيما بينهم حول ما إذا كان أعضاء حكومة مونرو، قد تخوفوا فعليا من غزو فرنسى إسپانى لأمريكا اللاتينية فى عام ١٨٢٣. وإذا كانت مشاعرهم كذلك، لم يكن بوسعهم تجاهل عرض دعم الأسطول الملكى البريطانى إذا حدث الغزو. أما المرجفون مثل السناتور چون كالون والجمهوريون الصليبيون مثل هنرى كلاى، إضافة إلى القلقين فحسب مثل مونرو نفسه، فقد تخوفوا من الأسوإ، خاصة بعد سقوط «كاديز» فى يد قوات جيش الثورة المضادة الفرنسى. لكن آدامز كان واثقًا بوضوح فى إمكان الاعتماد على البريطانيين لمنع وصول أسطول فرنسى إسپانى، بمساعدة أمريكية أو بدونها.

«لم أعد أعتقد أن شركاء الحلف المقدس سيستعيدون الهيمنة الإسپانية على القارة الأمريكية أكثر من اعتقادى فى أن جبل شيمبو رازو (جبل ضخم من سلسلة جبال الأنديز) سيغرق فى عمق المحيط»(٣٣). وبناء على تلك الحالة، ليست هناك حاجة لتضع الولايات المتحدة نفسها تحت الوصاية البريطانية، ولا لأن تتخلى عن ادعاءاتها الإقليمية المستقبلية فى الإمبراطوريتين الإسپانية (والروسية) فى الأمريكتين. وكانت بصيرة آدامز نافذة. ففى أكتوبر عام ١٨٢٣، نجح كاننج فى انتزاع مذكرة «پوليناك» من پاريس، وتعهد فيها وزير خارجية فرنسا بإسقاط أى خطط لإعادة احتلال المستعمرات.

ولم يعلم الأمريكيون بذلك، إذ لم ينشر كاننج المذكرة إلا فى العام التالى (ويرجع هذا من ناحية إلى محاولة الحفاظ على ماء وجهه بعد خطاب مونرو) ولكنهم علموا من السفير راش بأن كاننج فقد أى اهتمام بفكرة إصدار إعلان أنجلوأمريكى مشترك فى خريف عام ١٨٢٣، مما يوحى بأن بريطانيا لم تعد تخشى من تجريدة عسكرية فرنسية إسپانية مشتركة، أو أنهم كانوا مستعدين لمواجهة ذلك بأنفسهم. ومن ثم، فإن ما أصبح محل اهتمام واشنطن فعليا لم يكن تهديدا فرنسيا إسپانيا، بل خطورة أن تحاول بريطانيا أو روسيا أن تسد الفراغ الناجم عن تصدع الإمبراطورية الإسپانية!

وبذل آدامز قصارى جهده فى سلسلة من الاجتماعات الوزارية الساخنة من أجل إصدار رسالة رئاسية تحدد سياسة منفردة للولايات المتحدة تجاه الأمريكتين. وقال: «سيكون أكثر نزاهة وأكثر جلالاً، أن نعلن مبادئنا بصراحة أمام روسيا وفرنسا، بدلا من الظهور كقارب صغير فى عقب البارجة البريطانية». (٣٤) وفحص آدامز مشروعات مونرو المبدئية بعناية، وأقنع الرئيس باستبعاد فقرات منها مثل تلك التى دافعت عن قضية اليونانيين، وأخرى أدانت التدخل الفرنسى فى إسپانيا. (٣٥) وكما شرح آدامز بعناية، فإن هدفها الحقيقى كان «تقديم دليل جدى على رفض الولايات المتحدة لتدخل القوى الأوروپية فى أمريكا الجنوبية والتخلى عن أى تدخل من جانبنا فى أوروپا أى: لبلورة قضية أمريكية والالتزام الصارم بذلك». (٣٦)

هكذا، ألقى مونرو خطابه الشهير فى ٢ من ديسمبر، وصدره بإشارة ضمنية إلى الادعاءات الروسية فى شمال غربى المحيط الهادى - وليس إلى أمريكا الإسپانية لتقديم أول المبادئ العامة: (٣٧)

فى أثناء المناقشات التى أثارها هذا الشأن، ومن خلال الترتيبات التى قد تضع حدا لذلك، فإن الوقت بات مناسبًا لتأكيد أنه كمبدإ - يخص حقوق الولايات المتحدة ومصالحها - أن القارتين الأمريكيتين - بفضل وضع الحرية والاستقلال الذى أنجزناه وحافظنا عليه - لن تصبحا محل استعمار مستقبلى لأى من القوى الأوروپية.

وتفادت إشارة مونرو التالية التطرق المباشر إلى قضية أمريكا الإسپانية، وبدلا من ذلك أشار إلى الثورات فى كل من إسپانيا والبرتغال ذاتها، بتأكيد المبدإ الأمريكى من «الأحادية» ودعوة أوروپا لإطاعة القاعدة نفسها إزاء نصف الكرة الغربى.

إن مواطنى الولايات المتحدة يحملون أصدق مشاعر الود تجاه إخوانهم على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى، ويتمنون لهم الحرية والسعادة. وخلال حروب القوى الأوروپية بشأن قضايا تعنيها، لم نشارك بأى صورة، فذلك لا ينسجم مع سياستنا. إننا، فقط عندما تتعرض حقوقنا للافتئات أو الضيم، فإننا نرفض الظلم ونستعد للدفاع. وفى ظل التحركات الراهنة فى هذا النصف من الكرة الأرضية، فنحن - بالضرورة - على اتصال فورى - بدرجة أكبر - بها ولأسباب لا يمكن أن

يجهلها المراقب المستنير المحايد. إن النظام السياسى للقوى المتحالفة يختلف بصورة جوهرية فى هذا المجال عن سياسة أمريكا.

ومن منطلق العلاقات الودية القائمة بين الولايات المتحدة وهذه القوى، فإنه لزامًا علينا أن نكون صرحاء، وأن نعلن أننا سنعُد أى محاولة لهذه القوى لمد نظمها إلى أى جزء من هذا النصف من الكرة الأرضية أمرًا خطيرا لسلامنا وسلامتنا.

وحتى لا يسىء أى شخص تفسير هذه الكلمات ويعُدّها دعوة لحمل السلاح، أكد مونرو للقوى الأوروبية فور ذلك أن الولايات المتحدة لا تطعن فى شرعية النظم الاستعمارية القائمة، غير أن الولايات المتحدة أكدت أنها ستَعُدّ أى محاولة لنقل السيادة على هذه المستعمرات إلى قوة ثالثة أو محاولة فرض الوضع الاستعمارى على أى أقاليم فازت باستقلالها «بادرة لنزعة غير ودية تجاه الولايات المتحدة».

ومن ثَمّ، فإن النظام الأمريكى الذى نربطه باسم مونرو يشمل ثلاثة مبادئ، منع أى صور جديدة للاستعمار، وعدم نقل السيادة من المستعمرات القائمة، وعدم إعادة فرض الحكم الاستعمارى.

ولضمان عدم إساءة فهم هذه المبادئ وعدم عَدّها حملة صليبية لنشر النظام الجمهورى، حرص مونرو على اختتام عبارته بإشارة جديدة تذكر بحياد الولايات المتحدة التقليدى:

«سياستنا تجاه أوروبا التى تبنيناها خلال المرحلة المبكرة من الحروب التى اندلعت فى هذه المنطقة من العالم، مازالت ثابتة، وتتمثل فى عدم التدخل فى الشئون الداخلية لأى من هذه القوى وأن تُعَدّ الحكومة القائمة (بحكم الأمر الواقع) حكومة شرعية بالنسبة لنا، لدعم العلاقات الودية معها وللحفاظ على هذه العلاقات من خلال سياسة صريحة وحاسمة ورجولية، وللوفاء فى جميع الظروف بالمطالب العادلة لكل قوة على ألا نخضع لأى ظلم من أى منها».

وبكلمات أخرى، فإنه لا ينبغى حتى على أكثر الملكيات الأوروبية رجعية، أن تخشى من أن توفر الولايات المتحدة الدعم المادى أو المعنوى للحركات الثورية، وبغض النظر عن عمق العاطفة الأمريكية تجاهها. إن كل ما طلبه

الأمريكيون أن يظهر ملوك البوربون والقيصر والبريطانيون التزاما مماثلا تجاه النظام السياسى بالأمريكتين.

***

والآن ما الذى لم يعنه مونرو؟

إنه لم يعن تقديم وعد من الولايات المتحدة بالتدخل لضمان استقلال أمريكا اللاتينية(٣٨).

ولم يعن أن ترتبط الولايات المتحدة بقضية «الجمهورية». فالولايات المتحدة لم تدر ظهرها فحسب للثورات فى أوروپا، بل إنها اعترفت بالبرازيل التى أعلنت نفسها إمبراطورية تحت حكم أسرة ملكية برتغالية مهاجرة.

ولم يعد مونرو كذلك بالقتال للحفاظ على الدول اللاتينية المستقلة حديثا.

فكل ما قاله أن الولايات المتحدة سترى الاعتداء عليها «أمراً خطيرا»، وأنه «دليل على نزعة غير ودية».

وعندما أعربت حكومة كولومبيا عن «سعادتها البالغة» إزاء رسالة مونرو وتساءلت عن الطريقة التى ستتعامل بها حكومة الولايات المتحدة لمقاومة أى تدخل من جانب الحلف المقدس لإخضاع الجمهوريات الجديدة، رد آدامز قائلاً ببرود: إن مثل هذا التدخل أبعد ما يكون عن الواقع، وإن مسائل الحرب والسلام بيد الكونجرس الأمريكى، وإنه حتى فى حالة وقوع هجوم من الحلفاء الأوروپيين «فإنه لن يسع الولايات المتحدة مقاومة تدخلها بقوة السلاح، وبدون تفاهم مسبق مع هذه القوى الأوروپية التى ستضمن مصالحها ومبادئها تعاونا فعالاً تجاه هذه المسألة (المقصود: بريطانيا)(٣٩)».

ومن ثم لم تتوقع الولايات المتحدة أن تخلع ضرسها فى نصف الكرة الغربى، لسبب بسيط وهو أن تحديا خطيرا للمصالح الأمريكية فى الأمريكتين قد يجبرها على الدخول فى تحالف مع بريطانيا رغما عنها. وكان هذا بالضبط التحذير الذى نقله الوزير ألبرت جالتين إلى وزير الخارجية الفرنسية عند مغادرته پاريس.(٤٠) وفى حالة تحدى بريطانيا نفسها للمصالح الأمريكية، فإن بوسع الولايات المتحدة أن

تتراجع إذا كان الأمر لا يستأهل حربا، أو تعتمد على حجمها وقوتها العسكرية الكبيرة وتهديدها لكندا لردع بريطانيا إذا مست المسألة المصالح الأمريكية الحيوية. ولذا كان آدامز وخلفاؤه حريصين على قياس تلك المصالح وتخفيض الالتزامات التي قاموا بها للدفاع عن نصف الكرة الغربي.

على كل حال، لم يكن يسمح للنظام الأمريكي بالتضارب مع مبدإ الأحادية (الذي قام عليه) بأكثر مما يُسمح لتلك الأحادية بالإضرار بالاستقلال الأمريكي والحرية (وهي التي قامت عليهما).

لقد صيغت مبادئ مونرو بحساب دقيق في حدود المصالح الأمريكية الحيوية والقريبة. أما كونها لم تستهدف إحاطة كل أمريكا اللاتينية بسياج من الحماية، فكان واضحا مما لم تفعله الولايات المتحدة في الأعوام التالية.

فعندما ضمت بريطانيا جزر فوكلاند عام ١٨٣٣ ومدت حدود هندوراس البريطانية، اكتفت الولايات المتحدة بالنظر في الاتجاه الآخر! وعندما ألقى البريطانيون بثقلهم في منطقة أمريكا الوسطى في الخمسينيات في القرن الماضي، خصوصًا فيما يتعلق بقناة پنما، منحت الولايات المتحدة (وهي مكرهة) بريطانيا نفوذا مماثلا هناك.

وعندما ظهرت القوات الإسپانية في أمريكا الجنوبية، لفرض الحفاظ على السلام داخل الدول الجديدة وما بينها، لم تحتج الولايات المتحدة. وخلال مؤتمر پنما عام ١٨٢٦ دعت كولومبيا وأمريكا الوسطى والمكسيك، الولايات المتحدة إلى رابطة للدفاع المشترك وتسوية المنازعات. تباطأت الولايات المتحدة حتى عن إرسال وفد (وفي نهاية المطاف، لم يصل الوفد إلى پنما، فقد مات أحد الأعضاء في الطريق، وعاد الثاني إلى بلاده عند تأجيل المؤتمر بسبب جو پنما الخانق). وكان هدف آدامز من إرسال الوفد هدفًا تجاريًا بحتًا، إذ إن الانضمام إلى الأحلاف والالتزامات الدفاعية كان أمرًا مستبعدًا تمامًا.

ولا ينبغي للمرء أن يشعر بالدهشة إزاء ذلك، فأي التزام أيديولوچي وعسكري من أجل الاستقلال والحرية لكل شعوب نصف الكرة الغربي، سيمثل خروجا غير مألوف (على المبدإ). فنيويورك أبعد عن بيونس أيرس أكثر منها عن

لندن، وكانت الهند مقصداً بحرياً أسهل لها من بيرو. وفكرة أنه يتعين على الولايات المتحدة أن تطالب بمجال نفوذ على مجمل أمريكا اللاتينية، وأن تسعى لفرضه، فذلك أمر كان يبدو سخيفًا، وأقل ما يقال عن ذلك، إنه فى أوقات من القرن التاسع عشر كان الأسطول الأمريكى عاجزاً عن هزيمة شيلى، وبالتالى لم يكن ليتفوق على قوة إمبراطورية اختارت التدخل هناك. **إن النظام الأمريكى الذى أعلنه مونرو يمكن أن نفهمه بصورة أفضل كإعلان مبهم عن قصد، للتصميم الأمريكى على الدفاع عن أى مصالح قومية حيوية آنية، أو عن تلك التى يمكن أن تحددها مستقبلا فى نصف الكرة الغربى.**

والآن، ليست هناك حاجة لنسأل كيف فعلتها الولايات المتحدة دون أن تتعرض لعواقب وخيمة، طالما أنها لم تحاول قط - بسبب الغطرسة أو العجرفة - الفوز بشىء تحسد عليه. فإذا سعت فرنسا أو روسيا إلى إقامة إمبراطورية أمريكية، فيمكن للولايات المتحدة أن تعول على الدعم البريطانى. وإذا كانت بريطانيا هى الطرف المزعج، فيمكن للولايات المتحدة أن تهدد وتناور لتحقق صفقة فى نهاية الأمر تعتمد على وقائع الحالة وثقلها فى أمريكا الشمالية. وختاما يتعين القول إن مبادئ مونرو لم تسئ إلى القوى القارية فى أوروپا، كما تشير الاستشهادات التى أوردناها فى مستهل هذا الفصل. فالحكومات الأوروپية كانت سعيدة بأن تنأى بنفسها عن الجمهوريات الأمريكية مثل سعادة الأمريكتين بأن تنأى بنفسيهما عن أوروپا الملكية. وكما كتب المؤرخ پول شرودر: «لقد قبلت قوى القارة الأوروپية الهيمنة الإنجليزية الأمريكية على نصف الكرة الغربى وفضلت أن تقيم سياجًا لحماية أوروپا من المنازعات والاضطرابات والأيديولوچيات الخطيرة الواردة من شمالى أمريكا وجنوبها»(٤١).

كما لاحظت روسيا وفرنسا أيضا - بقبول - النزعة المناهضة ضمنيا لبريطانيا، كتحول فى السياسة الأمريكية.

وعندما طرأت مواقف معينة ذات مصلحة جوهرية للولايات المتحدة (بالطبع) انتهج الأمريكيون سياسة معاكسة يمكن تسميتها بـ «النسر رافع الجناحين» [علامة على التحفز]. ولذا أصبح ما يسمى مبدأ مونرو تقليدا محترما للسياسة الخارجية الأمريكية فى أربعينيات القرن الماضى فقط، عندما وصل الصراع على أقاليم

المكسيك الشمالية: تكساس ونيومكسيكو وكاليفورنيا إلى ذروته. ولهذا يستقرأ المؤرخون شهوة أمريكية كامنة للتوسع مردها مبدأ مونرو. ويرون أن چون كوينسى آدامز، أوحى بمبدأ مونرو بفرض تطهير أمريكا الشمالية والكاريبى من المنافسين الذين يمكنهم إحباط طموحاته القارية. وكما لخص الأمر المؤرخ توماس پاترسون:

«ترى الترجمة التقليدية أن مبدأ مونرو كان يمثل دفاعا عن المثل الأمريكية وأمن أمريكا وتجارتها، أى تأكيد المصالح القومية.. ووضع آخرون مبدأ مونرو فى إطار عرف التوسع الأمريكى، وأشاروا إلى أن الإعلان قد يكون معناه ارفعوا أيديكم أيها الأوروبيون، ولكن سمح للولايات المتحدة بأن تضع أياديها»(٤٢).

وكما سنرى، فإن ما يبدو أنه تضارب، لم يكن له وجود إلا فى أذهان المؤرخين الذين يصرون على النظر إلى السياسة الخارجية الأمريكية على أنها ميدان معركة بين المثالية والواقعية.

إن إبقاء القوى الإمبراطورية بعيدة، ومنعها من مد نظام توازن القوى الذى تنتهجه إلى مياه أمريكا الشمالية وما تحفه من أراض كان مصلحة أمريكية حيوية، سواء أدى إلى توسع أمريكى أم لا. . وحتى إذا ما تحقق هذا التوسع بالفعل، فلا يمكن اعتباره متطابقا مع سياسة مبدأ مونرو، بل نتيجة طبيعية له.

وفى الحقيقة، كان هذا التوسع المدخل الرابع والنهائى فى منظومة التقاليد التى وجهت فن الحكم الأمريكى فى مرحلته المبكرة، التى اتسمت بالمنطقية والاتساق والتناسب الجيد.

❊ ❊ ❊

فى غضون ذلك، تحول التهديد الروسى على الساحل الشمالى الغربى إلى مجرد مهزلة، فالحكام الجدد فى المناطق البحرية فى «ستيكا»، سرعان ما أدركوا أن بارانوف كان على صواب. فالمستعمرون الروس سيموتون جوعا ما لم يسمح لهم بمقايضة تجارتهم مع تجار البحر الأمريكيين والبريطانيين. ونتج عن هذا توقيع المعاهدة الروسية ـ الأمريكية عام ١٨٢٤، وفيها كمشت روسيا ادعاءاتها الإقليمية إلى شمالى خط عرض ٤٠َ ٥٤ْ، ومنحت الأمريكيين حقوقًا تجارية كاملة مدة

عشرة أعوام، ووعدت بعدم نقل السيادة على ألاسكا إلى قوة ثالثة. ولم تكن المعاهدة نتيجة مباشرة لخطاب مونرو، ولكنها كانت التطبيق الناجح الأول لمبادئه.

وبقى القتال فى اليونان، الذى وصل إلى مرحلة شرسة عندما نزل الأسطول التركى المصرى وأفراد الجيشين فى «مورا». ودفع ذلك دانيل ويبستر ـ الفصيح ـ إلى تبنى قضية معاناة اليونانيين وطلب من الكونجرس تعيين مفوض أمريكى خاص. ويعنى ذلك عمليا التدخل فى حرب أهلية بدافع التعلق العاطفى بمثل أحد الطرفين المتحاربين الواضحة. وكان هذا آخر إغراءات القرن التاسع عشر لتوسيع مفهوم الانفرادية الأمريكية من الحرية بالداخل، إلى الحرية عمومًا والتخلى عن الحياد.

وجادل چون راندولف فى ذلك، وقدم لمواطنيه الأمريكيين واحدة من أهم نبوءات دحض فكرة الرسالة العالمية لأمريكا، وإن كانت تلك النبوءة مجهولة للكثيرين(٤٣):

«نحن ـ بكل تأكيد ـ نقاتل ظلالاً!.

يريد السيد المحترم منا أن نصدق أن اقتراحه ما هو إلا «لا شىء» (يسير)، وفى الوقت نفسه، يتطلب قدرة كلية تبسط نفوذه على العالم كله. فهو إما لا شىء، وإما أنه شىء. فإذا كان لا شىء، فلنضعه على مائدة البحث ونفرغ منه، أما إذا كان هو ذلك الشىء الآخر (الذي يتطلب قدرة كلية) في اليد الأخرى، فلنحترس فى كيفية لمسه. وعن نفسى، فسوف ألبس رداء نيسس(*) على ظهري، بدلاً من أن أوافق على هذه المبادئ، والتى لم أسمع بها من طفولتى وحتى اليوم. لن تترك تلك المبادئ أى حدود ولا حتى جبال البرينيه (سلسلة جبال بين إسپانيا وفرنسا)، ستحطم كل متاريس وحواجز الدستور، وسيتحول فى النهاية إلى لوحة ملساء خام أو بطاقة بيضاء، يخط فيها كل شخص ما يريد».

وسرعان ما مات اقتراح وبستر، وبذلك تخلصت حكومة الولايات المتحدة من أن تضع نفسها على رأس حملة صليبية ضد طغيان بعيد، ولمدة ٧٥ سنة.

(*) أسطورة قديمة، يلبس فيها هرقل الرداء الذى يتعذب فيه إلى الموت. (المترجم)

الفصل الرابع

التوسعية

أو

(المسماة) المصير المبين

منذ أن أبحـر كـولمبس بأسطوله إلى ميـاه العـالم الجـديد، صـارت أمـريكا اسـما مرادفًا لـ «الفرصـة»، وأخذ شـعب الولايات المتحدة أسلوبهم من التـوسع المتواصل، الذى لم يصـبح فقط متـاحًا لهم، بل مفروضًـا عليهم. فمـا هو إلا متنبئ طائش كل من يؤكـد أن الشخصـية التـوسعـية فى الحيـاة الأمريكيـة قد كـفت تماما. فالحركة كانت الحقيقة المسيطرة على هذا التوسع. ولو لم يكن لتلك الممارسة تأثيرها على الشعب، لاحتاجت الطاقة الأمريكية مجالاً أوسع باستمرار لممارستها[1].

ومهـما اختلف كثير من المؤرخين حول أوجه مقالة فردريك چاكسون تيرنر «مسألة الحدود» فالاقتباس السابق منه أكيد. فمن بين كل تقاليد السياسة الخارجية الأمريكيـة، كان التوسع أقل مـا يحتاج إلى تبـرير نظرى أو عقائدى من الرئاسة، فهو يسبح وحده، يطالب به الشعب بتلقائية عفوية، بقدر ما كان سياسة حكومية. إن التوسع على العكس من ذلك ـ وهو أيديولوچية النمو القومى ـ يرتبط دائما فى أذهاننا مع المبدإ الغريب المسمى بالمصير المبين:

«نظرا لأن الشعب الأمريكى ينحدر من أمم عديدة أخـرى، وأن إعلان الاستقلال قام أسـاسًا على المبدإ العظيم فى المسـاواة بين البشر، فـإن هذه الحقائق تظهـر بجلاء اختلافنا عن أى أمـة أخرى، كما أننا فى الحقيقـة لا يربطنا إلا الشىء القليل بالتاريخ الماضى لأى من تلك الأمم، أو بهذه العصور القديمة بمفـاخرها أو بجرائمها. بل على العكس، كان ميلادنا القومى بداية لتاريخ جديد.. وفيما يخص التطور التام للحقوق الطبيعية للإنسان فى الحياة الأخلاقيـة والسياسة والوطنية، يمكن أن نفترض بثقة، أن مصير أمتنا هو أن تصبح أمة المستقبل العظيمة.

إننا أمة التقـدم الإنسانى، من الذى سوف يضع حدودًا لمسيـرتنا للأمام، وما الذى يستـطيع ذلك؟ إننا نشيـر إلى الحقـيقة الأبديـة المكتوبة فى أولى صـفحات إعـلاننا الوطنـى، ونعلن للمـلايين فـى البـلاد الأخـرى، أن «بوابـات الجـحـيم» ـ قـوى الأرستقراطية والملكية ـ لن تسود عليها.

إن المستقبل البعيد وغير المحدود، سيكون عصراً للعظمة الأمريكية. وفى مجالها العظيم: الزمان والمكان، فإن أمة العديد من الأمم، قُدّر لها أن تبين للجنس البشرى عظمة المبادئ السماوية، وأن تؤسس على الأرض أنبل معبد تم بناؤه لتسبيح وعبادة الأعلى والأقدس والحق. وسوف تكون أرضه عبارة عن نصف الكرة الأرضية، وسقفه السماء المرصعة بالنجوم. وحشوده من المصلين عبارة عن اتحاد من جمهوريات عديدة، تضم مئات من ملايين السعداء»[٢].

ما أقوى تلك المادة وأوجزها! . . فهذه الفقرات الموجزة لمحرر «مجلة ديموكراتيك ريڤيو» عام ١٨٣٩ چون أوسوليڤان، استعاد فيها مبادئ التطهريين وپين وچيفرسون، وشبه أمريكا بـ «الكنيسة الحق»، وألقى على عاتقها مهمة تقدمية تتعلق بالجنس البشرى، ولمح إلى التوسعية والأحادية وسريان نظام مونرو الأمريكى على نصف الكرة الغربى، وتوّج كل ما سبق بأن «معبد سليمان» هذا قدر له أن يشمل قارة بأكملها. وأخذا بحقيقة أن العقد التالى أثبت أنه الأكثر توسعية فى التاريخ الأمريكى، فلا عجب أن أوسوليڤان حظى بشرف (أو بافتراء) أنه المفسر الجازم لتقاليد السياسة الخارجية، بنفس مستوى تكريم وتمجيد واشنطن ومونرو.

بيد أنه لا يستحق ذلك الشرف. فالتوسع الأمريكى بكل صوره، سبق تاريخيا الهوس بفكرة «المصير المبين» واستمر طويلا بعد وفاتها. إن بلاغة أوسوليڤان ومقلديه، كانت علامة أكثر مما كانت سببا للحمى التوسعية التى انتابت الأمريكيين فى أواخر الفترة الچاكسونية (أيام الرئيس چاكسون).

وأكثر من ذلك، فإنه لم يقدم دوافع أو تبريرات للتوسع الذى تنبأ به، وتجاهل العلاقة بين الوسائل والغايات، ولذلك فإنه عبر عن «مزاج» أكثر مما عبر عن إستراتيچية للسياسة الخارجية. إن ما فعله، مع ذلك، أنه اقترح على أبناء بلده أن التوسعية نتيجة طبيعية لما كانت عليه أمريكا: شعب كَرّس نفسه للحرية المؤسسة على الإيمان، الذى أعاد بدء التاريخ مرة أخرى فى عالم جديد، وبإمكانه أن «يفترض بثقة» مستقبلا حرّاً من القيود التى فرضها الإنسان.

وبهذا المعنى، كانت غرائز أوسوليڤان صحيحة: فالتوسع كان نتيجة طبيعية ومنطقية للتقاليد الثلاثة الأولى للسياسة الخارجية للولايات المتحدة. فإذا كان

للولايات المتحدة أن تظل حرة ومستقلة ـ التقليد الأول ـ فيجب عليها أن تتبنى سياسة خارجية أحادية ـ التقليد الثانى. وحتى تحافظ على الأحادية، كان عليها أن تشجع نظاما أمريكيا للولايات ـ التقليد الثالث. ولكنه لم يكن كافيا أن تظل الولايات المتحدة بمعزل عن أوروبا. ولذلك كان عليها أن تجهض محاولات أوروبا لفرض نفوذها على ما تبقى من أراضى أمريكا الشمالية الشاسعة غير المستقرة، ومن هنا كان التقليد الرابع.

لقد كان التوسع مفهوما ضمنيا فى عقيدة الولايات المتحدة، وواضحًا فى سلوكها منذ تلك اللحظة فى عام ١٧٨١، عندما طالب بنيامين فرانكلين بريطانيا باستعادة كل الأراضى التى تقع شرقى المسيسبى. ففى النهاية، أى استقلال وأى حرية، يمكن أن يتمتع بهما الأمريكيون إذا كانت حدودهم بطول جبال الأليجانيز محاطة ببريطانيا وإسپانيا أو فرنسا وحلفائهم الهنود؟ وفى عام ١٧٨٧، وافق الكونجرس الذى لم يفعل شيئا والمكبل تحت بنود الاتحاد الكونفدرالى على مرسوم الشمال الغربى لتنظيم البرارى الواسعة شمالى نهر أوهايو. وفى عام ١٧٩١، دخلت ولاية ڤيرمونت الاتحاد لتصبح الولاية الرابعة عشرة، ثم دخلت ولاية كنتاكى، وهى أول ولاية غربية فى عام ١٧٩٢، وأرست بذلك سابقة أن كل المقيمين على أراضى الولايات المتحدة من المتوقع أن يصبحوا شركاء متساوين فى التجربة الديمقراطية.

ووسّع چيفرسون الدستور (البعض يقول إنه انتهك الدستور) عام ١٨٠٣ من أجل تأمين وضم أراضى لويزيانا. وضمت الولايات المتحدة «فلوريدا الغربية» ما بين عامى ١٨١٠ و١٨١٣، ثم بقية فلوريدا بمعاهدة عام ١٨١٩ مع إسپانيا، التى وسعت أيضا مطالب أمريكا فى الشمال الغربى إلى المحيط الهادى.

لقد آمن رجال الدولة الأمريكيون الأوائل بـ «المصير القارى»، وتخيل چيفرسون أنه سيأتى وقت «يغطى فيه تكاثرنا السريع كل أرجاء القارة الشمالية ـ إن لم تكن الجنوبية أيضا ـ بشعب يتحدث اللغة نفسها وتحكمه القواعد والقوانين ذاتها»[٣].

واعتقد چون كوينسى آدمز أنه «يبدو أن العناية الإلهية قد قدرت لأمريكا الشمالية أن تسكنها شعوب تكون أمة واحدة تتحدث لغة واحدة، تمارس مبادئ دينية وسياسية لنظام واحد، وتمارس نمطا عاما واحدا للعادات الاجتماعية

والتقاليد. ومن أجل السعادة المشتركة لهم جميعا، ومن أجل سلامهم ورفاهيتهم، أعتقد أنه كان من الضرورى لهم أن ينضموا إلى اتحاد فيدرالى واحد»(٤).

ويمكن للمرء أن يُرجع مثل هذه المعانى إلى الطموح الصريح، أو أن يفسرها كاستقراءات موضوعية لحقيقة أن الأمريكيين كانوا يقطنون قارة بكرا وخالية من منافسين حقيقيين. بيد أنه كان هناك ما هو أكثر من ذلك: فالتوسع ثمرة الالتزام الأمريكى الاستثنائى بالحرية، وهو أساسى. بدون نمو الحرية، لن تكون الأمة حرة مطلقًا.

أو، لوضع المسألة بشكل آخر، فإن مواطنى الولايات المتحدة رأوا فى الحواجز والقيود على التوسع، هجومًا على حريتهم لا يمكن التسامح فيه. تخيل القبائل الهندية واللوردات البريطانيين والمجالس العسكرية المكسيكية أو السلطات الفيدرالية للولايات المتحدة ذاتها، تقول للمزارعين والصيادين وأصحاب المزارع والتجار والمبعوثين: لا، لن يمكنكم الاستيطان هنا أو ممارسة «البيزنس» هناك. عودوا من حيث أتيتم. وفى أوقات، فعل الأربعة ذلك، ولكن الأمريكيين صرخوا بأن أمريكا دون فرص لن تعود أمريكا على الإطلاق.

ومن ثم، فإن المطلوب ليس شرحا مطولاً لتوسع الولايات المتحدة، وإنما شرح قصير عن لماذا لا يحتاج توسع الولايات المتحدة تفسيرا، فالجغرافيا اخترعته، والديموجرافيا فرضته. وكما ذكّر ستيفن إيه دوجلاس مجلس الشيوخ، فإن «أمريكا أمة شابة ونامية، تعج مثل خلية النحل. وكما أن النحل فى حاجة إلى الخلايا ليتجمع وينتج العسل، أقول لكم: إن التكاثر والتضاعف والتوسع قانون وجود الأمة»(٥).

لقد أعطت التجارة زخما قويا للتوسع، مع تضاعف السكان والصادرات والزراعة ثلاث مرات مّا بين عامى ١٨١٥ و١٨٤٨، وفتحت حرب الأفيون بين بريطانيا والصين (١٨٣٩ ـ ١٨٤٢) أسواقًا جديدة فى آسيا. وتزامن مع ذلك أن التكنولوچيات الجديدة والأعمال العامة: القنوات، السدود، أرصفة الموانئ، القوارب والسفن البخارية، والطرق، والتلغراف، والسكك الحديدية، خلقت ثورات فى الاتصالات والنقل.

كان المجتمع الأمريكى فائرا ومتوسعا، فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، حتى إن بعض المؤرخين كان يتحدث عن «ثورة ثانية» فى السياسة والاقتصاد والثقافة. والنظام الأول للحزب انهار عشية حرب عام ١٨١٢، عندما تحول الفيدراليون إلى حزب الجمهوريين الوطنيين، ثم اندمجوا فى حزب الويج الجديد، الذى شب لتحدى الديمقراطيين بزعامة أندرو چاكسون المخيف. وألّف التنيسيون البسطاء تحالفًا شمل الجنوبيين (بسبب التزام چاكسون بحقوق الولايات وتخفيض التعرفة الجمركية على السلع الأجنبية) والغربيين (بسبب معارضته للمصالح المالية فى الشرق وتأييده للتوسع)، والطبقة العاملة والمهاجرين (خصوصًا الأيرلنديين) فى المدن الشرقية(٦). سبك عقل چاكسون آليات الحزب الوطنى الجديد، متضمنة الرعاية، ونوادى سياسية فى كل مدينة وبلدة، وسلاسل صحف لنشر رسالة الحزب والتنسيق بين الفعاليات المحلية. وصاحت «المجلة الديمقراطية» فى عام ١٨٤٠: «الديمقراطية فى معناها الحقيقى هى آخر أفضل إلهام للفكر الإنسانى، إننا نتحدث، طبعا، عن تلك الديمقراطية الأصلية الحقيقية التى تتنفس وتعيش فى ضوء المسيحية ـ التى جوهرها هو العدل وهدفها التقدم الإنسانى»(٧).

وعَدّ الجيل الجديد التقدم هو العطية النهائية للحرية، كما يتضح من دراسة مايكل كامن عن الأيقونات الأمريكية. وبحلول ثلاثينيات القرن التاسع عشر، بدأت آلهة الحرية، والنسور الجامحة، والإشارات الكلاسيكية، ورموز التنوير (مثل الهرم والعين الواسعة على ورقة الدولار) فى الاختفاء من صفحات المجلات والملصقات لتظهر بدلاً منها حقول القمح الغنية والمصانع والسفن التجارية ـ ثمار الحرية ـ أكثر من أن تكون الحرية ذاتها(٨). وكان التوسع ـ داخليا وخارجيا ـ من بين تلك الثمار، كما كان غذاءً أساسيًا لمجتمع غير مقولب بشكل زائد، ديمقراطى بشدة، فى فترة الچاكسونية. وفى مقابل «الجمهورية المبنية» التى تخيلها فلاسفة مثل چيفرسون وعرفوها باقتضاب، فإن أمريكا خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر أوجدت ما عرف بمفردات المؤرخ روبرت ويب «ثورة الاختيارات». (٩) وما هو أكثر من ذلك أن الويج ـ المجموعات البائدة من الصناعيين المؤيدين لتعريفات حمائية وعمالة زراعية لأراض مجانية، ومطالبين بإلغاء قوانين وممارسات(*)، والمدافعين عن

(*) مثل عقوبة الإعدام واسترقاق العبيد.

الدعم الفيدرالى للطرق والقنوات والسدود والسكك الحديدية (التحسينات الداخلية) - وافقوا الديمقراطيين فى رؤيتهم لأمريكا توسعية مزدهرة، بصرف النظر عن مدى كراهيتهم للملك أندرو، وتوقفوا عن مد العبودية.

وفى أمة لم تزل تتألف فى معظمها من المزارعين، كان للأمريكيين رهان على مصلحة في توسع إقليمى. وبدأ أطفال العائلات كبيرة العدد فى النزوح غربًا، بحثا عن أرض لهم، ومكث آخر القادمين فى بلدات صغيرة، أو أراض هامشية فى واديى أوهايو والمسيسيبى، متطلعين إلى فرصة ثانية فى أوريجون وتكساس، أو الأراضى الهندية. وبدأ المزارعون الذين انسحقوا فى حالات الذعر بين ١٨١٩ - ١٨٣٧ النزوح إلى حيث توجد أراض رخيصة. وحتى المزارعين المزدهرة أعمالهم، ربما باعوا أراضيهم لشراء مساحات أكبر فى الغرب، وكما لاحظ توكڤيل، فإن الأمريكيين تحركوا إلى الغرب للغرض ذاته، يقامرون عليه «ليس فقط من أجل الربح الذى يحمله الغرب لهم، ولكن لحب الإثارة الدائمةفى تلك المغامرة وراء الربح»(١٠).

وكان الأمريكيون الچاكسونيون، يسكرون لأسباب فاسدة أو بريئة. فى أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كان الأمريكيون يستهلكون - فى المتوسط - أكثر من خمس جالونات من المشروبات الكحولية المقطرة للفرد سنويا، وهو المعدل الأعلى فى تاريخهم. وكان أحد الأسباب وراء ذلك، أن عامة القرن التاسع عشر فى المدينة والريف كانوا يعتقدون أن المياه مشروب ردىء وناقل للأمراض. وكان الشاى غالى الثمن وغير وطنى، لأن معظمه يأتى من بريطانيا. ولم تكن البيرة شعبية حتى بدأ المهاجرون الألمان يتزايدون حوالى عام ١٨٥٠. وذلك جعل من الروم بعد إلغاء الضريبة الكريهة عليه عام ١٨٠٢، ويسكى الحدود، وأصبح رخيصا جدا حتى إن صاحب الأجر المتواضع كان يمكنه شرب حاجته كل يوم. وفى عام ١٨١٠، أرسلت لويزڤيل ٢٥٠ ألف جالون من الويسكى عبر نهر أوهايو، وفى عام ١٨٢٢ ارتفع الرقم إلى مليونين و٢٥٠ ألف جالون(١١)، **وعندما سأل توكيل أحد سكان فيلادلفيا عن عدم فرض الكونجرس ضريبة عالية على شرب الكحول، طالما كان هو السبب فى معظم الجرائم فى أمريكا، أجابه: إن ذلك قد يفقد المشرعين مقاعدهم، هذا إذا لم يثر تمردا! ورد: «من حيث ذلك أستنتج أن شاربى الكحول هم الأغلبية فى وطنك!»**(١٢).

انتهت حفلة الصخب الوطنية فى حوالى أربعينيات القرن التاسع عشر . وكان السبب الأقرب حملة صليبية ضد المشروبات الروحية - تجاوز عدد أعضاء الجمعية الأمريكية الداعية للاعتدال ٤ ملايين - وكان هناك سبب لا يقل أهمية، وهو وصول مشروب بديل منبه ورخيص، هو «القهوة» من أمريكا اللاتينية(١٣) ومنذ ذلك الوقت، كف الأمريكيون عن شرب «البانش» و «التودى» على الإفطار أو عند الظهيرة، فى الوظيفة أو الحقول، وكانوا ينتظرون حتى المساء لاحتساء إبريق الخمر . ومازال چيمس راسل لويل مرتبطا بالرأى القائل بأن كل النهيق حول المصير المبين، كان «نصفه جهل ونصفه الآخر شراب الروم» . (١٤)

وكانت حركة الامتناع عن معاقرة الخمر أحد تعبيرات «الصحوة الكبرى الثانية»، كتمرد هائج ضد التحرر، وضد إنكار عقيدة التثليث، والعقيدة الكالڤينية التى أوهنت البروتستانتية الأمريكية خلال الأربعين عاما السابقة . . عادة لم يقدر أحد أهمية الإحياء الدينى، الذى تكرر فى التاريخ الأمريكي، نظرًا لصعوبة قياس تأثيره على الأحداث العلمانية . ولكن روبرت فوجل يعتقد أن «الاتجاهات السياسية الكبرى هى إلى حد كبير نتاج للتغيرات فى الحالة الدينية الأمريكية» . فحركة معاداة العبودية إضافة إلى حركة الامتناع عن معاقرة الخمر، ولدتا فى فترة إحياء ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر(١٥) .

لقد كانت أول حركة دينية تظهر فى الغرب (روشستر - نيويورك وأوبرلين - أوهايو) بدلاً من نيوإنجلاند، وكان تركيز هذه الحركة على إعادة تجديد الروح فى جذوة الروح القدس، وحرية الإرادة الإنسانية فى الانصياع للرب، وإعادة تجديد المجتمع الأمريكى بأسره وإعداده للألفية المقبلة .

أعاد الوعاظ المنهجيون والمشيخيون - فى المدارس وفى اجتماعات المعسكرات المتنقلة - تكريس أمريكا على أنها إسرائيل الجديدة، ونسبوا إليها القوة التى ستمكن حكم المسيح ألف عام فى الأرض . «إن الدين المدنى للشعب الأمريكى، جاء ليس ليبقى على الإيمان الذى أيقظه التنوير فى قوى الإنسان الأخلاقية، وإنما على مسيحيةإحيائية إصلاحية عقلانية ميللية (ألفية)»(١٦) .

ولسوف يكون أمرًا محفوفا بالمخاطر، حتى لخبير فى التاريخ الاجتماعى لتلك الفترة، أن ترسم خطوط فاصلة للسبب والنتيجة، بين هذه الظاهرة والسياسة

الخارجية. ولكن ليس هناك شك فى أن الولايات المتحدة فى أربعينيات القرن التاسع عشر، كانت قدرا يغلى من الخمر والمقامرة والعاطفة السياسية والهجرة غير المستقرة والتكنولوچيا الممزقة والمثيرة أيضا، وتوقعات لألف عام. ومجتمع تواق مثل ذلك، كان من الصعب عليه أن يتعامل بالصبر والحكمة مع أزمات دهمت أوريجون وتكساس، لتحدد مستقبل أمريكا الشمالية. فقد كان لدى الأمريكيين الحافز والوسائل والفرصة لمد مؤسساتهم وثقافتهم إلى حدود أراضيهم وأبعد. وإذا لم يكونوا فعلوا ذلك فقد كان على المؤرخين أن يواجهوا اليوم قضية مربكة.

❊ ❊ ❊

إذا كان التوسع الأمريكى يبدو بالغ الحتمية، فإن التوسعية الأمريكية هى أمر خلافى. وأخذا فى الاعتبار أن الولايات المتحدة نمت على حساب ناس يزعمون أن لهم حقوقا سابقة فى الأرض (الهنود ثم البريطانيين والمكسيكيين) كيف برر الأمريكيون وضع يدهم على تلك الأراضى؟

لقد حدد المؤرخ ألبرت كى. وينبرج ثمانية عوامل غذّت أيديولوچية التوسع:

الأول كان الحق الطبيعى، كما استشهدت «نيويورك إيفننج پوست» قبيل شراء لويزيانا: «إن للولايات المتحدة الحق فى تنظيم مصير المستقبل لأمريكا الشمالية. فالبلد بلدنا، لنا الحق على أنهاره وكل موارد الرغد المستقبلى، والقوة والسعادة، التى تتناثر تحت أقدامنا». (١٧) الحقوق الطبيعية، بالطبع، مستمدة من القانون الطبيعى الذى أوحى به رب الطبيعة. فالأمريكيون قد اعتقدوا جيدا، أن الرب رهن أمريكا الشمالية لتكون لهم «أرض الميعاد». ولكنها دعوى خطيرة لأنها تقضى بمسئولية إطاعة قوانين الرب الأخرى. ولا عجب أن التوسعيين المتحمسين مثل چيفرسون، چون كوينسى آدامز، ويليام هنرى سيوارد، وثيودور روزفلت، ربطوا ذلك التوسع الإقليمى، بالإصلاح فى الداخل. وإلا - كما كتب واينبرج - فإن استخدام القانون الطبيعى لتبرير التوسع، سوف يكون مشابها لصنع «مخلوق على شاكلة فرانكنشتين»(١٨).

وكان العامل الثانى هو الحتمية الجغرافية: «إن أراضى فلوريدا يمكن أن تُعَدّ امتدادا طبيعيا للولايات المتحدة، أو بكلمات أخرى، يمكن حقا أن تصبح مملوكة

للقوى المسيطرة على الولايات المجاورة چورچيا وألاباما والمسيسپى لأنها تصبح دون أهمية بدونها»[١٩] . قد يبدو ذلك وقاحة، إلا أنها أقل كثيرا من المفهوم القدرى أنه قدر لفلوريدا أن تبقى رهينة الإهمال الإسپانى.

وأبعد ما يكون عن الاعتذار عن التوسع، كان چون كوينسى آدامز يعتقد أنه «حتى تدرك أوروپا ثقل العامل الجغرافى الذى يجعل الولايات المتحدة وأمريكا الشمالية متطابقين، فأى جهد من جانبنا لنبطل اعتقاد العالم بأننا طموحون، لن يجدى أثرا إلا أن نضيف لاعتقاده أننا أيضا منافقون»[٢٠] .

وكان النمو الطبيعى هو المبرر الثالث للتوسع. وكما سأل أحد أعضاء الكونجرس، فيما يخص أوريجون: ما هى تلك الحدود الطبيعية للولايات المتحدة؟ وأين هى النهاية التى سيتوقف عندها ضم الأراضى؟ أليس النمو الطبيعى للدولة؟ وأيضًا النمو الطبيعى للاتحاد الفيدرالى؟

وفى تقرير مجلس الشيوخ عام ١٨٥٩ «قانون وجودنا الوطنى هو النمو. ولا نملك، إذا أردنا، أن نعصاه. . وبينما لا يجب علينا فعل شىء لإثارة ذلك بشكل غير طبيعى، يجب علينا أن نكون حريصين على ألا نفرض على أنفسنا نظاما صارما لنمنع تطوره الصحى»[٢١] .

رابعا: أنه فى الوقت الذى كان فيه الأمريكيون يسيطرون تدريجيا على مزيد من الأراضى التى وهبتها الطبيعة لهم، كانت بعض الأراضى الأجنبية تسقط داخل الحيز الأمريكى. وقال آدامز «هناك قوانين للجاذبية السياسية كما للجاذبية الطبيعية». وتنبأ آدامز بأنه متى تحررت كوبا من إسپانيا، فإنها سوف تنجذب نحو اتحاد أمريكا الشمالية. ووظفت مجلة الديمقراطية، اتجاها مجازيا علميا، وكتبت فى أربعينيات القرن التاسع عشر عن «مغناطيس قوى» يجذب تكساس إلى الولايات المتحدة.[٢٢]

ما الذى أعطى الولايات المتحدة تلك القوة الجاذبة؟

ما الذى صنعه الأمريكيون ليكسبوا معروف الطبيعة ومعروف رب الطبيعة؟

تمثل الإجابة العنصر الخامس فى التوسعية الأمريكية، وهى الحجة المتعلقة بفضيلة الصناعة. وكما أخبر چون ونثروب مستعمرته ماساشوستس باى: «إن الأرض

كلها حديقة الرب التى أعطاها لكم أيها الرجال بشرط عام: [وباركهم الله وقال: أثمروا واملئوا الأرض وأخضعوها] (سفر التكوين ١ : ٢٨). . لماذا، إذن، نتوقف ونسمع عوزا فى أراضى للسكنى. . وفى الوقت نفسه، تعانى القارة كلها، كقارة مثمرة وصالحة لاستخدام الإنسان، من أن تظل مهدرة دون أى تطوير؟»(٢٣) .

استشهد حاكم إنديانا بالمبدإ نفسه خلال حرب عام ١٨١٢ : «هل يظل واحد من أفضل أجزاء الأرض من الناحية الطبيعة، مأوى لقلة من الصعاليك المتوحشين، فى حين تبدو أن الخالق قدر لها أن تصبح دعما لسكان كثيرين، وأن تتبوأ مقعد الحضارة والعلم والدين الحقيقى؟»(٢٤) .

ولم يكن هناك اقتناع لدى الأمريكيين خلال القرن التاسع عشر أكبر من أن تلك الأرض البكر، إنما هى من أجل الإنسان لتطويرها ليمكنه أن يتزوج ويربى أطفالا ويشكر الرب الكريم.

ولم يكن ليسمح للهنود بإيقاف التقدم، ولا لشركة خليج هدسون التى كانت تصيد الحيوانات من أجل جلودها وتطرد الحارثين من التربة، أو للمكسيكيين البلداء الذين ظلت إمبراطوريتهم صحراء بعد قرون. كل أولئك الذين أحبطوا طموحات الرجال الأحرار، أزيحوا بعيدًا ـ بحق، وخسروا أراضيهم بسبب جرمهم.

وتبرير آخر، كعنصر سادس للتوسعية، كان أن النمو الأمريكى بحكم الواقع، يعنى مزيدا من الحرية. ودون الحاجة لقول ذلك، فإن مؤسسة العبودية المنقولة جعلت العديد من الأمريكيين قبل الحرب يكتمون تلك الحجة. ولكن من إمبراطورية چيفرسون للحرية، وحتى مد نطاق الحرية، مع چاكسون، كان المبدأ الجمهورى عذرًا للتوسع. وكتب والت وايتمان: «ومن بعض مواد الديمقراطية، بقلبها الإنسانى وبقوة الأسد التى فيها، والرافضة لكل ارتباطات المخرفين التى تريد تقييدها ـ فإننا نتوقع المستقبل العظيم لهذا العالم الغربى! مدى يتضمن سعادة إنسانية ليس لها نظير، وحرية رشيدة، لأعداد لا تحصى. حتى إن قلب الرجل الصادق ليقفز من الفرحة بمجرد التفكير فى ذلك!». (٢٥)

وهكذا نصل إلى «المصير المبين» الحجة التوسعية السابعة. وكتب أوسوليڤان: إن الوصف الحقيقى لأوريجون يقع فى «الحق المتعلق بمصيرنا المبين فى أن ننتشر

ونتملك كل القارة التى وهبتنا إياها العناية الإلهية، لتطوير التجربة العظمى للحرية والحكومة الذاتية الفيدرالية التى عُهد إلينا بها»[٢٦] .

إنه لم يدع إلى الحرب ولم يتوقعها. لقد كان كافيا أن الفلاحين يحوزون أراضى شاغرة، وخلال زمن سوف يتزايدون ويؤسسون حكومة ذاتية ويلتمسون دخول معبد الحرية الأمريكى. وكما شرح المؤرخ فردريك ميرك: «إن أى التحاق سريع بمعبد الحرية سوف يكون غير حكيم، وأى التحاق إجبارى سوف يكون معارضًا للشروط، غير وارد، بل وعصيان. والواجب الذى يقع على شعب الولايات المتحدة هو قبول كل المتقدمين المؤهلين مجانًا»[٢٧] . ذلك كان القدر المبين فى شكله النقى: مسالم، ذاتى الحركة، تدريجى، محكوم بحق تقرير المصير.

ولكن ظهرت مدرسة ثانية للمصير المبين، قتالية نهمة غير صبورة. وتزعمها صحفيون وسياسيون من إنديانا وميتشجان وألينوى. وهؤلاء التوسعيون لم يرفضوا رسولية أمريكية، ولكنهم كانوا مستعدين لإسراع الخطى ومعارضة أى حل وسط مع الأجانب. وكان بعض الراديكاليين من أنصار المصير المبين، يتدبرون تحرير الأقطار الأجنبية كثيفة السكان، ومنحهم نعم الحضارة الأمريكية.

هذا التجديد للثقافات الأخرى، الحجة الثامنة التوسعية لوينبرج، ظهرت على المجلة الديمقراطية. لقد كان هناك خطر عظيم من الغزو لمجرد الاستعباد، ولكن «أمة حرة أظهرت تسامحًا متساويا وحماية لكل الأديان، وتغزو لمنح الحرية، ليس لديها هذا الخطر لتخافه»[٢٨] .

ولنتوقف دقيقة ونفكر. إن أمريكى القرن العشرين، ربما يعتريه الخجل من التفكر فى نهبنا للهنود والمكسيكيين، ولكنه يؤيد الرسالة الأمريكية فى مساعدة الأقطار الفقيرة، ودعم حقوق الإنسان والديمقراطية، وقد لا يتعاطف مع أى من تلك التبريرات للتوسع، إلا التبرير الأخير. ولكن أمريكيى القرن التاسع عشر، المخلصين للتقاليد الثلاثة الأولى للسياسة الخارجية للولايات المتحدة، قد مالوا إلى قبول التبريرات السبع الأولى، ورفضوا التبرير الأخير فقط، المتأثر بنوع من الروح الصليبية التى حذر چون كوينسى آدامز، من أنها ستفسد الأمة وحريتها فى الداخل.

فى الواقع، الأصوات القليلة فى القرن التاسع عشر التى أثار التوسع الوطنى قلقها، كانت مهتمة فقط بتأثيره على الحرية فى الداخل. وخشى البعض من أن الاتحاد قد يتجاوز السلطات المحدودة للحكومة الفيدرالية، فتتطاير أجزاؤه. وشجب فيشر آدامز شراء لويزيانا كرحلة فى فضاء لا نهائى، واعتقد چوسيا كوينسى أن «إخلال التوازن ـ الذى هو من الضرورى جدا الحفاظ عليه ـ بين الولايات الشرقية والغربية، يهدد فى يوم ليس بعيد جدا، بتدمير اتحادنا». وخشى آخرون من أن تفويض الحكومة المركزية بسلطات متزايدة، يمكن أن يغتال حقوق الولايات. وظل آخرون يخشون على حرية الشعب فى الخلف من ناحية الشرق. وكما قال چون راندولف فى عام ١٨١٣ : «إننا أول شعب يكتسب مقاطعات جديدة ليس من أجل أن نحكمها، ولكن لأنها قد تحكمنا. . إننا ننقاد إلى فنائنا على أيدى أناس لا تربطنا بهم رابطة مشتركة من المصلحة والعواطف». (٢٩)

وبحلول عام ١٨٣٠ ـ أو حوله ـ اتضح أن هذه المخاوف كان مبالغًا فيها. واستشهد كل واحد بإعلان السناتور توماس هارت بنيتون بأن حافة سلسلة جبال روكى يجب أن تكون حدود أمريكا. «وأن تمثال الإله الأسطورى تيرميناس [إله الحدود] يجب أن يقام على أعلى قمة هناك، ولا يسقط أبدا»(٣٠)، ولكن فى عام ١٨٢٥، أصبح ذلك صدى للماضى، وأيا كان الحال، فحتى أولئك الذين خشوا تأثيرات تمدد الحكومة الأمريكية، أصبحوا لا يتشككون مطلقًا فى أن الشعب الأمريكى سيمضى قدما فى التوسع. وذلك يفسر أن جدال المؤرخين حول ما إذا كان توسع الولايات المتحدة يمثل «المصير المبين» أو «التصميم المبين»، اعتمد على تمييز فارغ(٣١). فقد كان الأمريكيون يمضون قدما فى نشر بذورهم وتجارتهم سواء قادتهم الحكومة أو تبعتهم، وهى الحقيقة التى احتفى بها ثيودور روزفلت(٣٢) :

إن أشباه المحاربين الذين احتشدوا عبر الأليجانيز، والصيادين المحطمين الجوالين بلا استقرار، والفلاحين العنيدين عند الحدود... كل أولئك لم يطيعوا قائدًا، ولم يتبعوا قوانين صادرة من ملك أو كونجرس، ولم يحملوا خططا لقائد بعيد النظر. ولكن بإطاعة غرائزهم ـ نصف المبصرة ونصف العمياء ـ التى تعتمل فى صدورهم، يسارعون الخطى برغبات جسورة فى قلوبهم التواقة، صنعوا فى البرارى بيوتا لأطفالهم. وبذلك صاغوا بدقة مصائر أمة قارية.

إن ما كانت الحكومة الفيدرالية تحتاج إلى عمله، أن تلجم مواطنيها الجامحين، لخفض المخاطر المرتبطة بفيضانهم خارج الحدود الدولية إلى لويزيانا وفلوريدا وأوريجون وتكساس وكاليفورنيا[٣٣] . ولكن قبل مناقشة هذه الأحداث، يجب أن نراجع تجربة الولايات المتحدة التى خبرتها فعلا فى صراعها فى المآزق التى صنعها الناس خلال التحرك، خصوصا تلك التى أثارت مسائل العرق.

❊ ❊ ❊

ثار المأزق الأخلاقى الحقيقى الذى طرحه مبدأ التوسع الإقليمى من الصراع بين الحرية الأمريكية التى بررت ومكنت من التوسع الإقليمى، وحقيقة أن هذا التوسع تحقق على حساب ممتلكات الهنود والمكسيكيين، والأفارقة (بالمدى الذى انتشر فيه الرق).

فى ذلك الوقت، السياسة تجاه الهنود والعبودية ليستا من قضايا السياسة الخارجية، ولكن تغافلهما سيكون خطأ. ذلك أن الجهود المضنية والعقيمة للحكومة للتعامل مع هذه القضايا، أظهرت أنماطا من التفكير والسلوك تجاه الشعوب الأجنبية التى ستتعامل معها السياسة الخارجية للولايات المتحدة. حتى إن بعض المؤرخين الغاضبين رأى أن التاريخ الأمريكى هو قصة واحدة طويلة عن «كراهية الهنود وبناء الإمبراطورية» من صخرة بلايموث حتى مقاطعة أنجون فى ڤيتنام، أو أن صراعات المستوطنين مع الهنود أفرخت «ثقافة منتصرة» أمريكية قننت الذبح الجماعى لشعوب من أعراق أخرى، أو أن تلك النخب فى أمريكا الچاكسونية بنت نموذجا عنصريا تجاه غير البيض لتبرير إزالتهم ولتخمد الصراع الطبقى بين البيض[٣٤] .

صحيح أن الأمريكيين البيض لديهم رؤى عنصرية ـ وكل واحد لديه بعض الرؤى العنصرية ـ ولكن تعليق التاريخ الأمريكى كله على هذا المشجب هو تجاهل للمعضلات، المعضلات التى طرحها وجود الهنود والعبودية، لأمة ملكتها الحرية. فى مسألة السياسة تجاه الهنود، بدأت الحكومة الفيدرالية بآمال عليا. ففلسفة التنوير بشرت بوحدة الجنس البشرى ومفهوم الوحشية النبيلة. واعتبر كل امرئ ـ كأمر مسلم به ـ أن طريقة الحياة البدائية للهنود مقضى عليها بالنهاية. وكان السؤال هل

يموت الهنود عليها، أو أن يأخذوا تدريجيا مكانهم كأفراد داخل الثقافة المسيطرة؟ واعتقد چيفرسون أن «الدلائل التى أظهرها ذكاء الهنود فى أمريكا الشمالية تضعهم فى مستوى البيض غير المتحضرين»، مما يدل على أن كل ما يحتاجون إليه هو تعليمهم، حتى يشاركوا فى عطايا الحرية [٣٥]. وأعلن قانون الشمال الغربى «سوف نراعى - بكل النية الطيبة - الهنود، لن تؤخذ أراضيهم وممتلكاتهم إلا بموافقتهم». واحتضن الرئيس واشنطون ووزير حربه هنرى نوكس برنامجا إنسانيا اعتمد على تقييد الاستيطان الأبيض، والاعتراف بالأراضى الهندية، وتمويل البعثات الدينية والزراعية، وتنظيم التجارة مع الهنود وتوقيع اتفاقيات مع القبائل وكأنها أمم أجنبية[٣٦].

وسرعان ما اتضح أن تلك الآمال كانت بعيدة المنال. فاعتداءات المستوطنين على أراضى القبائل كانت لا مفر منها، مما استدرج الحكومة الفيدرالية إلى حروب. لقد قاوم بعض الهنود الذوبان، وآخرون رفضوا بازدراء بالرغم من (أو بسبب) نجاحهم فى التكيف مع طرائق الرجال البيض. وافترسهم الغشاشون والنصابون ووكلاؤهم.

وفى حرب عام ١٨١٢، جذب البريطانيون مرة أخرى بعض الهنود فى حلف جعل من الأمريكيين الأصليين محل شك كتهديد لأمن الولايات المتحدة. وخلال عشرينيات القرن التاسع عشر، دفع التوسع فى مراع ومزارع الجنوب البعيد الكل لحسبان أن وقت استيعاب الهنود قد فات. وفى عام ١٨٢٨ تحدت حكومة ولاية چورجيا معاهدات الحكومة الفيدرالية مع الهنود، وتبعتها ألاباما والمسيسبى وفرضت تشريعات الولاية على كل الناس داخل حدودها، وحرمت على السلطات القبلية الدعوة إلى مناسبات عامة.

وقد اشتكى الهنود، ولكن المحكمة العليا برئاسة مارشال وجدت «بعد تداول طويل» أن «أى قبيلة أو أمة هندية داخل الولايات المتحدة ليست دولة أجنبية بروح الدستور، ولا يمكن لها أن تتخذ إجراء داخل المحاكم فى الولايات المتحدة»[٣٧].

إذا لم يكن باستطاعة الهنود الذوبان، والحكومة الفيدرالية تعوزها السلطة لفرض قانونها على الولاية، فعندئذ يظل هناك خياران: إما أن يُترك الهنود تحت رحمة الحكومات المحلية، أو يرحلوا إلى الأراضى الفيدرالية الواقعة وراء نهر المسيسبى. لا حاجة للقول إن الحلين غير عادلين وقاسيان، ولو أن الثاني كان أهون

الشرين. توقع چيفرسون أن يحدث ذلك مبكراً عند عام ١٨٠٣، ولكن أيا من الرؤساء لم يجرؤ على مواجهته، حتى مجيء أندرو چاكسون. وطبقا لأعظم رواة قصته، فإن قانون انتزاع الهنود عام ١٨٣٠ الذى أقره چاكسون، كان الدافع وراءه الاهتمام بالأمن القومى والدفاع عن حقوق الولايات، «واعتقاد أصيل بأنه قد اتبع ما تمليه عليه الإنسانية وحفظ الهنود من موت محقق». [٣٨]

ربما فعل (بدون إحصاء ما بين ثلاثة وأربعة آلاف هلكوا فى المعسكرات أو فى ممر الدموع). ولكن چاكسون وضع أيضا موافقة فيدرالية على الانتزاع الصرف للناس التى تقف فى طريق التوسع الأمريكى. وكما وصفها كتاب أساسى: « بمالا مفر منه، خانت العنصرية المصير المبين». [٣٩] تلك صنيعة كريمة. وفى الحق أن التمييز العنصرى كان شرطًا ضروريًا للتوفيق بين التوسع والحرية. وكان لابد أن يُفهم أن ليس للهنود حقوق المواطنة، وإلا كيف كان يمكن أخذ أراضيهم؟ وأبعد من ذلك، أن معظم الأمريكيين اعتقدوا أن دونية الهنود لم تكن بناء من صنعهم، ولكن حقيقة واقعية واضحة.

هل كان القانون الأمريكى والزراعة والتجارة والتكنولوچيا والدين والثقافة متفوقة على تلك التى للسكان الأصليين؟ اقتراح العكس فى منتصف القرن التاسع عشر من قبل أى امرئ، يكون شهادة على جنونه. هل كانت الولايات المتحدة متفوقة على المكسيك؟ إن السؤال ذاته كان سيقابل بصخب. فالسؤال الذى استحوذ على الدارسين ورجال الدولة: لماذا أظهر الأنجلو ساكسون عبقرية فى الحكم الذاتى والصناعة تبدو أنها تنقص الشعوب الأخرى؟

لقد تأمل چيفرسون المسألة، ودرس اللسان الأنجلو ساكسونى القديم، وسأل عما إذا كانت أعرافهم وتقاليدهم هى التى جعلت من الساكسون عاشقين للحرية، وعما إذا كانت خصلة فطرية لدى الشعب ألهمت أعرافهم ومؤسساتهم مبادئ الحكم الذاتى؟ وبحلول العقد الثالث من القرن التاسع عشر، اعتقد الفلاسفة الإنجليز والأمريكيون أنهم توصلوا إلى إجابة. فبينما كانت مذاهب المسيحية والتنوير تعظ بالكمال الإنسانى وغلبة التنشئة على الطبيعة، قالت أولى النظريات التطورية، وعلم تنشئة الحيوان ومفهوم الرومانسيات عن العبقرية الوطنية، بغلبة

الطبيعة على التنشئة. فالروح الحرة المقدامة والرغبة فى الانتشار فى الأرض متوارثة بوضوح فى الأنجلو ساكسون. فسر ذلك مسألة أمريكا والإمبراطورية البريطانية، ولماذا تبدو الأجناس الأخرى - ليس فقط الهنود والزنوج، بل واللاتين والسلاف - غير قادرة على الحصول والحفاظ على الحرية[٤٠].

واعتقد العلماء أن لديهم دليلا على هيراركية للأجناس. اختبر عالم الأدمغة المؤثر شارلز كالدويل، أدمغة مدفونة تحت الأرض فى وادى أوهايو، وأعلن أن الجنس الهندى أقل مرتبة من الناحية الچينية، واستخلص قوله «إن المشروع الكفء الوحيد لتمدين الهنود هو أن يجتازوا سلالتهم. . أى مشروع آخر سوف يقضى عليهم»[٤١].

واحتضن الرأى الجنوبى فرضيات اللامساواة البيولوچية، وكتب ويليام جليمور سيمز «إنه، يكون العبد وحده، من يُدفع إلى مركز فى المجتمع أدنى مما يتطلب ذهنه وأخلاقه». «واعتقد هنرى كلاى أنه يستحيل تمدين الهنود»[٤٢]. وعندما كانت المكسيك هى المسألة، تساءل الأمريكيون متفهمين: لماذا أينعت المستعمرات البريطانية ووهنت المستعمرات الإسپانية السابقة؟

إن النظرية المبكرة المعتمدة على التنشئة، ركزت على التأثير الثقيل للكاثوليكية، والإقطاع، والطغيان الإسپانى والعسكرة الثورية على الطريقة الفرنسية. ولكن اقترحت نظرية الچينات أن المكسيكيين (بكلمات لانزفورد هاستنز - مؤلف دليل أكثر مبيعا عن كاليفورنيا) نادرا ما كانوا أكثر تفوقا فى الذكاء من «القبائل البربرية التى كانت تحيط بهم». ولم يكن ذلك لغزا، «فمعظم من هم فى القاع من المكسيكيين أصلهم الحقيقى هنود». وافقت نيويورك إيڤننج پوست بقولها: «المكسيكيون أصلا هم هنود، يجب أن يتشاركوا المصير مع ذوى عرقهم»[٤٣].

لا يمكن إنكار استغلال الأمريكيين للحجج العنصرية لتبرير بسط أياديهم على أراض فى متناولها، ولكن لم يكن العدوان العنصرى - أبداً - دافعهم لامتلاك الأراضى. كانت دوافعهم الحرية والفرصة، كما قال أندرو چاكسون للكونجرس: «ما الذى سيفضله الرجل الطيب: بلد تنتشر فيه الغابات، وعلى أطرافه آلاف قليلة من الهمج، أو جمهوريتنا الشاسعة، تزداد بالمدن والقرى والمزارع المزدهرة، مزدانة بكل

التحسينات التى يمكن أن يجهزها الفن أو تنجزها الصناعة، ومسكونة باثنى عشر مليونا من الناس السعداء، ومثمرة بكل ثمرات الحرية والحضارة والدين؟»[٤٤].

وكان الأمن دافعا آخر. ففى عام ١٧٩٤، طلبت جمعية تنيسى من الكونجرس إعلان الحرب على الكريك والشيروكيين، لأنه «كان من الصعب أن يوجد إنسان فى هذه الجمعية إلا ويستطيع أن يحصى زوجة عزيزة أو طفلا أو أبا مسنا أو قريبا، جرى ذبحهم على أيدى تلك الأمم المتعطشة للدماء فى بيوتهم أو حقولهم». لقد كان سهلا جدا للشرقيين المغرورين الآمنين أن يتباكوا على الهنود، مادام قد مر زمن طويل منذ أن طردوا أو قتلوا السكان الأصليين. ولا يهم أحدا فى حالة تهديد عائلته، التحرش بالهنود وغشهم. فمؤلف الحدود (الفرونتيير) هيو هنرى براكيزيدچ، الذى شاهد صديقه يموت من التعذيب فى أيدى «حيوانات متوحشة تسمى الهنود» سخر من الفيلسوف الذى «اعتقد فى وجود فضيلة كاملة فى بساطة الحالة البدائية»[٤٥].

وكانت الحجة الأقوى ضد تفسير تاريخ الولايات المتحدة اعتمادا فقط على العدوان العرقى، هى أن الأمريكيين البيض كانوا متلهفين ـ بنفس الدرجة ـ على أن يستهدفوا بيضًا آخرين كما لو كانوا هنودا أو مكسيكيين. فالحروب ومخاوف الحرب مع بريطانيا من عام ١٧٧٥ إلى عام ١٩٠٠ تقترب من دستة. وأسوأ إراقة للدماء فى تاريخ الولايات المتحدة هى الحرب الأهلية التى قتل فيها البيض بعضهم البعض.

ليس فيما سبق ما يبرر الوحشية والنفاق المرتبطين بمسيرة الأمريكيين نحو الغرب، ولكنها وضعت العنصر العرقى فى مكانه الصحيح فى المشهد. فلو كان الساحل الغربى أو تكساس مطمعا للفرنسيين أو البريطانيين، وأرادوا وقف توسع الولايات المتحدة، فإن الأمريكيين المشاكسين كانوا سيتطلعون للنيل منهم. وفى الحق أن البريطانيين عانوا نصيبهم فى الشاطئ الغربى وفى تكساس، وتسلوا بأفكار «سياسة الاحتواء»! وذلك أيضا يساعد فى شرح لماذا أصبح «المصير المبين» صرخة أربعينيات القرن التاسع عشر، وليس قبل أو بعد.

***

الحكاية معروفة جداً أكثر مما تحتاج معه إلى إعادة تفصيلاتها . .

بحلول عام ١٨٤٤ ، تصاعدت سخونة مسألتين حتى الاقتراب من الغليان . كانت الأولى أراضى أوريجون ، تلك الأراضى الشاسعة التى لا يملكها أحد بين المحيط الهادى والشق القارى ، والتى فُتحت بموجب معاهدة عام ١٨١٨ أمام المستوطنين الأمريكيين والبريطانيين . وفى البداية ، كان هناك وكلاء شركة «هادسونز باى» ، الذين بنوا الحصون واحتكروا تجارة الفراء ، ثم بدأ المزارعون الأمريكيون الاستيطان فى وادى ويلاميت جنوبى كولومبيا . وبحلول عام ١٨٤٤ كان عددهم ألفين ثم وصل ثلاثة آلاف فى عام ١٨٤٥ . عقدت أوريجون مؤتمرات عبر الغرب الأوسط تلتمس من الحكومة الفيدرالية إنهاء الاحتلال المشترك وتأكيد مطالبتها بأوريجون ، ولو تطلب الأمر استخدام السيف .

وفى غضون ذلك ، فإن الهجرة العفوية الأمريكية إلى ذلك القسم من الولاية المكسيكية كوهويلا المعروفة بتكساس ، أوجدت خطر حرب ثانية . فقد قاد ستيفن إف . أوستن الأسر الثلاثمائة الأولى عبر نهر سابين فى عام ١٨٢١ ، واعدا بأنهم سيصبحون كاثوليك ومواطنين مكسيكيين أوفياء . ولم تكن هناك فرصة لذلك ، حتى لو لم تكن الحكومة المكسيكية مشلولة بقلاقل مدنية . وفى عام ١٨٣٦ ، عندما ألغى الچنرال سانتا آنا الدستور الليبرالى المكسيكى ، وأعلنت تكساس الاستقلال ، تجاوز تعداد الأنجلو المقيمين هناك المكسيكيين بنسبة ٧ أو ٨ إلى واحد . . لقد كانت فرصة أمريكية كلاسيكية ، ولكنها أيضا حالة واضحة لتقرير المصير .

وبعد هزيمة سانتا آنا فى معركة سان چاسنتو ، طلب التكساسيون من الولايات المتحدة الانضمام إليها .

وعند تلك اللحظة ، تصادم تقليدان أمريكيان للمرة الأولى .

فالتوسع أملى الضم . ووضع الأمريكيون أعينهم على تكساس منذ شراء لويزيانا الذى جعل منها جارة ، وحاول چاكسون مرتين إقناع المكسيك ببيعها . والآن ، احتل الأمريكيون الأرض ودافعوا عنها بدمائهم . ولكن الحرية فى الداخل ـ التقليد الأمريكى الأول ، والذى نشأت التقاليد الأخرى لخدمته ـ فرضت امتناعًا فى عقول الهويج وبعض الديمقراطيين الشماليين ، لأن تكساس اختارت السماح

بالعبودية. تعقدت المسألة فى الكونجرس، وفشل كل جهد لضم تكساس حتى انتخابات عام ١٨٤٤.

ليس هناك تكهن بما كان سيحدث لو لم يفز چيمس. ك. پولك بالانتخابات بفارق شعرة. وعندما انتصر الديمقراطيون على قاعدة طلب كل أوريجون (بما أسعد الشماليين) وتكساس أيضا (بما أسعد الجنوبيين) عَدَّ الرئيس - البطة الكسيحة چون تايلور - ذلك تفويضا بالتوسع، وناور فى الكونجرس لإلحاق تكساس فى مارس عام ١٨٤٥ بقرار مشترك (تطلب أغلبية بسيطة فى المجلسين). وظل الجدل حول تكساس منذراً بالسوء. وسأل التوسعيون مثل تشيزيلدن إيليس (ديمقراطى - نيويورك)، «لماذا نجنح بالنسر خلال صعوده الشجاع نحو الشمس؟ لا يا سيدى، إن إيقاف مسيرتنا المقدامة والمسالمة خيانة لمسار الحرية الإنسانية». (٤٦) ولكن المعارضين صرخوا بأن مد العبودية كان الخيانة الحقيقية للحرية. وبعد ١٦ عاما، حارب الأمريكيون بعضهم البعض حول تلك التعريفات المتباينة. ولكن پولك جمع الأمة طويلا لصنع جمهورية قارية.

أولا، استرجع پولك فى خطابه الافتتاحى تقاليد السياسة الخارجية لأمريكا، واستنتج استنتاجا منطقيا (سمى أحيانا لازمة پولك من مبدإ مونرو) فيما يخص تكساس (٤٧) :

فى ظروف العالم القائمة، يُعَدّ الوقت الراهن فرصة ملائمة لتكرار وإعادة تأكيد المبدإ الذى صرح به السيد مونرو، ولإعلان موافقتى القلبية على حكمته وتميزه. يجب دائما أن نحمى المبدأ القائل بأن شعب هذه القارة وحده، له الحق فى تقرير مصيره. وأى قسم منهم يؤسس دولة مستقلة ويقترح الاتحاد مع كونفيدراليتنا، ستكون المسألة بينهم وبيننا لتقرير ذلك، دون تدخل خارجى.

ثانيا، أذاعت حكومة پولك ومؤيديه، وضخمت - وحين الضرورة استثارت - التهديد الخارجى، حتى ينهى الأمريكيون خلافاتهم الداخلية باسم الوطنية. لقد كان الغول الرئيسى هو بريطانيا، التى لم تنكر فقط مطالب أمريكا فى كل أوريجون، ولكن قيل إنها تتآمر مع المكسيك بأمل وقف توسع الولايات المتحدة.

وفى ذلك بعض الحقيقة. فقد حاول البريطانيون مرارا إقناع المكسيك بقبول فقدان تكساس وتوجيه طاقاتها نحو إصلاح داخلى خشية أن يستولى اليانكى ليس على تكساس فقط، ولكن على كاليفورنيا أيضا. ولكن المكسيكيين المختالين والعنيدين رفضوا خسارة تكساس، أو تنظيم مالياتهم أو تقوية جيشهم. وكتب الوزير البريطانى فى مكسيكو سيتى: «إن غرورر وضعف الحكومة هنا، أعاق إمكان إعطائهم أى نصيحة». (٤٨)

وتحدث البريطانيون أيضا عن التجارة والقروض مع مبعوثى جمهورية تكساس، واقترحوا أن يشاركهم الفرنسيون فى دعم استقلال تكساس. وللتأكيد، فإن حكومة روبرت پيل المحافظة لم تكن مستعدة للقتال من أجل المكسيك أو تكساس، ولكن إذا كانت الحرب مع الولايات المتحدة يجب أن تنشب حول أوريجون، تسقط كل الرهانات.

نجح پولك فى ثلاثة فترات عصيبة فى أن يأخذ وضع المعتدل، ويحول مسئولية قراراته الحاسمة على الكونجرس. وفى حالة أوريجون، اشتهر پولك بصيحة النسر المحلق فى أن «الطريقة الوحيدة للتعامل مع چون بول هى تهديده وجها لوجه». (٤٩) ورفع عاليا شعار "Fifty Four Fourty or Fight "(*).

ولكنه فى الحقيقة كان مستعدا لقبول الشروط نفسها التى قدمها چون كوينسى آدامز ثلاثًا لبريطانيا: الاشتراك فى أوريجون عند خط العرض التاسع والأربعين (بما يوسع خط الحدود الأمريكى - الكندى القائم، إلى پوجيت ساوند) مع اعتراف بحقوق بريطانيا فى الملاحة فى نهر كولومبيا. وقد عنى ذلك التخلى عما يعرف الآن بكولومبيا البريطانية، ولكن كما أخبر وزير الخارجية چيمس بوكنان، فإن تلك المنطقة كانت تقريبا «غير صالحة بتاتًا للزراعة، ولا تستطيع ايواء عدد كبير من السكان». لذلك، اقترح أن يعرض پولك التقسيم للمرة الرابعة. وإذا رفض البريطانيون فإن مسئولية الحرب ستقع عليهم و «سيشعر الرئيس بأنه حر تماما فى أن

(*) أى مد الأراضى الأمريكية بالطرق السلمية إلى خط عرض ٤٠ً ٥٤ْ أو القتال فى سبيل ذلك.

يستمسك بحقوقنا بمداها الكامل حتى الخط الروسى». [٥٠] . لم يكن الرأى الأمريكى، بأى شكل، موحداً.

لقد أسف قطاع الأعمال لاحتمال الحرب مع بريطانيا، بينما عارض الهويج پولك على أرضية سياسية. وعديد من الجنوبيين، بعد طى تكساس، أصبحوا فاترين بخصوص أوريجون، مما أثار الحنق على «الجنوب الجاحد»، ولكن أنصار «المصير المبين» فى الغرب الأوسط قالوا: «أوريجون ـ كل قدم أو ولا حتى بوصة واحدة»![٥١] وتوقعوا أن يتخذ پولك موقفاً متشدداً. ولكنه لم يفعل. وفى يونيو عام ١٨٤٦، عندما اقترح البريطانيون فى النهاية معاهدة تعتمد على حل وسط أمريكى، أرسلها پولك مباشرة إلى مجلس الشيوخ ضاغطا عليه بأن ينحو إلى الاعتدال أو يختار الحرب.

ذلك ما أوقع مجلس الشيوخ فى التصديق على المعاهدة بـ ٤١ صوتاً مقابل ١٤، حاثاً إدوارد إيه هانيجان (ديمقراطى ـ انديانا) على التالى: «باسم الماضى، باسم الملايين الذين لم يولدوا وسيكون مستقبلهم الأدبى توجيه مصائر أمريكا الحرة ـ احتج هنا أمام السماء وكل الرجال ضد أى تقطيع لأوصال أرضنا ـ التنازل عن مبدئنا ـ التضحية بشرفنا»[٥٢] . وكان هانيجان الصوت الحقيقى لأنصار المصير المبين، ولم تكن كذلك سياسة إدارة پولك.

إن نيات پولك بخصوص المكسيك ـ وما إذا كان لديه مفهوم واضح حول ما يريد وكيف يحصل عليه ـ يكتنفها الغموض حتى اليوم.

تكساس أصبحت ولاية من قبل، وبينما كانت حدودها الجنوبية مسألة نزاع، لم يفكر أحد إلا التكساسيون فى أنها تستأهل الحرب. ذلك يفسر لماذا يعتقد معظم المؤرخين أن پولك استهدف منذ البداية، الجائزة الأغنى بحق، التى تركت فى شمالى أمريكا: المقاطعة المهجورة آلتا كاليفورنيا.

إنها لم تظهر بوضوح فى أدبيات المصير المبين، ولكن النخبة الأمريكية، من الديمقراطيين وكذلك الهويج، لمحت القدرة الكامنة لكاليفورنيا.

فقد عمم المستكشف البحرى تشارلز ويلكز الحقيقة عن أن «كاليفورنيا العليا تزهو بواحد من أفضل الموانى، إن لم يكن هو أفضلها فى العالم، وهو ذلك الذى فى سان فرانسيسكو . . . إنه من المحتمل جدا أن يتحد هذا البلد مع أوريجون، وربما يشكلان ولاية من المقدر لها أن تتحكم بأقدار المحيط الهادى»[٥٣]. واعتقد دانييل وبستر أن «ميناء سان فرانسيسكو سيكون ذا قيمة لنا تعادل قيمة تكساس ٢٠ مرة». وبررت الصحيفة الرسمية للهويج طموحات الولايات المتحدة على الأسس المألوفة، بأنه بعد ثلاثة قرون من الحكم الإسپانى، فإن كاليفورنيا تكاد تكون معدومة التجارة أو الزراعة. «طالما ظلت كاليفورنيا مملوكة للسكان الحاليين، وتحت الحكومة الحالية، فليس هناك أمل فى تجديدها». إنها يجب «أن تمر إلى أيدى عرق آخر . . . هذه النقطة متفق عليها، ويبقى فقط قيد البحث، أى أيد ستأخذ كاليفورنيا؟»[٥٤] . وعكست صحيفة «نيويورك هيرالد» مصالح قطاع الأعمال المستعدة «للتنازل عن سلخة من أوريجون، إذا استطعنا تأمين سلخة من كاليفورنيا». واعترف پولك نفسه بأنه «لتوكيد مبدإ السيد مونرو ، اعتبرت كاليفورنيا وخليج سان فرانسيسكو الرائق بالقدر نفسه الذى اعتبرت به أوريجون»[٥٥] .

وبدأ المهاجرون الأمريكيون فى التقاطر على «سييرا نيڤادا»، وتنامت أعدادهم للدرجة التى أرهبت ـ بلا شك ـ سبعة الآلاف من السكان المكسيكيين البسطاء فى تكرار لـ «حل تكساس». ولكن پولك لم يكن يعتقد أن الزمن فى جانب الأمريكيين.

وكانت هناك بينة على اهتمام البريطانيين والفرنسيين وحتى البروسيين بكاليفورنيا، كما أن عدداً من أعضاء الحكومة البريطانية كانوا متلهفين لإرسال البحرية الملكية إلى سان فرانسيسكو لاستباق مبادرة اليانكى[٥٦] .

ولذلك، كان أول تحرك لپولك، هو إرسال مبعوث شخصى، چون سليدل من لويزيانا، إلى مكسيكو سيتى بأمل إقناع المكسيك بقبول حدود ريو جراند وبيع كاليفورنيا. ولكن المكسيك قطعت العلاقات الدپلوماسية مع الولايات المتحدة، ولم يكن باستطاعة أى قائد مكسيكى مهادنة اليانكى الكريه، ويستمر فى السلطة فى بلده. لذلك طلب پولك من الچنرال زخارى تايلور إرسال مقدمة حرس إلى ريو جراند. وحدث الاشتباك المحتوم مع القوات المكسيكية فى ٢٥ من إبريل عام ١٨٤٦، ووصلت الأنباء واشنطن فى ٩ من مايو. وبعد يومين صادق الكونجرس بالإجماع تقريبا على

طلب پولك بإعلان الحرب. وكان تبريره هو الدفاع عن النفس، بما أن المكسيكيين رفضوا غصن الزيتون و «أراقوا الدم الأمريكي على الأرض الأمريكية»(٥٧).

ولم تُلعن حرب أمريكية، فى طول البلاد وعرضها، بأكثر مما لُعنت الحرب المكسيكية. فبعد شهور قليلة من اندلاعها، اتهم أعضاء حزب الهويج پولك بنصب كمين فى ريو جراند، وتزييف الحقائق من أجل ترويع الأمة بحرب احتلال، وبما هو أسوأ من ذلك ـ نشر العبودية ـ كما قال چيمس راسل لاول ساخرا: «إنهم فقط يريدون تلك الكاليفورنيا لجر ولايات عبيد إليها»(٥٨). وبعد سنوات، أدى الانسحاب والهزيمة إلى فقدان الثقة فى مناشدة الجنوبيين من أجل حقوق الولايات، وقد فسر المؤرخون الشماليون ـ بتوافق ـ حرب چيمى پولك بأنها «مؤامرة ملاك العبيد».(٥٩)

مع ذلك، فإن المؤرخين المحدثين، لم يجدوا دليلا على مؤامرة أصحاب العبيد، أو حتى أن پولك اعتقد أن الحرب ستكون ضرورية، حتى فشلت بعثة سليدل. وبعد كل شىء، فإن المكسيكيين عجزوا عن القيام بهجوم خطير على تكساس وحدها.. والجنون فقط يستطيع أن يدفعهم لمهاجمة الولايات المتحدة بكاملها. غير أن پولك كان ميالا لتأمين كاليفورنيا قبل أن يستطيع البريطانيون التوسط، ولذلك فإنه إذا لم تتفق المكسيك، يكون على الولايات المتحدة أن تقاتل.

فى غضون ذلك، استولى الأمريكيون على كاليفورنيا بالقرصنة، بعد تمرد حملة العلم الذى قام به المستوطنون الأمريكيون مدعومين بكابتن جيش الولايات المتحدة چون سى. فريمونت. إلا أنه وبعد ٢١ شهرا من الحملات العسكرية والدپلوماسية غير المتقنة، نجحت مساعى نيكولاس تريست ـ صانع السلام السابق لدى پولك ـ السلمية فى إبرام اتفاق مع المكسيكيين. وخلال تلك الشهور المحبطة، سيطر اتجاهان جديدان على الولايات المتحدة. فالمفسرون والأنصار الأصليون لـ«المصير المبين» شعروا بالعار والاشمئزاز: فالتوسع الأمريكى يفترض أن يكون طبيعيا وسلميا، ويقننه تقرير المصير وليس مبدأ أن القوة تصنع الحق. وفى الوقت نفسه، ذهب العدوانيون من أنصار «المصير المبين» إلى التطرف على الجانب الآخر. وبما أن الجيوش الأمريكية دخلت عمق المكسيك، فقد رفض المكسيكيون الحديث فى السلام، إذ إن قسما كبيرا من الصحافة التوسعية أطلق شعار «حركة كل المكسيك» اعتماداً على افتراض أن الولايات المتحدة قد تضم ـ وفى الواقع يجب أن تضم ـ كل البلد، وتحقق إرادة الرب. «أنا لن

أفـرض بالقـوة تبنى نظام حكومـتنا على أى شـعب بالسيف». هكذا قـال السناتور هيرشل ڤى. چونسون (ديـمقراطى ـ چورچيـا) «ولكن إذا فرضت علـينا الحرب، كما قد حدث فى هذه الحرب، وأصبحت زيادة أراضينا، ومن ثم توسعة نطاق الحرية الإنسانيـة والسعادة، إحـدى نتائج ذلك النضال، أعـتقد أننا سنكون خـونة لرسالتنا النبيلة، إذا رفضنا القبول بالأهداف العليا للعناية الإلهية الحكيمة»[٦٠] .

بيد أن عـديدين من الغرب الأوسط وحـتى بعض الشرقـيين قد تغيروا . . «إنه (الغـزو) الذى يحـمل السـلام إلى الأرض التى كـان فـيهـا السيـف الحكم الوحـيـد دائمـا». هكذا كـتبت «بوسطن چورنال»، وأضـافت: «يجب بـالضـرورة أن يكون نعـمة عظمى للمغزو. إنه جدير. . . بشعب يقترب من إعادة ميلاد العالـم بتأكيد تفوق الإنسانية فوق ظروف الميلاد والثروة»[٦١] . وأراد والت وايتمان قاعدة من ٦٠ ألف جندى أمريكى فى المكسيك، وتأسيس حكومـة إصلاح هناك، تضـمن الولايات المتحدة كفاءتها واستمرارها. وسيجلب ذلك المشروعات، ويفتح الطريق للمصنعين والتجارة، ويهتدى إليه رأس المال الضخم الميت فى البلد». وستتبع ذلك الزراعة والكتب والتعليم. «وسيتكلف إنجاز ذلك الملايين، ولكن المردود سيعوضه بوفرة. إنه أفضل نوع للغزو».

وقوبل الأدميرال روبرت إف. ستـوكتون بتصفيق مدو فى فيلادلفيا عندما قال صارخًا: «لو كنت الآن أملك السلطة، لأطلقت هذه الحرب للغرض العاجل: تخليص المكسيك من سوء الحكم والنزاعات المدنية. . ولجمعت بيد الشهامة والعطف، أولئك الناس التعساء فى نظام جمهورى. . ذلك ما كنت سأفعله بأى تكلفة»[٦٢] .

تخيل: حركة كل المكسيك، لغرض إعادة بعث أمة تعيسة وعاجزة، تصرخ من أجل عطايا الحرية!

ألـم يكن ذلك الشكل هو الأكثر تكبرا لتوسعية الولايات المتحدة؟

نعم.. ولا... إنه بالتأكيد إمپريالى بالمعنى الذى دافع عنه، وليس باستيعاب أقاليم ضئيلة السكان، ولكن بالحكم المباشر لملايين الأجانب. ومع هذا، فإنه يدعى إمكانية تمدين المكسيكيين وإعادة ميلادهم، وذلك ما يتناقض مع نظرة الأنجلوساكسون العرقية عن النقص الفطرى العنيد عند المكسيكيين. وبعيداً عن إغراء الطمع الأمريكى، فإنه

داعب الصفات الأكثر إنسانية وحب الغير لديهم، وطالبهم بتضحية عظمى. ذلك، أيضا، كان صوت «المصير المبين»: إغراء متناوب وخطر للغزو والإنفاق والوعظ والإصلاح دون حدود. ولكنه، مرة أخرى، لم يكن سياسة إدارة پولك.

لقد استغل پولك، بدهاء، حركة كل المكسيك، ليضغط أكثر على المكسيكيين لإلقاء أسلحتهم. ومن ناحية أخرى، رفض پولك الموسيقى التأثيرية لأنصار إعادة بعث المكسيك. فقد كانوا يعظون بحملة صليبية تجعل هنرى كلاى يخجل: كلاى قد سأل أن تقف الولايات المتحدة إلى جانب الشعوب اللاتينية المقاتلة من أجل الحرية! بينما أراد المتعصبون فى حركة كل المكسيك، القتال ضد تلك الشعوب نفسها لغرض تعليمهم الحرية! وعندما عاد تريست إلى الوطن، وفى حوزته معاهدة جودالوپ هيدالجو فى فبراير عام ١٨٤٨، والتى تضمنت التنازل عن تكساس ونيومكسيكو وكاليفورنيا للولايات المتحدة مقابل ١٨,٢ مليون دولار، مررها پولك من خلال مجلس الشيوخ، كما فعل مع معاهدة أوريجون، قبل أن يجد أولئك الذين أرادوا كل المكسيك، وأولئك المعارضون للحرب، الوقت لإطلاق قواهم.

***

عادة ما يقول المؤرخون إن «المصير المبين» انتصر فى أربعينيات القرن التاسع عشر. وفى الحق أن أيديولوچيى «المصير المبين» كانوا محبطين فى كل مكان. وكان على پولك ـ بعيدا عن ركوب شعار المجد الذى رفعوه ـ أن يحاربهم عند كل خطوة فى الطريق. فهم الذين حفروا فى أعقابهم «٤٠° ٥٤°»، مخاطرين بالحرب مع بريطانيا. وكانوا هم من يعظون بالمصير القارى، ولكنهم عانوا حربًا قاسية ودپلوماسية مطلوبة لتحقيقها، ثم قرروا أن الحرب ستكون عادلة فقط إذا تحول الأمريكيون إلى حارس وناظر مدرسة لكل الأمة المكسيكية. وعلى الجانب الآخر، لم يحقق پولك التوسع فقط، وإنما وفقه أيضا مع تقاليد: الحرية فى الوطن (كما فهمها أهالى تنيسى)، والأحادية والنظام الأمريكى. وغنى عن القول إنه اتخذ بعض البدايات الزائفة، وكان الارتجال ديدنه، ولا بأس أن يكذب من حين لآخر. ولكنه أمسك بالسياسة الأمريكية فى حدود، وسوى مسألة ساحل المحيط الهادى، قبل أن يصبح رجال الدولة البريطانيين الأكثر قتالية ـ مثل لورد پالمرستون ـ فى وضع يسمح لهم بإيقافه، وضم فقط الأراضى التى أهملتها إسپانيا والمكسيك، وخدم ـ

بما لا يترك مجالاً للسؤال ـ المصلحة القومية ـ ولم يقترح أي ناقد ـ وقتها، أو منذ ذلك الوقت ـ رد الأراضى الأمريكية فى الجنوب الغربى.

ويقول المؤرخون أيضا إن «المصير المبين»، الذى عُدّ منتصرا فى أربعينيات القرن التاسع عشر، قد أحبط فى الخمسينيات[٦٣]. صحيح أن الولايات المتحدة لم تكسب أراضى جديدة، باستثناء صفقة جادسون (جنوبى أريزونا ونيومكسيكو ـ ضمت من أجل خط سكك حديد المحيط الهادى). ولكنه صحيح أيضا أنه لم يكن هناك أى توسع آخر خلال العقد، باستثناء القرصنة السخيفة التى قام بها ويليام ووكر فى أمريكا الوسطى، والهجوم المخادع الذى شنه كل من الرئيسين پيرس وبوكانان على كوبا (كانت هناك فرصة ضئيلة فى ذلك الوقت، لضم الكونجرس جزيرة إسپانية كثيفة السكان تقتنى العبيد). وحقيقى أن ذلك النزاع الجزئى عرقل الخطط لخط حديدى قارى. ولكن النزاع لم يمنع التوسع السريع للمصالح الأمريكية فى مضيق پنما، وهاواى، والصين، واليابان، أو توسع التجارة مع كندا عام ١٨٥٤ من خلال المعاهدة التبادلية (النسخة المبكرة من النافتا فى الوقت الحاضر). حقا، لقد تمتعت الولايات المتحدة بالفورة الاقتصادية العظمى فى تاريخها فى خمسينيات القرن التاسع عشر، بفضل تدفق رأس المال من فورة ذهب كاليفورنيا.

بعد ذلك، جاءت الحرب الأهلية، الاختبار الأعظم لكل تقاليد السياسة الخارجية للولايات المتحدة، بسبب أنها ولدت فى الجدل اللا نهائى حول معنى الحرية فى الوطن. وخلال صراعهم لتأمين الاتحاد، استحضر إبراهام لنكولن ووزير خارجيته سيوارد، الاستقلال و «ميلادا جديدا للحرية»، والأحادية، والنظام الأمريكى (تحذير للأوروپيين من التدخل فى الحرب الأهلية، ومعارضة مغامرة لويس ونابليون الإمپريالية فى المكسيك)، وأعطى دفعة جديدة للتوسعية من خلال خط حديدى عبر قارى، ومجمع تأمين الأراضى، وقانون هومستيد. وعلى الجانب الآخر، لم تنتهك الكونفدرالية الحرية، فقط ـ طالما أنها حاربت لحماية العبودية ـ ولكنها تخلت أيضا عن الأحادية ومبدإ مونرو فى مسعاها للحصول على مساندة البريطانيين والفرنسيين. ولو كان مطلب الاستقلال قد نجح، لكانت عرضت التوسع الأمريكى للخطر. وبسبب ذلك الحدث، فإن أمتين غيورتين يمكن أن تسكنا شمالى أمريكا، وتقسما وتحولا قوة أمريكا لمصالح بريطانيا وفرنسا وروسيا والمكسيك.

وأيا ما كان صحيحا أو خاطئا لدى كل طرف فى «الحرب بين الولايات»، فإن هزيمة الكونفيدرالية نحت آخر عائق أمام انطلاق دولة عظمى قارية بفورة سكانية وصناعية وزراعية وتجارية. **وباستعادة الأحداث، نجد أمرين اثنين مثلا تحديا أفكار الأمريكيين الخاصة بالقوانين الطبيعية التى تحدد مكانتهم فى العالم: إصلاحات ميجى عام ١٨٦٨ والتى بدأت تحديث اليابان، وتوحيد ألمانيا عام ١٨٧١.** ولا يخطر على بال أمريكيى ذلك العصر أن هناك ما يلوح بتهديد أفقهم فى المكان والزمان. وكان الأقرب للواقع أن يضحكوا على النكتة التالية، التى قيلت فى الثمانينيات من القرن الماضى والتى تضمنت أن آفاقهم بلا حدود:

يبدو أن ثلاثة رحالة أمريكيين كانوا يشربون نخب بلدهم بحضور مستضيفيهم الأجانب. قال الأول: «هذا النخب لأمريكا، تحدها شمالا أمريكا البريطانية ويحدها جنوبا خليج المكسيك ومن الشرق المحيط الأطلنطى، وغربا المحيط الهادى.

قال الثانى: لا.. هذا النخب لأمريكا التى يحدها من الشمال القطب الشمالى ومن الجنوب القطب الجنوبى ومن الشرق شروق الشمس ومن الغرب غروب الشمس.

أما الثالث فقال: أقدم لكم أمريكا التى يحدها من الشمال الشفق القطبى الشمالى، ومن الجنوب اعتدال الأيام والفصول، ومن الشرق الفوضى البدائية ومن الغرب يوم الحساب!».(٦٤)

وكل تلك النبوءات الثلاث قد ثبت صدقها فى النهاية، بالرغم من أن النبوءتين الأخيرتين لم تتحققا إلا فى خضم القرن العشرين.

الجـــزء الثانى

عهـــدنا الجـــديد

□ ..فاذهبوا إذن، وتَلْمِذوا جميع الأمم... □

«متى ٢٨ : ١٩»

الفصل الخامس

الإمبريالية التقدمية

في ٤ من مارس عام ١٨٨٥ ، يوم دافئ ومشمس ـ على غير العادة ـ في واشنطن دى. سى ـ تولى جروفر كليفلاند كأول رئيس ديمقراطى منذ ما قبل الحرب الأهلية. ارتجل الكلام، ولكن أفكار السياسة الخارجية التى أقرها كانت مألوفة جدا، فلا هو ولا مدرجات الكابيتول(*) احتاجت إلى تفصيل. كانت «الأفكار» هى: الاستقلال، الأحادية، تجنب صراعات وراء البحار، والدفاع عن الدولة الأمريكية ضد الاعتداء الأوروبى. وفى خطابه الأول أمام الكونجرس أضاف: «صيانة ـ كما أفعل ـ مبادئ خط السابقين من يوم واشنطن، التى تمنع التورط فى الأحلاف مع الدول الأجنبية، إننى لا أفضل سياسة ضم أراض جديدة بعيدة، أو دمج مصالح بعيدة فى مصالحنا»[1] .

وبعد ١٥ عامًا فقط، وفى وسط حملة رئاسية أخرى، استحضر السناتور ألبرت. چى. بيڤريدچ (جمهورى ـ إنديانا) نفس «خط السابقين»، ولكن هذه المرة ليدافع عن ضم «أراض جديدة وبعيدة» ـ جزر الفلپين، پورتوريكو، جويام، وهاواى ـ والذى تم إنجازه خلال الحرب الإسپانية ـ الأمريكية[2] وبعدها:

رفاقى المواطنين، إنها أرض نبيلة التى أعطانا الرب إياها، أرض يمكن أن تطعم وتكسو العالم. أرض حدودها الشاطئية قد تحيط بنصف أقطار أوروپا. أرض تقف حارسة بين المحيطين الإمبراطوريين للمعمورة؛ إنجلترا أعظم بمصير أنبل.. أليست لدينا رسالة لنؤديها، واجب نتحمله تجاه رفقائنا؟ وهل منحنا الأب القدير هبات وراء صحارينا وميزنا باعتبارنا شعبه المختار لنبلى ونتعفن ـ فحسب ـ فى أنانيتنا، كما يئول إليه مصير الرجال والأمم الذين جبنوا عن رفاقهم، وعبدوا ذواتهم؟

(*) مبنى الكونجرس.

والآن، يجرى إطاعة الصوت نفسه الذى سمعه چيفرسون وأطاعه، وسمعه چاكسون وأطاعه، وسمعه مونرور وأطاعه، وسمعه سيوارد وأطاعه، وسمعه أوليسس. إس جرانت وأطاعه، وسمعه بنجامين هاريسون وأطاعه. يزرع ويليام ماكنلى العلم فوق جزر البحار ليضع قواعد أمامية للتجارة، قلاع الأمن القومى، وتستمر مسيرة الراية!

فجأة، وفى عام ١٨٩٨، أصبحت الولايات المتحدة قوة استعمارية. فماذا حدث؟ وكيف أصبح بإمكان بيڤريدچ أن يقترح أن الإمپريالية كانت حقيقة فى التقاليد الأمريكية، بل وكيف تمثل رسالة، واجبا، ومصيراً نبيلاً؟!

لقد سأل المؤرخون أنفسهم هذه الأسئلة مراراً وتكراراً، بافتراض أن إمپريالية أمريكا فى مطلع القرن العشرين كانت «ضلالاً عظيما»، وذلك شىء بحاجة إلى كثير من الشرح. فالنظريات المبدعة المختلفة التى قدموها، اقترحت أن إمپريالية الولايات المتحدة كانت رد فعل تشنجيا على تغيرات أصولية فى المجتمع الأمريكى، فى البيئة الچيوسياسية، أو فى كليهما. وكان الدليل الظرفى الذى سجلوه مثيراً للإعجاب.

والمشكلة أن الافتراض خاطئ.

فالتصنيف الذى صنف به معظم المؤرخين السياسة الأمريكية فى عام ١٨٩٨ بأنها جديدة وسيئة، كان فى الحقيقة قديما وحسنًا، وما اعتقد معظمهم فى أنه تقليدى وجيد، كان فى الحقيقة جديدا وخطيرا. ولكن دعنا ننسى هذا اللغز الآن. ولكى نفهم عام ١٨٩٨ وكل ذلك، يجب أولا أن نمسح تلك التغيرات الأساسية فى أمريكا والعالم والأحداث التى أثارتها لتفسيرها.

* * *

تثبت الإحصاءات أن الولايات المتحدة أصبحت قوة عالمية فى الجيل الذى تلا الحرب الأهلية. فسكانها تزايدوا بأكثر من الضعف إلى ٧١ مليونا فى عام ١٩٠٠، ليجعلوا الولايات المتحدة أكثر سكانا من أى أمة أوروپية فيما عدا روسيا. ونضجت الثورة الصناعية إلى النقطةالتى كان فيها الأمريكيون عام ١٩٠٠ ينتجون ٢٤٤ مليون طن من الفحم سنويا (إنتاج مساو لإنتاج بريطانيا) و١٠ ملايين طن من الصلب

(تقريبا ضعف إجمالى إنتاج الدولة الثانية - ألمانيا) . وجعل المخترعون الأمريكيون مثل أديسون وبيل والإخوان رايت ، وأصحاب المشروعات الحرة مثل دى پون وروكفلر ، جعلوا من الولايات المتحدة رائدة فى الثورة الصناعية الثانية ، المعتمدة على الكهرباء والكيمياويات والبترول وماكينات الاحتراق الداخلى . وفى العقود نفسها ، فإن بناء المنازل فى «جريت پلينز» وسهولة ورخص تكاليف نقل الأحجام الكبيرة بالسكك الحديدية والبواخر التجارية ، جعل الولايات المتحدة سلة خبز العالم . وبمنتصف سبعينيات القرن التاسع عشر ، حقق الأمريكيون للمرة الأولى فى التاريخ ، فائضًا فى ميزان التجارة ، اعتمادًا على قدرة الصادرات ، التى تضاعفت أربع مرات بين عامى ١٨٦٥ و١٩٠٠ ، لتصل تقريبا إلى ٢٥٠ مليون دولار سنويا . والسكك الحديدية الأمريكية التى غطت ربع مليون ميل فى عام ١٩٠٠ ، توسعت ثمانية أضعاف منذ الحرب الأهلية ، وأصبحت الآن تربط مدنا عملاقة مضاءة بالكهرباء مأهولة بسكان يركبون «الترولّى» فى ذهابهم للعمل ، ويقرءون الصحف بپنس واحد بفضل ماكينة لينوتيب ، ويتطلعون إلى ناطحات السحاب التى أصبحت ممكنة بفضل مصاعد «أوتيس» .

وليس من شىء ، أفضل تعبيرا عن الثقافة الصناعية الجديدة لأمريكا من معرض كولومبيان فى شيكاغو فى عام ١٨٩٣ . «وايت سيتى» العظيمة بنيت من الصفر ، على أرقى طراز للفنون الجميلة كانت «مبهرة فى كمالها ومثيرة للرهبة فى تصورها» .

وكان الزوار يحدقون على المقصورات العملاقة بامتداد النظر على بحيرة ميتشجان ، والمولدات الكهربائية الخارقة والمخترعات الكهربائية . وكان الأجانب مندهشين من أن مدينة فى الغرب الأوسط تستطيع شراء متاحف للفن الأوروبى وحدائق باهظة التكاليف لمجرد عرض فصلى .

زخرت أمريكا بالرواد ومعارض ومضارب الهنود إلى أحدث نماذج السفن الحربية ، الأسطول الأبيض العظيم . «العصر الجديد لأمريكا ، أو أمريكا الكوزموپوليتانية» كما كتب المؤرخ ريتشارد كولين «لم يأت فى عام ١٨٩٨ فى الفلپين أو كوبا ، وليس فى عام ١٩٠١ مع ثيودور روزفلت ، ولكن فى عام ١٨٩٣ و١٨٩٤ فى «وايت سيتى» العظيمة فى شيكاغو»[٣] .

لقد انطوى العصر الأمريكى الجديد على أمريكيين جدد أو مختلفين، ٢٠ مليونا منهم كانوا مهاجرين وصلوا بين عامى ١٨٧٠ و ١٩١٠، وضموا، للمرة الأولى، أعدادًا ضخمة من الإيطاليين والسلاف واليهود. وأغنى حضورهم الثقافة الحضرية، ولكن أيضا أطلق شرارة رد فعل عرقى. فالتحضر - وحواشيه - أصبح ممكنًا بفضل استخدام السكك الحديدية للذهاب والعودة من العمل، وبحلول عام ١٨٩٦، أصبح سكان المدينة والبلدة يزيديون عددا عن الجمهور الريفى للمرة الأولى.

وطبقا لذلك، كسبت مؤسسات الأعمال والعمالة الكبيرة قوة سياسية على حساب المزارعين الريفيين، وبتكلفة صراع طبقى أشد وخلافات عمالية عنيفة. كان التفكير أن الحدود تلعب دور صمام الأمان للمجتمع الأمريكى فى الأوقات العصبية، أو حين يهدد ازدحام الجماهير بخلق مشكلات فى الشرق. والآن تم ابتلاع الحدود. فالمزارعون وأصحاب المزارع استوطنوا أرضا خلال العقود الثلاثة بعد عام ١٨٦٥ بأكثر مما كان خلال القرون الثلاثة السابقة(٤).

لذلك تحدث الصناعيون والممولون والسياسيون عن الحاجة لمنافذ خارجية للطاقات والسلع الأمريكية، مما أغرى المؤرخين، بالمقابل، بترجمة الظمأ الإمبريالى فى عام ١٨٩٨ كبحث يتطلع فى استبشار إلى حدود جديدة.

أيضًا دعت التغيرات فى العالم الخارجى الأمريكيين لإعادة اختبار تقاليد سياستهم الخارجية. وبدءا من أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر، كانت كل القوى الأوروپية تقريبا تركب موجة جديدة من الإمپريالية، قسمت إفريقيا وقسما كبير من آسيا والمحيطات إلى مستعمرات ومحميات، **ونبذت التجارة الحرة مقابل تعريفات حمائية، فيما عدا بريطانيا.**

لقد أنفقت فرنسا وروسيا، وبعد ذلك الأكثر إنذارا بالسوء، ألمانيا بعد عام ١٨٩٧، بسعة على إنشاء الأساطيل البحرية الحديثة المصنوعة من الصلب، متحدية تفوق بريطانيا. وفى عام ١٨٩٤ أطلقت اليابان زحفًا آخر على الموانى والامتيازات على حساب الإمبراطورية الصينية المتهالكة، وأعادت الهندسة الأوروپية تصميم الجغرافيا السياسية للأرض من خلال قناة السويس (١٨٦٩)، وخطوط السكك الحديدية البريطانية العابرة للهند (١٨٧٠)، وخط سكة الحديد الروسى العابر

لسيبريا (١٩٠٤)، بينما جعلت سفن البخار والتلغراف وعقار الملاريا (كينين)، والأسلحة الآلية والتكنولوچيا الأخرى ـ جعل كل ذلك ـ الإمبريالية رخيصة وسهلة. وفى الوقت نفسه، فإن الروح الليبرالية المتفائلة التى صبغت شخصية أوروبا فى خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر، **أخلت الطريق لمزاج موات لصراع وشيك الحدوث، تغذى معرفيا بمفاهيم الداروينية الاجتماعية عن التنافس العرقى والبقاء للأقوى.**

ولم يترك التحول فى سياسات العالم ـ الذى شكلته الإمبريالية ـ الأمريكيين إلا وقد ترك بصماته عليهم. وكان أحد آثاره الإنشاء البطىء لبحرية الولايات المتحدة الجديدة، التى وضع تصورها فى عام ١٨٨٢ وزير البحرية ويليان. إش. هانت، وشيدها الوزير بنيامين تراسى، الذى تحدى الكونجرس فى عام ١٨٩٠ لبناء أسطولين عابرين للمحيط من ٢٠ سفينة حربية و٦٠ طرادا بنهاية القرن. وفى تلك الأثناء، قام الأدميرال ستيفن. بى. لوس، مؤسس كلية الحرب البحرية، والكابتن إيه. تى. ماهان بتعليم الأمريكيين حقائق الحياة فى العالم الحديث. بنى مقال ماهان «تأثير القوة البحرية فى التاريخ» سمعته، كما أنه وصل إلى القاعدة الشعبية بمقالات تقترح أسطولا وقواعد ومحطات تزويد بالفحم كافية لتأمين الشواطئ الأمريكية وجزر الكاريبى والمحيط الهادى تمتد حتى هاواى. أصبحت الولايات المتحدة فى عالم تتنافس فيه الدول بوحشية على التجارة والملاحة، ولم تعد الولايات المتحدة تضمن سلامتها أو نفاذها للأسواق. «إننى إمبريالى» هكذا قال ماهان «ببساطة لأننى لست انعزاليا»(٥).

كان ماهان أيضًا رجل كنيسة ورعا. ومثل كل البروتستانت فى وقته، كان يعتقد أن الرب هيأ للولايات الولايات المتحدة أن تصبح قوة عالمية لهدف. وللتأكيد، فإن الحركة الألفية على زمن الچاكسونية، كانت قد انتهت منذ فترة طويلة، ولكن ليس قبل أن تبذر فى جيل تال انعكاساتها مثل: العمل فوق الإيمان، والجوهر فوق الشكل، والجنة على الأرض كما فى السماء ـ الإنجيل الاجتماعى. وكان تأثير نظرية التطور لداروين «النقد الأعلى» للكتاب المقدس، قد صدم القوة الكلية للكنائس فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر. وكان الرد الكاثوليكى استنكار الحداثة والتأكيد على العصمة البابوية. وكان أحد الردود المعمدانية، أصولية عنيدة، ولكن

التيار الرئيسى التقدمى للپروتستانت الذى تجاوز حضوره الكنسى ٧٥٪ فى العقد الذى تلا عام ١٨٩٥[٦] ، نزع إلى تهدئة المعضلة اللاهوتية من أجل النهضة الاجتماعية فى الداخل والخارج. وعنى ذلك، تسليط القوة الأمريكية وراء البحار، بعيدا عن الإساءة لحراس الضمير القومى، مما ناسب كتابهم بدقة.

ولم يقلها أحد أفضل من المبجل چوزيا سترونج الذى مزج فى بيانه السوى: الأنجليكانية، والإنجيل الاجتماعى، والأنجلوساكسونية مع الداروينية الاجتماعية. وحدد كتابه الأكثر مبيعا «بلدنا» فى عام ١٨٨٥ الأمريكيين باعتبارهم:

عنصرا ذا طاقة ليس لها مثيل، بكل ضخامة الأعداد وعظمة الثروة وراءها ـ المثلين ـ دعنا نأمل ـ للحرية الأوسع، والمسيحية الأنقى، والحضارة الأعلى ـ ينمون بتميز شمائل فذة، تجذب أعرافها كل البشر، لتنتشر في كل أرجاء الأرض.. وهل يستطيع أحد أن يشك فى أن هذا العنصر ـ إذا لم يضعف حيويته بالكحول والتبغ ـ فإنه مقدر له أن يتملك عدة أعراق أضعف، ويذيب آخرين، ويعيد تشكيل الباقين، حتى ـ فى معنى حقيقى ومهم جدا ـ يجعل البشرية أنجلوساكسونية؟

وفيما بعد؛ هز سترونج فرضية تيرنر مصراً على أن قساوات الحدود كانت طريق الرب لتدريب العرق على قيادة العالم، وبعد إغلاق الحدود(*)، جاء الدور على «المنافسة النهائية بين الأعراق»[٧] .

لم يأت مثل الخطاب، فقط من القوميين المخادعين مثل ثيودور روزفلت «إذا لم نحتفظ بفضائل البربرية، فإن اكتساب الفضائل الحضارية سيكون قليل الجدوى»،[٨] ولكن أيضا من المتحدثين الدينيين، الذين اقترحوا على المؤرخين مقولة أن اندفاع أمريكا وراء الإمپريالية كان نتيجة لفكر الداروينية الاجتماعية. وآخرون فتشوا فى أحداث عام ١٩٨٩ لاسترداد تفكير «المصير المبين» مترجما على المسرح العالمى، أو عن دليل على «الأزمة النفسية» التى استحضرها الكساد فى ١٨٩٣ ـ ١٨٩٦ : قلق العمال، التغير الاجتماعى السريع، وإغلاق الحدود. أو ربما وجه كبار رجال الأعمال السياسة الخارجية لغزو الأسواق الأجنبية. أو ربما أن

(*) المقصود اكتمال توسع الأمريكيين خلف الحدود.

الأمريكيين كانوا يقلدون البريطانيين ثانية ـ مما قد يفسر لماذا ظهروا كما لو فقدوا الاهتمام فى المستعمرات بحلول عام ١٩٠٢ ، عندما جعلت حرب البوير ونقد چون هوبسون الليبرالى من احتراف البريطانيين للاستعمار أمراً مراً[٩] .

ويرى مؤرخون آخرون أن إمبراطورية الولايات المتحدة الاستعمارية، منتج عرضى للحرب الإسپانية الأمريكية ، أو العكس تماماً ، عمل تآمرى لزمرة تستغل الحرب مع إسپانيا لتحقيق «السياسة الواسعة» لماهان، وإمبراطوريتها البحرية . وأشار چورج . إف . كينان إلى كثرة النظريات المقبولة . قال فى لا مبالاة : إن «الشعب الأمريكى فى ذلك اليوم، أو على الأقل عددا من متحدثيه الأكثر تأثيرا، أحبوا ببساطة رائحة الإمبراطورية وأحسوا الإلحاح . ليستمتعوا بإشراق شمس الاعتراف بهم كقوة من القوى الإمپريالية العظمى فى العالم» . [١٠]

وظلت مجموعة أخرى من المؤرخين ـ مدرسة الباب المفتوح ـ هى الوحيدة التى تجادل من منطلق أن إمپريالية الولايات المتحدة لم تكن انحرافاً ، بل دليلا على التحرك الأمريكى المستمر تجاه التوسع والأسواق الخارجية[١١] . ويمكن أن يشيروا إلى رجال دولة مثل سيوارد، الذى أعلن فى خمسينيات القرن التاسع عشر أن التجارة «رب الحدود» و «الوكيل الرئيسى لتقدم أمريكا فى الحضارة ولتوسع الإمبراطورية» . وأطلق على المحيط الهادى «المجال الأعظم للمستقبل» ، ونبه الكونجرس إلى أهمية القوة البحرية قبل أن يفعل ماهان ذلك بعقود . وكوزير للخارجية ، حاول الحصول على كولومبيا البريطانية ، وجزر ڤيرچين ، وجرينلاند ، إضافة إلى ألاسكا . لقد توقع سيوارد بوضوح أهداف ـ إن لم يكن وسائل ـ التوسعيين فى عام ١٨٩٨ ، ومن هنا ، فإن «الانحراف العظيم» كان حقيقة «الحصاد العظيم»[١٢] . و هناك مبشرون آخرون وجدوا فى فترة ما بعد الحرب الأهلية . وفى عام ١٨٩٠ ، أعلن وزير الخارجية چيمس . چى . بلين : «نحن لا نسعى لضم أراض . وفى الوقت نفسه ، أعتقد أن اقتناعنا سيكون غير حكيم إذا لم نسع من أجل ما أحسن پيت الصغير(*) تسميته ضم التجارة»[١٣] .

(*) أصغر رئيس وزراء فى بريطانيا ولمدة سبعة عشر عاماً، من سن ٢٤ إلى ٤١ .

ولا تتماسك النظرية التى تقول بأن دبلوماسية الولايات المتحدة كانت مدفوعة بضغط الرأسمالية نحو أسواق جديدة، لأن الحكومة حقيقة لم تفعل الكثير لتشجيع الصادرات فى الفترة من ١٨٦٥ ـ ١٩٠٠ . أولا: لم يكن عليها أن تفعل ذلك بعد أن أظهرت الإحصاءات التى وضعتها مدرسة الباب المفتوح أن المصدرين الأمريكيين كانوا مشهورين بالعمل الذاتى. ثانيا: أن القطاع الخارجى كان دائما جزءاً ضئيلا من اقتصاد الولايات المتحدة، كما أن المستثمرين أولْوا اهتمامهم الأكبر للتنمية فى الداخل بعد الحرب الأهلية. ثالثا: أنه إذا كان الرأسماليون قد تطلعوا باستماتة للأسواق الخارجية، فإن ذلك كان يستوجب عليهم الضغط من أجل تخفيضات كبيرة فى تعريفات جمارك الولايات المتحدة، لتشجيع الأمم الأخرى لخفض الرسوم على التجارة. وفى الحقيقة، أنهم رفعوا مراراً وتكراراً التعريفات، بينما قتلت قطاعات أعمال الولايات المتحدة، المعاهدات التبادلية مع كندا (١٨٦٥) والمكسيك (١٨٨٣)، وعارضت ضم جزر هاواى (١٨٩٣) خوفا من المنافسة. لذلك كانت هناك «فجوة عميقة بين الشعارات والنتائج فى التوسع الاقتصادى بنهاية القرن التاسع عشر»(١٤).

وبعد، كيف صنعت الولايات المتحدة ـ على وجه الدقة ـ انطلاقة جديدة فى العلاقات الخارجية فى عام ١٨٩٨؟ ولماذا؟

إن الطريق لتفسير اللغز، يبدأ بأن نقدر ماذا فعلت الحكومة حقيقة، قبل عام ١٨٩٨، وفى أثنائه، وبعده ضد التقاليد الأربعة التى لدينا فى الكتب. وبالاحتفاظ بهذا المنهج فى الذاكرة، دعنا ـ الآن ـ نختبر الحقائق.

❊ ❊ ❊

الحقيقة الأولى هى أن الأمريكيين لم يعترفوا أبدا بأن حوض المحيط الهادى يقع خارج نفوذهم الطبيعى. ولم يكن التجار والصيادون والمبعوثون فقط هم الذين يذرعون المحيط من البحار الجنوبية حتى دائرة القطب الشمالى قبل الحرب الأهلية، فالحكومة أيضا أبدت اهتماما متحمسا. فعندما حاول ضابط بحرى بريطانى أن يفرض الحماية على مملكة هاواى فى عامى ١٨٤١ و١٨٤٢، طالب الرئيس تايلور بصوت عال بحق الشفعة للولايات المتحدة على مصير هذه الجزر. وفى عام

١٨٦٧ ، ضم سيوارد «ميدواى» الجزيرة غير المأهولة فى أقصى الشمال فى سلسلة هاواى، واشترى ألاسكا من روسيا القيصرية. وفى خمسينيات القرن التاسع عشر فتحت الولايات المتحدة اليابان، وبعد عام ١٨٦٨ عندما أعلن ثوار «ميچى» نيتهم فى التحديث، عبر مئات الأمريكيين المحيط، لتدريس العلم والهندسة والقانون والطب، والأعمال، والزراعة، وإدارة الحكومة والمسيحية، لليابانيين. وبالقدر نفسه، كان سيوارد يأمل فى التأثير على الصين، وصدقت معاهدة برلنجيم التى أبرمها فى عام ١٨٦٨ على الحركة الحرة للبضائع والناس بين البلدين. ولسوء الحظ، فإن الهوس الأمريكى ضد تأثير العمالة غير الماهرة، ألهم الصينيين قانون الاستبعاد عام ١٨٨٢. وكانت المناسبة الأولى من مناسبات عديدة، منعت فيها الكراهية العنصرية، أكثر مما دفعت، توسعية الولايات المتحدة.

وكان حظ سيوارد أقل مع كوريا «المملكة الزاهدة» بعد أن دمر مركب شراعى أمريكى وطاقمه بواسطة قرويين معادين. وانتقمت السفن الحربية للولايات المتحدة فى عام ١٨٧١ بالتضحية بحيوات ثلاثمائة كورى. فالقائد الكومودور روبرت شفلدت كان متحمسا للتجارة: «المحيط الهادى هو عروس أمريكا...». هكذا صرخ «دعونا نقرر، بينما نحن فى قوتنا، أنه لا خصم تجارى، أو علما معاديا يمكن أن يطفو بحصانة، على اتساع البحر الهادى»[١٥]. ولكن أجبرت اليابان كوريا على الانفتاح، ولم تثمر اتفاقية عام ١٨٨٢ بين أمريكا وكوريا إلا قليلاً من التجارة.

وكانت ساموا هدفا أمريكيا آخر. فمبكرا فى عام ١٨٧٢، عرض ملك من أهلها على بحرية الولايات المتحدة قاعدة فى پاجو پاجو، فى مقابل الحماية، ورفض مجلس الشيوخ المسئولية، لكنه فى عام ١٨٧٨ صدق على معاهدة تعد بالتوسط فى خلافات ساموا مقابل الميناء. وجاءت الخلافات مسرعة، حيث زايدت ألمانيا وبريطانيا على أقسام من مجموعة الجزر، ولما فشلت وساطة وزير الخارجية توماس بايارد فى حل المسألة، واجهت السفن الحربية الأمريكية والألمانية والبريطانية كل منها الأخرى فى مياه ساموا. وشكت ألمانيا من أن بايارد ترجم مبدأ مونرو، «كما لو كان المحيط الهادى يُعَدّ بحيرة أمريكية»[١٦]، وافق بسمارك أخيراً على اقتسام الجزر فى عام ١٨٨٩، وتشكلت مستعمرة ساموا الأمريكية فى عام ١٨٩٨.

وعلى الجانب الآخر من دفتر الحساب، هناك أمثلة لازدراء التوسع. فالكومودور پيرى، فى طريقه لفتح اليابان، حث الولايات المتحدة على استعمار جزر ليوشيو (رايو كايو). ولكن وزير الحربية ويليام. إل. مارسى أجاب «بأنها سياسة أعمق ألا تستولى على الجزيرة كما هو مقترح فى رسالتك»(١٧).

وفى عام ١٨٦٧، وبعد تذمر، وافق الكونجرس على ٧,٢ مليون دولار لشراء ألاسكا. بعد ذلك أصدر الكونجرس قرارًا ينبذ ضم ملكيات جديدة حتى تدفع الحكومة دين الحرب الأهلية. وبعد عامين، قدم الرئيس جرانت مشروعًا لشراء سانتو دومينجو، ولكن الصفقة ـ التى ارتبط بها رئيس الدومنيكان المحتال، واثنان من محاسيب البيت الأبيض ـ كانت فاحشة حتى إن مجلس الشيوخ رفض الهدية. وعلى أى حال، لم يكن الأمريكيون مهتمين باستيعاب أعداد كبيرة من الكاثوليك الإسپان ذوى البشرة الداكنة.

وأخيرًا، لم تفعل الحكومة ما هو أكثر من الجعجعة عندما اشترى فرديناند ديلسپس ـ الذى كان وراء حفر قناة السويس ـ حق مد طريق من كولومبيا، بأمل حفر قناة عبر أخاديد پنما.

وبحلول عام ١٨٩٠، كان ضباط بحرية الولايات المتحدة ومؤيدوهم فى الكونجرس يعرفون أنه عاجلا أو آجلاً، سوف تضطر الولايات المتحدة لتوسيع نفوذها، ولو فقط لتأمين أمريكا الشمالية من أساطيل القوى الإمپريالية. «إننى أعتقد أنه توجد ثلاثة أماكن فقط ذات قيمة كافية لأخذها». قال بلين: «الأول هو هاواى والآخران هما كوبا وپورتوريكو»(١٨). وبمجرد أن سنحت الفرصة للولايات المتحدة للاستيلاء على هاواى، قال الرئيس كليڤلاند: لا. ويرجع زمن القصة إلى منتصف القرن، عندما أسقط ملك هاواى النظام الپولونيزى الإقطاعى، ووزع الأراضى بسندات ملكية واضحة قابلة للتحويل. استغل الأمريكيون، خصوصا أبناء المبعوثين، ذلك من أجل مزارع السكر، ومعاهدة التبادل لعام ١٨٧٥ التى جعلت من هاواى ملحقا فعليًا لاقتصاد الولايات المتحدة. وبعد ١٢ عامًا دبر المزارعون والتجار انقلابا، نقل السلطة إلى برلمان تحت سيطرة البيض، أقر معاهدة أعطت بحرية الولايات المتحدة حقوقًا فى پيرل هاربر.

وقال بلين «هاواى كانت ـ أساسًا ـ جزءا من النظام الأمريكى للدول، ومفتاحًا لتجارة شمالى المحيط الهادى». [19]

وبعدئذ، غير الكونجرس قوانين التعريفة لمصلحة منتجى السكر المحليين. واجه مزارعو هاواى الخراب، ولجعل الأمور أكثر سوءًا، هددت الملكة ليلوكالانى باسترجاع السلطة للهاوايين الأصليين. ولذلك، فى عام ١٨٩٣، أعلن البيض جمهورية فى هونولولو بتأييد وزير الولايات المتحدة وطراد بحرى، وأعدوا مخطوطة لمعاهدة للضم. لقد بدت تكراراً لثورة «العلم المحمول» فى كاليفورنيا، لولا أن الأمريكيين فى ذلك الوقت كانوا أقلية بين السكان، كما أن الولايات المتحدة لم تكن فى حرب مع الحكومة المضحى بها. وطلب كليفلاند تحقيقا، وسحب بعد ذلك المعاهدة من مجلس الشيوخ. وعارض الديمقراطيون الجنوبيون ضم هاواى على أسس اقتصادية وعرقية، ولكن الذى شل الحكومة كان الريب والتردد. وكما قال وزير الخارجية والتر كيو جريشام، إنه لم يكن يعارض التوسع ولكنه لم يستطع تأييد «سرقة الأرض وضم الناس دون موافقتهم» [20] .

وبعد ذلك تغير كل شيء، ليس فى عام ١٨٩٨ ولكن قبل ذلك فى عام ١٨٩٥، عندما أطلق وزير الخارجية ريتشارد أولنى ما أسماه كليفلاند «بندقية العشرين بوصة» على بريطانيا العظمى، مبشراً بحزم جديد فى سياسة الولايات المتحدة الخارجية. لقد كانت لندن لسنوات منافسا على التخوم بين جويانا البريطانية وڤنزويلا المجاورة. فالذهب، ومصب نهر أورينوكو كانا على المحك، دونما ذكر لمبدإ مونرو.

وإذا سمح لبريطانيا بأن تتنمر لفنزويلا، كما قال أولنى، فإن أمريكا اللاتينية قد تكون القارة التالية التى يقسمها الإمپرياليون الأوروپيون. وكان السناتور هنرى كابوت لودج يعتقد أنه «على الولايات المتحدة أن تصون مبدأ مونرو وتتعامل مع أى انتهاك له على أنه عمل عدائى، أو تتخلى عنه». وقرر رئيس لجنة العلاقات الخارجية أن «يحفر مبدأ مونرو على جدران وزارة الخارجية». [21] لذلك، سحب أولنى زند البندقية: **«الولايات المتحدة اليوم، لها السيادة على هذه القارة، وأمرها قانون فى المسائل التى تحصر تدخلها فيها».** [22]

وسخر اللورد سالزبورى من جرأة اليانكيين، وظلت الأزمة حتى انشغل مجلس الوزراء البريطانى بالإشاعات الأولى عن حرب مع بوير جنوبى إفريقيا. ووافق على حل تحكيم قضائى وحل وسط نهائى. ولكن لازمة أولنى لمبدإ مونرو رسخت فى عقول الأمريكيين. «الكثير قد استقر»، هكذا كتبت فيلادلفيا پرس: «أولا: رسخ مبدأ مونرو بشكل محدد فى المشهد العالمى. وثانيا: أن كل جمهورية أمريكية خبرت كلا من قيمة دعمنا واستعدادنا لمواجهة خطر الحرب للدفاع عن البلد الذى ليست له مزاعم علينا، ولكن قضيته عادلة وموارده ضعيفة. وثالثا: الولايات المتحدة مصممة على أن ترى البلاد التى تحميها وتؤمنها، لا تعطى فرصة للتدخل الأجنبى. رابعا: بالنزوع إلى هذه المسئوليات الدولية المهمة، فإن الولايات المتحدة يجب أن تستعد للقيام بها»[٢٣] .

هل تبدو بلاغة مبدإ نسر مونرو المحلق، انعكاسا لقوة أمريكا البحرية والصناعية الجديدة؟ نعم جزئيًا. لكن لنراجع النقطة الثانية لفيلادلفيا پرس. هل كان الأمريكيون مستعدين حقيقة لحرب، ليس فقط للدفاع عن حيوات وممتلكات مواطنيهم، ولكن أيضا من أجل أجانب باسم العدل المجرد؟ چون كوينسى آدامز قد يزدرى ذلك الاعتقاد! **ولكن كما أثبتت الحوادث عاجلا فى كوبا، فالإجابة على ذلك كانت نعم.**

فى عام ١٨٩٥، أشعل المتمردون الكوبيون حربهم الثانية من أجل الاستقلال ضد إسپانيا. وكان الأمريكيون متعاطفين مع «حرية كوبا»، وقد روعتهم وحشية الحرب والتكتيك الإسپانى فى انتزاع القرويين إلى معسكرات اعتقال. ومات ١٠٠ ألف كوبى من المرض والمجاعة. ولم يكن كليڤلاند يستطيع تجاهل الرعب، ولكن الاعتراف بـ«الاستقلاليين» كان يعنى المخاطرة بالحرب مع إسپانيا، بما يعنى العمل بمبدإ مونرو. وبدلا من ذلك، حث أولنى إسپانيا على ضمان درجة من الحكم الذاتى لكوبا ووقف القتال. وعندما رفض الإسپان ذلك، نفض يديه.

لقد دخل الجمهورى ويليام ماكنلى(*) البيت الأبيض فى عام ١٨٩٧. وهو، أيضا، استنكر الحرب، ولم يكن يعتقد أن الكوبيين قادرون على حكم ذاتى، ولكن

(*) ويليام ماكنلى (١٨٤٣ - ١٩٠١) الرئيس الخامس والعشرون للولايات المتحدة (١٨٩٧ - ١٩٠١). جمهورى. اتسمت رئاسته بإمبريالية أمريكية حيث شهدت الحرب الإسپانية الأمريكية وضم الفلبين، واغتيل فى نهايتها. (المترجم)

الضغوط عليه تزايدت. فأملاك أمريكية كانت تدمر فى القتال، والأكثر إشكالاً أن إسپانيا كانت تطوف على السفراء الأوروپيين بحثا عن دعم(٢٤).

بعدئذ، كتب الوزير الإسپانى خطابا (صودر ونشر فى نيويورك) يعدّ فيه ماكنلى ضعيفا، ثم انفجرت - بغموض - السفينة الحربية الأمريكية «مين» فى ميناء هاڤانا وغرقت، ثم تنافست سلسلة صحف هيرست وپوليتزر على تأجيج غضب مقدس لدى الجماهير. وبذل ماكنلى محاولة أخيرة من أجل السلام، طالبا هدنة، ونهاية لمعسكرات الاعتقال، ومفاوضات. ولكن الإسپانيين المتعجرفين اهتاجوا وراوغوا ولم يرغبوا فى مناقشة استقلال كوبا.

وسرعان ما تصرفت إسپانيا بعناد أحمق فى كوبا، كما فعلت المكسيك فى تكساس. وكل ذلك دعا اليانكى لاستلال سيوفهم.

وفى ١١ من إبريل عام ١٨٩٨، طلب ماكنلى تفويضا لاستخدام القوة لحماية مصالح الولايات المتحدة ولإنهاء الحرب من أجل الإنسانية.. واستجاب الكونجرس، استجابة ذات مغزى، ليس بإعلان الحرب من أجل الحرب، ولكن بقرار أعلن استقلال كوبا، ومن ثم أصر على انسحاب القوات الإسپانية، وفوض الرئيس فى استخدام القوة لضمان تلك النتائج وتبرأ من أى نزوع لضم الجزيرة. «نحن نتدخل ليس من أجل الغزو»، كما قال السناتور چون. سى. سپونر (جمهورى - ويسكنسون) «وليس من أجل التبجيل والعظمة، وليس بسبب مبدإ مونرو. إننا نتدخل من أجل الإنسانية.. لمساعدة شعب عانى من كل شكل للطغيان وخاض صراعا يائسا ليكون حرّا». وقال السناتور شلبى. إم. كولوم (جمهورى - ألينوى)، إنه سيساند الحرب فقط إذا كانت تخاض باسم الحرية، التى - فى هذه الحالة - «سوف تكسب الولايات المتحدة ثناء كل محب للحرية والإنسانية عبر العالم»(٢٥).

***

كان الأمريكيون محظوظين - أخذا فى الحسبان، نقص استعدادهم العسكرى - لأن الحرب سارت قدما سريعة وبشكل حسن. وسيطر ماكنلى على الإستراتيچية، ليكون الرئيس الأول الذى يقيم غرفة حرب، ويتصل برقيا وهاتفيا مع القادة فى الميدان، ويقدم موجزات إخبارية للتحكم فى دوران الأخبار.

وتحقق النصر المجيد والمبشر فى الفلپين، حيث فاجأ قائد السرب الآسيوى چورج ديوى، الأسطول الإسپانى فى مانيلا. وكان مساعد وزير البحرية روزڤلت قد أبرق إليه فى فبراير للقيام بهجوم فى حالة الحرب. وفى البداية عَدّ المؤرخون ذلك دليلا على مؤامرة إمپريالية. وكانت الخطة قد وضعت مسودتها فى عام ١٨٩٦ بواسطة ضابط بحرى لامع، ووافقت عليها الإدارة. وكان القرار المصيرى حقيقة، إرسال ماكنلى الجنود لاحتلال جزيرة «لوزون». وبتدمير السلطة الإسپانية فى الفلپين، ظهرت مشكلة: من يجب أن يحل محلها!..

وتحرك ماكنلى أيضا بسرعة لإقرار مستقبل هاواى. فالحرب أكدت القيمة الإستراتيچية للجزر، ولكن عاملاً جديداً دخل الصورة، منذ التعامل البارد لكليڤلاند قبل خمس سنوات. كان المهاجرون اليابانيون الذين تم استيرادهم للعمل فى مزارع قصب السكر، يمثلون ربع السكان، وكانوا العنصر الأسرع نمواً. وعندما حاولت جمهورية هاواى التى يسيطر عليها البيض تقييد التدفق فى عام ١٨٩٧، حذر الوزير اليابانى الولايات المتحدة من الضم أو التمييز العنصرى، وأبحر طراد يابانى إلى هونولولو. وخمدت الأزمة، لكن الرسالة - كما ورد فى تقرير لجنة الشئون الخارجية فى مجلس النواب - عنت بوضوح، أنه عاجلاً أو آجلاً، فإن الهاوايين اليابانيين سيطلبون حقوقا سياسية ويكسبون قوة، ويبطلون المعاهدة التى تمنح بحرية الولايات المتحدة ميناء پيرل هاربور « الإلحاق، والإلحاق وحده سوف يؤمن الاحتفاظ بالتحكم الأمريكى فى هاواى»[٢٦]. ووافق ماكنلى: «نحن نحتاج إلى هاواى كصفقة كبيرة وجيدة أكثر مما نحتاج إلى كاليفورنيا. إنه المصير المبين»[٢٧]. وبتطبيق الحيلة ذاتها، التى استخدمها تايلور لضم تكساس، طلب ماكنلى قرارا مشتركا، حيث فاز بأصوات ٢٩٠ ضد ٩١ فى مجلس النواب و٤٢ ضد ٢١ فى مجلس الشيوخ فى يوليو عام ١٨٩٨.

وانتهى القتال فى أغسطس، فى الوقت الذى كانت فيه قوات الولايات المتحدة قد استولت على بقايا إمبراطورية كولومبيا الإسپانية. لكن ماذا سيصبحون عليه؟

اعترف ماكنلى أنه يُعانى من ذلك السؤال، وجال فى البلد يتحسس نبض الشعب. وربما يكون قد أعد لاستبقاء پورتوريكو وجوام كقواعد بحرية، ولكنه ظل

مندهشًا عندما عرف كيف كانت مشكلة المستعمرات هينة عند الناخبين. وكانت الحالة الصعبة الوحيدة هي الفلبين، ذلك الأرخبيل في المحيط، البدائي، المأهول بالسكان. ويمكن أن تُستخدم مانيلا قاعدةً بحرية ومدخلا تجاريا إلى أسواق الصين. ولكن الدفاع عن الفلبين، سيُحْوِج الجيش إلى احتلال كل الجزر المحيطة، خشية أن تدخلها القوى المنافسة. كان واضحًا أنه لا يجب ترك إسپانيا لتحكم، منذ أن سوّغ الأمريكيون الحرب على أساس الوحشية الاستعمارية الإسپانية. ولكن بشأن الاستقلال - في حكم ديوى - «يبدو السكان الأصليون غير قادرين على الحكم». وعند خبير بريطاني: «لن تنعم الفلبين بالسلم عامًا واحد في ظل حكومة مستقلة من السكان الأصليين»[٢٨]. كان من المؤكد إسلام الفلبين للفوضى، أو الاستعمار الياباني أو الألماني.

وهكذا، بعد ليلة صلاة، قال ماكينلي: «لم يبق لنا شيء لعمله إلا أن نأخذهم جميعا، ونعلِّم الفلپينيين، ونرقيهم ونمدنهم ونحولهم إلى المسيحية. وبعون الرب نفعل أفضل شيء نستطيعه لهم كرجال أصحاب لنا، فمن أجلهم أيضا مات المسيح»[٢٩].

يقول القراء المحدثون عن ذلك إنه تفاهة منافقة. ولكن ذلك بسبب أنهم لا يفهمون المسألة. وفي الحقيقة، كان الشعور الديني أداة في تجميع الشعب الأمريكي، وربما أيضا ماكنلي الورع، خلف رسالة بعثة استعمارية. فخلال الانطلاق للحرب، أحدثت الصحف البروتستانتية صخبا من نوع: «إذا كانت إرادة الرب الأعظم، أنه بالحرب ينزاح الأثر الأخير لوحشية الرجل تجاه الرجل في نصف الكرة الغربي، فلندعها تأتي!»[٣٠]. ومثل: «إذا توجب علينا أن نذهب إلى الحرب، فإن دافعنا سيكون صائبًا. كل واعظ ميثودى (مسيحي يتبع العقيدة المنهجية) سيكون داعيا للتجنيد»[٣١].

وبعد انتصار ديوى، رأى الواعظ المعمداني روبرت ستيوارت ماكارثر مستقبلاً فردوسيًا للفليپينيين: «سوف نغرقهم بالمساكن المدرسية والإرساليات»[٣٢]. وحذر رجل الكنيسة: «ويل لأى أمة تُدْعى لهداية شعب ضعيف لمستقبله، وتتردد خوفًا على مصالحها ومستقبلها من ذلك الواجب الإنساني الذى لا يخطئه العقل»[٣٣].

فى سبتمبر عام ١٨٩٨ ، مسح «المختار الأدبى Literary Digest » حوالى مائتى صحيفة، ووجد أن ثلاثة مقابل واحدة تفضل ضم كل الفلپين أو جزء منه [٣٤] . كان روديارد كيپلنج، يعظ جوقة، عندما أرسل قصيدته «حمل الرجل الأبيض» إلى روزفلت فى نوفمبر [٣٥] .

وفى الشهر ذاته، ظهرت عصبة المعادين للإمپريالية التى ضمت رفاقا غريبين يتوزعون بين الصناعى أندرو كارنيجى، وصاحب الشعبية فى البرارى وليام چيننجز بريان والقائد العمالى صمويل جومپرز وعدد من رؤساء الكليات. ولكن أعضاءها فى معظمهم كانوا من المستقلين الذين يتحسرون على التغير الذى أحدثه التصنيع فى الحياة الأمريكية، ورأوا فى الإمپريالية تعبيرا فى السياسة الخارجية عن انحدار كامل فى النسيج الأخلاقى للأمة.

هؤلاء المثقفون الذين هم فى معظمهم من الشرق «كانوا رجالا مسنين، ذوى خبرة طويلة كنقاد وسياسيين مستقلين، مقتنعين بأنهم - بلا أدنى شك - كانوا المتحدث الأصيل عن الخط القديم لأمريكا»[٣٦] . وقاموا بمعارضات دستورية على المستعمرات التى لم تكن تعنى بوضوح ولايات، ونازعوا فى أن المستعمرات كانت لفائدة اقتصادية، وحذروا من أن الإمبراطورية ستغذى الارتباطات الخارجية. وأثاروا التراث القوى المعادى للإمپريالية، وتخوفوا من أن الحكم الاستعمارى سوف يفسد الديمقراطية ويغذى العسكرة. وصرخ السناتور چورچ. إف هور (جمهورى ماساشوستس) بأن الآباء المؤسسين لم يحلموا أبدا بأن أحفادهم «يمكن أن يختالوا فى لباس منبوذ لأباطرة وهميين وملوك مزيفين».

وتأسى المهاجر الألمانى البارز كارل شورتز من رؤية أرضه المختارة تحتضن «سياسات وممارسات أسوأ حتى من تلك التى قد هرب منها». وليس أخيرا أن المعادين للإمپريالية بغضوا رفع العلم الأمريكى على الأعراق داكنة البشرة. وتساءلت صحيفة «نيويورك ورلد»: هل تحتاج الولايات المتحدة التى أصبح لديها فعلا «فيل أسود» فى الجنوب، إلى «فيل أبيض» فى الفلپين، و «فيل مجزوم» فى هاواى، وفيل بنى فى پورتوريكو، وأصفر فى كوبا؟ وقال شورتز: إن العلم الأمريكى يجب أن يرفرف فوق الأعراق« الجرمانية» وليس غيرها[٣٧] .

إن معاهدة السلام مع إسبانيا التى جعلت من الولايات المتحدة قوة إمپريالية، مرت فى فبراير عام ١٨٩٩ بتصويت ٥٧ مقابل ٢٧، وقبلها بيومين تبودلت الطلقات فى مانيلا بين القوات الأمريكية والقوميين الفلپينيين. وبدا أن اليانكيين سيقاتلون الشعب الذى تطلعوا بحرقة لأن يقدموا له أعمالا طيبة! وبعد ٣ سنوات، بخسارة خمسة آلاف أمريكى وأكثر من ١٠٠ ألف فلپينى، و١٦٠ مليون دولار، أصبح الحاكم المدنى ويليام هوارد تافت قادراً فى النهاية على أن يفرض نفسه من أجل «مصالح الشعب الذى أكدنا له السيادة. . ونعطى لهم - لآخر مدى ممكن - الحرية الفردية، والحكومة الذاتية، طبقا لقدرتهم، وقوانين العدل والمساواة، وفرصة للتعليم، ولصناعة مربحة وللتقدم فى الحضارة»[٣٨]. وقال تافت: «إن العمل الذى نقوم به فى الفلپين، ارتفع عاليا فوق مجرد السؤال حول ما يمكن أن يكون عليه إجمالى صادراتنا ووارداتنا. إن المسألة الفلپينية هى: هل تستطيع سيادة أمة عظيمة ومزدهرة ومتحضرة أن تمارس فى المنطقة المعتدلة، تأثيرا مفيدا صحيا وإيجابيا فى النمو والتنمية لشعب مدارى»؟[٣٩].

وأخيرا، افتدى الأمريكيون أنفسهم. بتكلفة عامة وخاصة معتبرة، شيدوا الموانئ والطرق والسكك الحديدية والمدارس والمستشفيات، وأسسوا استصلاح الأراضى، واختبروا سياسات اقتصادية سوف يحاولونها فى وطنهم. لقد كانت إمپريالية، ولكن بضمير ذاتى، إمپريالية تقدمية تولدت من إدراك الأمريكيين للرسالة الدينية والعلمانية، لأنه من وجهة نظر المصلحة القومية الصلبة، سرعان ما رأى كل واحد تقريبا، بمن فيهم تيدى روزڤلت أن إلحاق الفلپين كان خطأ. فالجزر كانت كعب أخيل عسكريا وبالوعة اقتصادية، وقد أمل فى أن يدعها حرة بأسرع ما يمكن.

من ناحية أخرى، لم تهتم إلا قلة من الأمريكيين بالإمبراطورية الصغيرة التى كسبوها فى عام ١٨٩٨، ومن اهتم فقد صدق على ذلك. وحاول بريان أن يجعل من انتخابات عام ١٩٠٠، استفتاء على الإمپريالية، ولكنه أقلع عن المسألة كخاسر، بينما دافع الجمهوريون عن الإمبراطورية على «أسس أمريكية تقليدية ومميزة»[٤٠]. وبعد أن قتل ماكنلى فى عام ١٩٠١، استمر خلفاؤه روزڤلت، وويليام هوارد تافت، وودرو ويلسون فى إرسال السفن والجنود والمارينز والموظفين، لإخماد نضال مدنى وعنف مضاد لأمريكا، أو لمنع انهيار مالى فى كوبا

وجمهورية الدومنيكان وهاييتى ونيكاراجوا والمكسيك. وفى پنما، طبعًا، تآمر روزڤلت مع المحليين لخلع الحكم الكولومبى فى عام ١٩٠٣، حتى تستطيع الولايات المتحدة الحصول على منطقة هناك لبناء القناة. ولم يلق أى من هذه الأعمال معارضة جدية من الشعب الأمريكى والكونجرس. فالإمپريالية أصبحت بالفعل، إما تقليداً مقبولا فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة، وإما تعبيرا طبيعيا عن تقاليد أقدم، أو ربما قليلا من كليهما.

إن التقليد الأقدم، الأكثر وضوحًا ومناسبة كان «النظام الأمريكى». لقد أعد چون هاى الخشبة لمسرحية پنما لروزڤلت، بإقناع بريطانيا بإسقاط اتفاق كلايتون ـ بولوير لعام ١٨٥٠، الذى كان لبريطانيا بموجبه كلمة مساوية فى أى مشروع قنال فى برزخ پنما. وضمنت معاهدة هاى ـ پونسفوت (١٩٠١) ـ التى حلت محل الاتفاق للولايات المتحدة حفر قناة پنما والدفاع عنها. ونحل تعديل پلات فى عام ١٩٠١، الولايات المتحدة الحق فى التدخل فى كوبا فى حالة تهديد استقلالها أو حياة الأمريكيين أو ممتلكاتهم. وجعل ذلك ـ فعليا ـ من كوبا محمية وكان الغرض منع القوى الأوروپية من استغلال فتنة أو استياء معاد لليانكى، لاقتناص رأس جسر ساحلى فى الكاريبى. وفى عام ١٩٠٢، كانت ڤنزويلا ممزقة فى نزاع أهلى وتخلفت عن دفع السندات للمستثمرين الأجانب. حاصرت السفن الحربية البريطانية والألمانية الشاطئ، وقصفها الألمان مرتين. وقد رُفعت المطالبات للتحكيم، ولكن روزڤلت رسم ما كان له استنتاجا واضحا. طالما سمح للدول الكاريبية بالسقوط فى الفوضى، ستجد القوات البحرية لأوروپا عذراً لاختراق مجال النفوذ الأمريكى ومحيطه الدفاعى. ولذلك، عندما دخلت جمهورية الدومنيكان فى حرب أهلية وإفلاس فى عام ١٩٠٤، أعلن روزڤلت لازمته لمبدإ مونرو، أنه من الآن فصاعداً، فإن الولايات المتحدة ستعمل بنفسها كشرطى ومحصل أوراق مالية فى المنطقة(٤١):

إنه غير صحيح أن الولايات المتحدة تشعر بأى جوع للأرض، أو تتسلى بمشروعات تتعلق بالأمم الأخرى فى نصف الكرة الغربى إلا ما كان لرفاهيتها. كل ما يرغب فيه هذا البلد هو أن يرى البلاد المجاورة مستقرة وفى نظام ومزدهرة. وإذا أظهرت أمة أنها تعرف كيف تتصرف بكفاءة معتدلة ولياقة فى الأمور الاجتماعية

والسياسية، وإذا حافظت على النظام وأوفت بالتـزاماتها، فإنها لن تخاف التدخل من الولايات المتحـدة. إن إدمـان ارتكاب الخطإ أو العـجـز، اللذين يؤديان إلى فـقـدان الروابط فى المجـتمع المتحـضر ، يمكـن أن يتطلب فى أمريـكا كمـا فى أى مكان.. التدخل من أمة متحضرة. وفى نصف الكرة الغربى، فإن التزام الولايات المتحدة بمبدإ مونرو، يـمكن أن يجبـر الولايات المتحـدة، مهمـا كانِ المانع، فـى الحالات الفظيـعة لارتكاب الخطإ أو العـجز، على ممارسـة دور القوة الشـرطية العـالمية.... إننـا سوف نتـدخل فقط كـحل أخيـر، وبعد أن يظهـر الدليل على أن عدم قـدرتها، أو انـعدام إرادتها لتـحقيـق العدل، انتهك حـقوق الولايات المتـحدة، أو دعا لعـدوان خارجى، لإيذاء الكيان الكلى للأمم الأمريكية.

والأكثر أنه كـان صادقًا: «لم أرد أن أفعل شيئًا إلا ما يجب على رجل الشرطة أن يفعله فى سانتو دومينجو». هكذا قال ث. روزفلت. «وبخصوص ضم الجزيرة، فرغبتى فى ذلك، مثل رغبة الحية فى ابتلاع القنفذ»[٤٢] .

والمبدأ نفسه حوفظ عليه فى آسيا. وللتأكيد، فإن الولايات المتحدة أفادت من المراكز التـجارية الخـارجيـة والحـقـوق عـابرة الأراضى التى كـسبـهـا الأوروبيـون (واليابانيـون) بالسلاح، ولكنها امتنعت عن انتزاع قواعد وموانئ لها فى الصين. وبدلا من ذلك، رد هـاى على هرَع الأمم الأخرى وراء الامتيـازات، بمذكرة البـاب المفتـوح عام ١٨٩٩. (كالـعادة، كانت المبادرة الأمريكيـة فكرة بريطانيـة سمعـهـا المستـشار الآسيـوى لهـاى). دعت المذكرة كل القوى لإتاحة امتـيازاتها بالصـين للتجارة والاستثمار، أمام كل الأمم على أسس متساوية.

وأولى الأوروبيون الموضوع خدمة كلامية فقط، عندما احتجوا فى أعقاب تمرد البوكسر المعادى للأجانب فى الصين فى عام ١٩٠٠. وساهمت الولايات المتحدة بـ ٦٣٠٠ رجل فى القوة الدولية التى أنقذت المفوضيات الأجنبية المحاصرة فى بكين، ولكنهـا بعـد ذلك سحبتـهم مفـضلة ذلك على اقتطاع منطقة أمريكيـة فى الأراضى الصينية. وناشـدت مذكرة الباب المفتوح الثانية لهاى، القوى الإمبريالية الأخرى أن تفعل الشىء نفسه، ولكن روسيا واليابان لم تفعلا، وعندما ذهبتا إلى الحرب فى ١٨٠٤ ـ ١٨٠٥ للسيطرة على منشوريا وكوريا، تحرر روزفلت بهـدوء من سيـاسـة البـاب المفتوح. وكـان أفضل ما تأمله الولايات المتحدة هو توازن القوى بين المتنافسين

الإمبرياليين فى شرقى آسيا، وساعدت وساطة الولايات المتحدة فى الحرب الروسية ـ اليابانية على تحقيق ذلك. وفكر تيودور روزفلت فى أنه طالما أن الأمريكيين لا يريدون تدفق السفن والبضائع والمهاجرين من اليابان إلى نصف الكرة الغربى، فإنه يجب على الولايات المتحدة أن تسمح لليابان بالسعى وراء منافذ على جانبها فى المحيط.

وعكس تافت ووزير الخارجية فلاندر سى. نوكس هذه السياسة، وصمما على دفع استثمارات الولايات المتحدة فى منشوريا من خلال ما أطلقا عليه دبلوماسية الدولار. لقد كانت مخالفةللسياسة التقدمية التى كان رائدها تافت ومستشاره الاقتصادى شارلز كونانت فى الفلبين. وكتب نوكس: «يتأسس الاستقرار الحقيقى ـ بطريقة أفضل ـ ليس بالجيش ولكن بالقوى الاقتصادية والاجتماعية... إن مشكلة الحكومة الجيدة، لا تنفك عن الازدهار الاقتصادى والمالى»[٤٣]. غير أن دبلوماسية الدولار تخبطت: فضمت روسيا واليابان قواهما لمنع الاستثمارات المنافسة، بينما اكتشف نوكس أن البنوك الأمريكية ينقصها فائض رأس المال لمشروعات خارجية فيها مخاطرة. وفيما يخص حالة الصين، تعالت العنصرية الأمريكية على التجارة مرة أخرى. وشدد الكونجرس على حظر الهجرة الصينية فى عام ١٩٠٢ وعام ١٩٠٤، ومنع ٢٠ ألف صينى فى هاواى من الهجرة إلى البر الأمريكى، وحاول الجيش الأمريكى أن يقنع ١٠٠ ألف فلبينى صينى لكى يغادروا، وأثار كل ذلك حظراً صينيا فوريا للبضائع الأمريكية. إن العنصرية، بعيدا عن كونها قوة دافعة لتوسع الولايات المتحدة. كانت، مرة أخرى، عائقا أمامه[٤٤].

***

ذلك، بعنوان عريض، ما فعلته الولايات المتحدة قبل وبعد صخبها الإمبريالى فى عام ١٨٩٨. فكم كان متناغما أو نشازاً مع تقاليد الدبلوماسية الأمريكية؟

بادئ ذى بدء، لم تنتهك الإمبريالية تقليد العزلة، لأن «الانعزالية» كما رأينا هى أسطورة.

فالتقليد الأصيل للولايات المتحدة منذ زمن واشنطن كان الأحادية، وقد التصق به كل الرؤساء من عام ١٨٩٨ إلى عام ١٩١٧[٤٥]. وللتأكيد، استضاف روزفلت

مؤتمر السلام الذى أنهى الحرب الروسية ـ اليابانية، بما أنه فهم أن الولايات المتحدة لها مصلحة حاسمة فى توازن القوى الآسيوى. لكنه لم يفكر أبدًا فى أى شىء يشابه التحالف، والذى يمكن أن يؤنب عليه فى الداخل إذا قام به.

كما أن المبادرات الإمپريالية للولايات المتحدة لم تنتهك تقليد النظام الأمريكى.

وبالعكس، فإن حزم الولايات المتحدة فى الكاريبى بدا ضروريا لحفظ المبادئ التى أعلنها مونرو. ومن أزمة ڤنزويلا فى عام ١٨٩٥ إلى ميلاد پنما فى عام ١٩٠٣، لأزمة روزڤلت فى عام ١٩٠٤، وشراء فيرچين آيلاندز فى عام ١٩١٧، حلت الولايات المتحدة، بثبات، محل التدخلات الأوروپية. وفى عالم محفوف بأساطيل المياه الزرقاء، فإن الولايات المتحدة، كما قال السناتور لودچ لم يكن لديها خيار إلا العودة إلى مبدإ مونرو، تستمسك به بالحديد والنار، أو تتخلى عنه.

وبوضوح تام، لم تنتهك الإمپريالية تقليد التوسعية. وحتى رفض كليڤلاند لهاواى لم يكن آخر لهاث للعزلة، لأنه لا يشهد بشىء أكثر من ضميره: إرادة السكان لم تعق أبدا التوسع الأمريكى من قبل.

ولكن، انتظر.. ألم تكن الأراضى السابق ضمها مجاورة لأمريكا وقارية؟ ألم تكن حيازات الجزر البعيدة ـ خصوصًا تلك فى المحيط الهادى ـ انحرافًا فى التاريخ الأمريكى، وأمرًا لا يمت لمبدإ مونرو بأى صلة؟

الإجابة أن ذلك خطأ، فلم تكن انحرافًا، ولها كل العلاقة مع مبدإ مونرو، لأن الحدود المائية التى تنتهى عندها أمريكا وتبدأ آسيا لم تحدد أبدا. ومبكرا كما كان فى عام ١٨٦٧، تملكت الولايات المتحدة إمبراطورية آلاسكا غير الملاصقة، مع جزر آليوتيان التى تمتد لسيبريا، إضافة إلى ميدواى وكوكبة صغيرة من الجزر والصخور المرجانية[٤٦]. وبحلول عام ١٨٧٥، كانت هاواى زبونا اقتصاديا وضع بوضوح تحت مظلة مبدإ مونرو، وخاطر بايارد وبلين بالحرب فى ثمانينيات القرن التاسع عشر خشية أن تسقط ساموا فى أيدى بريطانيا أو ألمانيا. وكما لاحظ المؤرخ فوستر رهيا دوليز: «توجد دائمًا سابقة نصف منسية، للتوسع وراء البحار فى عام ١٨٩٨»[٤٧].

وعلى أى حال، لم تحتو إمبراطورية أمريكا مساحات داخلية كبيرة من القارات مثل الإمبراطوريات الأوروپية. وتكونت من قواعد وموانئ لو تملكتها القوى

الإمبريالية المنافسة، لأمكنها أن تشكل تهديدا لقناة پنما، أو الممرات البحرية التى تزرعها السفن الأمريكية جيئة وذهابًا.

إن حوادث ما وراء البحار من عام ١٨٦٥ إلى عام ١٩١٧ تثبت أنه متى انخرطت القوى الإمپريالية (ألاسكا وساموا عام ١٨٨٧، كوبا والفلبين وهاواى عام ١٨٩٨، الصين عام ١٨٩٩، سانتو دومينجو عام ١٩٠٤) تحركت الولايات المتحدة بقوة، وفى الحالات التى لم تمثل فيها القوى الأخرى تهديدا (سانتو دومينجو ١٨٦٩ ـ ١٨٧١، وساموا ١٨٧١، وهاواى ١٨٩٣) تراجعت الولايات المتحدة.

وفى ضوء الأحادية، والنظام الأمريكى، والتوسعية، لم تكن إمپريالية ١٨٩٨ ـ ١٩١٧ ضلالاً، ولكن خلاصة المبادرات التى عُدّت ضرورية للدفاع عن وضع أمريكا التقليدى. وقد يشرح ذلك لماذا بدا أن الولايات المتحدة تحولت عن الإمپريالية بعد الانطلاقة القصيرة. فمتى أصبح للبحرية القواعد التى احتاجت إليها، ومنع الأجانب من انتزاع القواعد التى يريدونها، لم تتطلب المصلحة الأمريكية ما هو أكثر. ويفسر ذلك أيضا لماذا لم يحتشد العامة من أجل الممتلكات البحرية؟ ولماذا لم يقدم عليها رئيس ـ ولا ودرو ويلسون نفسه ـ فإنها لم تكن أبدًا صفقة كبيرة.

***

إلى هنا، ماذا كان الجديد عن عام ١٨٩٨؟ لماذا ـ حتى ـ نسميها الإمپريالية، تلك الكلمة التى نسىء استخدامها (مثل الانعزالية) بتحميلها مضمونات سيئة؟ وفوق كل ذلك، لماذا نجعلها ضمن تقاليد السياسةالخارجية للولايات المتحدة؟

للإجابة على هذه الأسئلة، دعنا نرجع لبداية تسلسل الأحداث. وفقا لما تقرر، لم يكن الملمح الإشكالى للفترة الاستعمار ـ الذى يدينه كل فرد الآن ـ ولكنه التقدمية الأخلاقية التى يهلل لها معظمنا! فالولايات المتحدة تخطت الحواجز، بمصطلحات تقاليدها المشرفة، عندما سارت إلى الحرب مع إسپانيا فى أول الأمر. ولك أن تتخيل أن الشعب الأمريكى والحكومة سمحوا لأنفسهم بأن يكتسحهم إعصار ورع متشدد فى حرب ثورية خارجية، وصمموا على ذبح التنين وتخليص العذراء منه.

لقد كان ذلك بالضبط، نوع الإغراء الذى ازدراه واشنطون وهاملتون، وشعر به چيفرسون وماديسون ولكنهما قاوماه، ولعنه چون كوينسى آدمز ببلاغة. لقد عنت

الاستثنائية الحرية فى الوطن، وليس حملات صليبية لتغيير العالم. وفق تقاليد الولايات المتحدة، كان الشيء الوحيد الخاطئ فى الحقبة الإمپريالية ما سلم كل واحد بأنه صحيح: الحرب لإنهاء الحرب فى كوبا.

وبهزيمة الإسپان بعد ذلك، وجد الأمريكيون أنفسهم يضعون يدهم على عدد من المستعمرات الصغيرة. وأطلقت مشكلة ماذا يمكن عمله بها إغراء ثانيا: ليس الاحتفاظ بقواعد خارجية - كانت تلك إستراتيجية سليمة ثابتة - ولكن إلى أبعد من ذلك «حركة كل الفلپين» التى هبطت بالنخب الأخلاقية للأمة إلى الوحل، وهو الأمر الذى تجنبه پولك فى زمن حركة «كل المكسيك».

فلم يتوقف الأمريكيون عند مسئولية شن حملة صليبية، بل ظلوا فى الأراضى التى استولوا عليها، تحت اعتقاد أن عليهم رسالة لغرس الحضارة الأمريكية، حتى بالرغم من أنهم لم تكن لديهم النية للسماح لسكان الجزر بالترقى لولاية. آلاسكا (١٨٨٤) وهاواى (١٩٠٠) حصلتا على وضع الأراضى المندمجة، والذى يعنى أن دستور الولايات المتحدة يطبق بالكامل هناك. ولكن البحرية حكمت جوام مباشرة، وأعلنت لائحة فوراكر لعام ١٩٠٠ ولائحة أورجانيك لعام ١٩٠٢ أن پورتوريكو والفلپين توابع غير مندمجة. وقوبلت الحكومة بتحد فى المحكمة: كيف تنكر حق تقرير المصير والحماية المتساوية لشعب تحت علمها؟ غير أن قرارات المحكمة العليا المتعصبة، عَدّت لائحة فوراكر دستورية. **ولذلك، تصرفت الولايات المتحدة — فى آن واحد — بافتراض عنصرى بأن المستعمرات لم تكن صالحة للمشاركة كليا فى الحياة القومية، وبافتراض غير عنصرى، بأنه يمكن، خلال فترة، تعلم الطريقة الأمريكية.**

وكما لاحظ أحد المؤرخين بتهكم لاذع: «كان الحل الإمپريالى الوسط هو السماح للعَلَم بالتقدم، مع إنكار أن الدستور يتبع العَلَم»[٤٨].

وما تبع العلم نبضة إصلاحية، كالتى ألهمت إصلاحات المرحلة التقدمية داخل الولايات المتحدة. هبط المستعمرون الإداريون، الاقتصاديون، المعلمون، الأطباء، المبشرون، المستثمرون وأطقم مهندسى الجيش، فى الفلپين وپورتوريكو وجوام وپنما لمكافحة الحمى الصفراء والملاريا، وحفر قناة پنما (التى منحها ثيودور

روزفلت كعطية للإنسانية)، وتطوير الاقتصادات، وتحرير الشعوب من تراثها الكاثوليكى الإسپانى[٤٩].

هل أوقعوا ضررًا بليغًا؟ الآن هذه حقيقة فى مصاف البديهيات. يكفى إزاحة فلاحى پورتوريكو المكتفين ذاتيًا (چيباروس) لحساب أصحاب مزارع السكر الأمريكيين. ولكنها حقيقة أيضًا ـ بالقدر نفسه ـ أن الأمريكيين أنفسهم اقتنعوا بأنهم يتبعون ما أسماه المبجل ألكساندر بلاكبورن «إمپريالية التقوى»، وما أسماه صمويل فلاج بيميس «إمپريالية ضد الإمپريالية»[٥٠]. استمع إلى ماكنلى وهو يقول: «لا تنمو قوة الأمم، ولا تترسخ الحرية والقانون، بالإتيان بأعمال سهلة... لا يمكن أن يعجز ٧٥ مليون أمريكى حر عن تأسيس الحرية والعدل، وحكومة جيدة في ممتلكاتنا الجديدة.. لن تتدهور أعرافنا بالتوسع، ولن تفتر حاسة العدل عندنا تحت الشمس المدارية فى البحار البعيدة»[٥١]. والآن اقرأ تلك الكلمات ثانيًا، وتخيل نطقهم بلكنة بوسطن لـ چون. إف. كيندى، وقد تأسرك جاذبية الإمپريالية التقدمية.

ركز المؤرخون على ديناميكية تيارات الخلاف فى المجتمع الأمريكي عند نهاية القرن.. اعتقد فوستر رهيا دوليز أن ذلك العصر «علامته كثرة التناقضات»[٥٢]. وميز ريتشارد هوفستادتر «مزاجين مختلفين» يميل الأول للاحتجاج والإصلاح، والثانى للتوسع القومي. كتب فردريك ميرك عن المصير المبين الذى يتنافس مع الرسالة، وكتب إرنست ماي عن «هدير من بلاغة الإمپريالية وبلاغة القيم المعنوية»[٥٣]. ولكن تلك التناقضات ما هي إلا نتيجة رغبتنا فى تنقية الحركة التقدمية من تلويث الإمپريالية في الخارج. فعلى مستوى القاعدة، أصبح الاقتناع بأن القوة الأمريكية ـ خلف هداية روح الخدمة العلمانية والدينية ـ قادرة على إعادة تشكيل المجتمعات الأجنبية، يوازى فى السهولة اقتناع التقدميين بتحطيم الاتحادات الاحتكارية للشركات ـ منع تشغيل الأطفال ـ تنظيم التجارة بين الولايات ـ تعبئة اللحوم ـ المخدرات.

قواد الإمپريالية، مثل: روزفلت، بفريدچ، ويلارد سترايت، كانوا كلهم تقدميين. قواد التقدميين، مثل يعقوب ريس، جيفورد پينشوت وروبرت لافوليت، كلهم أيدوا الحرب الإسپانية وضم الجزر.[٥٤] حتى المؤرخين الأكاديميين

ذلك الوقت، استحسنوا الحرب والمستعمرات (باستثناء، فى بعض الحالات، الفلبين)، وانتخبوا أ. ت. ماهان رئيسًا للجمعية التاريخية الأمريكية(٥٥).

مثلت أقوال روزفلت عن «بلاغة الكياسة العسكرية» صوت الروح لذلك العصر. فقد وعظ قائلاً: «**فائدتنا الرئيسية للإنسانية، تقوم على جمعنا بين القوة والهدف الأعلى**»(٥٦). وكان المنظر الأساسي للعصر هربرت كرولي، المؤسس العبقرى لجريدة «نيو ريبابليك»، والذى كتب فى عام ١٩٠٩ يحدد السياسة الخارجية التقدمية بأنها السعي وراء نظام أمريكي كامل للولايات. استحسن ضم بورتوريكو، ووضع كل من كوبا، قناة بنما تحت الحماية، ولم يفكر فى أن ذلك يناقض التقاليد الأمريكية التى تعود لواشنطن. حتى الفلبين التى اعتقد أنها حمل لا يمكن الدفاع عنه، ففيها - على الأقل - ميزة «أنها تحافظ على إحياء اهتمام الأمريكيين بمصالحهم إزاء المشكلات العظمى التى سوف يثيرها تطور الصين واليابان»(٥٧). بل إنه يعتقد أن الحرب الإسپانية - الأمريكية، قد أطلقت عصر التقدم من عقاله، لأنها أمدت «الإصلاح بدفعة هائلة»(٥٨).

يبقي سؤال واحد: لماذا استسلم الأمريكيون لإغراء إعادة بناء الدول الأخرى، فى نهاية القرن، وليس - على سبيل المثال - وقت الحرب المكسيكية؟ الإحساس بالقوة الذى اعتراهم كأمة، مفتاح أكيد لذلك. فبالتأكيد، لم يحجب الله الولايات المتحدة أكثر من قرن، حتى تخفى نورها عن العالم تواضعًا.

ولكن تغيرت روحانيات الأمريكيين بأكثر مما تغيرت مادياتهم. فى البداية، لم تؤرق الأمريكيين الثوريين ضمائرهم «فى إسقاط السماء المسيحية على الأرض... فلم يكونوا بحاجة لصنع دنيا من ثورتهم، لأن الدين من الأصل ثورى»(٥٩).

خلال القرن التاسع عشر، فقد الإيمان مذاقه لدى التيار الرئيسى للأمريكيين، تحت الأمواج المتلاحقة لنقد الكتاب المقدس، الچيولوچيا، الداروينية، والألفية العلمانية للإنجيل الاجتماعى. وكتب آرثر شلزنجر الابن «بتحول المسيحية إلى ليبرالية، والتخلص من مبادئها الرئيسية - مثل الخطيئة الأولى - تم الخلاص من عائق فى طريق الاعتقاد بفضيلة الأمة وكمالها. وجعلت التجربة من المصير المبين المقدمة المنطقية لحياة الأمة»(٦٠).

نتج عن ذلك في السياسة الخارجية، ولايات متحدة جديدة متكبرة، تحسب قداستها بما فعلته، ليس فقط بأصلها، ومن خلال إمبريالية تقدمية متنامية، ألزمت نفسها، لأول مرة «بالسعي وراء أفكار مجردة مثل الحرية، الديمقراطية، العدالة»[٦١].

وكنت الرؤيا الويلسونية لإنقاذ العالم خلف أول منعطف[٦٢].

الفصل السادس

مبــدأ ويلســون

(المسمى) العالمية الليبرالية

في يونيو عام ١٩١٥ ، بعد أقل من ١١ يوما على مرور عام على حادث الاغتيال في سراييفو ، الذى أطلق شرارة الحرب العالمية الأولى ، اجتمع ثلاثمائة من الأمريكيين من أصحاب المقام الرفيع فى قاعة الاستقلال لتأسيس عصبة لفرض السلام ، وانتخبوا الرئيس السابق ويليام هوارد تافت لقيادتهم ، ثم دعوا الرئيس الحالى وقتها وودرو ويلسون ليخاطب مؤتمرهم الثانى فى الربيع التالى . واستخدم الخطاب كبداية لحملة إعادة انتخاب ويلسون(*) . وقد نصحه رفيقه السياسى إدوارد إم . «كولونيل» هاوس بأن يزايد ويستبق الجمهوريين فى مسألة السلام . ولم يكن ويلسون بحاجة إلى تشجيع ، إذ كان بارعًا فى الخطابة براعة ثيودور روزفلت ، وعلّم نفسه منذ الصبا كتابة وإلقاء الخطب الرفيعة . وقال لهاوس : إننى أفكر كثيرا فى الخطبة التى سألقيها يوم السابع والعشرين ، «لأننى أدركت أنها قد تكون واحدة من أهم الخطب التى سأدعى لإلقائها»[(١)] .

وهتف ألفان من الحاضرين عندما دخل ويلسون غرفة العشاء الكبرى فى فندق نيوويلارد بواشنطن مساء يوم ٢٧ من مايو عام ١٩١٦ . وفى إشارة إلى الحرب الأوروبية قال إنه ليس مهتما بأسبابها وأهدافها ، ولكن برؤية السلام يأخذ شكل الدوام فى إثرها .

يجب ألا يستمر الأمريكيون فى تمسكهم بما جاء فى خطاب وداع واشنطن كمرشد لهم ، وقال : «**إننا مشاركون سواء ـ أردنا أو لم نرد ـ فى حياة العالم. ومصالح الأمم كلها هى مصالحنا أيضا. نحن شركاء مع الباقين**» . غير أن أمريكا قدر لها أن تذهب إلى ما هو أبعد من المشاركة ، إلى القيادة فى عالم يعتمد فيه **السلام من الآن فصاعدا على دبلوماسية جديدة وصحيحة أكثر.. لذلك أعتقد بإخلاص فى تلك الأشياء ـ التى أثق بأننى أعبر عن عقل وأمل شعب أمريكا ـ**

(*) وودرو ويلسون (١٨٥٦ ـ ١٩٢٤) الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة بين (١٩١٣ ـ ١٩٢١) (ديمقراطى) . (المترجم)

عندمـا أقول إن الولايات المتـحدة راغبـة فى أن تصبح شـريكا فى أى جـمعيـة ممكنة للأمم تتشكل لتحقيق تلك الأهداف وجعلها آمنة من الانتهاك. وليمنحنا الرب فجر ذلك اليوم الذى يـتحقق فـيه التعـامل الصريح والسـلام المستقـر والتوافق والتـعاون بحيث يكون فى متناول اليد».

وضجت القاعة، وأشرق وجه ويلسون، وشبـهت الصحافة الخطاب بإعلان الاستقلال وخطاب جتيسبرج. اعتقد بعض المحررين المتحفظين، أن عبـارات الرئيس أخفت الطبيعة الخيالية لفكرته، ولكن معظمهم اعتقد أن الرئيس كان يتحدث بـ «صوت أمريكا»[٢].

ولم يكن هناك من هو أكثر صدمة من چورچ د. هيرون، الذى هو واحد من قادة حركة البشارة الاجتماعية، والذى وعظ بحمية مثل أسلافه فى أربعينيات القرن التاسع عشر بأن هدف أمريكا كان تحقيق مملكة الرب. فالإصلاحات التقدمية (والتى بلغت أوجها بتحريم شرب الخمر) كانت تطهر الأمريكيين لتجعلهم جديرين بما يريدون تحقيقه.

غير أن ويلسون ـ الآن ـ جعل العالم كله يرى طريقا أفضل. وكتب هيرون أن خطبة ويلسون «ربما تكون أهم ما نطق به قائد قومى خلال ألفى عام». لأنه «وقف إلى جانب سياسة عالمية جديدة جدًا وثورية جدًا وخلاقة جدًا لعالم مختلف عن عالمنا، وقليلون بدءوا يلمحون رؤيته أو يقدرون غرضه».

وكتب ويلسون ـ بدون كثير من التواضع ـ إلى ناشر هيرون فى أكتوبر عام ١٩١٧، يمتدح: «**رؤيته المتفردة.. لدوافعى وأغراضى**»[٣].

عند ذلك، كان ويلسون قد قاد الولايات المتحدة فى الحرب التى وصفها بأنها حملة صليبية لجعل العالم سالمًا من أجل الديمقراطية. ومثل مفكرين متقدمين، رأى أن نظم الأحلاف الأوروبية، وتوازن القوى، والتسلح، والحكومات التسلطية، والتنافس الاقتصادى والإمبريالية المستغلة (كمقابل للإمبريالية التقدمية) مسئولة عن الحرب العظمى. **وكالعـادة كانت تلك الأفكار «الأمريكيـة» مستـوردة من بريطانيا.** وفى هذه الحالة، فإن تعاليم الاتحاد البريطانى للحكم الديمقراطى تضمنت أن: **«نظرية توازن القـوى والدبلوماسـية السـرية، كانتا عـنصرين، بارتبـاطهما، يصـنعان**

الحرب. والعنصران الآخران اللذان ارتبطا بهما ارتباطا وثيقًا، يؤكدان وقوع الحرب، وهما الزيادة المستمرة فى الإنفاق على التسلح، والتسامح مع مصلحة التسلح الخاص». وطبقا للاتحاد : لن يكون هناك سلام دائم دون توقف نقل الأراضى إلا برغبة الشعوب، ورفض الحكومات الأحلاف من أجل «تنسيق التعاون بين القوى، وإقامة مجلس دولى».

وشارك ويلسون أيضا اعتقاد برتراند راسل بأن مصالح الديمقراطيات ـ المعارضة لطبقات النخبة الحاكمة ـ لا يمكن أبدًا أن تتعارض مع مصالح الإنسانية (٤).

وكانت العصبة البريطانية لجمعية الأمم قد تأسست فى عام ١٩١٥، وسوف يؤثر، إلى حد كبير، تقرير فيليمور للحكومة البريطانية فى الشكل النهائى لاتفاقية عصبة الأمم.

وطبقا لذلك، دعا خطاب النقاط الأربع عشرة لويلسون فى يناير عام ١٩١٨ إلى السلام القائم على الدبلوماسية المفتوحة، وحرية البحار، والمساواة فى حرية الوصول إلى المواد الخام (الباب المفتوح)، وخفض التسلح، والحكم الاستعمارى فقط لمصالح الشعوب الخاضعة (الإمبريالية التقدمية)، وتقرير المصير (للأوروبيين)، و«جمعية عامة للأمم» لتأكيد «الاستقلال السياسى، واحترام الحدود للدول العظمى والصغرى كذلك». ونحن نعلم كيف تروى ـ عادة ـ بقية القصة.

وفى نوفمبر عام ١٩١٨، وافق الألمان المنهكون على هدنة على أساس النقاط الأربع عشرة. غير أن ويلسون فى مؤتمر السلام اضطر للمساومة على مبادئه السلمية من أجل إرضاء مطالب الحلفاء المنتصرين، وليفوز بموافقتهم على عصبة الأمم.

ونتيجة لذلك، هاجم الويلسونيون ـ الذين خاب أملهم ـ معاهدة فرساى، بحسبانها خيانة، بينما رفض أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريون التصديق عليها دون تحفظات تحد من التزامات الولايات المتحدة تجاه العصبة. غير أن الرئيس الحانق رفض تأييد أى تعديلات، وسقطت المعاهدة فى مجلس الشيوخ. ودخل العالم فيما أصبح يسمى السنوات ما بين الحرب، فقد فيها القيادة الأمريكية.

وتقريبا؛ فإن كل مناقشات دبلوماسية الولايات المتحدة فى أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، ركزت على المواجهة المأسوية بين ويلسون و«المجموعة الصغيرة من

الرجـال العَنَدَة »فى مـجلس الشـيـوخ [٥] ، وحـتى هذا اليـوم يـلوم بعض المؤرخين «الانعزالية» الأمريكية على أنها سبب أهوال الحرب العالمية الثانية.

ولكن كـمـا نعرف، فـإن الانعزالى الخـالص حـيوان أسطورى. حتى المعـارض الصلب لعـصبـة الأمم السناتور ويليـام بوراه (جـمـهـورى. ولاية أيداهو) أيقن أن أسلوب النعامة أو إخفاء الرأس فى الرمال فى السياسة الخارجية مستحيل. ولم يكن ويلسون أيضا بالنبى المهان الذى يرضى بسلام استرضائى. فقد تطلبت أخلاقه أن تعاقب ألمانيا على جرائمها. ولـم يكن ويلسون المفسر الوحيد لمبادئ مثل تقرير المصير ونزع التسلح والتحكيم. حتى معـارضيه السابقين شاركوه فى بعض القيم والأهداف، إن لم يكن أيضًا فى وسائله. وذلك يفسر لماذا أدت الانقسامات المألوفة بين الدپلوماسـية الجـديدة والدپلومـاسـيـة القـديمة، الانعـزالية والعـالمـيـة، والمثاليـة والواقعية، إلى تشويه تصورنا للجدل حول عصبة الأمم.

وبالتـأكيـد، لم تفـعل الولايات المتحـدة شيئـا نافعـا لصـد التـحدى الفـاشى فى الثـلاثينيـات، مما يجـعل المؤرخين مـتـعـاطفين مع شـجب نيلسـون لـرفض مـجلس الشيـوخ استخدام القـوة الأمريكية من أجل الاستـقرار العـالمى. ولكن بعـد پيرل هاربور، وخـصـوصًا بعد أن سـحقت الحرب البـاردة الآمـال التى علّقت على الأمم المتحدة، **انتقـد الواقعيون - مـثل چورچ كينان وهانز مورجنتـاو وروبروت أوزجود وهنرى كسيـنجر - الويلسونيين، ليس لعالميـتهم ولكن لاعتقـادهم السـاذج بأنه يمكن التغلب على سياسة القوة بالرأى العام العالمى أو إبطالها بجرة قلم.**

وبعد ذلك، فى الستينيات، دفعت موجة أخرى من المؤرخين بأن ويلسـون لـم يكن حالمًا أحمقَ بل **«سياسيا واقعى التفكيـر، من النموذج الأكثر صلابة والقادر تمامًا على إنجاز خطط سيـاسية عظمى بالأسلوب الأكثـر واقعية (ترسك)، وبأن سـياساته التى لا تنضب مثلث واقعية أعلى (بينك) أو «واقـعية سامية»** (ماى)[٦]. غير أن لغة تلك النقاشات حجبت حقيقة الموضوع، وهى أنه لا ويلسون ولا معـارضوه كـانوا سذجـا أو جهـولين. لقد لاحظوا الاتجاهات فى التاريخ المعاصر بأعين حريصة، وعرفوا كيف أن التصنيع والإمپريالية قد غيرا العالم وموقع أمريكا فيه. ولـم يختلفوا على فلسفات مجردة على منبر مجلس الشيوخ، بل سألوا أسئلة صعبة حول: ما

أفضل السبل للتوفيق بين متطلبات الاستقرار العالمى والمصلحة القومية للولايات المتحدة. وكما كتبت أكيرا آيرى: «إنها لم تكن المثالية مثل ما كانت العالمية وراء الأفكار الويلسونية، وهى عالمية تأسست بصلابة على مصالح مشتركة للأمم وعلى طموحات الرجال والنساء فى كل مكان»[٧].

لطرح الأمر ببساطة، لم تكن القضية الأولى فى عام ١٩١٩ هى ما إذا كان الأمريكيون سيعودون إلى الدور السلبى نسبيا الذى لعبوه فى آسيا وأوروبا، ولكنها بالأحرى الشروط التى سيشاركون بها فى عالم القرن العشرين، وما إذا كانت تلك الشروط تكمل أو تقوض التقاليد الخمسة الأولى للسياسة الخارجية للولايات المتحدة. وكانت القضية الأخرى هى توماس وودرو ويلسون نفسه. هل كان الأمريكيون سيفكرون بنفس طريقته إذا قدر أنه لم يوجد أصلاً، أو خسر انتخابات عام ١٩١٦؟ أو كان هو نفسه مسئولا بدرجة كبيرة عن رفض عصبة الأمم فى مجلس الشيوخ؟ وهل يمكن أن يتنبأ أحد أنه فى حين كانت الويلسونية فشلاً (ليس فقط فى عام ١٩١٩ ولكن بعد عام ١٩٤٥ ثم ثانية بعد عام ١٩٨٩) أصبحت مبادئ العالمية الليبرالية نجاحًا؟ سوف نعود إلى هذه الأسئلة لاحقا. ولكننا يجب أن نبدأ بفحص ويلسون الرجل.

❋❋❋

«المكان الوحيد فى العالم الذى لا يجب شرح شىء فيه لى، هو الجنوب». اعتراف غير عادى من رجل سوف يقول للعالم كيف ينظم شئونه، ولكن ذلك ما قاله ويلسون.

إنه منحدر من أصل فيرچينى من عائلة وعاظ مشيخيين(*) من جانب أبيه وجانب أمه، وقد أخذ الدين من أهله كأمر مسلم به عقليا، وأحيانا بطريقة تفاخرية لمتخب كالڤينى. ولأن استقامته الروحية كانت مؤكدة جدًا، أطلق عليه صديق كاثوليكى «الكاهن المشيخى»[٨]. وكان ويلسون شديد الرفض تجاه جماليات

(*) المشيخية مذهب پروتستانتى. (المترجم)

الطقوس المسيحية الأخرى بما جعله يصف الخدمة الأسقفية(*) بـ **«أنها غبية جداً، حقا.. طريقة سخيفة لعبادة الرب.. وإنها الخدمة التى تحوز أقل رضا من الرب»**.

ومع ذلك، فإن ذلك الرجل الذى يستطيع تفسير نص توراتى وتشريح العلل الاجتماعية بحرفية مشيخية، يمكن أن يدعو ذات مساء أسرته أو أصدقاءه فى حفلة غير بريئة لاستحضار الأرواح، وكان يمارس هواية الأعداد السحرية، وكان رقم حظه ١٣. (٩)

واعتقد ويلسون فى القدر المكتوب، ليس فى الآخرة فقط وإنما فى الحياة كذلك. وكان يعرف أن الرب قد اختاره لأشياء عظمى، ذلك الاعتقاد صاحب عدم اكتراثه بالعمل المدرسى، واستمر معه رغم فشله التام عندما كان دارسا للقانون. وعندما كان دارسا فى پرنستون، جمع «تومى» ويلسون زملاء الدراسة فى ألعاب ونواد كى يستطيع لعب دور القائد ويشبع حبه للأشياء البريطانية. فى ألعاب الحروب، تخَيل نفسه قائد أسطول بريطانى، وفى النوادى السياسية وزيرا يتمايل البرلمان لبلاغته، واحتفظ بصورة لرئيس الوزراء الصليبى المسيحى ويليام إيوارت جلادستون(**) على مكتبه، وأرجع موت فن الخطابة الأمريكى إلى نظام الكونجرس الذى تصنع قراراته من خلال لجنة وليس الجدل فى القاعة.

وكانت مبادئ ويلسون السياسية أبطأ فى التطور، ولكنه تبنى - فى الوقت المناسب - مبادئ ليبرالية جلادستون. واعتقد أن القانون الطبيعى يقضى بعالم منضبط ذاتيا من أفراد أحرار. ومن هنا، كان إخلاصه للتجارة الحرة وكراهيته للشركات الكبرى واتحادات العمال والبيروقراطية. وشارك فى تنازل جيله تجاه **«الأجناس الأقل»** مثل الزنوج، معتقدا أنها مسئولية الأنجلو ساكسون لرفعهم إلى أعلى: «عندما يتم توجيههم بطريقة سليمة، لا يوجد شعب غير صالح للحكم الذاتى»(١٠) وليس الأمر بحاجة للقول، إن المسيحى ذا الموهبة والوسائل، تجب عليه خدمة رفيقه الإنسان، لأن (كما قالتها زوجته الأولى) الإنسان الذى يعيش فقط لنفسه لم يبدأ العيش»؛ (١١) ولكن، مهما كان اهتمامه المعلن بالجنس البشرى عظيما، بدا أن ويلسون لديه تعاطف ضئيل فى الجوهر مع الكائنات الإنسانية.

(*) الأسقفية مذهب پروتستانتى، نشأ بعد انفصال الملك هنرى الثامن عن كنيسة روما. (المترجم)

(**) ويليام إيوارت جلادستون (١٨٠٩ - ١٨٩٨) رئيس وزراء بريطانيا بين عامى ١٨٦٨ و ١٨٧٤ ثم عامى ١٨٨٠ و ١٨٨٥. (المترجم)

وكما وصفه - فيما بعد بسخرية - رئيس الوزراء ديڤيد لويد چورچ: «كان يعتقد فى الإنسانية . . وعديم الثقة بكل الرجال»[١٢] .

وبعد الانسحاب من عالم القانون، اقتحم ويلسون العالم الأكاديمى. وسرعان ما أصبح كتابه «حكومة الكونجرس» عام ١٨٨٥ عظيم الاعتبار، حتى إن جامعة چون هوپكنز منحته الدكتوراه فى العلوم السياسية «بتدبير خاص». وعَدّته صحفية «نيشن» الراديكالية «واحدا من الكتب السياسية الأمريكية الأكثر أهمية، فى أى وقت»[١٣] .

وفيه، عاب على واضعى دستور الولايات المتحدة وضع الحكومة عاجزة من خلال فصل السلطات، وعاب سلطة مجلس الشيوخ على المعاهدات والتعيينات.

وبالنتيجة، كما كتب، فإن وسائل الرئيس فى مواجهة **«الإذعان القهرى تجاه مجلس الشيوخ، تتمثل فقط فى مبادرته للتفاوض، التى تكون فرصة لإيقاع البلد فى مآزق، ففى حين يتكفل فى نظر العالم بإجراءات محددة، يتردد مجلس الشيوخ فيظهره بمظهر غير مشرف يترتب على رفضه التصديق على الوعود العاجلة»**.

لقد اعتقد ويلسون أنه قد «ثبت أن للضبط والتوازنات فى الحكومة الأمريكية أضرارا بنفس مدى نجاحها كحقائق» [١٤] .

وتمام الأمر، أنه عَدّ الدستور صيغة لما نسميه عقدة محكمة، وفضل حكومة مركزية تقوم على أساس علاقة مباشرة بين الرئيس والجماهير.

وتكرارا، فإنه سيمارس تلك النظريات فى الحياة.

ودون دهشة، احتضن ويلسون الإمپرالية التقدمية، التى ناسبت اعتقاده فى نداء الرجل الأبيض وتعريفه للحكومة الرئاسية. ولذلك هتف لضم الفلپين وپورتويكو: **«إنهم أطفال ونحن رجال فى تلك الشئون العميقة للحكم والعدل»**[١٥] . والحقيقة أن السياسة الخارجية سيطرت من جديد على سياسة الولايات المتحدة.

الآن، ستتزايد باضطراد قدرة الرئيس وفرصته لقيادة بناءة للدولة. وكتب أن «الإدارى القوى يجب أن يبادر بكل حكم أولى، ويبادر بكل خطوة أولى للعمل، ويوفر المعلومات التى تتصرف البلد وفقًا لها، يقترح ويضبط سلوكه بدرجة كبيرة»[١٦] .

وفى الوقت المناسب، أصبح ويلسون رئيس جامعة پرنستون - أو **«رئيس الوزراء»** كما أراد أن يقول - حيث حصل على سمعة كرومويلية(*) كإصلاحى شجاع وكسلطوى. وبحث عن نماذج لأكسفورد وكامبريدچ، وجعل الخريجين موضع المسئولية عن الطلاب قبل التخرج، وحاول جذب عدد أكبر من طلاب المدارس العليا المعوزين إلى پرنستون، وجعل أبناء الأغنياء مختلفين عن آبائهم ما أمكن»(١٧).

وأغضب المشروع الراديكالى المكلف الخريجين والكلية، ولكن ويلسون رفض أن يتزحزح: **«طالما أنى رئيس پرنستون، أقترحُ وأملى السياسة المعمارية للجامعة»**(١٨).

وإذا كانت هناك ميزة تبرز من السطح من كلٍ ما يقرؤه المرء عن ويلسون، فهى هذه: لقد أحب السلطة وتاق إليها، وبمعنى ما مجّدها.

وقد يبدو ذلك غريبا فى رؤية تقدمية معاصرة ورعة عند اللورد أكتون الذى حذر من أن **«السلطة تنزع إلى الافساد، والسلطة المطلقة تفسد فساداً مطلقًا»**، ولكن أكتون كان الكاثوليكى الذى اعتقد فى الخطيئة الأصلية، وكان يلقى تصريحا عن طبيعة الإنسان وليس المطلق الذى يُدعَى السلطة. وبالعكس اتكأ ويلسون على يد الرب ذات القوة المطلقة، وحدد السلطة بالقدرة على صنع قرارات فعالة تدفع الشعب والمؤسسات إلى الأمام فى طريقهم المعين نحو الكمال. واعترف ويلسون فى كتابه «حكومة الكونجرس»:

«أنا لا أستطيع تصور السلطة كشىء سلبى وغير إيجابى».(١٩) وقال فى خطابه عام ١٩١١ عن «الكتاب المقدس والتقدم»: **«لا تدع أحداً يفترض أنه يمكن فصل التقدم عن الدين. والإنسان الذى يتجذر إيمانه فى الكتاب المقدس يعرف أن الإصلاح لا يمكن أن يتوقف»**(٢٠).

وفى الحقيقة، لا يقدم العهدان القديم والجديد مثقال ذرة من دليل لدعم توكيد أن **«الإصلاح لا يمكن أن يتوقف»**. وقصة إسرائيل واحدة من قصص العصيان المتكرر ضد القانون فى تحد لقضاة ورعين، ولأنبياء، ولملوك تائبين، بينما يصف الإنجيل كل ممالك الأرض بأنها مجال الشيطان، والتاريخ بأنه مسار حلزونى إلى سفر الرؤيا.

(*) نسبة إلى أوليفر كرومويل (١٥٩٩ - ١٦٥٨) القائد العسكرى والسياسى البريطانى. (المترجم)

ولكن، مذهب التقدم الحتمى المطبق على كل الجنس البشرى، والولايات المتحدة فى الطليعة، مهما كانت هرطقته، كان حكمة متفقا عليها عند التيار الرئيسى للپروتستانتية، وبلغ ذروته فى البشارة الاجتماعية فى زمن ويلسون (٢١) .

وكان الأمريكيون «أوصياء على روح الحق، روح العدالة، روح الأمل التى تعتقد فى كمال القانون وكمال الحياة الإنسانية ذاتها» . (٢٢) وبمقتضى ذلك، فإن السلطة فى أيدى الأوصياء الصالحين جيدة، وإن كل من يتحدون تلك السلطة أدوات غير معروفة للشيطان .

وللمدى الذى اعتقد فيه ويلسون - وأثبت سلوكه وأقواله أنه فعل - أن المرء لا يستطيع التنازل عن القيم بغير أن يدفع جانبا يد الرب ذات القوة المطلقة، ويهبط فى منحدر زلق نحو العجز .

ومقابل بسمارك الذى عرف السياسة بأنها فن الممكن، أجاب ويلسون : «**مع الرب... كل الأشياء ممكنة**» .

وفى النهاية، فإن موقفه الصليبى المتفرد، أفقده ساحة القتال فى پرنستون، ولكنه جذب اهتمام الديمقراطيين فى نيوچيرسى والذين تلقوا تصوراً عن ويلسون مضمونه أنه نصير غير فاسد للعامة . لقد انتخب حاكما، ثم رشح رئيسا فى العام الذى مزق فيه عصيان ثيودور روزڤلت الحزب الجمهورى إربًا . وأصبحت الحملة الانتخابية لعام ١٩١٢ قتالا ثلاثيا حول روح أمريكا الصناعية . فمثَّل تافت الجمهورية المحالفة للأعمال الكبيرة . وامتدح روزڤلت مؤسسات الأعمال من أجل كفاءتها، ولكنه دعا إلى وكالات حكومية كبيرة لحل الصراعات بين رأس المال والعمالة . ولام ويلسون الجشع على أوجاع التصنيع ووعد بـ «**حرية جديدة**» تقوم على المنافسة والفرصة للكل . «**بكلمات أخرى، برنامجنا هو برنامج للحرية وبرنامجهم للتقييد.. إننى لا أعتقد أنه يوجد رجل آخر كبير بما يكفى، ليمثل العناية الإلهية**»(٢٣) .

وما كان البلد يحتاج إليه «خطيب عظيم يمكنه أن يجعل الرجال سكارى بروح التضحية بالذات»(٢٤) . وبفضل الانشقاق الجمهورى، ذلك ما ناله البلد .

الكل يقتبس كلام ويلسون: «ستكون من سخرية الأقدار، لو كان على إدارتى أن تتعامل بصفة رئيسية مع الشئون الخارجية». (٢٥)

وكما حدث، فقد نجح فى تقديم معظم أجندته المحلية، وفاز فى معاركه من أجل: خفض التعريفة، ولائحة مجلس الاحتياط الفيدرالى، وضريبة الدخل. وكانت السخرية الحقيقية فى ملاحظته أنه كان لديه مدى أكبر لممارسة السلطة وتأكيد المبادئ الأخلاقية فى السياسة الخارجية بأكثر من السياسة المحلية- وهى الحقيقة التى لاحظها- بدهاء- ويلسون عالم السياسة. وأكثر من ذلك أنه لم يتجنب السياسة الخارجية بل قفز إليها خلال أيام من بدء رئاسته بـ «**الدپلوماسية الرسولية**» له فى آسيا («**ينبغى أن نساعد الصين بطريق أفضل**»)(٢٦). عكس دپلوماسية الدولار لتافت، لَمَّح فى إعلان السياسة بخصوص أمريكا اللاتينية فى مارس عام ١٩١٣ إلى مزيد من الإمپريالية التقدمية. وأعلن ويلسون أن أمريكا تتلهف إلى التعاون مع «الجمهوريات الشقيقة» لكن فقط « عندما يدعمها فى كل خطوة، عمل حكومى عادل ومنظم، قائم على القانون». وحذر من أنه فى غياب النظام، فإن الولايات المتحدة سوف تمارس «كل أشكال النفوذ» من أجل استعادته. وقد فعلت أمريكا ذلك، عندما فرض ويلسون حماية عسكرية على هايتى ونيكاراجوا.

ولكن الشقيقة الأكثر إغاظة وتهديداً لويلسون، كانت المكسيك. لأكثر من ثلاثين عامًا ربح المستثمرون الأمريكيون من السلام الذى فرضه الدكتاتور پورفيريو دياز، إلى الحد الذى تملكوا فيه ٤٠ ٪ من أصول البلد. وبعد ذلك فى عام ١٩١١، قاد فرانسيسكو ماديرو ثورة طردت دياز، فقط ليقتل هو نفسه فى عام ١٩١٣ على يد الجنرال المتعطش للدماء ڤيكتوريانو هورتا. ولم يبد ويلسون تعاطفا مع مصالح الأعمال الأمريكية المهددة ورفض التعامل مع «حكومة الجزارين»: «**الاستيلاء على الحكم، بمثل طريقة الجنرال هورتا يهدد سلام وتنمية أمريكا أكثر من أى شيء آخر، ولذلك فإن هدف الولايات المتحدة ألا تعتمد تلك الأعمال وتعمل على القضاء عليها أينما حدثت**»(٢٧).

هكذا، أعاد ويلسون تأكيد لازمة روزفلت، لكنه اقتطع منها أى تلميح إلى ارتباط ذلك بالمصلحة الذاتية الإستراتيجية أو الاقتصادية للولايات المتحدة. وبالعكس،

تخلى ويلسون عن كل طموح فى الأراضى، وفى خطاب فى موبيل عام ١٩١٣، أعلن أنه «شىء خطر جداً أن تملى المصلحة المادية لأمة، سياستها الخارجية. إنه ليس فقط أمراً غير منصف لأولئك الذين تتعامل معهم، بل ويحط من قدر أعمالنا»[٢٨].

دعنا نتوقف برهة حتى نستوعب ذلك.

حسب ويلسون، قد كان أمراً خطرا وغير منصف وجحودا أن نتبع سياسة خارجية قائمة على المصلحة الذاتية المادية. والآن، قد نطرى حقيقة أنه رفض أن يلزم الأمة بالصراع لانتزاع سندات بعض المصرفيين من النار. ولكن ماذا كان يمكن أن يقوله چون كوينسى آدامز عن سياسة تتخلى عن حماية الملكية الأمريكية، بل تستنكر التزام الحكومة بها وتقترح بدلاً من ذلك العدل؟

إن الأحادية الأمريكية لم تكن تعنى أى شىء من هذا القبيل. ولكن هذا ما قاله ويلسون عن معناها، وحقيقة أن هذا ما قاله، جعل معناها كذلك - تذكر الخطاب فى أعلى هذا الفصل! «.. **أثق أننى أعبر عن عقل وأمل شعب أمريكا عندما أقول..**» وكان عمق إيمان ويلسون، دليلاً كافيا له على أنه يتحدث بصوت الأمة.

لقد أعطى البريطانيون لويلسون «شيكا على بياض» لعمل ما يريد فى المكسيك، ولكنهم من جانب آخر كانوا فى وضع المشدوهين.

وكتب السفير السير سيسل سپرنج رايس أن ويلسون تحدث إلى رجال الصحافة أو أعضاء الكونجرس «**طويلا، بلغة ممتازة، ولكنهم عندما تركوه قالوا بعضهم لبعض: ماذا كان يقول؟**». وحول فلسفة ويلسون، أخبر سپرنج رايس «**أنه كان لا يستشير أحدا، ولم يُعلم أحد، ما الذى سيعمله لاحقًا. إنه يعتقد أن الرب أرسله هنا لعمل شىء ما، وأن الرب يعلم ما هو. ذلك قد يكون مفرحًا للرب ولكن ليس لأعضاء الكونجرس والسفراء. إنى آسف لأنى لا أستطيع النفاذ إلى هذا اللغز**»[٢٩].

وفى عام ١٩١٤ سأل السير إدوارد تايريل المبعوث البريطانى ويلسون: «**سوف يُطلب منى شرح سياستك المكسيكية - فهل يمكن أن تقول لى ما هى؟**». أجاب ويلسون: «**سأعلم جمهوريات جنوب أمريكا انتخاب رجال جيدين**»[٣٠].

لغز حقا، لأن الوعد بجعل الثورة المكسيكية بطريقة ما تتحول إلى «اليمين» جعل من ويلسون أسيراً للأحداث. وعندما وصلت الاستخبارات فى إبريل عام ١٩١٤، عن سفينة ألمانية تجارية فى طريقها إلى المكسيك بمدافع آلية إلى هورتا، طلب ويلسون موافقة من الكونجرس لاستخدام القوة. ومثلما كتب قبل عقود: بمجرد أن وعد رئيس وعودا عاجلة معرضًا البلد لمصاعب، لا يستطيع الكونجرس التنكر له دون الإساءة للأمة. ولذلك عصف ثمانمائة من مشاة البحرية والبحارة بـ«ڤيراكروز» مخلفين ١٩ أمريكيا ومئات المكسيكيين قتلى. وحاضر ويلسون ضباط البحرية فى الأكاديمية البحرية قائلا . . . إن «فكرة أمريكا هى أن تخدم الإنسانية».(٣١) ولكن الحقيقة أن حمام الدم فى ڤيراكروز لم يخدم غرضا على الإطلاق. ولذلك، قبل ويلسون - كبديل - عرضا من الأرجنتين والبرازيل وشيلى بالوساطة فى المكسيك. وعندما فشلت تلك المحادثات، وضع آماله فى ڤينوستيانو كارانزا المتمرد المحلى الذى قاد هورتا إلى المنفى فى أغسطس عام ١٩١٤. ولكن كارانزا أثبت أنه معاد لأمريكا، وواجه - أيضا - منافسا داخليا هو پانشو ڤيلا الذى كان يستمتع بقتل اليانكيين على جانبى الحدود. واضطرت غارة نيومكسيكو فى مارس عام ١٩١٦ ويلسون لإرسال الجنرال چون چى. پيرشنج فى مطاردة عقيمة فى المكسيك. وانتهى الإخفاق التام فى النهاية فى عام ١٩١٧، عندما اعتلى ويلسون حملة صليبية أكبر اعترفت بنظام كارانزا.

ولكن ويلسون وويليام چيننجز بريان الإنجيلى - ذا الشعبية - الذى عينه وزيرا للخارجية، صنعا مخرجا ثانيا فى دپلوماسية أمريكا اللاتينية هو الذى أصبح مشهوراً أكثر فى سياق مختلف: عصبة الأمم. وجاءت المبادرة من أندرو كارانجيى(*)، الذى كتب للبيت الأبيض فى سبتمبر عام ١٩١٤:

«ليست هناك خدمة يمكن أن تقدمها الجمهوريات الأمريكية للعالم المتمدين تساوى تحقيقها الفعلى للنموذج الذى تريدهم عليه. إن إحدى وعشرين جمهورية

(*) أندرو كارانجيى (١٨٣٥-١٩١٩) مستثمر صناعى أمريكى، ولد فى إسكتلندا وكان رائد صناعة الصلب الأمريكية والذى جعل من أمريكا المنتج الأول فى العالم، وأسس بماله مكتبات ودور تعليم ومول بحوثًا. (المترجم)

ترتبط بسلام الأخوة، ستكون ذلك المثال لبقية العالم، ذلك الذى لا يمكن أن يفشل فى التأثير»[٣٢]. لذلك، أمر ويلسون بصياغة لمعاهدة Pan American، مؤسسة على «الضمان المتبادل لسلامة الحدود والاستقلال السياسى». والتحكيم فى حل المنازعات والتخلى عن الحملات العسكرية «المعادية للحكومات المؤسسة من الأحزاب المتعاقدة».

ولم توقع المعاهدة مطلقًا بسبب الفوضى المكسيكية ونزاعات الجوار اللاتينى. غير أن حقيقة أن ويلسون لم يستطع إقناع الجمهوريات الشقيقة فى جوار أمريكا لتشكيل ناد، لم يجعله يتخلى عن محاولة فرض ناد واحد على كل القوى العظمى فى العالم.

❁ ❁ ❁

توصف عادة الدبلوماسية الأمريكية خلال الحرب العالمية الأولى فى حدود صراع ويلسون لإعلان الحقوق الحيادية فى البحر، كما لو كانت تكراراً للوضع خلال الحروب النابليونية. فقد كانت هناك نظائر، مرة أخرى بريطانيا ومنافستها القارية عندئذ فرنسا، والآن ألمانيا، تحاصر كل منهما الأخرى وتعوق - باستمرار - التجارة المحايدة بطرق متعجرفة. وانكمشت تجارة الولايات المتحدة مع أوروبا التى تحتلها ألمانيا تقريبا إلى لا شيء خلال ١٨ شهراً من نشوب الحرب. وبالمقابل، فإن حصار الغواصات الألمانية لم يمنع صادرات الولايات المتحدة إلى بريطانيا وفرنسا من التضاعف أربع مرات تقريبا بحلول عام ١٩١٦ إلى ٢,٧٥ مليار دولار. ولكن أزهقت الغواصات - بالضرورة - حيوات وممتلكات، وكانوا لذلك السبب أكثر بشاعة من الحصار السطحى الذى تقوم به البحرية الملكية.

وما هو أكثر، فإن معظم نشاط الولايات المتحدة الدبلوماسى بين عامى ١٩١٤ و١٩١٧، اهتم بالحقوق الحيادية فى البحر، وكان توقيت قرار ويلسون النهائى بالقتال مبنيا - فى جانب منه - على قرار ألمانيا بإغراق - دون تحذير - كل السفن من أى جنسية متجهة لبريطانيا (حرب غواصات غير مقيدة)[٣٣].

برغم كل ذلك، فإن الضرر الذى لحق بتجارة الولايات المتحدة بدا أنه لم يهم ويلسون إلا قليلا. ولم يتمسك بالحياد لأنه كان تقليدا أمريكيا، أو بسبب أنه كان

مسالمًا (لم يكن)، أو بسبب أن الشعب الأمريكى كان يفضل ـ بالإجماع تقريبا ـ البقاء بعيدا عن الحرب. هو فعل ذلك لأنه اعتقد أن البقاء بعيداً عن المعركة كان الطريق الوحيد الذى يمكنه من بذل سلطة أخلاقية مطلوبة لإنهاء الحرب بشروط يمكن أن تصنع سلامًا دائما. وخلال أسابيع قليلة من نشوب الحرب فى أول أغسطس عام ١٩١٤، قال ويلسون لنسيبه: إن المبادئ التى يجب أن تحكم المستقبل: لا كسب لأراض يتم تحقيقه بالغزو، الحقوق المتساوية حتى للأمم الصغيرة، سيطرة الحكومة على صناعة السلاح، «جمعية للأمم فيها ستضمن كل الدول سلامة أراضى كل منها»[٣٤]. ومقارنة بهذا المطلب الرفيع، فإن خسائر الملاحين الأمريكيين المادية كانت حقا كأس جعة صغيرا.

وذلك يساعد فى تفسير لماذا كانت ردود ويلسون على انتهاكات الحقوق الحيادية غير متناسقة ظاهريًا. حتى عندما طالب الأمريكيين بأن يكونوا حياديين فى التفكير كما فى الأفعال (وصفه تقية) ترك متعمدا شركات وبنوك الولايات المتحدة تمد الحلفاء بالأسلحة وتسهيلات ائتمانية بإجمالى ٢,٣ مليار دولار خلال فترة حياد الولايات المتحدة. واحتجت الحكومة الألمانية بمرارة، وشجب الألمانى الأمريكى جورج إس. ڤيريك، ويلسون لطنطنته حول الإنسانية بينما الأرامل واليتامى الألمان ينتحبون على مقابر كتب عليها «صنعت فى أمريكا»[٣٥]. ومع هذا، فعندما أغرق زورق (يو) سفينة الركاب البريطانية لويستانيا فى مايو عام ١٩١٥ ولقى ١٢٨ أمريكيا مصرعهم، لم يزد ويلسون ـ عن إرسال احتجاج قاس، ولكن غير مؤذ إلى برلين. وقال مرشدا للأمة:

«هناك رجل يمنعه الفخر عن القتال، وهناك أمة على صواب بدرجة تجعلها لا تحتاج لإقناع الآخرين بالقوة بأنها على صواب»[٣٦].

ولعن ثيودور روزفلت ـ الذى كان يريد الحرب ـ الرئيس على «السفسطة البيزنطية» المدعومة بـ «الهراء» و «المخنثين» و«المسالمين المخرفين»[٣٧]. وحث وزير الخارجية بريان، الذى أراد حيادا حقيقيا، الرئيس، على أن يرسل احتجاجات مماثلة لبريطانيا، واستقال عندما رفض ويلسون.

وأخذ الديمقراطيون فى الكونجرس التوجه الأكثر معقولية فى المشكلة. إذا كان ويلسون لا يعتزم فرض الحقوق الحيادية، فلندعه على الأقل يمنع الأمريكيين من

الإبحار فى منطقة الحرب. وقال الرئيس: لا . . . فقد يمزق ذلك «النسيج الرقيق للقانون الدولى». [٣٨] واستند بثقل إلى الكونجرس ليمنع القرارات. وفى غضون ذلك، استمرت وزارة الخارجية فى الثرثرة حتى بعد أن أصاب الطوربيدو السفينة البريطانية «أرابيك» وعلى متنها أمريكيان، وكانت تهدف لا قتناص وعد من برلين بوقف حرب الغواصات غير المقيدة. وقد أرضى تعهد «أرابيك» ولاحقا تعهد سسكس الكونجرس وطمأن جمهور الناخبين.

وبالنسبة لويلسون كان الأمر كله سياسة. وجعل أحاسيسه الحقيقية معروفة فى فبراير عام ١٩١٦ فى خطاب ألغى الحاجة للحقوق الحيادية:

«أمريكا ينبغى أن تظل خارج هذه الحرب. إنها ينبغى أن تظل خارج هذه الحرب بالتضحية بكل شىء ما عدا ذلك الشىء الوحيد الذى تأسست عليه شخصيتها وتاريخها، إحساسها بالإنسانية والعدل. وإذا ضحت بذلك، توقفت عن أن تكون أمريكا، توقفت عن أن تحب وتتمتع بالتقاليد التى جعلتنا فخورين بأننا أمريكيون».

وعندئذ، صدى لابتهال الحب لبولس الرسول، حدد ويلسون الشجاعة الحقيقية:

«من العار أن أكون متسرعًا، بمثل ما هو من العار أن أكون جبانًا. البسالة هى احترام الذات. البسالة هى الاحتراس. ضربات البسالة تكون فقط عندما تضرب للحق. البسالة تنأى بنفسها عن الصغائر، وتتطلع إلى الفرصة العظيمة، عندما يلمع السيف كما لو كان يحمل ضوء الجنة على حده» [٣٩].

ولم يلمع السيف طالما كان لدى ويلسون السبب ليأمل فى أنه يستطيع إنهاء الحرب وتغيير العالم نحو «**دبلوماسية جديدة وصحية**» من خلال الوساطة. وفى مارس عام ١٩١٥، ومرة أخرى فى يناير عام ١٩١٦ أرسل كولونيل هاوس إلى أوروبا ليتوسط بين الأطراف فى سبيل معاهدة. غير أن اليائسين والعدوانيين الدمويين لن يكشفوا عن الأسس التى يمكنهم الاتفاق عليها. ولذلك أعد هاوس على مسئوليته مذكرة مع السير إدوارد جراى تفيد أنه عندما يعتقد الحلفاء أن الوقت قد حان، فإن الولايات المتحدة ستدعو إلى مؤتمر سلام - وإذا بدا الألمان

«غير معقولين»، ستغادر الولايات المتحدة المؤتمر «كمحارب إلى جانب الحلفاء». وأضاف ويلسون كلمة «من المحتمل» إلى العبارة الأخيرة ولكن بخلاف ذلك، علّق مقترحات السلام فى انتظار إعادة انتخابه على شعار «أبقانا خارج الحرب».

ويختلف المؤرخون حول الدور الذى لعبته السياسة الخارجية فى الحملة الانتخابية لعام ١٩١٦ . وكما نعلم فإن خطاب ويلسون أمام «عصبة فرض السلام» كانت حركة أولية وقائية خططت للاستيلاء على قضية السلام من الجمهوريين المعتدلين، مثل إليهو روت والمرشح الطارئ شارلز إيڤانز هيوز، ولتصوير جمهوريى روزڤلت كتجار حروب . غير أن خمسة فقط من اثنتين وثلاثين نشرة للحملة الديمقراطية تضمنت السياسة الخارجية، وتركزت النقاشات الأكثر سخونة على المسائل المحلية(٤٠).

مع ذلك، لم يكن لمحكات السياسة الخارجية أن تكون أكثر ارتفاعًا: ويحتاج المرء فقط لتخيل أى مسار كان سيأخذه التاريخ، إذا فاز هيوز الحساس المتزن بألفى صوت زيادة فى ولاية واحدة ـ كاليفورنيا ـ وأصبح بذلك هو الذى يترأس صنع السلام بعد الحرب (بادعاء أنه ذهب إلى الحرب).

ومتكئًا على انتصاره، أطلق ويلسون هجوما أخيرا للسلام. وكان لديه سبب للتفاؤل، منذ أن طلب المستشار الألمانى بهدوء وبسرعة مبادرة جديدة من الولايات المتحدة. (فى الحقيقة، حدد له القائد الأعلى الألمانى موعدا نهائيا لإنجاز سلام مطلوب، وإلا فإن ألمانيا ستستأنف حرب الغواصات غير المقيدة). ولكن المقاتلين جرءوا على ألا يهذبوا أهداف حربهم بما يكفى لكسب اهتمام خصومهم، ولذلك فإن خطاب ويلسون «سلام بلا نصر» فى ٢٢ من يناير عام ١٩١٧ لم يستهدف الحكومات بل «شعوب البلاد التى فى حرب حاليا».(٤١) وقال إن أى سلام يفرض على الخاسرين سيكون مبنيًا على الرمال. من هنا فإن كل المتحالفين عليهم التخلى عن طموحاتهم «باتفاق يطبق مبدأ الرئيس مونرو باعتباره مبدأ للعالم كله». (٤٢)

وما كان صداه عند ويلسون عقلا ورحمة، رآه الأوروبيون جنونًا وانحرافًا ونفاقًا. وفهمت لندن وپاريس ويلسون على أنه يعنى أن الولايات المتحدة ليست لديها نية

لقتال ألمانيا مهما كانت اعتداءاتها . أو ـ على الأحسن ـ فإن الأمريكيين قد يشاركون فى الحرب ، ولكن ضد أهداف الحلفاء من الحرب ، وكذلك أهداف ألمانيا .

وتحدث بونار لُو أمام مجلس الوزراء البريطانى وقال متنهداً : **«ما يتوق إليه السيد ويلسون، نحارب من أجله»**. ووصف المؤرخ السير چورچ تريڤيليان ويلسون بأنه **«جوهر التزمت. ويا لها من فكرة أن تشترك معه الأمم الأوروبية ـ بعد مجهوداتها الرهيبة معه ـ فى فترة ما فى المستقبل لمنع الانتهاكات الدولية بقوة السلاح، إذا كان يخاف الآن إدانة تلك الانتهاكات بمجرد الكلمات ! »**[٤٣] . .

وقال چورچ كليمنصو الذى سرعان ما أصبح رئيس الوزراء الفرنسى ، عن خطاب ويلسون : «لم يحدث من قبل أن استمعت جمعية سياسية ، بإصغاء بالغ ، لموعظة حول ماذا تقدر الكائنات الإنسانية على إنجازه إذا كانت فقط غير إنسانية»[٤٤] . ولكن النقد الأكثر مرارة لـ«السلام دون نصر» كان نقد ثيودور روزڤلت. إن اقتراح ويلسون حول التساوى الأخلاقى بين الجانبين كان **«تزويراً شريراً»**. والحديث عن صنع سلام بعد الحرب «غير ناضج» والإحالة إلى مبدإ مونرو تناقض فى المفاهيم. **«إذا عنت كلماته أى شىء، فإنها قد تعنى فى المستقبل ركوب دبلوماسية للتدخل العنيف فى كل نزاع أوروبى، وبالمقابل دعوة العالم القديم بشدة للتدخل فى كل شىء أمريكى. وبالطبع، فى حقيقة الأمر، الكلمات لا تعنى أى شىء»**. [٤٥]

والآن ، من الصعوبة أن يكون ويلسون ملومًا لمحاولة إيقاف العالم القديم عن الانتحار ، بينما يجنب الأمريكيين خنادق الحرب . ولكن الحقيقة أنه فشل فى الأمرين. فموقفه الأخلاقى المعذب والمتحول حول الحقوق الحيادية ، وغياب استخدام القوة أو التهديد ، دفعه ببطء لوضع محصور . وعندما استأنفت ألمانيا حرب الغواصات غير المقيدة فى أول فبراير عام ١٩١٧ ، كان لدى ويلسون خيار ضعيف إلا التنازل عن الحقوق الحيادية والسلام أيضا .

بعد كل ذلك ، إذا كان حقا قد عَدّ الحوادث فى البحر «اشتباكات صغيرة» ، فلماذا لم يأخذ بنصيحة حزبه لمنع الأمريكيين من الإبحار فى منطقة الحرب؟ ومن

جانب آخر، إذا هو عَدّ «نسيج القانون الدولى» على المحك، فلماذا لم يرسل البحرية الأمريكية لتفرض الاحترام للحقوق الحيادية؟ وإذا فعل الشىء الأخير، يعتقد بعض المؤرخين أنه كان سينجح فى جر الحرب إلى نهاية قريبة. (٤٦)

وحتى بعد أن قطعت الولايات المتحدة العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا، صلى ويلسون فى جثمانيته(*) بأنه لن يشرب هذا الكأس المر. غير أنه فى مارس عام ١٩١٧، اقتنص البريطانيون تلغراف زيمرمان، الذى تضمن أن ألمانيا عرضت على المكسيك حلفا عسكريا، وأن غواصات (يو) أغرقت ثلاث سفن تجارية للولايات المتحدة. وتعذب ويلسون، ووجد بعد ذلك الصيغة التى يحتاجها لتبرير الحرب. أولا، لم يصنع هو - حقيقة - الخيار لأن «الحرب كانت مقحمة علينا». ثانيا، أن الولايات المتحدة تستطيع أن تذهب إلى الحرب بضمير صاف لأنها كانت تقاتل، كما حدث فى المكسيك، ليس لمصالح مادية وإنما «**الصيانة مبادئ السلام والعدل فى حياة العالم**»(٤٧) وفوق كل ذلك، بما أن ويلسون كان قد اقتنع بأنه لن يستطيع الإتيان بسلام عادل من خلال الوساطة، لم يكن لديه خيار إلا عمل ذلك بالقتال. «**أنا أعتقد أن الرب غرس فينا رؤية الحرية... إنه لا يمكننى أن أُحرم من أن آمل أننا مختارون، مختارون بوضوح، لنُرى أمم العالم الطريقة التى يسيرون بها فى دروب الحرية**»(٤٨)

ولم يكن الشعب الأمريكى يصرخ للحرب. كانت هناك بعض الشوفينية (تذكر «ماين!») فى عام ١٩١٧. ولذلك، كان على ويلسون أن يقنعهم بالاشتراك فى حملة صليبية لإنهاء الحرب فى أوروبا - كما فعلوا فى كوبا فى عام ١٨٩٨، لجعل العالم آمنا من أجل الديمقراطية - كما حاولوا عمله فى هايتى لتكون آمنة للديمقراطية - لتعليم الألمان انتخاب رجال جيدين مثلما حاولوا مع المكسيكيين. وذلك يفسر لماذا اعتقد ويلسون أنه «**واجب مؤلم ومقلق**»، عندما ذهب إلى الكونجرس فى الثانى من إبريل:

إنه شىء مخيف أن تقود هذا الشعب العظيم المسالم إلى الحرب. حرب هى الأفظع والأكثر كارثية بين كل الحروب. حرب تضع الحضارة نفسها فى الميزان. **ولكن الحق أثمن من السلام. وسوف نقاتل من أجل الأشياء التى حملناها دائما**

(*) فى إشارة إلى جثمانية: الحديقة التى اعتقل فيها المسيح خارج القدس وطلب المسيح من الله ألا يشرب ذلك الكأس - وفقًا للأناجيل المسيحية.. (المترجم)

بقرب قلوبنا . من أجل الديمقراطية ، من أجل حق أولئك الذين يتقدمون للمسئولين مطالبين بأن يكون لهم صوت فى حكوماتهم ، من أجل حقوق وحريات الأمم الصغيرة ، من أجل هيئة عالمية للحق «كونسرت» للأمم الحرة التى ستأتى بالسلام والأمن لكل الأمم وتجعل العالم نفسه - فى النهاية - حرًا . ولمثل هذه المهمة ، يمكن أن نكرس حيواتنا وثرواتنا ، كل شيء نكونه وكل شيء نملكه ، وبكبرياء الذين يعرفون أن اليوم قد حان لأن تكون أمريكا مميزة ببذل دمها وعظمتها من أجل المبادئ التى منحتها الميلاد والسعادة ، والسلام النفيس الذى تصونه . وليساعدها الرب ، فهى لا تستطيع أن تفعل غير ذلك الواجب (٤٩) .

وكان ويلسون متحدثًا موهوبًا ، وكانت مشاعره ، بكلمات السناتور روبرت لا فوليت (جمهورى - ويسكنسون) قد «اختيرت بتميز لجذب القلوب الأمريكية» . ولكن لا فوليت وبوراه وأربعة آخرين من أعضاء مجلس الشيوخ قد فزعوا ، ليس فقط لاحتمال الحرب ، ولكن لأن الرئيس شجع لها بالأسباب الخاطئة .

وأعلن بوراه : «لا أنضم إلى حملة صليبية . . لا أطلب أو أقبل حلفًا . ولا ألزم الحكومة تجاه أى قوى خارجية . وأصنع الحرب - فقط - من أجل رجال بلدى وحقوقهم ، من أجل بلدى وشرفه» . ومدعوما بهنرى كابوت لودج (جمهورى - ماساشوستش) وروزفلت وقادة رأى آخرين ، قدم بوراه قرارا طالب من مجلس الشيوخ إعادة التأكيد على مبادئ الزمن المشرف لواشنطن وچيفرسون ومونرو (٥٠) ومات القرار ، ولكنه بمعنى ما ميز بداية جدل تاريخى حول عصبة الأمم .

***

نادرًا ما تساءل المؤرخون عما إذا كان من الواجب على الولايات المتحدة أن تذهب إلى الحرب فى عام ١٩١٧ ، ولكنهم سألوا : ماذا كانت دوافع ويلسون لذلك؟ . فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، انصبت الانتقادات على أن الولايات المتحدة أصبحت رهينة صناع السلاح ومصارف وول ستريت ، وأن تصرفات ويلسون المنحازة أعطت الولايات المتحدة ضلعًا فى انتصار الحلفاء . لقد كان النزاع السابق بلا أساس : كما نعلم رفض ويلسون السياسات المادية ، وكان يزدرى مؤسسات الأعمال الكبيرة . هذا

الرأى بدا واضحا منذ أن أصبح للولايات المتحدة أسباب أمنية قوية لتفضيل انتصار الحلفاء. وكما كتب الدپلوماسى الأمريكى لويس أينشتاين فى عام ١٩١٣ : «توازن القوى الأوروپى هو ضرورة سياسية. لأنه وحده يمكنه تأمين استمرار تطور اقتصادى فى نصف الكرة الغربى غير معوق بعبء التسلح المكثف». أى حرب أوروپية ستضر بالمصالح الأمريكية، فى اعتقاد أينشتاين، ولكن الانتصار الألمانى سيكون نكبة. واقترح بشجاعة على الولايات المتحدة «أن تمد مبدأ مونرو إلى بريطانيا» وردع ألمانيا عن إشعال حرب(٥١) . غير أن قليلاً من الأمريكيين كانوا مدركين لاعتمادهم على توازن القوى والقيادة الأنجلو أمريكية للبحار، ومهما قدر ويلسون تلك الحقيقة، فإنه لعن سياسات توازن القوى. وبدلا من القول للشعب الأمريكى بأنه كان عليهم أن يقاتلوا للدفاع عن المحيط الأطلنطى ضد ألمانيا، «استطاع ويلسون أن يحول مجهودا قوميا ناجحا إلى حملة صليبية خاسرة». (٥٢)

وكما هو دائمًا، وقف ويلسون وحيدا. لقد كان حريصا على وصف الولايات المتحدة بأنها «قوة مشاركة» وليست «قوة حليفة»، ليعنى بذلك أنه رفض الاعتراف بأهداف حرب الحلفاء كما صيغت فى معاهداتهم السرية. كذلك حتى عندما أقرضت الولايات المتحدة الحلفاء مساعدة عسكرية، كانت - ضمنيا - منافسًا سياسيًا لهم. ومن نوڤمبر عام ١٩١٧، كانت حكومة روسيا - واقعيا - منافسًا لهم. وكان ذلك عندما استولى لينين والبولشفيون على السلطة فى پتروجراد وموسكو، ونادوا العمال والجنود من كل الأمم بوقف القتال والإطاحة بحكوماتهم الإمپريالية. ومقلداً ويلسون، نادى لينين بسلام «دون إلحاقات ودون عفو!» ومقلدا لينين، أعلن ويلسون أهداف حربه فى خطاب النقاط الأربع عشرة فى يناير عام ١٩١٨، التى أضاف إليها فيما بعد ٢٤ من المبادئ والغايات والمحددات والإعلانات. لذلك، كان هناك أربعة متنافسين، وليس اثنان، يحاربون للسيطرة على مستقبل العالم عام ١٩١٨ : العسكريون الألمان، الحلفاء الديمقراطيون ولكنهم الإمپرياليون، ويلسون ببرنامجه عن العالمية الليبرالية، والشيوعيون المنادون بالثورة الاجتماعية.

وأبدى البريطانيون والفرنسيون خدمة كلامية للنقاط الأربع عشرة، لأنهم كانوا تواقين لتشجيع الجهد الحربى الأمريكى القوى. ولكن تأثير المثاليات التى اعتنقها ويلسون كان مثل سلاح حرب وليس خطة للسلام. وأسقطت الطائرات والمناطيد أكثر

من ١٠٠ ألف منشور خلف الخطوط الألمانية، واعدة بسلام ويلسونى معتدل فى محاولة لتحطيم قبضة القيصر على شعبه. ولم تحقق المنشورات شيئا فى البداية مع الألمان، الذين ارتفعت معنوياتهم فى مارس عندما وقع البولشفيون معاهدة برست ليتوڤسك، التى سحبت روسيا بعيدا عن الحرب. وكانت مصيبة هائلة للحلفاء وويلسون. فكل الآمال للإتيان بألمانيا لقبول سلام عادل بدت كما لو كان أطيح بها، بينما كشف البولشفيون عن أنفسهم كخونة. كان ذلك إذن ما جعل ويلسون مستسلما تماما لغضبه الحقيقى، وأثبت الحمية العسكرية ذاتها التى لام الآخرين عليها: «**القوة، القوة لأقصى مدى، القوة دون حد ولا قيد، القوة الحقة والمنتصرة التى ستجعل من الحق قانون العالم وتلقى بكل سلطان أنانى فى التراب**»[٥٣].

وعندما ازدروا مواعظه، رفع ويلسون السيف بحماسة ألعازر للإطاحة بكهنة بعل. وفى خطاب الرابع من يوليو فى ماونت ڤيرنون، قال: «الماضى والحاضر فى صراع مميت الآن، وشعوب العالم تُعد للموت بينهما». لن تكون هناك مساومة على الغايات التى تحارب الولايات المتحدة من أجلها، متضمنة «تدمير كل قوة هوجاء فى أى مكان.. يمكن أن تزعج سلام العالم».. «تسوية كل مسألة... على أسس القبول الحر لذلك الوضع من الشعب المعنى».. «موافقة كل الأمم على أن تُحكم فى سلوكها تجاه كل منهما بالمبادئ نفسها للشرف واحترام القانون العام للمجتمع المتمدين».. «ومنظمة للسلام تؤكد أن القوة المكونة من أمم حرة سوف تفتش عن كل اعتداء على الحق، وتزيد من تأمين السلام والعدل»[٥٤].

وبعد تراجعات الجيش الألمانى فى خريف عام ١٩١٨، «أثبتت قيمة الدعاية للنقاط الأربع عشرة فى النهاية نفسها. فانتشرت الإضرابات بين العمال والبحارة الألمان، وكون القيصر حكومة ليبرالية، وأوصل القادة المدنيون الجدد للولايات المتحدة (وليس الحلفاء) رغبتهم فى هدنة تقوم على النقاط الأربع عشرة. غير أن ويلسون احتاج موافقة الفرنسيين والبريطانيين، وعرف فى الحال أن إقناعهم بقبول خطة للسلام أصعب من إقناع الإلمان.

وفى النهاية قبل الحلفاء الهدنة فى ١١ من نوڤمبر، ولكن فقط بعد إضافة تحفظات على النقاط الأربع عشرة. وما كان الأسوأ أن مجلس الشيوخ الأمريكى والشعب قد أظهروا فعلاً أنه من الصعب كسب موافقتهم.

وحتى قبل أن تنتهى الحرب، بدأ الجمهوريون التمرد ضد دبلوماسية الذئب المنعزل لويلسون. وقال روزفلت إنه سيؤيد اقتراح تافت «عصبة فرض السلام» . . «كإضافة إلى، وليست كبديل عن، إعدادنا لقوتنا من أجل دفاعنا» . وحث أعضاء مجلس الشيوخ المماثلين على تنبيه الجمهور ضد خطر «الفريق المؤسف» من «العالميين المحترفين»(٥٥) . وكانت ضربة ويلسون الخاطفة غير المحسوبة، مناشدة الناخبين قبل انتخابات عام ١٩١٨ :

إن قادة الأقلية فى الكونجرس الحالى أصبحوا - بلا شك - مؤيدين للحرب، لكنهم أصبحوا ضد الإدارة. ولدى كل توجه - تقريبا - منذ أن دخلنا الحرب، بحثوا لأخذ خيار سياسة وسلوك الحرب بعيدا عن سيطرتى، ووضعها تحت سيطرة أدوات يختارونها . . إننى لست فى حاجة لأن أخبركم رفاقى المواطنين بأنى أطلب تأييدكم ليس من أجل مصلحتى الخاصة أو لمصلحة حزب سياسى، ولكن لمصلحة الأمة نفسها. إن وحدتها الداخلية حول الهدف ستكون شاهدا لكل العالم. (٥٦)

ونفر الناخبون، كما هو متوقع من هجوم ويلسون الضمنى على وطنية المعارضة وتأكيده على أن صنع السلام مسألة حزبية. وسيطر الجمهوريون على كل من مجلسى الكونجرس. وطبقا لذلك، حث مستشارو ويلسون الرئيس على أن يرسل فريقا أمريكيا من الحزبين إلى مؤتمر السلام فى باريس. ورفض ويلسون(٥٧) . وقد نُصح أيضا بألا يحضر المؤتمر شخصيا، بما أن الهرج والمرج والمساومات قصد بها إيذاء هيبته. ولكن ويلسون اعتقد فقط أنه يمكن أن يفوز على زعماء الحلفاء - الانفعاليين - والذين كانوا بارعين فى التنبؤ بحالة الطقس.

«أمام برلمانات أوروبية تملكها الانتقام، وبولشفية تصطاد الشرق، أحس ويلسون أن الليبرالية العسكرية المنقذ الوحيد للحضارة من الفوضى. الليبرالية يجب أن تكون أكثر ليبرالية مما كانت عليه من قبل، حتى إنها يجب أن تكون راديكالية إذا كان على الليبرالية أن تهرب من الإعصار». (٥٨)

لقد كان مستشاروه على صواب: فتأثير ويلسون كان محدودًا فى مؤتمر السلام فى باريس، ليس فقط لأنه كان واحدًا من خمسة فى المجلس الأعلى للمنتصرين. لويد

چورچ كان قادما من انتصار انتخابى رائع. وكليمنصو(*) من فوز بالثقة مثير. بينما كان حزب ويلسون قد خسر فى التصويت. والحقيقة المهمة بأن ألمانيا استسلمت، محت التأثير العسكرى للولايات المتحدة على الحلفاء. كما أن ويلسون غالى فى تقدير التأثير الناتج عن مليارات الدولارات من ديون الحرب الأنجلو فرنسية للمستثمرين الأمريكيين. وقد راهن أيضا على التعاطف البريطانى مع نظامه العالمى الجديد، فى حين أن المؤتمر أصبح مسرحًا لصراع مكتوم لكنه عنيد بين بريطانيا والولايات المتحدة حول أيهما ستصعد من الحرب بأوسع بحرية وملاحة تجارية. (٥٩) وكانت لبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان أيضا مصلحة فى احترام أهداف حرب الآخرين، التى احتقرها ويلسون. وفى النهاية، كان ويلسون مخلصًا للأمن الجماعى، فتنازل المرة تلو الأخرى للفوز بقبول القوى ميثاق عصبة الأمم. وبمجرد أن قامت عصبة الأمم ودارت، اعتقد أنها تستطيع تصحيح أى علل موجودة فى معاهدات السلام. وعلى ذلك، وضع ويلسون كل بيضه فى سلة واحدة.

وربما تكون السخرية الشديدة من الشجار حول معاهدة ڤرساى التى حوت ميثاق العصبة، أن معظم الأمريكيين وأعضاء مجلس الشيوخ لم يكونوا معادين لشروطها. قليل من الأمريكيين عارض الشروط الصعبة (نزع السلاح، منع دخول قوات عسكرية فى أرض الراين، واحتلالها، خسارة الأراضى، مصادرة الأسطول الألمانى والمستعمرات وراء البحار)، وتعويضات بلا نهاية فرضت بالإكراه على ألمانيا (ذلك مانادى به ويلسون فى النقاط الأربع عشرة). ولم يبد معظم الأمريكيين أدنى اهتمام حول مصير «فيوم» التى أقلقت إيطاليا أو الميناء الصينى «كياو-شو» الذى صادرته اليابان ولم تتخل عنه. وحتى مجلس الشيوخ كان عازما على التصديق على الضمان ضد عدوان ألمانى مستقبلى - والذى وعد به ويلسون ولويد چورچ - فرنسا - حتى بالرغم من أنه كان تورط فى حلف. فى الحقيقة، جاءت أشد الانتقادات للسلام من مثبطى الهمم من الديمقراطيين. (٦٠)

وما أزعج أعضاء مجلس الشيوخ كان ميثاق عصبة الأمم - خصوصًا الالتزام بالأمن الجماعى فى المادة العاشرة - الذى ظهر غير متوافق مع التقاليد القائمة

(*) چورچ كليمنصو (١٨٤١ - ١٩٢٩) سياسى وصحفى فرنسى. أصبح رئيسا للوزراء (١٩٠٦ - ١٩٠٩) و (١٩١٧ - ١٩٢٠). ترأس مؤتمر السلام فى پاريس الذى انتهى بمعاهدة ڤرساى. (المترجم)

لسياسة الولايات المتحدة. إنهم لم يكونوا «انعزاليين» بل قوميين وعالميين متعقلين أولئك الذين اقترحوا أن عصبة ويلسون: (أ) لن تعمل بغير القوة، وفى هذه الحالة كانت عصبة لصنع الحرب وليس السلام. (ب) كانت عقيمة، بما أنها، مثل الحلف المقدس، لمحت إلى محاولة تجميد الوضع العالمى الراهن. (ج) كانت طائشة، بما أنها ستدخل الولايات المتحدة فى صراعات فى أماكن لا تمثل خطراً على مصالحها. (د) انتهكت سلطات الكونجرس فى الحرب والهجرة والتعريفات، أو (هـ) ناقضة المعنى الحقيقى للاستثنائية والأحادية والنظام الأمريكى.

وعلى سبيل المثال، لم يرغب الجمهورى هربرت هوڤر فى المادة العاشرة لأنه اعتقد أن غرض العصبة يجب أن يكون «التسوية السلمية للخلافات بين الأمم الحرة» لكنه كان عازما على قبوله بتحفظات [٦١]. وأراد روزڤلت أيضا «مشاركة الأمم المتحضرة الأخرى فى العالم فى مشروع ما، بحيث يمكن الاستفادة منها وقت الأزمات الكبرى وتجنب الحرب». . وقد ألح فقط على أن العصبة لن تكون بديلا عن الاستعدادات العسكرية والمصلحة القومية [٦٢]. وتخوف الجمهوريان روت وهيوز من أن المادة العاشرة قد تثبت أنها «ولادة مشكلات وليست صانعة سلام». . ولكنهما ظلا ينظران إلى العصبة على أنها طريق لاستمرار التعاون فى وقت الحرب وقمع ألمانيا وتسوية المنازعات طالما أنها تكمل الروادع التقليدية. [٦٣]

لقد كان الكل عازما على اتباع قيادة ويلسون، ولكنهم أرادوا فقط معالجة شكوكهم قبل أن يُطلب منهم إقرار تقليد دپلوماسى جديد.

وكان ويلسون واعيا جدًا إلى أن لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ التى يقودها عدوه العنيد لودّج، اعتزمت أن تؤكد نفسها. لذلك، طلب الرئيس من لودج أن يحجم عن الحديث حتى تكتب مسودة الميثاق. ووافق لودج فقط ليدع ويلسون يخونه، فألقى خطابًا مثيرًا على مواطنيه فى بوسطون، ليؤيد العصبة. [٦٤]

وانتقم السناتور فى الأسبوع التالى، عندما قام وفد من الكاپيتول هيل بتعذيب ويلسون باستجوابات عن الكيفية التى ستمارس بها العصبة عملها. خرج فرانك براندجى (جمهورى - كونيكتيكت) بإحساس: «كما لو كنت مندهشا مع أليس فى بلاد العجائب وشربت الشاى مع المجنون هاتر». [٦٥] وبعد ذلك، وقع حوالى ٣٩ من أعضاء مجلس الشيوخ عريضة تعلن «إدراك مجلس الشيوخ بأنه بينما لديهم

الرغبة المخلصة فى أن أمم العالم يجب أن تتحد لتشجيع السلام ونزع السلاح العام، فإن دستور عصبة الأمم فى الشكل الذى عرض به توا على مؤتمر السلام، يجب ألا تقبله الولايات المتحدة»(٦٦).

ولدى عودته إلى باريس، حصل ويلسون على تعديلات على الميثاق تتضمن حق الانسحاب، إزالة مسائل الهجرة والتعريفات من صلب الميثاق، والاعتراف بمبدإ مونرو. لذلك عاد إلى أمريكا واثقًا بأن الميثاق المعدل الذى أودعه مجلس الشيوخ فى ١٠ من يوليو عام ١٩١٩، سيفوز بتصديق سريع، «المسرح قد نصب والمستقبل انكشف. لقد تحقق بغير خطة من تخيلنا، ولكن بيد الرب التى قادتنا إلى الطريق». وسأله الصحفيون عما إذا كان سيضيف التحفظات إلى المعاهدة، قال ويلسون «لن أقبل بشىء.. ويجب على مجلس الشيوخ أن يتناول دواءه». (٦٧)

❋❋❋

رفضت القيادة الجمهورية ملعقة الدواء. وضيع لودج الوقت بقراءة كاملة لمعاهدة فرساى فى قاعة مجلس الشيوخ، وبعد ذلك دعا ٦٠ شاهدا للشهادة أمام لجنة العلاقات الخارجية. وفى ٩ من أغسطس، حاول ويلسون أن يحرك المعاهدة بعيدا عن اللجنة بدعوة أعضاء من مجلس الشيوخ إلى البيت الأبيض. ولكن وارن چى هاروبخ (جمهورى-أوهايو) سفح دما عندما تساءل عما إذا كانت المادة العاشرة حقيقة، تجبر الولايات المتحدة على مقاومة كل اعتداء، حيث فى هذه الحالة ستكف السياسة الخارجية الأمريكية الحقة عن أن توجد، كما لو كانت العصبة خدعة. وتحرك ويلسون قائلا: «عندما أتحدث عن التزام قانونى، أعنى ذلك الذى يربطك بالتحديد لعمل شىء ما تحت عقوبات محددة.. والآن طبعًا يتفوق الالتزام الأخلاقى على الالتزام القانونى، وإذا كان لى أن أقول، فإن له قوة إلزامية أعظم. فقط يبقى دائما فى الالتزام الأخلاقى الحق فى أن تمارس الحكم الشخصى على مدى ضرورة القيام بعمل ما فى تلك الظروف». (٦٨) وبالطبع احتاج أعضاء مجلس الشيوخ إلى توضيح أدق من ذلك. ورفض ويلسون تأييد أى تعديل مهما صغر شأنه، وحاول للمرة الثانية الذهاب إلى الشعب من فوق رءوس مجلس الشيوخ. وبالرغم من أنه بالكاد تعافى من إرهاقه فى باريس، إلا أنه قام بجولة سياسية فى الغرب لمدة ثلاثة أسابيع فى ديسمبر، حتى سقط بسكتة شلته.

وخلال غيابه، ضاع هدفه. وكشف ويليام بوليت، الذى خاب أمله بمرارة من كراهية ويلسون للينين، أسراراً حول «ماذا حدث حقيقة» فى باريس، وقرأ على مجلس الشيوخ مذكرة وصف فيها وزير الخارجية روبرت لا نسنج بنفسه أجزاء من المعاهدة بأنها «سيئة على طول الخط» وأن عصبة الأمم «غير نافعة بالمرة»[٦٩] . وحتى أصدقاء ويلسون تسببوا فى ضرر غير مقصود. فعندما سأل عضو مجلس الشيوخ چيمس إيه. ريد (ديمقراطى - مونتانا) عما إذا كان الشعب الأمريكى سيحترم قرار عصبة صُنعت جزئيا من خلال «وفود من أمم ملونة . . . » أكد له جلبرت إم. هيتشكوك (ديمقراطى - نبراسكا) أن مخاوفه كانت على غير أساس لأن «العصبة ليس لها إلا قليل تفعله». وأجاب ريد بأنه إذا كان الأمر كذلك، إذن كيف سيكون هذا «الشىء غير الضار» قادرا على . . «إنقاذ العالم». [٧٠]

وانقسم مجلس الشيوخ أربع فرق. ١٦ من الرافضين للتسوية بقيادة هيرام چونسون (جمهورى - كاليفورنيا) وبوراه. وكانوا معارضين للعصبة بأى شكل كانت. وكما قال بوراه: «العرض هو أن القوة تحطم القوة والصراع يمنع الصراع والعسكرة تحطم العسكرة والحرب تمنع الحرب». كما عنت لهم العصبة القضاء على القومية الأمريكية: **«إنه من الصعب القول، إلى أى مدى سيقعد الأمريكيون ساكتين ويسمحون للدعاية الشائنة بأن تتدفق. إن لدى احتراما للبولشفيين الذين سيعولمون نظامنا من تحت، بنفس قدر احترامى للرجال المحترمين لابسى الحرير الذين سيعولمونه من فوق».** [٧١]

وكانت الفرقتان الثانية والثالثة، من «المتحفظين» المتشددين، والمعتدلين، وتعدان ٣٠ و ١٢ على التوالى. ولم يكونوا «انعزاليين». وكما اقترح روت: «إذا كان من الضرورى لأمن أوروپا الغربية أن نساند فرنسا إذا هوجمت، إذن دعنا نوافق على عمل الشىء المحدد ذاته بصراحة. . ولكن دعونا ألا نخفى ذلك الغرض بالتزام عالمى مبهم»[٧٢] . بعد كل ذلك، قدم أكثر من خمسين تحفظًا وتعديلا، ولكن روت ولودچ خفضاها إلى أربعة عشر، وأعلناها فى ١٩ من نوڤمبر:

١ - تكون الولايات المتحدة الحكم الوحيد على وفائها بالتزاماتها تجاه العصبة، وتحتفظ بحق الانسحاب منها.

٢ـ لا تلتزم الولايات المتحدة بالذهاب إلى الحرب بموجب المادة العاشرة، أو تنشر قوات دون موافقة الكونجرس.
٣ـ لا تقبل الولايات المتحدة الانتداب وراء البحار (الوصاية الاستعمارية) دون موافقة من الكونجرس.
٤ـ الولايات المتحدة هى الحكم فيما هو من شئونها المحلية.
٥ـ الولايات المتحدة لا تتسامح فى أى انتهاك لمبدإ مونرو.
٦ـ الولايات المتحدة لا تقر احتفاظ اليابان بـ «كياو ـ شو».
٧ـ يتعين تصديق الكونجرس على تعيين كل موظفى الولايات المتحدة فى العصبة.
٨ـ يتحكم الكونجرس فى القوانين المنظمة لتجارة الولايات المتحدة مع ألمانيا.
٩ـ يتحكم الكونجرس فى كل تسهيلات القروض للعصبة.
١٠ ـ لا تعوق أى مبادرة للعصبة الاستعدادات العسكرية للولايات المتحدة.
١١ ـ لا تنتهك أى قوانين للعصبة السيادة الاقتصادية للولايات المتحدة.
١٢ ـ لا تقيد معاهدة ڤرساى أى حقوق فردية لمواطنى الولايات المتحدة.
١٣ ـ ينظم الكونجرس تدخل الولايات المتحدة فى التعويضات الألمانية.
١٤ ـ لا تتقيد الولايات المتحدة بأى قرار سمح لبريطانيا ومستوطناتها بتكتيل ستة أصوات ضد صوت أمريكا.

وبوضوح، لم تصمم هذه التحفظات لتخرج أحشاء السلام الذى ابتدعه ويلسون، ولكن لتأكيد أن هذا النظام الجديد لا يخرج أحشاء سيادة ودستور الولايات المتحدة ومبدإ مونرو. لو كان ويلسون مستعدًا لابتلاع تلك التحفظات، أو حتى ابتلاع صفقة أكثر اعتدالاً قدمها بعض أعضاء مجلس الشيوخ من الديمقراطيين، لصدق مجلس الشيوخ على معاهدة ڤرساى، لكنه كان مقتنعًا بأن التحفظات ستخصى العصبة. وعلى أى حال لقد كره لودج. . «أبدا أبدا! لن أقبل أبدا تبنى أى سياسة حددها بوضوح ذلك الرجل المستحيل»[٧٣] . ولذلك كتب رسالة تحث الديمقراطيين الموالين، الفرقة الرابعة فى مجلس الشيوخ، على معارضة كل التحفظات لتخرج النتيجة بمفارقة عكسية، فمعظم الجمهوريين صوتوا لصالح العصبة (مع التحفظات)، وكل الديمقراطيين تقريبا ضدها (بالتحفظات)، وخسرت المعاهدة مع التحفظات بتسعة

وثلاثين صوتا مقابل خمسة وخمسين، وخسرت أيضًا المعاهدة بدون التحفظات، حيث حصلت على ثمانية وثلاثين صوتا مقابل ثلاثة وخمسين.

وأراد الكل - تقريبا - حلا وسطا، ولكن زوجة ويلسون سمحت بعدد قليل من الزوار ولم تسمح بوصول الأخبار السيئة إلى الرئيس المعتل. ومع ازدياء ذبول ويلسون، وتمكن الضعف منه، ناشد الجمهور للمرة الثالثة على أساس حزبى. وكتب رسالة لتقرأ أمام عشاء الديمقراطيين فى يوم چاكسون فى ٨ من يناير عام ١٩٢٠، وحث فيها الحزب على تحدى كل المعارضين للتسوية والمتحفظين للصمود فى إعادة الانتخاب لأن حملة سنة ١٩٢٠ يمكن أن تكون استفتاءً شعبيا على العصبة.

ومرة أخرى، ارتدت المكيدة. فالجمهوريون يستطيعون فقط الرد على هذه الدهماوية الظاهرة بالاصطفاف خلف قيادتهم. ومع هذا، ظل حوالى ٨٠٪ من مجلس الشيوخ وأغلبية واضحة من الشعب الأمريكى، مُعدة لقبول العصبة بشكل ما. لذلك أتى لودچ بالمعاهدة للتصويت مرة أخرى فى مارس عام ١٩٢٠. وظل ويلسون يطلب كل شيء أو لا شيء، فانضم ثلاثة وعشرون من الديمقراطيين الموالين إلى اثنى عشر من رافضى التسوية لترفض المعاهدة بأغلبية الثلثين. وفى تلك اللحظة، لاحظ تافت أن «عظمة ويلسون تتلاشى كما كان مقدراً. إنه سيعيش فى التاريخ كرجل ذى فرص عظيمة لم تُقتنص، بل أهدرت بشخصيته الأنوية والأنانية والمغرورة والعنيدة». (٧٤)

وخلال أيامه الأخيرة فى الرئاسة، صرخ الرجل المهيض بنفسه فى أحد ضيوفه، قائلا: «ما الذى كان يجب علىّ عمله أكثر؟ كان على أن أفاوض وظهرى للحائط. الناس كانوا يعتقدون أن لدى القوة، فهل بربك كانت لدى مثل تلك القوة؟!» (٧٥) وقص لودچ جانبه فى القصة فى عام ١٩٢٥، العام التالى لوفاة ويلسون: «كان السيد ويلسون فى تعامله مع أى مسألة عظيمة، يفكر فى نفسه أولا. ربما يكون قد فكر فى البلد لاحقا، ولكن كانت هناك فسحة طويلة.. إن الرغبة فى القوة قد التهمت السيد ويلسون». (٧٦)

***

سواء كانت أو لم تكن الويلسونية رسالة احتاج العالم إلى سماعها بعد الحرب العالمية الأولى، فإن وودرو ويلسون كان بالتأكيد الرسول الخطأ، ليس بسبب أنه كان شديد التدين، ولكن بسبب أن دينه كان شخصانيا تظاهريًا وغنوصيا جدًا(*) .

وقد أصاب السناتور لورنس. واى. شيرمان (جمهورى - ألينوى) كبد الحقيقة عندما سمى ميثاق العصبة «وثيقة ثورية» ألهمها حلم مستحيل عن «عالم بلا خطيئة»[٧٧] . وظل ويلسون دون أن يساوره أدنى شك أبدا فى أن فكرته ستنتصر: «إننى أفضل أن أفشل فى مسار سوف ينتصر فى النهاية عن أن انتصر فى مسار سوف يفشل فى النهاية»[٧٨] .

وسوف يقول بعض المؤرخين إن فكرته ثبتت منذ شكلت ليبراليته العالمية السياسات الخارجية لكل إدارة من بعده. فى عام ١٩٢٠، أقر البرنامج الجمهورى «اتفاقا بين الأمم لحفظ السلام العالمى (لكن) ليس على حساب الاستقلال القومى». وأيد هاردنج المرشح للرئاسة «عصبة أمم» مبدئيًا، بينما أقر هوڤر وهيوز وروت وهنرى إل ستمسون و٢٧ جمهوريا بارزا آخرين العصبة دون المادة العاشرة[٧٩] . وبمجرد أن تولى هاردنج المنصب ترك مسألة العصبة تموت، ولكن سياسته الخارجية التى صممها وزير الخارجية هيوز كانت ليبرالية وتدخلية بعدوانية. وفى مؤتمر واشنطن البحرى ١٩٢١ - ١٩٢٢، دفع هيوز باتجاه خفض التسلح الأكثر صرامة فى التاريخ، وتملق اليابان فى الاحتفاظ بكياو - شو، وكسب كل الأطراف نحو سياسة الباب المفتوح فى الصين، حل التحالف الأنجلو يابانى وأحل محله نظاما أمنيا متعدد الأطراف فى آسيا. وفى مؤتمر لندن عام ١٩٢٤، مولت الولايات المتحدة استقرار وتعافى الاقتصاد الألمانى، موفرة البيئة لتقارب فرنسى ألمانى ولمواثيق أمن جماعى وقعت فى لوكارنو. وفى عام ١٩٢٧ شاركت إدارة كوليدج فى رعاية ميثاق كيلوج - برياند الذى بموجبه اتفقت كل الأمم على تجريم الحرب كأداة للسياسة. وستشارك الولايات المتحدة فى المحكمة الدولية فى لاهاى، إذا قبلت المحكمة تحفظات مجلس الشيوخ المتوقعة.[٨٠]

وبالتأكيد، فإن الكونجرس الجمهورى فى عشرينيات القرن العشرين، انتهك - بطريقتين - الرؤية الليبرالية عن عالم مفتوح: لقد رفضوا بازدراء التجارة الحرة

(*) الغنوصية: مذهب عرفانى، جوهره أن المادة شر، وبأن الخلاص يأتى من طريق المعرفة الروحية. (المترجم)

لمصلحة تعريفات حمائية عالية فى ١٩٢١، كما أنهم قيدوا الهجرة قطعيا فى عام ١٩٢٤. وما هو أكثر أن نظم هيوز الليبرالية الجديدة فى آسيا تهشمت خلال الكساد العظيم. غير أنه بعد پيرل هاربر، أحيا فرانكلين د. روزفلت نقاط ويلسون الأربع عشرة ووسع نطاقها، وفاز ـ أولا فى انتخابات عام ١٩٤٤، وبعدئذ فاز بتصويت مجلس الشيوخ على الأمم المتحدة ـ فى جعل الويلسونية، إلى الوقت الراهن التقليد السادس المسيطر على دپلوماسية الولايات المتحدة.

وطبعا، فإن أحلامه من أجل نظام عالمى جديد، انتهت أمام مخاطر سياسات القوة، وهددت آسيا وأوروپا بأن تخرج عن نطاق السيطرة فى نهاية الأربعينيات.

وعندئذ، وخلال الحرب الباردة التى أعقبت ذلك، خصوصًا فى عقدها الأخير، استيقظ الأمريكيون على حقيقة أن المبادئ التى حفرها ويلسون على جبين الأمة، لها قوة هائلة، برغم كل شىء. فالتشيك والپولنديون والبلطيقيون والألمان الشرقيون والأوكرانيون والروس أنفسهم، هبوا من أجل الحرية والكرامة والديمقراطية والانفتاح والسلام، وأسقطوا الإمبراطورية الشمولية. وكمخطط لنظام عالمى، كانت الويلسونية دائما «كميرا»(*) ولكن كسلاح أيديولوچى ضد «تحكم القوة فى أى مكان»، فقد أثبتت قوة حقًا. وذلك فى النهاية كيف أن ويلسون ـ فى الحقيقة ـ قلد المسيح. إنه لم يأت بسلام ولكن بسيف.(٨١)

(*) كائن خرافى يرمز للوهم. (المترجم)

الفصل السابع

الاحتـــــواء

نحن الآن فى غمار حرب ليس بغرض العدوان أو الانتقام، بل لكى نجعل ذلك العالم الذى تعيش فيه هذه الأمة وكل ما تمثله هذه الأمة، مكانا آمنا لأبنائنا . . وسنفوز بهذه الحرب وبالسلام المقبل فى أعقابها . .

بهذه الكلمات وعد الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت(*) مواطنيه فى ٨ من ديسمبر عام ١٩٤١، لكن كلمات السناتور آرثر ڤاندنبرج (جمهورى ـ ميتشجان) عضو مجلس الشيوخ كانت كاشفة بدرجة أكبر ـ وكان قد نصب من نفسه متحدثا باسم جناح الداعين إلى الحياد ـ فقال :

إن مفاهيمى الخاصة المتعلقة بالتعاون الدولى والأمن الجماعى من أجل السلام ترسخت عصر يوم الهجوم على پيرل هاربور . وفى هذا اليوم انتهى مبدأ الانعزالية بالنسبة إلى أى شخص واقعى . (١)

ويصوغ استعداد ڤاندنبرج لدمغ مفاهيمه السابقة بوصف الانعزالية (الجدلى) الجنوح الأمريكى تجاه الانخراط فى الشئون الدولية . وهو ما اصطبغت السياسة الأمريكية به طيلة الأعوام الخمسين التالية (٤١ ـ ١٩٩١) أى قرابةربع عمر هذه الأمة .

ولكن ما الذى أقنع الكونجرس والشعب بتغيير تفسيرهم للتقاليد الأمريكية الراسخة، وبهذه الصورة الجذرية؟ ما الذى دفعهم إلى الاقتناع بأن قيام مؤسسة عسكرية ضخمة وتحالفات دائمة فى أوروپا وآسيا بات أمرا واقعيا الآن برغم كل الأعباء المرتبطة بقيادة العالم الحر؟

ولعل جزءا من إجابة هذا التساؤل تكمن فى أن مبدأ العولمة الذى تبنوه، لم

(*) فرانكلين ديلانو روزفلت (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥) الرئيس الأمريكى الثانى والثلاثون للولايات المتحدة فى الفترة ١٩٣٣ ـ ١٩٤٥ (ديمقراطى)، وهو الرئيس الوحيد لثلاث دورات . (المترجم)

يتناقض مع التقاليد الستة الأولى للسياسة الخارجية الأمريكية بالدرجة التى اعتدنا نحن المعلمون تدريسها لطلبتنا .

والفصل التالى يشكل محاولة ـ ضمن أشياء أخرى ـ جعلت تلك الفرضية التى تصدم المرء أمرا معقولا . .

لقد أعلن وودرو ولسون فى خطاب تنصيبه لفترة رئاسية ثانية :

لم نعد شعبا يهتم بأموره المحلية فقط[٢] . بيد أن مشروعه الخاص لقيام سلام دائم كان محليا بصورة جوهرية ، حيث افترض فيه القفز فوق جميع صور صراعات المصالح والقيم ومختلف الخبرات التاريخية لكل أمة على ظهر الأرض .

أما هؤلاء الجادون من أمثال لودج وروت وهيوز ، فقد وضعوا هذه الحقائق كنقطة انطلاق لتحديد صورة دور أمريكى حذر فى العالم . وعلى النقيض من ذلك فإن الحلم الألفى الذى راود ويلسون لم يكن ليحول العالم إلى دپلوماسية جديدة لأنه اعتمد على عالم كان قد تغير بالفعل . ورغم ذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية دخلت الحرب العالمية الثانية فى ظل العلم نفسه الذى رفعه ويلسون على أمل أن يؤدى اندحار الفاشية إلى انبلاج نظام عالمى جديد . وعندما تحقق هذا ، حادت حفنة من الأمريكيين عنه بدافع التعجب من كيفية تطبيق دروس ميونيخ وپيرل هاربور بطريقة مختلفة عن نهج ويلسون ، وباحثة عن سبيل لكى يتوقفوا عن الظهور بمظهر المحليين .

وخلال الفترة من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٠ وجد هؤلاء ضالتهم فى إستراتيچية واجهت التهديد الشيوعى دون اندلاع حرب عالمية ، ووعدت بتحقيق ما عجزت الأمم المتحدة عن إنجازه . وكانت تلك الإستراتيچية هى الاحتواء ، وحظيت بالفعل بتأييد فورى من الحزبين الأمريكيين (الديمقراطى والجمهورى) ولتصبح من ثم التقليد السابع للعلاقات الخارجية الأمريكية .

إننا نربط سياسة «الاحتواء» بچورچ ف . كينان ، الذى كشف للأمريكيين فيما يعرف «بالبرقية المطولة» وفى مقاله بعنوان «سرى» عما يجعل السوڤييت يتصرفون بهذه الطريقة ودعا إلى احتوائهم . غير أن كينان نفسه سرعان ما ندم على تصاعد ما وصفه وولتر ليپمان باسم (الحرب الباردة) . وعلى أى الأحوال فإن إعادة الصياغة هذه لدور أمريكا فى العالم لم يكن ليصدر من العدم ، من رأس شخص واحد بمفرده ،

ولكن على الأحرى، فإن بذور إستراتيجية الاحتواء تلك نشرت فى العقد الذى استشعر الأمريكيون خلاله أن أرسخ معتقداتهم بشأن طبيعة بلادهم والعالم من حولهم قد تبخرت بسرعة بصورة لا يمكن تصديقها. . إنه عقد «الكساد الكبير».

❊ ❊ ❊

إن عقد الثلاثينيات كان أول فترة طويلة للانكماش الاقتصادى فى تاريخ الولايات المتحدة، وكان أول مرة لا يمثل فيها انفتاح الحدود أو الانفتاح على العالم صماما للأمان بالنسبة لها. وكان الساحل الغربى قد تم استيطانه بالفعل، أما منطقة السهول العظمى فقد تحولت إلى سهل هائل من التراب.

لقد أدى انهيار الاعتمادات والإسراع تجاه فرض سياسة وقائية إلى خنق التجارة العالمية، وتبخرت المدخرات ليس فقط بالنسبة للحالات الحرجة فحسب (الزنوج والمهاجرون الجدد)، بل حتى بالنسبة للمزارعين وعمال المصانع والتجار وأصحاب المحال التجارية. وأصبح جميع هؤلاء يائسين من الحصول على أى فرصة، وكان من نتائج ذلك تولد الحنين إلى القيم القديمة والعودة إلى أمريكا التى تشكلت من مدن صغيرة محصنة ضد المشكلات الاقتصادية والتطرف السياسى. لكن تلك العقيدة المدنية القديمة المتمثلة فى الديمقراطية والاستثمار بدت الآن عقيمة، ودفعت المفكرين للتفكير فى الشيوعية والفاشية على طريقة موسولينى. أما العامة فقد أخذوا يستمعون إلى كلام الدهماء.

ولأول مرة تقلص دور التقاليد الراسخة فى تحديد السياسة العامة، وتسببت حالة الكساد فى السخرية من الفرض البيوريتانى المتمسك بالأخلاق والفضيلة، والقائل بأن الإخفاق فى الحياة هو جزاء الخطيئة، وذلك عندما بدأ الأزواج الأتقياء الذين يعملون بجد فى فقدان الأمل. وعلاوة على ذلك، فإن الصراع بين المنادين بالتحديث والأصوليين والايڤانجيليين قد سبب صدوعا فى صفوف الأغلبية البروتستانتية، بينما رقى روزڤلت من شأن الكاثوليك واليهود لأول مرة ليتقلدوا مناصب عليا[٣] . وذلك بالرغم من أن الأغلبية البروتستانتية ظلت منذ عام ١٨٩٨ تتحدث بصوت واحد فيما يخص معظم القضايا. وبحلول الثلاثينيات تداخلت الأصوات الدينية، وزاد أحد فروع المنهجيين من تعهداته الدينية بالقول: «**أضحى بحياتى من أجل المسيح وأنبذ النظام الرأسمالى**».

وخلط الأب الواعظ الإذاعى كوبلن بين الإشادة بالفاشية والسخرية من الرأسماليين المتعاملين فى بورصة وول ستريت. واتحد الكاثوليك والليبراليون واليهود فى معارضة جماعة «كوكلوكس كلان»(*). ولا يعنى هذا أن الدين فقد تأثيره على السياسة، ولكن الكنائس بدأت تميل إلى تتبع الاتجاهات بدلاً من الحض عليها، وكانت جماعة «الصفقة الجديدة» هى التعبير عن أول حركة إصلاحية علمانية بالكامل فى التاريخ الأمريكى.

وكان الخطاب السياسى الخارجى الذى ينادى بالعودة إلى القيم القديمة هو الذى يحتضن الحياد على المستوى العالمى، وكان الحضريون من سكان المدن وكذلك سكان المدن الصغيرة يشعرون بأنهم قد خدعوا بعد نشوب الحرب العظمى التى كان يبدو أنها لن تفيد سوى الاستعمار البريطانى الفرنسى والمتربحين من الحرب. وتساءل أنصار مبدإ التعديلية عن ذنب ألمانيا فى إثارة الحرب، وطوروا نظرية تقول إن المصرفيين الأمريكيين و(تجار الموت) دفعوا ويلسون إلى التدخل(٤).

وفشلت جلسات الاستماع لعضو مجلس الشيوخ السناتور جيرا لد ناى - التى ذاع صيتها - فى إثبات نظرية المؤامرة، لكنها ساهمت فى التحريض على ظهور «قوانين الحياد» ما بين عامى ١٩٣٥ و١٩٣٧ والتى كانت تهدف إلى ضمان عدم إقدام الولايات المتحدة مرة أخرى على توريد السلاح والمال للدول المتحاربة أو أن ترسل قطعها البحرية فى مهام تعرضها للخطر.

وقد أوضح السناتور بوراه ذلك بتفاخر بقوله (٥) : «فى قضايا التجارة بجميع صورها لم نكن انعزاليين أبدا، ولسوء الحظ أننا فى قضايا المال لم نكن كذلك ولن نكون أبدا. فعندما يقع زلزال أو مجاعة أو أى كارثة تسبب معاناة إنسانية تصيب أى جماعة بشرية تجد أننا لم نكن انعزاليين ولن نكون كذلك أبدا. إلا أنه فيما يختص بجميع القضايا السياسية والالتزامات من أى شكل والتى قد تجور على تصرفات شعبنا الحر أو تفرض حكمها على حكمتنا وحكمنا، فقد كنا أحرارا ومستقلين، كنا انعزاليين».

من هم إذن أولئك الانعزاليون الذين سيتعرضون للانتقاد الدولى؟

على عكس ما تقول القصة الخرافية، فإن هؤلاء لم يتركزوا فى الغرب الأوسط

(*) جماعة بيضاء عنصرية، مازال لها وضعها القانونى، وتمارس نشاطها حتى الآن (نوفمبر ١٩٩٩).

أو فى الحزب الجمهورى، وإنما انتموا إلى كل حدب وصوب، وكانت هناك أقلية تؤيد الفاشية، لكن الأغلبية كانوا من الوطنيين المخلصين والأحاديين. (٦)

وكان من بين هؤلاء محافظون من أمثال هربرت هوڤر واشتراكيون مثل نورمان توماس، إضافة إلى بعض الشيوعيين الذين يحملون بطاقات الحزب الشيوعى بعد ظهور التحالف النازى السوڤييتى. لكن العدد الأكبر كان من بين صفوف الدوائر التجارية والعمالية والجامعات ودعاة السلام والتنظيمات النسائية، واتفق هؤلاء جميعا على ثلاث نقاط رئيسية:

ـ لا توجد دولة عبر المحيط تمثل خطراً إلا إذا تدخلت أمريكا فى شئونها.
ـ الحرب ليست وسيلة لإصلاح العالم.
ـ اندلاع حرب عظمى جديدة من شأنه تدمير الحريات التى يتمتع بها الأمريكيون داخل الوطن.

وقد خشى الحياديون اليمينيون من أن يؤدى نشوب حرب للحفاظ على الديمقراطية أو غيرها إلى تدمير أكيد للديمقراطية فى الولايات المتحدة (٧)، بينما حذر الحياديون اليساريون من أن الاحتمال الأكثر وقوعا هو أن تتحول الولايات المتحدة إلى قوة فاشية من خلال التنظيم بهدف إيقاع هزيمة بالدول الفاشية. (٨)

وعبر رسم كاريكاتيرى عن هذه الفكرة أصدق تعبير. وكان يصور العم سام متمثلا فى شخصية روزڤلت وهو يختلس النظر داخل خزانة تخفى بها سيفا كتب عليه ١٩١٧ وشعار حرب لإنهاء حرب، وزى عسكرى كتب عليه مخلص العالم الأكبر، وتصيح زوجته من الغرفة المجاورة قائلة «صامويل لن تذهب إلى اجتماع آخر للمحفل الماسونى». (٩)

وأدرك روزڤلت أن شعبه يعيش فى الأعراف (والتى لا يمكن تسميتها بالجنة)، وفى حملة عام ١٩٣٢ قال:

«إن عصبة الأمم اتخذت مواقف تتعارض مع المثل الأمريكية الأساسية». وأعلن فى عام ١٩٣٦: «لسنا انعزاليين إلا عندما نسعى لعزل أنفسنا عن الحرب تماما». (١٠) وفى أعقاب اندلاع الحرب الأوروبية عام ١٩٣٩، ضغط روزڤلت على الكونجرس لتعديل أو إلغاء قوانين الحياد وفرض عقوبات اقتصادية على اليابان واتخذ إجراءات تنفيذية لمساعدة الحلفاء فى الحرب. وبالرغم من أنه كان مراوغًا، فإنه كان أكثر أمانة

من ويلسون، عندما قال في إحدى خطب إذاعته التي اشتهر بإلقائها بجوار المدفأة عندما كان يتحدث عن ترسانة الديمقراطية:

«لم يحدث من قبل منذ چيمس تاون وپلايموث روك أن تعرضت الحضارة الأمريكية لخطر مثل ما نتعرض له الآن.. فإذا سقطت بريطانيا العظمى فإن قوى المحور سوف تسيطر على أوروپا وآسيا وإفريقيا وأستراليا وأعالي البحار.. وسوف يتمكنون من توجيه موارد عسكرية وبحرية هائلة ضد هذا الجزء من العالم الذى نعيش فيه، وليس من قبيل المبالغة القول بأننا جميعا (كل الأمريكيين) سوف نعيش تحت تهديد السلاح».[11]

وتلاعب الشك برءوس الحياديين. وفي سبتمبر عام ١٩٣٩ شنوا حملة تعبئة ضد الحرب مما تسبب في إغلاق سوق «واشنطن مول» الكبيير عدة أيام. وصرخ تشارلز ليندبرج [12] قائلا: «إننى أفضل أن أرى بلدى تتاجر في الأفيون بدلا من القنابل».

وفي غضون عام نجحت لجنة «أمريكا أولا» برئاسته في استقطاب ٢٥٠ ألف عضو يؤمنون بأن «أمن الأمة يكمن في قوة وشخصية شعبها، وأن ذلك ليس سياسة انعزالية وإنما استقلالية، وإنها ليست انهزامية بل شجاعة». [13]

وهكذا توقع أعضاء مسيرة ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ الاحتجاجات التي ستشهدها البلاد في الستينيات ضد الحرب والتسلح وإساءة استغلال الرئيس للسلطة والتلويح بالتهديدات واستغلال نظرية الدومينو إذا سقطت بريطانيا، لإغراق الأمة في نزاعات بعيدة عن أراضيها.

والحقيقة أن پيرل هاربور لم تكن لتكون صدمة، لو كان الانعزاليون حمقى ومتعصبين. ولكنهم أيدوا ما هو أخلاقي ومنطقي وأمريكي، حتى إن شكهم ترك صدعا في الروح الأمريكية. لقد سرق اليابانيون المكروهون غالبية الحريات الأساسية، ومنها حرية الاختيار بين الحرب والسلام. فما هو النجم الهادى الذى سيتبعه الأمريكيون في خضم الحرب والسلام؟

❊❊❊

يجيب هذا السؤال عن نفسه. فمن الناحية النظرية كان بوسع الولايات المتحدة أن تشن حربين عبر المحيط، إما رغبة في الانتقام أو انطلاقا من روح الإمپريالية التقدمية.

ولكن أيا منهما لم يجذب الحلفاء أو ضحايا العدوان ، أو قدم للأمريكيين أي أمل في استعادة حريتهم في الاختيار بين الحرب والسلم مستقبلا . ومن ثم عادت الأمة مجدداً إلى الخيمة التي نصبها ويلسون ، وبحماسة الخطائين النادمين .

بدا هذا الاتجاه في عام ١٩٤١ ، عندما شكلت «لجنة دراسة منظمة السلام» ٣٠٠ جماعة بحثية ، وحشد چون فوستر دالاس ـ العضو المؤسس ـ الجماعات الدينية لرفض المفهوم البائد الخاص بالسيادة الوطنية . وطلبت افتتاحية مجلة «لايف» التي كتبها هنري لوس تحت عنوان «القرن الأمريكي» من الأمريكيين الاضطلاع بقيادة العالم، وهو ما عزفوا عنه عام ١٩١٩ . ورحب هنري . إيه . والاس نائب الرئيس بهذه الفرصة الثانية السانحة لجعل العالم مكانا آمنا للديمقراطية . (١٤)

أما روزفلت فبقي على حرصه . وأقصى ما سلم به لونستون تشرشل في «الميثاق الأطلنطي» في أغسطس عام ١٩٤١ ، كان نداء لنزع سلاح المعتدين بهدف «قيام نظام دائم أوسع بالنسبة للأمن العام»(١٥) . ولكن في أعقاب واقعة بيرل هاربور ، أصبح السعي من أجل قيام عصبة أمم جديدة أكثر قوة ، أمرا لا يمكن مقاومة إغرائه . وفي الثاني من يناير عام ١٩٤٢ وافق مندوبو ٢٦ دولة (وصفهم روزفلت بالأمم المتحدة) على قتال دول المحور إلى أن يتحقق النصر النهائي باسم الحياة والحرية والاستقلال والحرية الدينية والعدل . وقبل هذا التاريخ بأيام قلائل ، صدق الرئيس على توصية لجنة استشارية خاصة شكلت لبحث السياسة الخارجية الأمريكية فيما بعد الحرب . وكرس وزير الخارجية كورديل هال ـ التواق للويلسونية ـ جهده لوضع أسس منظمة الأمم المتحدة . وفي عام ١٩٤٣ شكلت مجموعة من أقطاب الأعمال والنشر مجلسا أهليا وأطلقوا عليه اسم «مجلس المواطنين من أجل الأمم المتحدة» ، وتصدر المجلس توماس لامونت (بنك جي بي مورجان) وچيمس رستون (نيويورك تايمز) ، وساعد الجمهوري وندل ويلكي في تأسيس رابطة للأمم المتحدة ، وقال : «إنني أكرس حياتي لاستنهاض الشعب الأمريكي ليمنع مجلس الشيوخ من عرقلة اضطلاع الولايات المتحدة بقيادة العالم» . (١٦)

ونجح أنصار هذا الاتجاه بسرعة ملحوظة وكاملة للدرجة التي تدفع المرء للاعتقاد بأنهم كانوا وراء الرأي العام ولم يقودوه هم . وبحلول مايو عام ١٩٤٣ ، أظهر

استطلاع للرأى أجراه معهد جالوب أن ٧٤٪ من الأمريكيين باتوا يؤيدون تشكيل قوة شرطة دولية بعد الحرب. وتحمس «كابيتول هيل»(*) لذلك للدرجة التى دفعت توم كونولى (ديمقراطى - تكساس) رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ إلى القول: «اللعنة، كلهم يهرولون كمن أصيب بداء فى بطنه من أجل صياغة قرارات ما بعد الحرب». (١٧) أما المتشددون من أمثال بيرتون ك. ويللر (ديمقراطى - مونتانا) فشجب «محدودى الأفق ذوى النزعة الدولية الذين يسعون لحل جميع مشكلات العالم، مرددين عبارة. لتذهب الولايات المتحدة إلى الجحيم».

لكن السناتور جوزيف بال (ديمقراطى - مينسوتا)، ذكر فى مؤتمر بكاتدرائية سان جون أن التوجه الراهن لقيام منظمة عالمية «يمثل أضخم حملة صليبية منذ أن بعث السيد المسيح بحوارييه الاثنى عشر لتعليم الأخوة الإنسانية».(١٨)

وفى نوفمبر عام ١٩٤٣ صدق مجلس الشيوخ على قيام منظمة أمنية عالمية، بأغلبية ساحقة بلغت ٨٥ صوتا مقابل خمسة أصوات فقط. ولا يعنى هذا أن جميع المفكرين كانوا فى قارب واحد. فالمؤرخان تشارلز بيرد وكارل بيكر وعالما الجغرافيا السياسية نيكولاس سپيكمان وروبرت شتراوس هوپيه وعالم اللاهوت المتشدد رينهولد نيبهور رفضوا جميعا فكرة أن عدم دخول الولايات المتحدة إلى عصبة الأمم تتسبب بشكل أو آخر فى إشعال الحرب العالمية الثانية، واعتقدوا أن أنصار مبادئ ويلسون الجدد تعلموا خطأ دروسا من فترة ما بين الحربين. وتهكم بيكر على فكرة مؤداها أن الأمم مستعدة للتنازل عن سيادتها، وتوقع أن تصبح النزعة القومية أكثر قوة من أى وقت مضى بعد هذه الحرب. وأصر الإستراتيجيون على أن القوة والجغرافيا - أبعد ما يكون عن السمو الإنسانى - لابد أن يشكلا أساسا لنظام دولى قابل للاستمرار بوصفهما عاملين لا يمكن تجاوزهما.

وأنكر نيبهور فكرة أن الطبيعة البشرية قابلة للتطويع أو أن السلام الكامل أمر ممكن التحقيق. ورأى ليبمان أن الاعتقاد بأن قيام منظمة دولية سيحقق العدل والسلام، يشكل تكرارا لخط ويلسون «بتناسى أننا بشر والاعتقاد بأننا آلهة» (١٩)

(*) المقصود به الكونجرس.

ولكن إذا كانت پيرل هاربور قد جعلت ـ على الفور ـ الأمريكيين أصحاب نزعة دولية ، فإنها لم تجعلهم مستعدين لقبول المشاركة «فى شئون العالم القديم ، وبشروط هذا العالم» ـ وهو ما يبدو أن المشككين سالفى الذكر قد أرادوه بالفعل ، وبدلا من ذلك انهمرت دموع الأمريكيين عند قراءة فيضان من الكتب ومشاهدة أفلام هوليوود التى صورت ويلسون قديسا وافته المنية شهيدا . . واستغل الديمقراطيون هذه النزعة لكسب الأنصار من بين صفوف دعاة الانعزالية .

وفى مؤتمر الحزب عام ١٩٤٤ الذى عُدّ مهرجانا «للقديس وودرو» ، قال روبرت كير حاكم أو كلاهوما فى كلمة المؤتمر الرئيسية : «إن قوى الانعزالية صلبت وودرو ويلسون صاحب القلب الشجاع ، وهذه القوى ذاتها تقاتل الآن وبنفس الحماسة والتعصب لإنزال نفس المصير بروزفلت ، ولكنهم إن كانوا قد نجحوا وقتها فسيفشلون الآن»[٢٠]

وأحجم المرشح الجمهورى توماس ديوى عن بحث السياسة الخارجية وقت الحرب ، وأيدت حملته الانتخابية «المشاركة المسئولة للولايات المتحدة فى منظمة تعاونية فى عهد ما بعد الحرب ، بهدف تحقيق السلام والعدالة المنظمة فى العالم الحر» . بيد أن الديمقراطيين ترجموا فوز فرانكلين روزفلت بأنه التفويض الذى حرم ويلسون منه فى انتخابات عام ١٩١٨[٢١] .

ولعل الأهم من قضية الانتخابات فى حد ذاتها هو التحول الذى طرأ على ڤاندنبرج ، فقد كان رزوڤلت حريصا أيما حرص على تفادى أخطاء ويلسون للدرجة التى دفعته للتأكد من التشاور مع هذا الانعزالى السابق خلال مؤتمر دومبارتون أوكس الذى تم خلاله الإعداد لقيام الأمم المتحدة ، وأوفد ڤاندنبرج إلى مؤتمر سان فرانسيسكو الذى أسس المنظمة ، وطمأن روزڤلت الانعزالى القديم إلى أن ميثاق الأمم المتحدة لن يلغى مبدأ مونرو أو يمنع الولايات المتحدة من «السيطرة الكاملة على أغلب قواعد المحيط الهادى التى تم الاستيلاء عليها من اليابانيين»[٢٢] .

وبالرغم من ذلك كله كان تأييد ڤاندنبرج مشروطا ، كما أوضحه فى كلمة إلى مجلس الشيوخ [٢٣] فى ١٠ من يناير عام ١٩٤٥ . وعادة ما يتم الاقتباس من هذه الكلمة لكن نادرا ما تحظى بالقراءة الواجبة . وجاء فيها :

«لقد كنت بصراحة وعلى الدوام من بين أولئك المؤمنين بضرورة اعتمادنا على الذات، وما زلت أعتقد أنه بوسعنا ألا نسمح ثانيًا بانهيار دفاعنا الوطنى إلى نقطة العجز (بغض النظر عن صور التعاون)، ولكننى لا أعتقد أن أى أمة - من الآن فصاعداً - بوسعها أن تحصن نفسها بعمل فردى بحت. . ومنذ پيرل هاربور وضعت الحرب العالمية الثانية العلم الدموى للقتل الجماعى فى منظور جديد شرير. . إن ما أريده هو أقصى قدر ممكن من التعاون الأمريكى، وبما يتسق والمصالح الأمريكية، وعبر عملية دستورية، وبأعمال ملازمة ضامنة، بهدف إنجاح الفكرة الأساسية لدومبارتون أوكس. ولكن ذلك يا سيدى الرئيس، يتطلب أيضا تبادلية مخلصة، وأعتقد أن علينا أن نبلغ الأمم الأخرى أن هذا الأمر المجيد الذى نفكر فيه ليس أحادى الجانب ولا يمكن له أن يكون كذلك. وأرى أن علينا أن نقول مرة أخرى، إن المثالية التى لا يشاركنا فيها آخرون خطر لا يمكننا أن نضطلع به أو نروج له فى عالم ما بعد الحرب».

وبفضل حصافة روزفلت وتأييد ڤاندنبرج الحذر، وافق مجلس الشيوخ الأمريكى على ميثاق الأمم المتحدة بأغلبية ٨٩ صوتا مقابل صوتين فى ٢٨ من يوليو عام ١٩٤٥. وقال أحد العضوين الرافضين: «نحن أبناء العالم الجديد لا يمكننا أن نصحح ميزان العالم القديم كل عشرين عاما، ولن نفعل هذا بإرسال أبنائنا إلى الحرب». [٢٤]

بيد أن الشعب الأمريكى كان مؤيدا للتوجه الجديد وبإجماع قوى، حتى إنه عاش بعد فشل الأمم المتحدة ذاتها.

❊ ❊ ❊

هل اعتقد روزفلت أن الأمم المتحدة يمكنها أن تنجح؟ وهل كان معتقدا حقا بأن الاتحاد السوفييتى سيلعب الدور الذى خصصه له فى مرحلة عالم ما بعد الحرب؟ ويصور المؤرخون التقليديون روزفلت بأنه «مثالى عملى» سعى لأهداف ليبرالية دولية من خلال سياسات القوة العظمى، ومن ثم فإنه حتى حينما تحدث عن تقرير المصير والانفتاح وحرية البحار ونزع السلاح (وكلها رجع الصدى للنقاط الأربع عشرة) فإنه قلب مبادئ ويلسون رأسا على عقب. ففى حين آمن ويلسون بالدپلوماسية المنفتحة والرأى العام العالمى والتدابير الديمقراطية والتحكيم، فإن

روزفلت آمن بأن رجال الشرطة الأربعة فى عالم ما بعد الحرب (الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا والصين) سيحكمون العالم بالقوة.

وذكر فى رسالة إلى راف إم. مولوتوف قوله: «**أما بقية العالم فسيكون عليه أن ينزع سلاحه. فإذا وجد الحلفاء أن أمما أخرى تخادع فى ذلك، فإنها ستواجه بالتهديد أولا بفرض حجر عليها، وإذا فشل ذلك فستواجه بالقصف**». بل إنه قال فى خطاب إذاعى للأمريكيين: «إن كل شىء يعتمد على بقاء الحلفاء على اتفاق كامل بأن علينا أن نصون السلام بالقوة» [٢٥].

وبتأمل ما آلت إليه الأحداث من تطورات، يصعب الاعتقاد بأن روزفلت كان جادا تمام الجدية. فقد أقام علاقات دبلوماسية مع موسكو عام ١٩٣٣، وتجاهل مقاومة المنظمات العمالية لذلك. لكن آماله فى قيام تعاون أمريكى روسى لمواجهة اليابان (مثلا) كانت أمانى جوفاء، وتملكت مشاعر الكراهية أول سفير أمريكى لدى الاتحاد السوفييتى (بوليت). ومرد ذلك ما عَدّه السفير طغيانا فى نظام تلك الدولة. أما اليساريون الأمريكيون، فتحلوا بموقف حيادى تجاه ستالين. لكن الشائعات التى ترددت عن حملات التطهير التى يشنها الاتحاد السوفييتى والمجاعات ومعسكرات العبيد هناك، والشكوك التى أحاطت بوجود نفوذ شيوعى فى «الصفقة الجديدة»، ومعاهدة السوفييت مع ألمانيا النازية وحربهم ضد فنلندا، كلها عمقت مشاعر انعدام الثقة التى سادت الوسط الأمريكى تجاه موسكو.

وفى ديسمبر عام ١٩٤١ عندما أصبح الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة حليفين بالاسم، باتت كل معلومات الأمريكيين عن روسيا مصدرا يولد مشاعر العداوة والبغضاء وليس الود. وليس اندلاع الخلافات بين أمريكا وروسيا بسرعة عقب الانتصار النهائى فى الحرب مصدرا للدهشة، وإنما المدهش بقاء العلاقة بينهما على هذه الصورة خلال الحرب.

وبطبيعة الحال، يعود الفضل إلى هتلر فى التقارب العارض بين الأمريكيين والشيوعيين، غير أن سيل الكتب والأفلام التى بدأت عقب الغزو النازى لروسيا مباشرة فى ٢٢ من يونيو عام ١٩٤١ وجهت عناية الأمريكيين للابتسام تجاه الكرملين [٢٦].

وتلمّس السفير جوزيف ديڤيز الأعذار لستالين فى حملاته التطهيرية، بل وفى معاهدته مع هتلر ومسألة ضم أراضٍ بلطيقية وفنلندية إلى روسيا، ووصفها فى كتابه «مهمة فى موسكو» بأنها كانت أموراً ضرورية لاستعداد روسيا للحرب. وفضلا عن هذا ،رأى أن النظام السوڤييتى يقوم على مبادئ الأخوة الإنسانية ذاتها التى دعا لها «السيد المسيح».

وأشاد كتاب «عالم واحد» الذى ألفه ويلكى وتصدر مبيعات الكتب فى حينه بالسياسات الاجتماعية التى اتبعها البلاشفة، وقال إن بوسع روسيا وأمريكا التعاون من أجل الحرية الاقتصادية وسلام العالم. بل إن الخبير الأمريكى فى شئون روسيا وولتر دورانتى تلمس الأعذار لستالين وقال: «من منظور الأمور التى تجرى الحياة على أساسها، فإن الروس لا يقلون عنا حرية».[٢٧]

ومهد هذا كله لتغيير صورة ستالين. وعندما اختارته مجلة «تايم» كرجل العام سنة ١٩٣٩، عبرت صورة غلاف المجلة عن ملامح رجل آسيوى شرير منحرف العينين. وبعد ثلاثة أعوام فقط، اختير مجددا رجلا للعام وذلك بصورة غلاف ملأتها ملامحه الصارمة ونظرته المحدقة كبطل ووطنى.[٢٨]

ولكن كيف كان عمق تلك العلاقة مع الحليف الروسى المخلص؟. أظهرت استطلاعات الرأى خلال فترة الحرب أن أكثر من نصف الأمريكيين يعتقدون أن السوڤييت سيكونون شركاء يمكن الاعتماد عليهم عقب انتهاء الحرب، ولكنهم لم يتخطوا فى ميولهم تلك ما قاله روزڤلت: «انسجمتُ بصورة جيدة مع المارشال ستالين فى أحاديثنا غير الرسمية بجوار المدفأة». وفى حين لم يعلم الأمريكيون أن ستالين هرَّب عدة آلاف من العملاء إلى الولايات المتحدة تحت غطاء مشروع الإعارة والتأجير (Lend Lease) للمساعدات الأمريكية إلى روسيا، فإن كثيرين من أبناء البلدات الأمريكية الصغيرة والكاثوليك وأعضاء النقابات العمالية وغيرهم توجسوا شرا من التكتل السوڤييتى، أو نظروا بعدم رضا إلى ازدياد عدد الشيوعيين المحليين الذين قابلوهم فى مدارسهم واتحاداتهم ووحداتهم العسكرية.

وكان المرشح الرئاسى ديوى سباقا عندما سعى لجعل الشيوعية إحدى قضايا حملته الانتخابية عام ١٩٤٤. وكان صائبا أيضا فى اعتقاده أن بئرا عميقة من الشكوك موجودة بالفعل تجاه الشيوعية. وعندما علم الأمريكيون عقب ذلك بفترة قصيرة أن جواسيس سوڤييت اخترقوا برنامجهم الوطنى للأسلحة النووية، كان

تساؤلهم فى ذلك لا يخلو من وجاهة، فإذا كان مثل هذا المشروع فائق السرية قد تعرض للاختراق، فكم عدد الشيوعيين الآخرين فى أماكن غيره؟

ولذا واجه روزفلت فترة عصيبة للحفاظ على التأييد لسياسته الممالئة للسوفييت حتى وإن لم يكن هناك خلاف حول أهداف الحرب. ووقع صدام ثلاثى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وبريطانيا، وكانت كل دولة منها تناصب الأخريين العداء فى ذلك الوقت. فقد دافع تشرشل عن الإمبريالية البريطانية وحذر روزفلت من أنه يتعين احتواء القوة السوفييتية، ورد ستالين إيجابيا على تلميحات روزفلت بشأن قرب أفول الحقبة الاستعمارية، لكنه مع ذلك رفض المشاركة فى الخطط الأمريكية البريطانية لإعادة البناء الاقتصادى، وطالب بالسيادة على مجمل الأراضى التى كسبها من خلال المعاهدة السوفييتية النازية، وسعى أيضا إلى استعادة كل نطاقات النفوذ التى اعتاد القياصرة الروس الهيمنة عليها. وفى نهاية المطاف هددت مبادئ روزفلت الدولية الليبرالية أهداف كل من ستالين وتشرشل سواء بسواء، وبدت لهما كعباءة للتوسع الأمريكى.

فعلى أى الأحوال لم تُخف الولايات المتحدة نيتها فى السيطرة على المحيطين الأطلنطى والهادى ومنع السوفييت من احتلال إيطاليا واليابان، وإجبار الإمبراطورية البريطانية على منح الشركات الأمريكية حصة أكبر من التجارة فى السلع العالمية وخصوصًا النفط.

ولأن روزفلت لم يكن «غرا»، فإنه يمكن الخروج بنتيجة مؤداها أنه بالتوقيع على معاهدة يالطا، فهم روزفلت أن الجيش الأحمر سيجعل عما قريب من أهداف ستالين أمرا واقعا. وفى مطلع عام ١٩٤٣ أبلغ الكاردينال سبيلمان أسقف نيوريورك أنه يتوقع سيطرةالسوفييت على أوروبا وأعرب عن أمله فى ألا تكون هذه السيطرة شديدة القسوة (فحسب). [٢٩]

وهذا بالضبط ما طالب به فى يالطا . . تأكيدات من ستالين بتخفيف الوطء على أوروبا الشرقية ومنح بعض التنازلات فيما يتعلق باستقلالية پولندا.

وعندها كذب ستالين بلطف، وقال إن شعب پولندا سيتمتع بحق تقرير المصير، ووعد فى «إعلان أوروپا المحررة» بقيام حكومات انتقالية تمثل جميع العناصر الديمقراطية. ودفنت مجلة تايم **«كل الشكوك حول قدرة الثلاثة الكبار على التعاون فى مرحلة السلام كما تعاونوا خلال الحرب»**[٣٠].

وقالت نيويورك تايمز مرحبة : «إنها ركيزة على الطريق إلى النصر والسلام». (٣١)

وقد يكون سيناريو رجال الشرطة الأربعة قد نجح بطريقة من اثنتين . . فالمنتصرون قد يشكلون تكتلا ويتصرفون كما لو كانت الأرض بأكملها مجالا مشتركا للنفوذ ، أو أنهم قد يقتسمون العالم فيما بينهم من خلال مناطق للنفوذ خاصة بكل منهم على أن يتعاونوا معا فقط من أجل التخلص من دول المحور المهزومة . . وتحدث روزفلت كما لو أن الاختيار الأول سيأتى ويذهب . وتصرف أحيانا كما لو أنه يؤمن بالخيار الثانى . وحقيقة ، فإن أيّا من الخيارين لم يكن ممكنا (بدون الحرب الباردة) ، ويرجع هذا إلى أهدافه هو الحربية الغامضة على المستوى العالمى ، علاوة على الأهداف الحربية المحددة التى تخدم ذاتها وتبناها كل من ستالين وتشرشل .

إذن على من ننحى باللائمة فى اندلاع الحرب الباردة؟

إذا كنا سنتخذ من هذا السؤال سبيلا لإيضاح الكيفية التى تبلور بها أحد تقاليد السياسة الخارجية الأمريكية ، فإن الأمر لا يهم . . فالمهم هو الكيفية التى فسّر بها أغلب القادة الأمريكيين ومعهم العامة ، انهيار تعاون الحلفاء عقب عام ١٩٤٥ ، وقد بدا الأمر لهم وكأنهم ساروا ميلا إضافيا ليواجَهوا بعزوف من موسكو تجاه نواياهم الطيبة .

وعلى أى الأحوال ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية قبلت احتفاظ الاتحاد السوڤييتى بالأراضى التى انتزعها إبان تحالفه مع هتلر ، وقبلت الحدود التى حددها مع پولندا ، ورفضت التماسات تشرشل بشأن غزو البلقان أو الإسراع إلى برلين لإجهاض خطط الجيش الأحمر . ووعدت الولايات المتحدة بسحب القوات الأمريكية من أوروپا ، وضغطت على الزعيم الصينى شانج كاى تشك لمنح السوڤييت امتيازات فى منغوليا ومنشوريا ، وأصرت على الاستسلام غير المشروط لليابان ، حتى ولو أن مسألة هدنة مؤقتة مع طوكيو كان من الممكن أن تحتوى القوة السوڤييتية فى آسيا .

كما منحت واشنطن الاتحاد السوڤييتى ١٨ مليار دولار فى صورة مساعدات من خلال برنامج الإعارة والتأجير (Lend Lease) ، ووافقت على عديد من مطالب موسكو بخصوص الأمم المتحدة ، بل وعرضت منح الاتحاد السوڤييتى حق الڤيتو داخل مجلس الأمن الدولى (٣٢) .

ويمكن لستالين بالطبع أن يوازن ذلك كله بقائمة من التنازلات ـ خاصة مع احتجاجاته على السياسة الأمريكية ـ وكان من الصعب على الأمريكين أن يقتنعوا بأنهم الأشرار أو أن ينسوا حقيقة أن روسيا دولة دكتاتورية وحشية. وكان وزير البحرية فوراستال سابقا لعصره فى عام ١٩٤٤ عندما نعى قائلا: «إذا اقترح أى أمريكى أن نتصرف انطلاقا من احتياجاتنا الأمنية الخاصة، فإنه يتعرض للوصف بأنه فاشى ملعون أو إمبريالى، **بينما إذا اقترح العم چو(*) أنه يحتاج إلى أقاليم البلطيق ونصف پولندا وكل بيسرابيا وحرية الوصول إلى البحر المتوسط، فإن كل الأيدى توافق على أنه شخص طيب وصريح وودود ومبهج بشكل عام، ويسهل التعامل معه للغاية لأنه واضح فيما يطلب».**[٣٣]

وبحلول ربيع عام ١٩٤٥، وبانتشار النظم ذات القيادات الشيوعية فى أنحاء أوروپا الشرقية، صاغ روزڤلت برقية (لم يرسلها) إلى ستالين قال فيها: «لا أخفى عنك قلقى تجاه ما آلت إليه الأحداث منذ لقائنا المثمر فى يالطا، وبصراحة فإننى متحير إزاء أسباب الوضع الذى وصلت إليه الأمور. ويتعين على أن أقول لكم إننى لم أستوعب تمام الاستيعاب الموقف المتجاهل الذى تتخذه حكومتكم فى عديد من النواحى».[٣٤]

إن الانتصار الذى حققته سياسة الاحتواء لاحقا، تدين به من ثَمّ لحقيقة أن الأمريكيين لم يفكروا باحتواء الاتحاد السوڤييتى إلى أن بدا أن ستالين يخون ثقتهم به. وبالنظر إلى مؤتمر بوتسدام من يوليو إلى أغسطس عام ١٩٤٥ والذى يصور عادة على أنه إظهار متبادل للمخالب والأنياب ـ فقد استعرض ستالين جيشه وقال لا بالروسية، فى حين همس ترومان عن القنبلة النووية وعاد لبلاده مقتنعا بأن الروس لا يمكن الثقة بهم فى أى مشروع مشترك[٣٥]. وقد وقع الجانبان معاهدة رائعة بخصوص قضية مهمة بالرغم من هذا كله. وهى قضية التعويضات الواجب أن تسددها ألمانيا المحتلة. وفى يالطا اتفق الثلاثة الكبار على اقتسام ألمانيا فى صورة مناطق على أن يتم التعامل معها كوحدة متكاملة بعد الحرب. وسرعان ما بدا واضحا أن السوڤييت يعتزمون نهب جميع الأصول الصناعية بمناطقهم ويصرون فى الوقت ذاته على الحصول على شحنات من المناطق الغربية لأن ألمانيا الغربية كانت تعيش على مساعدات الإغاثة

(*) المقصود: چوزيف ستالين. (المترجم).

الأمريكية والبريطانية. ورفض وزير الخارجية چيمس بايرنز المطلب فى بادئ الأمر وقال: «لا نعتزم أن نقدم أموال التعويضات كما فعلنا بعد الحرب الأخيرة». ولكنه ساوم ستالين فيما بعد وتمت تسوية الأمر، ليصبح بوسع السوڤييت أن يفعلوا ما يحلو لهم فى شرقى ألمانيا ويتلقوا فى الوقت ذاته ١٠٪ من فائض رءوس الأموال بالمناطق الغربية علاوة على ١٥٪ أخرى مقابل السلع المشحونة من الشرق. وعَدَّ ستالين هذه الخطة تقسيما واقعيا لألمانيا، وتحدث من أعماق قلبه مشيدًا بوزير الخارجية الأمريكية، وقال: «إنه جمعنا معا للوصول إلى عديد من القرارات المهمة» ووصف المؤرخ مارك تراشتنبرج هذا بأنه «سياسة الطلاق الودى». [٣٦]

وهكذا كان الأمريكيون مستعدين للسماح «بمنطقة أمنية» سوڤييتية فى الشرق، لأنهم إذا لم يكونوا مستعدين لاستنكار مطالب ستالين فى ألمانيا وپولندا، فبالتأكيد لن يفعلوا ذلك فى رومانيا والمجر. وبالفعل بدا أن وزير الخارجية الأمريكية مقتنع بأن سياسة «ما هو لك فهو لك وما هو لى فإنه أمر يخصنى» هى السبيل الوحيد لتفادى نزاع خطير مع روسيا. [٣٧] ولا يعنى هذا أن ترومان اعتقد أن العلاقات مع ستالين دافئة وغير معروفة. فقد تولى الحكم وهو مقتنع بالكلمات المعسولة عن وحدة الحلفاء، واستشاط غضبا عندما وصلت الأخبار السيئة. فالقنبلة النووية زادت فقط من شعوره بالإحباط وعندما ملكها ظن أنها ستساعده فى تحقيق ٨٠٪ مما أراد الفوز به من الروس. ولأنه لم يفكر أحد فى اندلاع حرب مع الاتحاد السوڤييتى اللهم إلا الجنرال چورچ باتن. ولأن ترومان كان ملتزما بتسريح القوات الأمريكية التقليدية بمجرد تسليم اليابان، فإنه لم يجد بدا من قبول الأمر الواقع، وللتأكيد فإنه يمكن الخروج بكم هائل من الاقتباسات العدوانية الصادرة عن مسئولين أمريكيين[٣٨].

وفى إبريل عام ١٩٤٥ بعث آڤريل هاريمان ببرقية قال فيها. . «علينا أن ندرك بوضوح أن البرنامج السوڤييتى يعتمد على قيام نظام شمولى وإنهاء الحريات الشخصية كما نعرفها ونحترمها». [٣٩]

وفى مايو كتب چوزيف جرو القائم بأعمال وزير الخارجية آنذاك أن الحرب العالمية الثانية لم تحقق شيئا سوى «نقل الديكتاتورية الشمولية والسلطة من ألمانيا واليابان إلى روسيا السوڤييتية، وبمجرد انتهاء مؤتمر سان فرانسيسكو يتعين علينا أن نتشدد فى سياستنا تجاه روسيا السوڤييتية، فورا وبصورة شاملة». [٤٠]

أما سياسة وزير الخارجية الأمريكية بايرنز فبقيت كما هى «الطلاق الودى»، وبوصفه صقرا لا يقل حدة عن دالاس، فإنه أعرب عن أمله فى كسر التيار والخروج بالوحدة والزمالة بصورة أقوى من أجل المستقبل.(٤١)

❋ ❋ ❋

ما الذى غيَّر السياسة الأمريكية إذن؟

ما الذى أقنع الأمريكيين بأن الولايات المتحدة يتعين عليها أن تتخلى عن آمالها فى قيام عالم على أساس مبادئ ويلسون مع المشاركة فى شئون العالم فى الوقت ذاته؟

يمكن أن تكون الإجابة فضفاضة ومجردة على قدر ما يريد المرء.. الخوف الداخلى القديم من الشيوعية وانعدام الثقة بها، والسخط والتخبط الناجمان عن الآمال الضائعة، والرغبة المتغطرسة فى جعل الأمور تتم بالصورة التى نريدها، والميل لأن ننظر إلى روسيا السوفييتية على أنها ألمانيا نازية أخرى. لكن توقيت التغيير واضح، فقد حدث خلال فترة تتراوح بين ستة وثمانية أسابيع من بداية عام ١٩٤٦. وهذا يوحى بأن السبب المحتمل أن ستالين لم يكن ليرضى بمنحدرات أوروبا الشرقية، بل إنه كان ينظر إلى ميدان أوسع.. إلى اليونان حيث يسعى المتمردون الشيوعيون إلى السيطرة على الدولة، وإلى تركيا حيث يضغط عليها السوفييت لإعادة ترسيم الحدود والحصول على ممر بحرى عبر المضيق، وإلى إيران حيث تمركزت قوات سوفييتية فى انتهاك لاتفاق الحلفاء فى هذا الصدد، وإلى الصين وكوريا، وحتى اليابان حيث أراد ستالين الخروج بأى نصيب، والأسوأ من ذلك أن بريطانيا لم تكن على مستوى مهمة موازنة القوة السوفييتية حول تخوم أوراسيا.

وفى ٩ من فبراير عام ١٩٤٦ ألقى ستالين خطابا مطولا ـ لا يكاد ينتهى كعادته ـ وأعلن فيه أن التعاون بين المعسكر الإمبريالى الحربى النزعة والمعسكر الاشتراكى المحب للسلام بات أمرا مستحيلا، ومن ثَمَّ فإن الشعب السوفييتى ليس بوسعه أن يلين بالرغم من تضحياته الهائلة إبان الحرب، ولكن عليه أن يضاعف جهوده فى مجالى الصناعة والتسلح. ودون أن يذكر الولايات المتحدة وبريطانيا بالاسم، فإنه قارن بين البلدين وألمانيا النازية.

وفى ١٠ من فبراير عام ١٩٤٦ زار ونستون تشرشل البيت الأبيض الأمريكى، وكان قد خرج من السلطة بالفعل فى انتخابات يوليو السابقة، وطلب منه ترومان أن يلقى خطابا فى ولاية ميسورى مسقط رأس ترومان. وقبل تشرشل الدعوة اعتقادا منه بأنها فرصة لأن يطلب قرضا كبيرا لبريطانيا لتدعيم حالتها المالية. وعند وصوله، كان الضغط السوفييتى قد تصاعد على مفاصل الإمبراطورية البريطانية المرتعشة. لذا أصر على الدعوة إلى تحقيق الوحدة بين الشعوب الناطقة بالإنجليزية، وهى ذات الدعوة التى تبناها طيلة عمره، وقال: «أعتقد أن بوسعى أن أكون مفيدا هناك». وكان ذلك قبيل توجهه إلى واشنطن[٤٢]. وخلال اللقاء، قال تشرشل لترومان إنه كان يعنى الدعوة إلى تعاون عسكرى بين الولايات المتحدة وبريطانيا إلى أن يتحقق الأمر المنشود وهو أن تتحول الأمم المتحدة إلى جهاز فعال. وسعد ترومان بالسماح لتشرشل بإطلاق بالون اختبار من أجل سياسة أكثر تشددا تجاه روسيا وقال: «إنه خطابك فاكتبه بنفسك»، وكان سعيدا للغاية بذلك[٤٣].

وفى ١٦ من فبراير أعلنت السلطات الكندية عن القبض على ٢٢ جاسوسا سوفييتيا اخترقوا «مشروع مانهاتن» وأرسلوا معلومات مخابراتية تفصيلية إلى موسكو بشأن الأبحاث النووية الأمريكية والبريطانية هناك.

وفى ٢٢ من فبراير بعث الدبلوماسى الأمريكى چورج كينان ببرقية مطولة من موسكو، وبوصفه مراقبا محنكا للاتحاد السوفييتى، دأب (كينان) على التحذير من أن روسيا سرعان ما ستنبذ التعاون لتتمسك بفتوحاتها فى وسط أوروبا وأنها ستنشر الشيوعية عن طريق الشيوعيين المحليين للفوز بالسلطة فى أماكن أخرى. ولم يكن الأولاد فى واشنطن يدركون على ما يبدو ما هم بصدده بالنظر إلى سلسلة تصريحاتهم السخيفة تجاه موسكو. ولذا عندما طلبت وزارتا الخزانة والخارجية من كينان تقديم تحليله للموقف تعهد قائلا: «أقسم بالرب، سوف ينالونه»[٤٤]. وأوضح من ناحية منظور الكرملين العصبى لشئون العالم انطلاقا من خوف روسيا التاريخى تجاه العالم الخارجى وعدوانيتها تجاهه، فإن القلة الحاكمة أخفت وراء قناع الأيديولوچية الماركسية التزاما متعصبًا باعتقاد مفاده أنه بوجود الولايات المتحدة الأمريكية لن تكون هناك

وسيلة دائمة للعيش معا . وأنه من الأفضل بل ومن الضرورى أن يضطرب الانسجام الداخلى لمجتمعنا الأمريكى بأى طريقة، وأن تُدمر الطريقة التى اعتدنا عليها للحياة، وأن تحطم سلطة الدولة لدينا إذا أريد تأمين القوة السوڤييتية .

وأضاف أيضا . . إن القوة السوڤيتية بعكس ألمانيا الهتلرية لا هى تخطيطية ولا هى مغامرة، «وبالرغم من ذلك فقد حذر من أن السوڤييت سيبذلون قصارى جهدهم لجعل القوى الغربية تناصب بعضها بعضا العداء، وأن تنتشر الشيوعية وأن تخرب المؤسسات الغربية» . (٤٥)

وفى ٢٧ من فبراير أعرب ڤاندنبرج عن مشاعر عدم الارتياح الآخذة فى التصاعد داخل الكونجرس عندما تساءل تحديدا «ما الذى تنتويه روسيا الآن؟» . وحذرت صحيفة نيويورك تايمز من خطر ضياع السلام وأصرت على أن «الغرب لم يقاتل نظاما شموليا ليذعن لآخر» . وطالب ڤاندنبرج بأن يعرف «أين الحق؟ وأين العدالة؟» . وأضاف : «لندع أمريكا تأخذ موقفها هناك» . (٤٦)

وفى ٢٨ من فبراير أجاب بايرنز فى خطاب مهم أمام نادى الصحافة الخارجية، فوعد بأن تظهر الولايات المتحدة «الصبر والحزم» وأن تقاوم العدوان بالتعاون مع الدول العظمى الأخرى . وترجمت صحيفة نيويورك تايمز ذلك بصورة صحيحة فعَدَّته تحذيرا موجها إلى روسيا ووقفة لإعادة التوجيه فى العلاقات الأمريكية بالعالم الخارجى . (٤٧)

وفى ٤ من مارس قضى تشرشل وترومان النهار يشربان الويسكى ويلعبان البوكر على متن قطار توجه إلى ميسورى . وصاغ بايرنز فى هذا اليوم احتجاجات مقتضبة ضد أفعال روسيا فى أوروبا الشرقية ومنشوريا وإيران .

وفى ٥ من مارس تحدث تشرشل : «من ستتن على بحر البلطيق إلى تريستا على البحر الأدرياتيكى أسدل ستار حديدى على القارة الأوروبية» . وقال إن ألمانيا باتت أيضا مهددة، وإيطاليا وفرنسا كذلك، فى ظل وجود أحزاب شيوعية ضخمة فيها . ثم أضاف إليها تركيا وبلاد فارس والشرق الأقصى، وعَدّ الجيش الأحمر والطابور الخامس من الشيوعيين فى الخارج تحديا متناميا للحضارة المسيحية . وقال إن الأمل

الوحيد فى وقف هذا التيار هو قيام رابطة أخوية من الشعوب الناطقة بالإنجليزية، ويعنى هذا علاقة خاصة بين رابطة الكومنولث البريطانى والولايات المتحدة، حتى لا يظن الأمريكيون أن مثل هذا التحالف لا يتفق مع الأمم المتحدة. وأوضح تشرشل أن الوحدة الأنجلو أمريكية هى ـ على الأرجح ـ السبيل الوحيد الذى يمكن به أن تحقق هذه المنظمة وضعها وقوتها الكاملين، وحذر من أنه علاوة على ذلك فـ «من الخطإ والتهور» **أن نسلم الطاقة النووية للأمم المتحدة، لأن الرب أراد بمشيئته أن تكون هذه القوة فى أيد أمريكية إلى أن يحين اليوم الذى تتجسد فيه الأخوة الإنسانية بصدق فى صورة منظمة دولية تعبر عن هذه الروح.** (٤٨)

وكان تشرشل يعلم ما يريده مستمعوه، فأشاد بلسانه وليس بقلبه بمبادئ ويلسون التى لم يؤمن هو بها، وطرح أمرين قديمين: **العناية الإلهية والمهمة الأنجلوساكسونية، ليسوقهما للأمريكيين فى صورة.. تحالف فى وقت السلم وسياسة لتوازن القوى.**

وتشاور الأمريكيون وفكروا مليا، وأشادت الصحف بتشرشل وبروحه العالية، واتفقوا على أنه يتعين أن تعمل بريطانيا والولايات المتحدة معا. ولكن بعض قيادات الرأى و ١٨ ٪ فقط من الرأى العام الأمريكى راقت لها فكرة التحالف. ومن ناحية أخرى لم يكن تشرشل مضطرا لأن يضغط على الأمريكيين حتى يتشككوا فى الاتحاد السوڤييتى. ففى فبراير أظهر استطلاع للرأى أن ثلث الأمريكيين فقط لا يثقون بالشيوعيين، وأعربت نسبة ٦٠٪ فى استطلاع آخر تم فى مارس عن اعتقادها بأن السياسة الأمريكية تجاه روسيا كانت متراخية أكثر من اللازم، واعتقدت نسبة ٣ ٪ فقط عن اعتقادها بأن هذه السياسة كانت متشددة أكثر من اللازم (٤٩) . ومن ثَمّ ابتهجت أغلبية كبيرة بسياسة التشدد التى أقرها ترومان وظنت أقلية قليلة (لا يمكن تجاهلها) أن هذه السياسة لم تكن متشددة بما فيه الكفاية.

لقد انتهى عهد روزڤلت بالفعل، وبدأت الحرب الباردة.

❊ ❊ ❊

أعاد ذلك الولايات المتحدة الأمريكية إلى نقطة البداية. وأكد إجماع ضخم من الحزبين على ضرورة المشاركة الدولية. بيد أن مبادئ الويلسونية عادت إلى الظهور مجددا. وكان آخر ما يود الأمريكيون سماعه هو أنهم باتوا على وشك الدخول فى

نزاع طويل جديد مع نظم دكتاتورية. وفى أكتوبر عام ١٩٤٥ أعلن ترومان(*) بتفاؤل عن خطته لتوسيع «الصفقة الجديدة» بمشروع قانون للتوظيف وتعويضات البطالة ومشروعات الإسكان ورفع الحد الأدنى للأجور وقوانين لمكافحة التمييز (العنصرى) ومساعدات للتعليم والمزيد من مزايا الضمان الاجتماعى بل ونظام للرعاية الصحية. وقاوم الكونجرس، بينما كانت الدولة تتطلع إلى إلغاء قيود وقت الحرب، وثبت ذلك فى سيطرة الجمهوريين على الكونجرس فى نوفمبر عام ١٩٤٦. ولكن مشروعى قانونى رجال القوات المسلحة والضمان الاجتماعى بقيا حبيسى الأدراج، وبقى مئات الآلاف من الشباب والشيوخ خارج سوق العمل الضيقة بالفعل، كما قفز معدل التضخم حيث سعت القوة الشرائية المكبوتة إلى اقتناء المنازل والسيارات والأجهزة المنزلية. وسعت النقابات العمالية للحاق بمعدل التضخم عن طريق تنظيم موجة من الإضرابات. أما العنصرية فتحولت إلى قضية ساخنة أخرى لتشعل تمرد أهل الجنوب ضد ترومان فى ذلك الوقت. ولعل الجيش كان مرحبا بالحرب الباردة على أمل عدم تآكل الدفاعات الأمريكية من جديد.

ولم يرحب أحد بالحرب الباردة سوى الجيش.

وطوال عام ١٩٤٦ لم يخفض ترومان فقط الجيش من ١٢ مليونا إلى ١,٥ مليون جندى فقط، بل أحجم عن إدانة الاتحاد السوفييتى بالاسم، على أمل أن يكسب تأييد السوفييت لخطة واشنطن الرامية إلى وضع الطاقة النووية تحت سيطرة الأمم المتحدة. غير أنه فى بداية عام ١٩٤٧ دفعت مجموعة من العوامل الأمريكيين إلى تفصيل علم جديد تمامًا، يحمل شعار التدخل. وكان من هذه العوامل: استخدام السوفييت لحق النقض (الفيتو) لإجهاض الخطة الأمريكية لوضع الطاقة النووية تحت رقابة الأمم المتحدة، واستمرار التمرد فى اليونان، ومحاولات الشيوعيين للوصول إلى السلطة فى باريس وروما، ومشاعر الإحباط التى تملكت الأوروبيين الغربيين بسبب معاناتهم من آثار الحرب.

(*) هارى إس ترومان (١٨٨٤ - ١٩٧٢) الرئيس الثالث والثلاثون للولايات المتحدة خلال الفترة ١٩٤٥ - ١٩٥٣ (ديمقراطى). كان نائبا للرئيس فرانكلين روزفلت، ولدى وفاة الأخير فى إبريل عام ١٩٤٥ أصبح رئيسا للجمهورية. (المترجم)

وألمح دالاس(*) لأحد هذه العوامل فى سلسلة من المقالات بمجلة لايف، فكتب يقول: «إن الانسجام العالمى الذى يسعى له الروس، سيصل إلى حد قيام عصر يسيطر عليه السوڤييت «وإزالة» أى مجتمع آخر غير شيوعى». وحث الأمريكيين على إعادة التسلح والوقوف أمام الروس وعلاج المشكلات الاجتماعية بالداخل وتقوية عقيدتهم الدينية. وأوصت مذكرة صادرة عن وزارة الخارجية فى فبراير عام ١٩٤٦ أيضا بأن تستغل الولايات المتحدة تفوقها البحرى والجوى، وأن توفر لبريطانيا كل الدعم السياسى والاقتصادى الممكن، وإذا دعت الضرورة الدعم العسكرى أيضا. وكان تقرير كلارك كليفورد أكثر ترويعا، إذ طالب الأمة بالاستعداد لحرب نووية وبيولوچية والاستعداد للدفاع عن كل الدول الديمقراطية التى تشعر بالخطر من الاتحاد السوڤييتى. وأدرك ترومان أن هذا التقرير قنبلة، فقال له: «كم نسخة لديك من هذا التقرير؟». فأجاب بأن لديه عشرا، فطلبها الرئيس وقال: «يتعين الاحتفاظ بها وإبقاؤها سرا». (٥٠)

وفى ٢١ من فبراير سنة ١٩٤٧ أعلن السفير البريطانى عن إفلاس بلاده، وقال إنها ستتوقف عن مساعدة تركيا واليونان بعد خمسة أسابيع. وعَدَّ وزير الخارجية الجديد چورچ مارشال هذا الأمر مقدمة لانسحاب بريطانيا من الشرق الأوسط، وما سيكون له من آثار مختلفة وخاصة بالنسبة لمن سيخلفهم هناك. (٥١) وبمعنى آخر فإن منطقة شرقى المتوسط الإستراتيجية توشك على أن تتحول إلى فراغ لن يدع السوڤييت بالطبع فرصة تمر لملئه ما لم يملأه الأمريكيون. وهكذا استدعى ترومان ڤاندنبرج وقيادات جمهورية أخرى إلى البيت الأبيض لإطلاعهم على الواقع المخيف.

ووصف دين أتشيسون اللقاء: عندما بدأ ترومان كلمته الافتتاحية لم يكن موفقا، وهمس أتشيسون طالبا الإذن بالكلام وقال: «هذه أزمتى، فقد عشتها طيلة أسبوع وأعضاء الكونجرس هؤلاء ليست لديهم أى دراية عما يواجههم، وكانت مهمتى أن أبسط لهم الأمر». ومضى فى تخويف مستمعيه بقصة رعب جغرافية سياسية.

(*) چون فوستر دالاس (١٨٨٨-١٩٥٩) سياسى ومحام أمريكى، كان مستشاراً فى تأسيس الأمم المتحدة، ووضع مسودة اتفاق السلام مع اليابان عام ١٩٥١. عمل وزيرا للخارجية (٥٢-١٩٥٩). كان دوره محوريا فى سياسة الحرب الباردة. (المترجم).

«السوڤييت يسعون وراء اليونان وتركيا وإيران، وإذا نجحوا فى واحدة فقط، فإن عدوى الشيوعية ستنتشر فى أنحاء الشرق الأوسط وإفريقيا وجنوبى أوروبا».

وأضاف «إن الاتحاد السوڤييتى يلعب واحدة من أضخم المقامرات فى التاريخ وبكلفة بسيطة للغاية، والولايات المتحدة هى الوحيدة المؤهلة لوقف هذه اللعبة». وبعد صمت طويل تحدث فاندنبرج فقال: «سيدى الرئيس، إذا كنتم تعتزمون إبلاغ الكونجرس والبلاد بذلك فإننى سأؤيدكم، وأعتقد أن معظم الأعضاء سيفعلون الشيء نفسه»[٥٢].

وفى ١٢ من مارس عام ١٩٤٧ وأمام جلسة مشتركة للكونجرس بمجلسيه، طرح ترومان المشكلة بأوضح أبعادها. «فى هذه اللحظة من تاريخ العالم يتعين على كل أمة تقريبا أن تختار بين طرق حياة بديلة. والخيار لا يكون حرا فى الغالب. إن طريقنا فى الحياة يقوم على أساس إرادة الأغلبية، ويتميز بوجود مؤسسات حرة وحكومة تمثل القوى السياسية، وانتخابات حرة وضمانات للحريات الفردية وحرية التعبير والديانة، والتحرر من الاضطهاد السياسى. أما الطريقة الثانية للحياة، فتقوم على أساس إرادة الأقلية التى تفرض بالقوة على الأغلبية، وتعتمد على الترويع والاضطهاد. وأعتقد أنه يتعين أن تكون سياسة الولايات المتحدة هى دعم الشعوب الحرة التى تقاوم محاولات الأقليات المسلحة لإخضاعها، أو تواجه بالخطر نفسه من جانب ضغوط خارجية»[٥٣].

وأوصى ترومان بالعواقب الوخيمة لفقدان اليونان أو تركيا لاستقلالهما (بشكل غامض فى كلمته) وأشار إلى أن مبلغ الـ ٤٠٠ مليون دولار الذى طلبه هو واحد على عشرة من ١٪ من مبلغ ٣٤١ مليار دولار أنفقت فى الحرب العالمية الثانية، وأن هذا الرقم هو ثمن زهيد لمنع اندلاع حرب جديدة. واختتم كلمته مؤكدا على أن الولايات المتحدة هى الوحيدة القادرة على الاضطلاع بمثل هذا العمل.

وقال أيضا: «إن الشعوب الحرة فى العالم تتطلع لأن ندعمها فى الحفاظ على حريتها، وإنه إذا تقاعست قيادتنا فقد نعرض سلام العالم للخطر وسنعرض بلا شك رفاهية هذه الأمة للخطر أيضا. لقد ألقيت مسئوليات جسام على عاتقنا بحركة سريعة للأحداث، وإننى واثق من أن الكونجرس سيواجه هذه المسئولية بالصورة اللائقة». وسرعان ما جنحت سفينة ترومان لتصطدم فى جانب ثم آخر، فقال هنرى والاس، وهو من أبرز مؤيدى إعطاء روسيا الفرصة كاملة: «إن انتهاج

سياسة متشددة فحسب، ستدفع ستالين إلى مواقف أكثر تشددا». وقال: «شئنا أم أبينا فإن الروس سيسعون إلى نشر الاشتراكية فى محيط نفوذهم بالطريقة التى نسعى بها لنشر الديمقراطية فى محيط نفوذنا». (٥٤)

وحذر ليبمان من أن التزام ترومان الواسع (بلا ضرورة لذلك) سيلزم الولايات المتحدة بالاعتماد على **«دويلات تدور فى فلكها وألعوبات وعملاء وزبائن لا نعلم عنهم الكثير»**، وقد ندعمهم بكلفة باهظة فى قضية غير مرغوب فيها وغير مخطط لها(٥٥).

ورأى چيمس واربرج أن مبدأ ترومان ما هو إلا الانعزالية قلبت على وجهها الآخر، وقال: **«نحن مستعدون الآن لأن نكون مواطنين عالميين ولكن شريطة أن يصبح العالم امتدادا للولايات المتحدة»**.(٥٦)

بل إن كينان نفسه قال إنه يشعر بالأسى لأنه لم يتمكن من تحديد أى الأقاليم الجغرافية مهمة إستراتيجيا - وكان مقاله المعنون باسم «سرى» قد روج لسياسة تقوم على أساس الاحتواء طويل الأمد والدءوب ولكن ببلاء حسن وحذر. (٥٧)

وفى ٢٣ من مايو، أوصى طاقم تخطيط السياسات المساعد له «بضرورة اتخاذ التدابير العاجلة لتصحيح وجهة نظر الرأى العام فيما يتعلق ببعض آثار رسالة الرئيس» خاصة فيما يتعلق «بأن مبدأ ترومان ما هو إلا شيك على بياض». (٥٨)

ولكن لننظر كذلك إلى محنة ترومان. فلم يكن بوسعه أن يكسب الدعم لفكرة مساعدة تركيا واليونان إذا ما بدا ذلك وكأن الأمريكيين كانوا يسحبون خشب الكستناء الإمبراطورى البريطانى من النار، ولم يكن بوسعه أيضا أن يظهر بالتعهد بمساعدة بعض الأمم ويترك أمما أخرى لتواجه مصيرها بنفسها. ولذا اعتمد فى ندائه على التخويف وعلى مبادئ أخلاقيةكلية اعتاد الأمريكيون العزوف عنها ولكنهم الآن يقبلونها كمسلمات.

ووافق مجلس الشيوخ على خطة المساعدات بأغلبية ٦٧ صوتا مقابل ٢٣. أما مجلس النواب فكانت موافقته بفارق صوت واحد.

وسرعان ما تبع ذلك تطبيق خطة مارشال للإنعاش الاقتصادى الأوروبى، وشجبها والاس أيضا ووصفها بأنها خطة عسكرية.

أما المحافظون بزعامة السناتور روبرت تافت (جمهورى ـ أوهايو) فقد لعنوها بوصفها «مشروعا لخطة اشتراكية جريئة»، وأصروا بقولهم: «لا يمكننا أن نتحمل المضى فى إقراض الأموال على نطاق كونى»[٥٩] . بيد أن انقلاب عام ١٩٤٨ الشيوعى فى تشيكوسلوفاكيا كان كافيا لإقناع مجلسى الشيوخ والنواب بالموافقة على خطة مارشال بأغلبية ٦٩ صوتا مقابل ١٧ صوتا و ٣١٨ صوتا مقابل ٧٥ فقط. ومنع ستالين الدول الدائرة فى فلكه من تلقى مساعدات مارشال، وتحدى التيار الساعى إلى الدفع باتجاه دولة مستقلة فى ألمانيا الغربية، بحصار برلين الغربية. وحذر الچنرال لوشيا س د. كلاى قائد القوات الأمريكية فى ألمانيا بقوله: «عندما تسقط برلين ستسقط ألمانيا الغربية بعدها. . وأعتقد أن مستقبل الديمقراطية يتطلب منا البقاء»[٦٠] . واستجابت القوى الغربية لنداء كلاى بسرعة، وفتح جسر جوى بطولى إلى برلين عام ٤٨/ ١٩٤٩ فى خضم الانتخابات الأمريكية.

ومن منطلق ثقة ديوى بالفوز فى الانتخابات هذه المرة، رفض انتقاد سياسة ترومان الخارجية وأمر مؤيديه بالحفاظ على وحدة الحزبين. وحذر على وجه الخصوص من «أى تصدع بين ڤاندنبرج وديوى». [٦١]

ومن ثَمّ فإن حقيقة أن ترومان نجح فى إنزال هزيمة غير متوقعة بديوى لم تحدث فرقا كبيرا. وكان بوسع ديوى بلا شك أن يمضى قدما فى خطط الإدارة لعام ١٩٤٩ من أجل قيام جمهورية ألمانيا الغربية وتحالف أمنى لشمالى الأطلنطى. وكان «ناتو» أول تحالف دائم للولايات المتحدة وقت السلم، وشكل انتهاكا صارخا للقاعدة الرئيسية التى أرساها چورچ واشنطن، ولكنه لم يزد عن إيضاح الاقتراح الدبلوماسى الذى طرحه أينشتاين فى عام ١٩١٣ لمبدإ مونرو عبر الأطلنطى لدعم ميزان القوة الأوروبى. وقال أينشتاين نفس الشىء عندما أبلغ الكونجرس بأن «سيطرة قوة عدوانية على أوروپا تشكل تهديدا لا يمكن التغاضى عنه للأمن الوطنى للولايات المتحدة».

وصدق مجلس الشيوخ على معاهدة شمالى الأطلنطى فى ٢١ من يوليو سنة ١٩٤٩ بأغلبية ٨٢ صوتا مقابل ١٣ فقط، ووصفها ترومان «بحكم جماعى للشعب»[٦٢] .

وكان ميلاد «الناتو» بالرغم من ذلك أمرا لا مفر منه، حيث طرد الشيوعيون القوميين من برِّ الصين الرئيسى، ثم أجرى الاتحاد السوڤييتى أول تجاربه الذرية،

والآن أصبح أكبر بلدين تعدادا بالسكان فى العالم حليفين (شيوعيين) وليتسلحا عما قريب بالأسلحة النووية. وفى يناير سنة ١٩٥٠ أعطى ترومان الضوء الأخضر لتطوير القنبلة الهيدروچينية، وأمر فريق الأمن القومى بإعداد مراجعة شاملة للسياسة الأمريكية.

وحذر كينان من تسليح الحرب الباردة، ثم حل محله فى وزارة الخارجية پول نيتز. وبوصفه المؤلف الأول لمذكرة مجلس الأمن القومى رقم ٦٨، فإنه دعا إلى تكديس فورى للقوى النووية والتقليدية حتى تصبح الولايات المتحدة على مستوى التزاماتها. وبات «لروح الأمن القومى» الجديدة أربعة مصادر. . [٦٣]

أولاً: يعنى انهيار موازين القوى الأوروپية والآسيوية أن الولايات المتحدة يمكن أن تختار الخروج من عالم السياسة الدولية، لتخاطر بهيمنة شيوعية آسيوية أوروپية.

ثانيا: «تكتيكات البسطرمة» التى انتهجها ستالين كانت مشابهة لما دأب عليه هتلر وأثبت التاريخ أن سياسة الاسترضاء تفتح شهية المعتدى فحسب.

ثالثًا: يجب أن تدعم المقاومة قوة متفوقة، وهو أمر يفهمه كل ديكتاتور.

رابعًا: أن عصر القاذفات بعيدة المدى والصواريخ، بات يعنى أن پيرل هاربور ستكون فى شيكاجو أو ديترويت، وأنه لن يتسنى للأمريكيين بعد ذلك التمتع بترف التعبئة للحرب بعد أن تكون الحرب قد بدأت بالفعل[٦٤].

وأدهشت الآثار المالية للمذكرة ٦٨ الصادرة عن مجلس الأمن القومى ترومان، إذ دعا القرار إلى مضاعفة موازنة الدفاع أربع مرات لتصل إلى حوالى ٥٠ مليار دولار بدلا من ١٢,٩ مليار دولار فقط. لكن اندلاع الحرب الكورية فى يونيو عام ١٩٥٠ أدى إلى سرعة الموافقة على القرار[٦٥]. وقال ترومان: «إن الشيوعية تتصرف فى كوريا بالطريقة نفسها التى تصرف بها هتلر وموسولينى واليابانيون قبل عشرة أعوام أو خمسة وعشرين عاما، وإذا سمحنا باستمرار ذلك دون أن نوقفه، فإن الأمر سيتحول إلى حرب عالمية ثالثة»[٦٦].

أما تافت الصلب صلابة الجرانيت، فحذر أعضاء مجلس الشيوخ من أنهم إذا عجزوا عن إجبار ترومان عن وجوب طلب موافقتهم قبل إعلان الحرب، فإن الرؤساء المقبلين

سيكون بوسعهم إرسال قوات إلى الهند الصينية أو أى مكان آخر فى العالم دون أن يكون للكونجرس أدنى رأى فى ذلك. أما الجماهير الأمريكية فقد نوهت بعمل الشرطة الذى أعلنه ترومان فى كوريا وبنسبة ١٠ إلى واحد وفقا لاستطلاعات الرأى والخطابات التى تلقاها الكونجرس فى ذلك الحين. ويرى چيمس رستون أن الأمر وصل إلى حد إعادة تشكيل روح حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. (٦٧)

❊ ❊ ❊

هكذا أصبحت القوى الغربية والكرملين فى أوج عاصفة من انعدام الثقة المتبادلة، وانساقوا إلى أن باتت الحرب الباردة على نطاق الكون بأكمله، ولها أيديولوچيتها الخاصة ومؤسساتها وأدواتها العسكرية، وكل هذا من قبيل الأمور العادية. ولكن لننظر مجددا إلى الأرقام، فقد وافق مجلس الشيوخ على مبدإ ترومان بأغلبية ٣ إلى واحد، ووافق على خطة مارشال بأغلبية ٤ إلى واحد، وعلى قيام الناتو بأغلبية ستة إلى واحد، ووافق الرأى العام على التدخل فى الحرب الكورية بأغلبية عشرة إلى واحد.

ولم إذن هذا الإجماع شبه الكامل لصالح تقليد جديد، لا يعد بكثير من الثمرات فى حين أنه يتطلب الكثير من التضحيات عن التقليد السابق؟

ويجيب بعض المؤرخين عن ذلك بأن سياسة الاحتواء كانت فى واقع الحال تعبيرا عن الرأسمالية الأمريكية العسكرية، ولكن ليس ثمة دليل على أن ترومان ومجلس وزرائه ورؤساء الأركان ووزارة الخارجية وأربعة أخماس أعضاء الكونجرس والشعب كانوا مجرد سذج ومغفلين خاضعين لمؤسسة بيت لحم للصلب أو لشركة چنرال موتورز، أو أن موازنات هذه المؤسسات الصناعية اعتمدت على النفاذ إلى أسواق أوروپا الشرقية. ولم يفسر أحد لنا أنه إذا كانت الحكومة الأمريكية معتدية فى الحرب الباردة - نزولاً على إرادة رجال الأعمال - فلماذا لم تحاول الحكومة الأمريكية أن تسحق التكتل السوڤييتى إبان الأعوام التى كانت تحتكر فيها القوة النووية؟ ولم يعتنق الأمريكيون الاحتواء انطلاقا من قلق عاطفى على أوروپا الشرقية. وللتأكيد فإن ترومان ومن جاء من بعده حرصوا على التحسر على مصير «الأم الأسيرة» دون أن يسيئوا إلى الناخبين المنحدرين من أصول شرق أوروپية. بيد

أن أغلبية الأمريكيين لم يلقوا بالا إلى المجر أو بلغاريا ما لم يكن مصيرهما شاهدا على تهديد أكبر لأمم كانوا يهتمون بها فعلا. وكانت الأمة التى تحظى بأقصى قدر من الاهتمام بين الأمريكيين هى الولايات المتحدة ذاتها.

حقيقة أن ميلاد الاحتواء قد يكون أقل تعقيدا مما اعتاد المؤرخون من جميع الاتجاهات على تصويره. وبداية فإن ترومان ـ على عكس روزفلت ـ كان بوسعه الاعتماد منذ البداية على إجماع دولى النزعة. وكان عليه فحسب أن يحول الآمال التى علقها الأمريكيون على الأمم المتحدة إلى موجة غضب تجاه الاتحاد السوفييتى.. «تعنى أنه بعد حربين عالميتين ما زال العالم القديم عاجزا عن رؤية الضوء، أى أنه علينا أن نواجه وحشًا عدوانيًا أيديولوجيًا آخر!»..

وعلاوة على هذا فإن الأمريكيين إذا كانوا غاضبين فقد كانوا خائفين أيضا. فالأمة ظنت أنها تعلمت دروسا صعبة فى الجغرافيا السياسية خلال العقد السابق، وعلى رأس ذلك أن توازنا فى القوى أوروبيًا آسيويًا يعد أمرًا حيويا بالنسبة للأمن الأمريكى.

ومع ذلك كانت قصص الجاسوسية الشيوعية شحيحة للغاية. فبالرغم من الرفض الهائل لدى الأمريكيين لتكتيكات السناتور چوزيف مكارثى، فإنها لم تصدر من فراغ. فقد كان هناك شيوعيون ومتعاطفون مع الشيوعيين بجانب متعاطفين سابقين (وهم من وصفهم ترومان بالحمر والزائفين والقرمزيين)[٦٨] فى مراكز النفوذ، كما أثبتت ذلك قضية الجرهيس وتنظيمات جواسيس المنشآت النووية. ولم يعلم أى امرئ كان بعددهم تحديدا أو مدى تغلغلهم وقوتهم. وفضلا عن هذا (ما كان كارثى صائبا بشأنه) أن الوكالات الحكومية بدت عازفة عن تتبع وملاحقة أبناء الشعب. ولذا كان مشهد الذعر الغريب لحالة من الفزع القومى بسبب تغلغل الشيوعيين فى إدارة كانت تعمل على تعبئة الرأى العام العالمى لاتخاذ موقف جرىء مناهض للشيوعية.

وقد يرى أنصار مذهب التعديلية أن ترومان وأنصاره بالغوا فى شأن التهديد السوفييتى عن عمد. ويسخر آرثر إم. شليزنجر وستانلى هوفمان من «الجيل البطولى للسياسة الخارجية الأمريكية ـ الآباء المؤسسين الجدد ـ رجال ٤٧/ ١٩٤٨»[٦٩]، لكن الحقيقة أن واشنطن استغلت فكرة «البعبع الشيوعى» ليس فقط لإقناع الأمريكيين بالتدخل فى أوروبا، بل لتبرير برنامج اشتمل على سيطرة أمريكا على نصف الكرة

الغربى والأطلنطى والهادى، بنظام موسع لإرساء القواعد والنفاذ إلى الموارد والأسواق فى معظم أنحاء أوراسيا، وإنكار هذه الموارد على عدو محتمل والحفاظ على التفوق النووى.[٧٠]

ولم ننكر ذلك؟ قد يذهب المرء للقول بأن السبب الرئيسى لانسجام الأمريكيين الجيد مع الاحتواء، هو أن السياسات التى جاءت نتيجة طبيعية له اتفقت بصورة جيدة مع التقاليد الستة السابقة للسياسة الخارجية الأمريكية. إن الاحتواء أظهر نوازع التحدى غير البعيدة عن سطح الشخصية الأمريكية (النسر فارد الجناحين ـ الولايات المتحدة ضدهم ـ وغير ذلك من الشعارات) وأقنعت الأمة بأن أقدم تقاليدها وأكثرها جرأة وهى الحرية، باتت تحت الحصار فى الداخل والخارج.

ولم ينتهك الاحتواء كذلك نزعة التفرد الأمريكية كما قد يبدو للوهلة الأولى. فبالرغم من أن الولايات المتحدة أطلقت اليد لالتزاماتها على طول خريطة العالم وعرضها، فإنها كانت الرئيس لجميع التحالفات، ولذا احتفظت بحريتها فى الحركة.[٧١]

وفى الوقت ذاته، انسجم الاحتواء بسهولة مع الإمپريالية التقدمية، إذ إنه أضفى الشرعية على فكرة وجود قوة عسكرية أمريكية عبر المحيطات، والتى جعلت من مناطق فى آسيا والشرق الأوسط محميات فعلية. لقد كان الاحتواء خادما مطيعا لنزعة التوسعية، وناهض فى ذلك المجال الإمبراطوريتين الاستعمارية والشيوعية، ومن ثَمّ فتح أسواق وموارد نصف العالم أو أبقاها مفتوحة.

بل إن سياسة الاحتواء كرمت مبادئ الويلسونية فى الشق الذى خدمت فيه قيم الدولية الليبرالية، واستخدمتها كأسلحة فى الحرب الباردة، واستغلت الأمم المتحدة إذا أتيح لها ذلك، ومن ثَمّ فإن الهيمنة الأمريكية شكلت نوعا أو صورة من صور الإمپريالية المناهضة للإمپريالية.[٧٢]

وليس هناك ما ينقل طبيعة النكهة الأمريكية للاحتواء أفضل من لغة المذكرة ٦٨. ويرجع هذا تحديدا إلى أنها لم تكن نشرة إعلامية، بل وثيقة داخلية بقيت سرية حتى عام ١٩٧٥. ورأت هذه الوثيقة أن الاهتمام الرئيسى للحكام السوفييت كان منصبا على ضمان سلطتهم بالداخل، ويتطلب ذلك منهم أن يوسعوا سلطتهم بصورة

ديناميكية إلى أن يحققوا القضاء الكامل - فى نهاية المطاف - على أى معارضة فعالة تناهض سلطتهم.

يرجع هذا إلى أنه أينما حلت الحرية - أكثر الأفكار سرعة فى العدوى فى التاريخ - فإنها تهدد بإصابة الشعوب غير المرتاحة الخاضعة لسلطة الكرملين. ولأن الولايات المتحدة كانت القوة الوحيدة القادرة على إحباط خطة الكرملين، كان الشيوعيون حريصين على استهداف الولايات المتحدة نفسها بكل ما فى جعبتهم من أسلحة من القنابل الذرية إلى تخريب الاتحادات العمالية والمدارس والكنائس ووسائل الإعلام.

وماذا كانت الخيارات المتاحة للأمريكيين؟

الخيار الأول تمثل فى مواصلة السياسات القائمة الرامية إلى احتواء القوة السوڤييتية لكنها تفتقر إلى القوة الرادعة الكافية لذلك. والخيار **الثانى** كان شن حرب نووية وقائية. **والثالث** تمثل فى العودة إلى الانعزالية. **والرابع** كان دعم سياسة الاحتواء من خلال البناء السريع لقوة العالم الحر من أجل وقف اتجاهات الكرملين للهيمنة على العالم ودفعه للتراجع عن ذلك. وإذا ترجم ذلك بصورة خاطئة، رأى واضعو الوثيقة ٦٨ ضرورة التركيز على الطبيعة الدفاعية الكامنة فى الخيار الرابع.

ولم يكن السبيل إلى إجبار الكرملين على التراجع هو باستخدام القوة، بل عن طريق خطوات لهدم سلطة الكرملين ونفوذه داخل الاتحاد السوڤييتى والمناطق الخاضعة لسيطرته. وبعبارة أخرى ستكون الطريقة السوڤييتية الراهنة نفسها التى ينتهجها فى الحرب الباردة، ولكنها ستستخدم ضد الاتحاد السوڤييتى ذاته. (٧٣)

وعلاوة على هذا، عرَّفت الوثيقة ٦٨ النزاع بأنه صراع بين المجتمع الحر «الذى يقدر الفرد كهدف فى حد ذاته»، «والجماعى الذى يعيش من خلاله الأفراد كعبيد فقط للحزب الحاكم». ومن ثَم لم تكن شعوب التكتل السوڤيتى أعداء، بل كانت أقوى حلفاء محتملين فى الصراع ضد الجهاز الشيوعى.

وأحجم واضعو الوثيقة عن عمد عن وضع أى تصور طوباوى أو تصور خاص بهم لمنافسة الماركسية وتقديم صيغة مضادة لها: «لن يكون هناك انتصار كامل من أجل قيام مجتمع حر، لأن الحرية والديمقراطية لا يمكن تحقيقهما بصورة كاملة». (٧٤)

وهنا مكمن الفضيلة الأساسية للوثيقة بل وتواضعها. فالشخص المثالى الزائف هو من يعد بالمثل، أما المثالى الحقيقى فإنه يعلم أن المثل متعذرة التحقيق على أرض الواقع، لأنها وفقا للتعريف مثاليات.

وبتقويم هرم السلطة السوفييتى وفقا لمعاييره الخاصة، نجده نظاما معصوما من الخطإ (نظام إلهى). فى حين أن القيادة الأمريكية وفقا لمعاييرها الخاصة كانت خاضعة لنقائص البشر، وكانت قضيتها هى الحفاظ على تلك الفضائل المعيارية مثل العدل والتسامح وآداب السلوك، وهى نفس المعايير التى يعجز الأفراد الأحرار أنفسهم دوما عن امتلاكها كاملة.

وكتب ماديسون فى مقالات «الفيدرالى» أن «القضية الرديئة دائما ما تخون نفسها». وجاء فى كتاب «الصلوات الشائعة». . «قد يسعدك أن تسامح أعداءنا المضطهدين المفترين وأن تحول نوازعهم».

وهكذا رفض واضعو الوثيقة ٦٨ فكرة الحرب الوقائية، وعلقوا إيمانهم على وجود فكرة الحرية ورسوخها داخل معسكر العدو، وطلبوا من الأمريكيين أن يتصرفوا انطلاقا من أن حريتهم الخاصة باتت تعتمد على حرية الآخرين. وشارك ترومان نيتز فى اعتقاده بأن الحرب الباردة هى فى الأساس حرب بين الإيمان والمادية، وأن الديمقراطية ما هى إلا قوة روحانية لكن «الخطر الذى يتهددنا فى العالم اليوم يناصب القيم الروحية العداء بصورة صريحة وكاملة. فالحركة الشيوعية الدولية تقوم على أساس تعصب رهيب وشرس. إنها تنفى وجود الرب وتحرص على تحريم عبادته أينما وجدت إلى ذلك سبيلا». وعلى نفس نغمة مكنيلى وويلسون قال ترومان:

«لقد خلقنا الرب ونصبنا فى موقع السلطة والقوة التى ننعم بها الآن من أجل غرض عظيم».(٧٥)

بل إن هذا الرئيس المعمدانى فعل ما لم يقدم عليه أى من سابقيه، بل ولم يجرءوا عليه، وهو إقامة علاقات دبلوماسية مع الفاتيكان.

❋ ❋ ❋

ولكن علينا ألا نضخم القضية. فبغض النظر عن كل ما نجتره عن الاحتواء وما قام على أساس هذه السياسة وما تم مواءمته معها (أو على الأقل أنها لم تلحق ضررا

لا يمكن التساهل فيه بالنسبة لتقاليد أمريكية أخرى) فإن آثار سياسة الاحتواء هذه كانت مقلقة. ففى الداخل، تطلبت الحرب الباردة التجنيد الإجبارى وقت السلم، وضرائب عالية، وتدخل فيدرالى فى شئون العلوم والتعليم والأعمال والعمل (دأب ترومان على فض الإضرابات بالقوة باسم الأمن القومى) فضلا عن المراقبة المحلية وأداء قَسم الولاء، وجميعها أعباء على الحرية فى الداخل. وسارع منتقدو كل هذا إلى إعادة ترديد نفس شعارات الحياديين خلال الثلاثينيات، تنبئوا بأن الحرب الباردة ستأتى بالفاشية أو الاشتراكية، وأنها ستجبر الولايات المتحدة على اتخاذ نفس شاكلة العدو الذى تدينه. وخشى كينان من أن يحبط هذا كله الجهود المبذولة فى اتجاه بعينه، إذ إن أهم أثر يمكن للولايات المتحدة أن تحققه بالنسبة لتطور الأحداث الداخلية فى روسيا هو مواصلة الاهتمام بأثر المثال. . أثر ما هو قائم. وليس فحسب ما هو هذا الشيء بالنسبة للآخر، بل أثره بالنسبة لمعتنقيه. .(٧٦)

وقال أيزنهاور مرارا وتكرارا إن الولايات المتحدة ستخسر الحرب الباردة فى حالة واحدة فقط، هى أن تبدأ فى تسليح المجتمع وأن تفلس الخزانة وأن تستنفد إرادة الأمريكيين على المقاومة: «**يتعين علينا ألا ندمر ما نسعى للذود عنه**».(٧٧)

وفى الخارج كانت سياسة الاحتواء تمثل جهدا جهيدا - «**فالإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس أبدا، هى إمبراطورية لا ينام حكامها بتاتا**»(٧٨) - وكانت خطيرة ومثيرة للإحباط بشدة. ولم تكن تعد بأى نصر قريب كما شابها التوتر للغاية. فإذا سارت بخنوع بلغت حد المهادنة، وإذا سارت بقوة ونشاط أكثر من اللازم خاطرت بفناء نووى، وإذا تمت باعتدال خاطرت بإشعال حروب محدودة تبلغ حد الطريق المسدود (لا منتصر ولا مهزوم) كأقصى ما يمكن أن تهدف له، وفى أماكن نائية قد يكون لها أهمية إستراتيجية أو لا يكون. وحقيقة فإنه منذ اليوم الذى أقر فيه الأمريكيون الدخول فى الحرب الكورية إلى نهاية الحرب الباردة بعد ذلك بأربعين عاما، كانت إستراتيجية الاحتواء هذه تحظى بتأييد غير محدود، ولكنها لم تحظ بشعبية إيجابية لدرجة أن لم يباركها أى مرشح.

ففى عام ١٩٥٢ وعد برنامج الجمهوريين «**بجعل الحرية منارة أمل يخترق نورها الأماكن المظلمة، وبوضع حدٍّ لسياسة الاحتواء السلبية غير الأخلاقية والتى لا طائل منها**».(٧٩)

وفى عام ١٩٥٦ وعد آدلاى ستفنسون بضبط التسلح، وبعقد محادثات قمة لإنهاء الحرب الباردة. وفى عام ١٩٦٠ شجب چون كيندى الجمهوريين «المنهكين»، ووعد بالتفوق على السوڤييت فى الفضاء وفى تكنولوچيا الصواريخ، وبالفوز فى المعركة من أجل العالم الثالث. وفى عام ١٩٦٤ ردد بارى جولد ووتر شعارات التراجع لعام ١٩٥٢. وفى عام ١٩٦٧ عرض ريتشارد نيكسون مبدأ الوفاق. وفى عام ١٩٧٢ صرخ چورچ ماكجفرن «أمريكا.. عودى إلى وطنك». وفى عام ١٩٧٦ وضع چيمى كارتر قضايا حقوق الإنسان والشمال والجنوب قبل الصراع الشرقى الغربى مع الشيوعية. وفى عام ١٩٨٠ حث رونالد ريجان الأمريكيين على «التشامخ» وتوديع الشيوعية إلى مزبلة التاريخ.

ولم يقل أحد كذلك «صوت لصالحى وسأجر هذه الأمة أربعة أعوام جديدة فى المأزق العصيب». ولكن ما أن يتولى المرشح منصب الرئاسة حتى يباشر عمله فيها. وفيما يتعلق بالأمة ذاتها التى لم تحتج أبدا، فإنها اعتادت تنفس الصعداء عندما يتحول رئيس من الصقور إلى الحمائم، وعندما يتحول أحد الحمائم إلى الصقور.

وهكذا كانت مختلف مراحل الاحتواء. وأولها كانت مرحلة كينان التى أوحت بمبدإ ترومان وخطة مارشال وحلف الناتو، والثانية تسليح سياسة الاحتواء وفقا للوثيقة ٦٨ والحرب الكورية، والثالثة تمثلت فى مرحلة أيزنهاور-دالاس ووثيقة النظرة الجديدة (New Look) التى خفضت الإنفاق الدفاعى واعتمدت على الردع النووى وتحالفات تطوق العالم الشيوعى. بيد أن بناء السوڤييت للصواريخ العابرة للقارات وتشجيع السوڤييت والصينيين لاندلاع حروب للتحرر الوطنى أوحى بردود مرنة. ومن هذا المنطلق رضى چون كيندى وليندون چونسون بخيار المأزق النووى وشنا حروبا للتمرد فى العالم الثالث.

وخامس هذه المراحل انتهجها نيكسون وهنرى كيسنجر واقترحا من خلالها احتواء القوة السوفييتية من خلال سياسة الترغيب والترهيب، واستغلال الانقسام القائم بين السوڤييت والصينيين. وسار چيرالد فورد وكارتر على المنوال نفسه، إلى أن جاء رونالد ريجان ليفتح المرحلة السادسة والأخيرة عن طريق تكديس عسكرى وهجوم أيديولوچى ومساعدات «للمجاهدين» من أمثال منظمة تضامن العمالية فى پولندا، وجبهة الكونترا فى نيكاراجوا، والمجاهدين الأفغان.

وهكذا تحققت نبوءة كينان لأسباب عديدة، وهى أن الشعوب الخاضعة ستثور من تلقاء ذاتها ضد موسكو لتموت إمبراطورية الشر.

لكن الاحتواء لم يمت بموت الاتحاد السوفييتى. فهذه الاستراتيجية حظيت بقدر كبير من التسامح، وإن كانت لم تفز بأى مشاعر حب، وكانت ناجحة بوضوح بالرغم من صعوبتها الشاقة وكلفتها العالية عمليا، للدرجة التى عاشت فيها ككيان مستقل عن الحرب الباردة.

بالرغم من كل ما تردد عن النظام العالمى الجديد، انتهج جورج بوش إستراتيجية الاحتواء خلال حرب الخليج وبعدها، كما دعا كثيرون إلى احتواء اليابان خلال الثمانينيات واحتواء الأصوليين الإسلاميين والصين خلال التسعينيات. وإذا استشعر الأمريكيون بتهديدات لمصالحهم الحيوية بالخارج، وعندما يحدث ذلك فإنهم يعودون مجددا لمزاج الاحتواء.

وهذا التكهن سيقلق القارئ الذى يشكك فى الدور الذى لعبته إستراتيجية الاحتواء فى انهيار التكتل السوفييتى، أو أن يتساءل القارئ عن كيفية نجاح إستراتيجية أشعلت الحرب فى ڤيتنام، وهذا سؤال جيد. ولكن قبل أن يتهم هذا القارئ أو ذلك سياسة الاحتواء وحدها بمأزق ڤيتنام، فإننى أدعوه إلى بحث الدور الذى لعبه ثامن تقاليد السياسة الخارجية الأمريكية فى أصول وطبيعة ومحصلة هذه الحرب. وهذا التقليد الثامن كان الأكثر مدلولية من التقاليد السبعة السابقة جميعا.

الفصل الثامن

تحسين العالم

في مساء السابع من إبريل سنة ١٩٦٥، خاطب ليندون ب. چونسون(*) الأمة بالتليفزيون من جامعة چونز هوبكنز. وقبل شهر، كانت حملة القصف المسماة بالرعد الهادر قد بدأت فوق ڤيتنام الشمالية، ونزل أوائل جنود مشاة البحرية الأمريكية في قاعدة دانانج في الجنوب. ومنذ اغتيال رئيس الوزراء الڤيتنامي الجنوبي نجو دن ديم، ثم اغتيال الرئيس كنيدي بعد ذلك بثلاثة أسابيع، ظل الرئيس چونسون يواجه بقوة كيفية التعامل مع الوضع المتردي في جنوب شرقي آسيا. وأعتقد أنه يعرف ماذا نفعل الآن. وقال: إن نوع العالم الذي يبحث عنه الأمريكيون لن يبنى أبدا بالقنابل والرصاص. ولكن لأن القوة يجب أحيانا أن تسبق العقل، أرسل تنبيها إلى هانوي بأن الولايات المتحدة لن تهزم أو تمل. «إننا يجب أن نقول في جنوب شرقي آسيا - كما فعلنا في أوروبا - بكلمات الكتاب المقدس «إنك ستأتي حتى اليوم وليس أبعد من ذلك». وبعدئذ، ظهر چونسون بوجه مخلص ذي غد بارز وقدم مستقبلا بديلا: «الخطوة الأولى هي أن بلدان جنوب شرقي آسيا يجب أن تشترك في جهد تعاوني واسع ومتعاظم من أجل التنمية. وأننا نأمل أن ڤيتنام الشمالية ستأخذ مكانها في هذا الجهد العام. ومن جانبنا سأطلب من الكونجرس المشاركة باستثمارات أمريكية بمليار دولار في هذا الجهد بمجرد أن يبدأ. والمهمة ليست شيئا أقل من إثراء آمال ووجود أكثر من مائة مليون فرد. وهناك الكثير لعمله. فنهر ميكونج المترامي يمكن أن يوفر الغذاء والماء والطاقة بدرجه تصبح معها هيئة وادي تنيسي في أمريكا شيئا صغيرا. إن عجائب الطب الحديث يمكن أن تنتشر في القرى حيث يموت الآلاف سنويا بسبب نقص الرعاية. والمدارس يمكن أن تشيد لتدريب الناس على المهارات المطلوبة لإدارة عملية التنمية. وطوال وجودهم عاش معظم الرجال في فقر مهددين بالجوع. ولكننا نحلم بعالم حيث الكل يحصل على الطعام، ومليء بالأمل. وسوف نساعد في صنع ذلك»[1].

(*) ليندون ب. چونسون (١٩٠٨ - ١٩٧٣) الرئيس السادس والثلاثون للولايات المتحدة (٦٣-١٩٦٩). ديمقراطي. كان نائبا للرئيس كنيدي وأصبح رئيسا بعد اغتياله. (المترجم).

وكان چونسون واثقا من أن خطبته كانت انتصارا، وهمس إلى سكرتيره الصحفى بيل مويرز، بينما كان يهبط من على المنصة: «(هو)(*) العجوز لن يستطيع أن يرفض ما عرضته»[٢].

وكان للخطبة عديد من المؤلفين الذين حاولوا الإجابة عن السؤال الذى طرحه چونسون على مجموعة الثلاثاء المعتادة من القريبين: إلى أين نحن ذاهبون فى ڤيتنام؟ وتمسك وزير الدفاع روبرت ماكنمارا بأن الجيش كان سائرا فى ذلك الطريق الخاطئ وأن النصر سيأتى فقط من خلال برامج تهدئة. وتخيل مويرز أن «خطة چونسون» تصنع لجنوب شرقى آسيا ما صنعته خطة مارشال لأوروبا. وأراد المساعدان چاك فالنتى وريتشارد جودوين نقل حرب چونسون ضد الفقر إلى آسيا. وجاء السناتور چورج إس. ماكجفرن (ديمقراطى - ساوث داكوتا) باقتراح «خطة لتنمية منطقة نهر ميكونج، ربما على نموذج هيئة وادى تنيسى لتشجيع ليس فقط النمو الاقتصادى بل أيضا الإحساس بتجمع إقليمى». وكان چونسون متحمسا. وقال لمجموعة الثلاثاء: لقد عانيت طويلا من أجل هذه المسألة ولكنى معجب بها[٣].

كان الأمريكيون بكاملهم قد تعودوا منذ أمد طويل على أن الرفاهية والرقى عمل الحكومة، أقل كثيراً من السياسة الخارجية. وكانوا - دائما - يعُدّون أنفسهم كرماء، وكانوا، حقيقة، واعين لمسألة «أن من يُعطى كثيراً، يُطلب منه الكثير»[٤].

ولا يوجد شىء فى الدستور أو الكتاب المقدس يفرض عليهم أن يكون عمل الخير التزاما عليهم بالنسبة للأجانب. وعندما طُلب من چون كوينسى أدامز التبرع لحركة الاستقلال اليونانية، أجاب بأن «ذلك سيخرق مبدأ عدم التدخل، وعلى أى حال إن لدينا مطالب نجدة من هم فى محنة فى الداخل بأكثر من كفايتنا لاستيعاب كل قدراتنا فى المساهمة بالتبرعات»[٥] وسيمر قرن تقريبا، قبل أن تسمع الحكومة الفيدرالية نداءً لإطعام الجائع وتشجيع الديمقراطية فى الخارج. وسيمر نصف قرن آخر حتى يصبح تحسين العالم التقليد الثامن فى العلاقات الخارجية للولايات المتحدة.

فكرة تحسين العالم هى ببساطة التعبير الاجتماعى الاقتصادى والسياسى الثقافى عن رسالة أمريكية لجعل العالم مكانا أفضل. وقد تأسست على الافتراض بأن الولايات

(*) يقصد الزعيم الڤيتنامى هو شى منه. (المترجم)

المتحدة، يمكن وسوف ويجب، أن تصل إلى الخارج لمساعدة الأمم الأخرى فى المشاركة فى الحلم الأمريكى. والأفعال «يمكن وسوف ويجب» تلمح فى المقابل إلى أن الافتراضات بأن النموذج الأمريكى صالح عالميا، وأن الأخلاقية التى تفرض على الولايات المتحدة المساعدة، يحاكيها الآخرون، وأن التجربة الأمريكية ذاتها فى النهاية تعتمد على الأمم الأخرى الهاربة من المجاعة والقهر. هذه المفاهيم يمكن أن تكون موجودة مبكراً فى خطابنا القومى، لكنها لم تقفز إلى السياسة حتى اصطرع الأمريكيون بين عامى ١٩١٢ و ١٩٥٠ بعالم ثورى واقتربوا من الاعتقاد (كما قال چونسون) بأن «لدينا القوة، والآن الفرصة لجعل ذلك الحلم حقيقة». ويمكن أن يسأل القارئ كيف لأحد أن يفصل خطة مارشال أو مشروع نهر ميكونج أكثر من الاحتواء، أو لماذا لأحد أن يبجل، مثلا، رؤية چيمى كارتر للسياسة الخارجية أكثر من تلك التى كانت لويلسون. عن الاعتراض الأول، سوف أجيب بأنه فى حين أن سياسة تحسين العالم كسبت مساندتها العريضة من الحزبين بسبب دورها فى الصراع ضد الشيوعية، فإن افتراضاتها ومناهجها انبثقت قبل الحرب الباردة وتواصلت بعد الحرب الباردة. وعن الاعتراض الثانى سأجيب بأنه أيا كان القدر الذى كانت به رؤية تحسين العالم متضمنة فى الويلسونية أو متوافقة معها، فإن رؤية ويلسون الخاصة كانت متواضعة بالمقارنة برؤية الأمريكيين بعد عام ١٩٤٥. وعلى كل، فإن ويلسون كان يأمل فقط فى جعل العالم آمنا للديمقراطية، وهدف أصحاب رؤية تحسين العالم جعل العالم ديمقراطيّا. وفى حين أن الويلسونية كانت ردّا أدائيا وقانونيا على تحدى عالم ثورى، وكان الاحتواء ردّا إستراتيجيا وعسكريا، كانت سياسة تحسين العالم اقتصادية وثقافية وسياسية.

❊ ❊ ❊

متى بدأ الأمريكيون يتعرفون ـ وفق الاعتقاد ـ بأن لهم رسالة لتحويل المجتمعات الخارجية؟ الإجابة:

أعتقد، أن ذلك كان فى عام ١٨١٩، عندما قرر المجلس الأمريكى للإرساليات الخارجية، تحويل جزر الساندوتش (هاواى) إلى الإنجيلية. هؤلاء الأبرشيون المخلصون أرشدوا مرسليهم «ألا يستهدفوا شيئا أقل من تغطية تلك الجزر بالحقول المثمرة والآبار العذبة والمدارس والكنائس، والارتفاع بكل الناس إلى حالة صاعدة من الحضارة المسيحية. وأن يجعلوهم عارفين بمعنى الحرف، ويعطوهم الكتاب

المقدس والمهارة لقراءته، ويحولوهم من مجرياتهم وعاداتهم البربرية، وأن ينشروا بينهم الفنون والمؤسسات وعادات الحضارة والمجتمع».[٦]

لقد عقلوا أن المسيحية يصعب أن تتجذر بين أناس فى عبودية للأمية والخرافة والمحرمات الوثنية ورق الإقطاع، وبمجرد أن يتحولوا فإنهم سيتطلعون إلى إصلاح كل جانب فى حياتهم بأى شكل. وبتصميم راسخ - مع بعض المساعدة غير المطلوبة من الحيتان الزائرة - نجحوا فى أمركة هاواى فى ظرف عقدين[٧]. طبعا، لم تتلق الإرساليات الدينية أى مساندة حكومية، **ولكن بنهاية القرن التاسع عشر فإن وزنهم - متضمنا آلاف من الكهنة والزوجات والمساعدين وعشرات ملايين الدولارات من التبرعات - مثل نموذجا مسبقا لمشروعات العون الحكومى فى منتصف القرن العشرين.** ولذلك أيضا كانت جدالات الإرساليات حول الإستراتيجية. هل هو حق أو ضرورى تحويل الثقافات الأجنبية! مكتب الڤاتيكان لانتشار الإيمان، قال دائما لا: ليس هناك أكثر سخافة من نقل فرنسا وإسپانيا وإيطاليا أو بعض البلدان الأوروبية الأخرى إلى الصين؟ لا تقدم كل ذلك لهم، فقط الإيمان؛[٨] ومع ذلك رفض البروتستانت تعميد أى شخص غير قادر على فهم الكتاب المقدس، ورأوا أن التساهلات التى قام بها اليسوعيون - على سبيل المثال - مع الثقافات الغريبة وثنية. وبقى أن ضمائرهم كانت جد مضطربة لما حدث فى هاواى، ذلك أنه فى عام ١٨٤٥ نادى روفوس آندرسون (آخذًا كالعادة اتجاها بريطانيا) بـ«سياسة إرسالية جديدة» لا تساوى المسيحية بـ«التعليم، الصناعة، الحرية المدنية، الحكومة العائلية، النظام الاجتماعى . . فكرتنا عن التقوى» بل وعظ بأن الإرساليات يجب أن تقيم الكنائس لتحويل المحليين، ثم تخرج، وتثق فى الروح القدس لعمل الباقى. وقد تزايدت المعارضة لـ«تصدير الصيغ الغربية المحددة حتى لأغراض التحسن الاجتماعى» ثم بعد ذلك، خبت عندما خبت البشارة الاجتماعية.[٩]

وبحلول عام ١٨٩٨، كما نعلم، كان البروتستانت تواقين لدمج رسالتهم الروحية مع رسالة الإمپريالية التقدمية، وتباهوا بالمستشفيات والمدارس والمزارع التى أقامتها إرسالياتهم فى الصين.

وتصاعد النزاع الإستراتيجى - هل أوحى التبشير بالإصلاح الاجتماعى؟ أم يجب أن يظهر الإصلاح الاجتماعى الطريق للتبشير؟

بعد الحرب العالمية الأولى عندما صدم چون د. روكفلرچونيور قراء «ساترداى إيڤننج پوست» بهجوم صريح على الإرساليات الأمريكية «أبطلوا عقيدة وأخلاق تافهة ومتعبة. وتبنوا برامج تتجاوب مباشرة مع الحاجات الإنسانية».

وسرعان ما تملكت إصلاحية روكفلر جيل پيرل باك الذى كان أيضًا «مضجراً حتى الموت من ذلك الوعظ المتواصل. . دعونا نعبر عن ديننا بالخدمات الحية». واعترض بعض الإنجيليين، ولكن بحلول منتصف القرن ـ اكتشف پروفيسور بدهشة ـ أن معظم المبشرين لم يعودوا «الصورة النمطية لمخلصى الأرواح من قراء الكتاب المقدس» «ولكن بالأحرى أنماط فرق السلام قبل فرق السلام». (١٠)

ودخل عمل الخير السياسة الخارجية للولايات المتحدة خلال تلك الأعوام نفسها، والفضل الأعظم لهربرت هوڤر(*)، واليوم يتخيله عديدون على أنه كويكر(**) بارد وميليونير عصامى ترأس لامباليا فوق الكساد العظيم.

وفى الحق كان هوڤر كريما، حميما، مسالما، ورسول التعاون بين الحكومة وقطاع الأعمال أو الحرية المنظمة، وليس رأسمالية قطع الزور. وأحبه زملاؤه وقال أحد المقربين له: «إذا كان خجولا فهو أيضا جرافة بخارية»(١١)، وفوق كل شيء، كان مهندسا، اعتقد فى قوة العلم التطبيقى والإدارة ليزدهر العالم. وكانت إدارته لحملة الإغاثة البلچيكية قد جعلت من هوڤر بطلاً إنسانيا، وعندما دخلت الولايات المتحدة الحرب عينه ويلسون رئيسا لإدارات غذاء الحرب والإغاثة الأمريكية. وبحلول عام ١٩١٨، بحركيته ومهارته (وبوظة جوّدها بنفسه)، أصبح هوڤر واحدًا من الرجال الأكثر تأثيرا فى العالم. وبحلول عام ١٩٢٣، شحن بما قيمته ٥ مليارات دولار من الطعام إلى الملايين من الجائعين الأوروپيين، وفى تقديره، أنه «أنقذ الحضارة». (١٢)

إن تجارب هوڤر أقنعته بأن الثورات مثل تلك التى فى المكسيك والصين وروسيا كانت نتاجا للفقر والظلم واليأس. وقد استطاع ويلسون الوعظ بالديمقراطية، لكن

(*) هربرت كلارك هوڤر (١٨٧٤ ـ ١٩٦٤) الرئيس الحادى والثلاثون للولايات المتحدة (١٩٢٩ ـ١٩٣٣). جمهورى. (المترجم)

(**) من أتباع مذهب الكويكرز البروتستانتى. (المترجم)

هوڤر اعتقد، مثل المبشرين فى زمنه، أن الغذاء والأمل فى مستقبل أفضل كانا مطلبين سابقين للتحول، لأنه لا يمكن ضمان استقرار الحكومة وسط شعب جائع. (١٣) وبعد هدنة سنة ١٩١٨، دافع هوڤر أمام الحلفاء عن رفع الحظر خشية أن يتحول الألمان اليائسون إلى متطرفين. وبينما قلق ويلسون بشدة إزاء ما يفعل فى روسيا، حثه هوڤر على محاربة الشيوعية بالخبز وليس بالمدافع. حتى إنه عارض جهد إغاثة مشترك بين الحلفاء خوفًا من أن بريطانيا وفرنسا قد تستخدمان الغذاء كسلاح سياسى. وبقدوم إبريل سنة ١٩١٩ اشتعل غضبه على ما رآه انتقاما أنجلو فرنسيا وحث ويلسون على أن يدع مؤتمر السلام:

«إذا كان الألمان لا يستطيعون تطبيق السلام على أسس النقاط الأربع عشرة، فإننا يجب أن نعتزل كوننا المفتاح والمخزون والبرميل لأوروپا، كما يجب أن نقرض كل العالم قوتنا الاقتصادية والأخلاقية، وإلا سيبحر العالم فى بحر من البؤس والنكبة أسوأ من العصور المظلمة». (١٤)

وفى عام ١٩٢١، نجح هوڤر فى إقناع هاردنج بطلب ٢٠ مليون دولار لإنقاذ «الملايين من الشعب المسيحى الجائع فى روسيا». واعترض الكونجرس بعد أن رفض أخيرا مشروع قانون بعشرة ملايين دولار للأمريكيين العاطلين، بينما جحد البولشفيون ٢٠٠ مليون دولار كدين قيصرى ووضعوا ١,٥ مليون رجل تحت السلاح، ولكن الكاپيتول هيل(*) أذعن لحجة هوڤر بأن العداء سيضعف ولن يقوى قبضة البولشفيين على الشعب. وقال هوڤر: «لقد فضلت غرس حب العلم الأمريكى فى قلوب الملايين عن أن أضيف للبحرية الأمريكية كل السفن الحربية الطافية على الأطلنطى». وفيما بعد اعترف بأن شحنات الغذاء يمكن أن تكون قد ساعدت كثيرا فى تقدم الحكومة السوڤييتية فى العمل. (١٥)

فى العشرينيات عمل هوڤر كوزير للتجارة ليوسع الأسواق المنظمة من خلال التعاون بين الولايات المتحدة والشركات الأجنبية (خصوصًا البريطانية)(١٦). وكرئيس حاول أن يضرب الكساد بسياسات تدخلية عَجَّلت بـ «الصفقة الجديدة»

(*) مبنى الكونجرس، ويقصد به هنا الكونجرس ذاته. (المترجم)

وسياسات عالمية لاستعادة التجارة الخارجية. (١٧) وفشل بالطبع. ولكن الكساد وصعود الفاشية أقنعا تدريجيا أمريكا روزفلت برؤية هوفر التكنوقراطية للعالم. فالديمقراطية يمكن أن يوعظ بها أو حتى يُحارب من أجلها ولكنها لا يمكن أن تزدهر فى عالم غارق فى اليأس. حتى هنا، إذا كان على الولايات المتحدة أن تقوم بوظيفة أفضل لصنع السلام بعد الحرب العالمية الثانية، فإنها فى هذه المرة عليها أن تضع أموالها ـ وإدارتها ـ حيث كان فمها.

إلى هذا الحد، كان تخطيط إدارة روزفلت لعالم ما بعد الحرب، إصلاحيًا عالميًا وكذلك ويلسونيًا. فإدارة الأمم المتحدة للإغاثة والتأهيل ما هى إلا السليل المباشر لإدارة هوفر للإغاثة الأمريكية، أنفقت أكثر من ٤ مليارات دولار لمساعدة الأمم التى ابتلتها الحرب من ١٩٤٤ إلى سنة ١٩٤٧. وشكا السناتور ڤاندنبرج من الدفع «بلا حدود فى أى مكان فى العالم حسبما تتبع أولئك المحدقين فى البلورة الكريستال». (١٨) ولكن الكونجرس دفع الأموال. وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى اللذان تأسسا فى بريتون وودز فى عام ١٩٤٤، كانا من جانب آخر مكرسين لإعادة الإعمار بعد الحرب، تحت الاعتقاد بأن المحنة الاقتصادية غذت الراديكالية السياسية بعد الحرب العالمية الأولى. وقلق الكونجرس حول مسائل السيادة. ولكنه اشترك بأكثر من ٣ مليارات دولار فى رأسمال الصندوق الدولى. وأخيرا، فإن شعب روزفلت فكر بعمق فى كيفية تطهير ألمانيا واليابان من العسكرية وتحويلهما إلى ديمقراطيتين منيعتين.

وقبل الاستسلام الألمانى، سيطرت مدرسة عقابية على تفكير واشنطن، وحددت خطة هيئة الأركان المشتركة لاحتلال ألمانيا (چى سى إس ١٠٦٧) برامج صارمة من أجل «منع ألمانيا من أن تهدد أبدا سلام العالم». وليس عاجلا، وصل الجيش والموظفون المدنيون إلى ألمانيا المخرَّبة، إلا أنهم بدءوا يلعنون الخطة العقابية التى كان قد وضعها «بلهاء اقتصاديون». . الديمقراطية يصعب أن تكون صلبة لدى أمة منهارة تفتقد حتى ضروريات الحياة. (١٩) فأى سياسات اتبعها الأمريكيون وأى ثقة سينالونها بسبب إعادة تأهيل ألمانيا بعد عام ١٩٤٥؟

الإجابة أبعد من أن تكون بسيطة. والثقة لم تكن فى حدها الأدنى لأن كل البرامج التى حددت فى (چى سى إس ١٠٦٧) إما أنها فشلت وإما أنها أجهضت. وعلى سبيل المثال فإن الأمريكيين وجهوا طعنة لتطهير المؤسسات المالية من النازية، فقط ليرجعوا الأمر فى مارس عام ١٩٤٦ إلى الألمان أنفسهم الذين تركوها تزوى فى هدوء. وترك التحكم فى الصناعة الألمانية ومعاقبة أثرياء الحرب بنهاية عام ١٩٤٦ الطريق إلى التزام أنجلو أمريكى نحو التحسن الاقتصادى السريع فى ألمانيا الغربية لجعلها شريكا متعافى معاديا للشيوعية. وبخصوص التأثير على الألمان بسبب الجرم الجماعى، سرعان ما فقد الأمريكيون شهيتهم لرؤية الجموع المهجَّرة والسكان المصابين بالهزال فى معسكرات الموت أو أفلام فظيعة. ولذلك مُنع المشروع فى يناير عام ١٩٤٦. وعاجلا أصبح الأمريكيون أكثر اهتماما بإيجاد «الألمان الطيبين» لتحميلهم مسئولية جمهورية ألمانيا الغربية. ولم يلق عدم التصديق على القرارات أى فرصة. فقط كانت الشهية غير عادية إلى الفتيات والجعة. وفى يوليو عام ١٩٤٧ استبدل بـ(چى س إس ١٠٦٧) كلها (چى س إس ١٧٧٩ التى أكدت الهدف «ألمانيا مستقرة ومنتجة»). [٢٠]

وسجلت استطلاعات الرأى العام أن الاحتلال حقق القليل بطريقة إعادة التثقيف. وفى نوفمبر عام ١٩٤٥، كان أكثر من نصف الألمان فى الاستطلاع يعتقدون أن النازية «فكرة جيدة نفذت بطريقة سيئة، بأكثر مما هى فطرة سيئة».

وبعد ٤ سنوات كانت الأرقام أكثر قليلا فى الاعتذار عن النازية. وعندما سألوا عن أى العناصر كانت حيوية لتعافى أمتهم، أجاب ٦٢٪ العمل الجاد و٣٣٪ الاعتقاد الدينى، وحوالى الربع فقط قالوا «توجه سياسى جديد». كما امتعض الألمان من اختيال موظفى الولايات المتحدة الذين تباهوا بتغيير مسار التاريخ، وشبهوهم بالمبشرين المطبوعين على «غسيل الشخصية»[٢١]. وليست هناك طريقة للتقدير الكمى للدور الذى لعبه الاحتلال الأمريكى فى صنع ألمانيا جديدة، ولكن الدارسين المتأخرين يظهر أنهم وصلوا إلى إجماع كيفى. أحدهم انتقد السذاجة المتضمنة فى افتراض أن شعبا ما يمكن أن يعيد تعليم شعب آخر باتجاه الديمقراطية. واستنتج آخر أن الاحتلال سرعان ما أن بدأ حتى أصبح منفصلاً تماما عن أهدافه. لقد استطاع منع حدوث أشياء إلا أنه لم يستطع إلا إحداث القليل جداً. [٢٢] ويكتب ثالث: عديد من الألمان كانوا يبحثون عن طرق لخلق بلد ديمقراطى أكثر مسالمة، وقد يقدرون عبر الزمن على صنع

ذلك بأنفسهم . . وقد أمدتهم سياسات الحلفاء - رغم كل شيء - بفرص ذهبية . (٢٣) وفى توكيد الچنرال لوسيوس د . كلاى المعتدل : «أنه من المحتمل أن الحرب الباردة والخوف من الروس جعلا الألمان يقبلون الاحتلال . . لقد بدأنا نبدو كملائكة . . بالمقارنة بما كان يجرى فى أوروبا الشرقية» . (٢٤)

وفى اليابان أيضا وصل الچنرال دوجلاس ماكارثر(*) بأچندة شجاعة: «أولا، تدمير القوة العسكرية. معاقبة مجرمى الحرب. بناء هيكل لحكومة تمثيلية. تحديث الدستور. إجراء انتخابات حرة. تحرير المرأة. الإفراج عن المسجونين السياسيين. تحرير الفلاحين. تأسيس حركة عمالية حرة. تشجيع الاقتصاد الحر. إلغاء القهر البوليسى. تطوير صحافة حرة ومسئولة. جعل التعليم ليبراليا. لا مركزية القوة السياسية. فصل الكنيسة عن الدولة». (٢٥) ويحتاج المرء ليضيف فقط «تحويل اليابانيين إلى المسيحية» - مشروع آخر توهمه ما كارثر - حتى تصبح القائمة مشابهة لقائمة المبشرين فى هاواى.

أما السفير الأمريكى فى طوكيو قبل الحرب چوزيف جرو ، فقد وضع أملا قليلا فى مثل تلك التطورية . وكتب فى إبريل عام ١٩٤٥ : «إننى متأكد من أننا لن نستطيع تطعيم نموذجنا الديمقراطى فى اليابان لأنى أعرف جيدا أنهم ليسوا جاهزين له وأنه ليس من المحتمل أن يعمل» . (٢٦)

من أصبح على حق : جرو أو المتحمسون للصفقة الجديدة بين فريق ما كارثر التواقين إلى تحطيم «الزيباتسيو» الصناعى وإعادة كتابة الدستور ، وجعل مجتمع وثقافة اليابان أكثر ليبرالية؟ (٢٧) . الإجابة هنا أكثر ذاتية عن حالة ألمانيا ، ليس فقط لأن الولايات المتحدة مرة أخرى ، غيرت المسار بنهاية عام ١٩٤٧ وبدأت تفكر فى اليابان كحليف فى الحرب الباردة ، ولكن أيضا لأنه كان هناك سبب للسؤال - باسترجاع الأحداث - عن القدر الذى تحولت به اليابان مطلقًا .

فى مجالات مثل حقوق المرأة ، والإصلاح الزراعى ، ونبذ الحرب - ظهرت إصلاحات الاحتلال كأنها سادت . ولكن البيروقراطية والسياسات الحزبية اليابانية ،

(*) دوجلاس ماكارثر (١٨٨٠ - ١٩٦٤) قائد أمريكى فى الحرب العالمية الثانية ، كان قائداً للقوات الأمريكية فى الشرق الأدنى بدءاً من مارس عام ١٩٤٢ وقوات الحلفاء التى احتلت اليابان ، وعزله الرئيس ترومان . (المترجم) .

والهكيل الاقتصادى، وثقافة التعليم، أظهرت استمرارية أكبر مع ماضيها قبل الفاشى، بأكثر مما هى مع أى شىء يستطيع المرء أن يسميه المرء أمريكيا. وربما كان أفضل شاهد، يوشيدا شيجبرو رئيس الوزراء العظيم الذى عمل مباشرة مع ماكارثر. وكتب: «إن ما يسمى شكلا ديمقراطيا للحكومة ما يزال فى طفولته فى بلدى. وبالرغم من أن خطوطه العريضة يمكن أن تبدو الآن وقد تحددت، فإنه حتى الآن نرى مؤشراً ضعيفًا على أن روحه قريبة من أن تعيش داخلنا». وحكم على الاحتلال بأنه نجاح، ولكن فقط لأن هدفه الأساسى «كان مماثلاً لهدفنا. . لإصلاح وإعادة صياغة اليابان كأمة مسالمة وديمقراطية». وحتى هذا الحد فإنه كان على اليابانيين أن يكافحوا من أجل هذا الهدف بأسنان «مثالية الصفقة الجديدة» التى «غالبا ما ذهبت إلى الحدود القصوى، فى جهل تام بالحقائق المعقدة السائدة فى بلدنا». لقد تخوف يوشيدا ـ على الأخص ـ من تساهل اليابانيين، والاعتداء على «الزيباتسيو»، والتدخلات التعليمية التى «كانت تمزق النسيج الأخلاقى لشبابنا المرتبك». (٢٨)

وقد يقع المرء فى إغراء أن يستنتج أنه إذا كانت ألمانيا واليابان توقفتا عن أن تكونا صانعتى مشكلات، فإن هزيمتهما الساحقة كانت أكثر أهمية فى تلك النتيجة بأكثر من احتلالهما بعد الحرب. غير أن الأمريكيين لم يروا الأشياء بتلك الطريقة، فى الوقت الذى كان فيه التطوريون الكوكبيون الصاعدون، يسارعون لتمجيد الاحتلال كمثال لما يمكن أن تحققه الحركية الأمريكية الإنسانية وراء البحار.

❋ ❋ ❋

كان الأمر مع الاقتصاد، كما كان مع السياسة. فلم يظهر شىء لإثبات الافتراضات الإصلاحية بأكثر من خطة مارشال. لقد كانت بنت أفكار المدافعين عن الاحتواء مثل كينان وأتشيسون وكليفورد، الذين كانت أهدافهم سياسية بوضوح. ولكن أحد تأثيرات الخطة كان وضع القوة الدافعة للحرب الباردة خلف اتجاه التطورية الكوكبية الذى أصبح موجودا بالفعل. (٢٩) وقد اقترح هنرى إل. ستمسون:

مهمتنا المركزية فى التعامل مع الكرملين هى إثبات بما لا يدع مجالاً لسوء الفهم، أن الحرية والازدهار، يدا فى يد، يمكن الحفاظ عليهما بثبات فى عالم الديمقراطيات الغربية. هذه ستكون مهمتنا العظمى حتى لو لم توجد المشكلة

السوفييتية. [٣٠] حقا، سبقت وكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى الحرب الباردة، كما سبقتها ٩ مليارات دولار قروض وتسهيلات قدمت للدول الأجنبية فى عامى ١٩٤٥ و ١٩٤٦. وكان الأمريكيون، أيضا، مقتنعين، والكساد متعشا فى ذاكرتهم، بأن ازدهارهم متعلق بقدرة أوروپا على استيراد بضائع الولايات المتحدة. [٣١] ولذلك، بينما زاد الصدام مع السوڤييت من المخاطر، إلا أنه لم يستهل لعبة المساعدة الخارجية.

أى الفوائد يمكن اقتفاؤها من الثلاثة عشر مليار دولار التى قدمت بموجب خطة مارشال؟ لقد نما الناتج المشترك لأوروپا الغربية بمعدل ٣٢٪. وسرعان ما نمت زراعتها وصناعتها بما فاق ناتج ما قبل الحرب بـ ١١٪ و ٤٠ ٪. ويظل حقيقيا أيضا أن ٨٠ ٪ من رأس المال الذى استثمر فى تلك السنوات كان أوروپيًا. [٣٢] وبعض المؤرخين الاقتصاديين يتحدى مفهوم أن خطة مارشال قد أوحى بها قبل اعتلال أوروپا، ويقترحون أبعد من ذلك أن بدءها السريع فى إعادة البناء غطى أوروپا فى وقت قصير بالدولارات لدفعها مقابل معامل جديدة ومواد خام، لأنه كان على الولايات المتحدة أن تدعم الدولار. وآخرون لاحظوا أنه أيا كان دافع الخطة فإن النتيجة الملموسة لم تكن.. معجزة اقتصادية.. سوف تأتى عاجلاً أو أجلاً، بل تكامل أوروپا الغربية. [٣٣]

ومرة أخرى، فإن اهتمامنا بالحقائق أقل منه بالميثولوچيا التى أحاطت بخطة مارشال. وهكذا قفز عديد من الأمريكيين فى الحكومة والصحافة إلى الاستنتاج بأنها، أيضا، كانت نموذجا يمكن أن يطبق فى أى مكان. ولم يفعل ذلك چون چى. ماكولى، المفوض الأعلى لألمانيا المحتلة: عندما سئل فى مناقشة لتنمية العالم الثالث تذمر قائلا: « لا بحق الجحيم.. ليس لذلك علاقة مع خطة مارشال». كما أن ويل كلايتون، سفير ترومان المتنقل فى أوروپا، قال فى مؤتمر پان أميركان ١٩٤٧-١٩٤٨: «إن خطة مارشال غير قابلة، بالمرة، للتطبيق فى حالة موقف أمريكا اللاتينية». [٣٤] ومكث عديدون آخرون وجدوا المفهوم جميلاً: الولايات المتحدة تعرف كيف تجعل الناس أغنياء وأحراراً أيضا. وصرخ هنرى والاس قائلا: «لقد حان الوقت من أجل بذرة تفاح چونى الحديثة؟ ترعاها الروح التبشيرية لتذهب فى العالم كله وتعظ بإنجيل.. الاستثمار والعلم والتكنولوچيا والإنتاجية لكل الشعوب!».

واعتقد المؤرخ الرسمى فى وزارة الخارجية لخطة مارشال أنها «لا تقترح الحدود وإنما الاحتمالات النهائية فى التأثير على السياسات والاتجاهات والتصرفات فى البلدان الأخرى»[٣٥] .

ونادى بوندتز على الفور بخطة مارشال أخرى فى آسيا وأمريكا اللاتينية أو المناطق المحبطة فى الداخل . وكانت وكالة المخابرات المركزية الجديدة مساهما فى نقل طرق خطة مارشال إلى مصر وإيران . بناءً على نظرية أن الأمم النامية التى تتلقى مساعدات كافية من الغرب فى شكل التخطيط والتكنولوچيا قد تطمح إلى أن تضاهى الأفكار الغربية ، وستكون أكثر حصانة ضد الأچندة الشيوعية . [٣٦] فإطاحة وكالة المخابرات المركزية بمصدق اليسارى فى إيران لمصلحة الشاه رضا بهلوى المناصر للغرب ، بدت كإثبات لقيمة التطورية فائقة الفعالية .

ولذلك ، نظّمت إدارة ترومان الأمر ، أولا فى إدارة التعاون الاقتصادى التى أنفقت ٣٠ مليون دولار فى كوريا الجنوبية قبل (و١٠ ملايين دولار بعد) نشوب الحرب الكورية ، و١٠٠ مليون دولار فى جنوب شرقى آسيا ، و١٨٠ مليون دولار أخرى فى تايوان (خلال ١٩٥٢) حيث ساعد الخبراء الأمريكيون فى تنفيذ الإصلاح الزراعى . وفى ضوء مثل هذه السوابق ، سأل بنجامين هاردي ، من وزارة الخارجية ، لماذا ليس العالم كله؟ ومرر مسودة مساعدة عالمية لكليفورد ، أعطاها لترومان ونفذها «أخيراً وليس آخراً» فى خطابه الافتتاحى فى ٢٠ من يناير عام ١٩٤٩ : [٣٧]

رابعا، إننا يجب أن نطلق برنامجا شجاعا جديدا، لجعل ثمرات سبقنا العلمى وتقدمنا الصناعى متاحا من أجل تطوير وتحسين المناطق غير النامية.. للمرة الأولى فى التاريخ، تملك الإنسانية المعرفة والمهارة لتخفيف معاناة أولئك الناس.. الإمپريالية القديمة ـ استغلال الربح الخارجى ـ ليس لها مكان فى خططنا. وما نتصوره هو برنامج للتنمية يعتمد على مفاهيم التعامل الحر الديمقراطى.. الديمقراطية وحدها يمكن أن توفر القوة الحيوية التى تحرك شعوب العالم فى حركة منتصرة، ليس فقط ضد مضطهديهم من البشر، ولكن أيضا ضد أعدائهم القدامى ـ الجوع والبؤس واليأس.

إن النقطةالرابعة لترومان ، برغم اعتدالها فى البداية ، بلغت الوعد بمد الصفقة الجديدة والصفقة المنصفة إلى العالم . لكى يسبق الغمغمة حول «المال النازل لحفرة

الفأر»، أطلقت إدارته حملة دعاية ارتكزت على افتراض أن الأساس المطلق للنقطة الرابعة هو القدرة العملية. وطلب السفير شيستر باولز من القراء أن يفكروا فى الأمم الجديدة فى آسيا على أنها مثل أمريكا فى عام ١٧٨٣، والنقطة الرابعة على أنها خطة تنسخ اقتصادا يشبه بالتقريب اقتصاد الولايات المتحدة، وأضاف چون كينيث جالبريث الاقتصادى فى هارڤارد: «فوق وأبعد من النقطة الرابعة، يجب أن نضع أنفسنا فى جانب الحكومات الشعبية الحقيقية، بأى ضغط يمكن أن تستخدمه.[٣٨] وكان الأكثر تأثيرا الرسم الذى صوره كاريكاتير هير بلوك. وفيه يناول ترومان بطاقة ثمن النقطة الرابعة إلى عضو بالكونجرس سمين وأصلع، بينما تنتظر جماهير محتشدة عبر المحيط قرارهما. ويقول عضو الكونجرس: «لا! دعنا ننتظر حتى يصبحوا شيوعيين، ثم ننفق عدة مليارات لنقاتلهم»[٣٩].

وخلال أربع سنوات وقعت اتفاقات النقطة الرابعة مع ٣٤ بلدا، وارتفعت التكلفة السنوية لها إلى ٦, ١٥٥ مليون دولار. واستنكر المنتقدون مثل الاقتصادى البريطانى بى. تى. بوير المساعدة الحكومية باعتبارها دعما للاشتراكية. وحذر هانز مورجنثو من أن التصنيع المفروض كان محتملاً أن يمزق نسيج الأمة غير النامية بأكثر من جعلها أكثر استقراراً. وتحدى هنرى كسينجر الافتراض بأن التقدم الاقتصادى يقود إلى الديمقراطية: «فى كل المجتمعات الديمقراطية التقليدية. فإن أساسيات النظام الحكومى سبقت الثورة الصناعية».[٤٠] وكان أيزنهاور(*) أيضا متشككا، حتى أقنعه ميلاد حركة عدم الانحياز فى عام ١٩٥٥ وأزمة السويس عام ١٩٥٦ بأن الولايات المتحدة كان عليها أن تُطرح كبطل للأمم المتخلفة. وعندها أقر كارها مبدأ أن حرية الأمم يمكن أن تهدد ليس فقط بالمدافع ولكن بالفقر الذى يمكن أن تستغله الشيوعية.[٤١]

حصلت سياسة «تحسين العالم» على دعم الحزبين المطلوب لإقرار الضمانات والاستثمارات التى ستحول، كما قال الكل، أكثر من تريليونى دولار (بأسعار الثمانينيات) من العالم الأول إلى العالم الثالث حتى عام ١٩٩٠[٤٢].

(*) دوايت ديفيد أيزنهاور (١٨٩٠ - ١٩٦٩) الرئيس الرابع الثلاثون للولايات المتحدة (١٩٥٣ - ١٩٦٠). جمهورى. كان قائدا لقوات الحلفاء التى غزت أوروبا. (المترجم).

وبينما كان أيزنهاور يغير رأيه، كان الاقتصاديون من المدرسة المسماة شارلز ريفر، من إم أى تى وهارڤارد، مشغولين بتصميم النظرية المطلوبة لتكون دليلا للتنمية بكل ذلك الرأسمال.

وصعد والت و. روستو كقائدها بفضل نموذجه حول كيفية تحقيق «انطلاق» الاقتصاد تاريخيا. وبتجميد أوروبا فى كتلتين وسباق الأسلحة النووية المتحرك باتجاه الردع المتبادل، صعد العالم الثالث باعتباره المجال الوحيد المفتوح، الذى قد تشعل فيه القوى الكبرى الحرب الباردة، دون مخاطرة «أرمجدون»(*). فضلا عن ذلك، اعتقد روستو أنه قد يكون المسرح الفاصل بما أن السوڤييت استطاعوا أن ينجحوا فى تقدمهم السريع الواضح بسبقهم فى تكنولوچيا الفضاء بعد عام ١٩٥٧، «لإقناع قادة العالم الثالث بأن النموذج الشيوعى يجب أن يطبق من أجل التحديث ولو بتكلفة التنازل عن الحرية الإنسانية». وباختصار، أصبح الشيوعيون «كناسين عملية التحديث» وأصبحت الشيوعية «مرض الانتقال»[٤٣] ومبكرا فى عام ١٩٥٤، عندما قسم مؤتمر چنيف ڤيتنام سأل سى. دى. چاكسون مساعد آيك، روستو وماكس ميلكان لاقتراح وسائل بناء ڤيتنام الجنوبية غير شيوعية ومستقرة. أجابا بأن «مبادرة أمريكية أساسية جديدة، مطلوبة، فى حقل التنمية»[٤٤].

إن كتاب روستو «مراحل النمو الاقتصادى» بعنوانه الفرعى التحريضى «مانفستو غير شيوعى»، شدد على دور الاستثمار فى هندسة «انطلاق» البلد إلى «النمو المتواصل ذاتيا». وكمؤرخ جيد سجل روستو الشروط المسبقة، السياسية والاقتصادية العديدة لـ «الانطلاق»[٤٥]. غير أن صناع السياسة كانوا مقيدين بالإمساك بوصفته السحرية، بأن تأثير الزيادة المفاجئة فى الاستثمار من ٥ إلى ١٠٪ من الدخل القومى، كان سر الانطلاق الوامض. ولكن كيف تستطيع البلدان الفقيرة زيادة مثل ذلك الرأسمال؟!

الطريق الأول عبر «التراكم البدائى» الذى عنى على الأرض الماركسية اعتصار الريفيين وخنق الاستهلاك لدفع الصادرات. والطريق الثانى عبر الاستثمار

(*) المعركة الفاصلة بين الأمم والتى سيأتى بعدها المسيح، كما ورد فى الكتاب المقدس. (المترجم)

الأجنبى. واقترح روستو أن «إمكانات المساعدة الخارجية يجب أن تنظم على أسس موسعة، وأكثر ثباتا بوجه خاص»، وحسب أن أربع مليارات إضافية فى المساعدة الخارجية السنوية، ستكون مطلوبة لرفع كل آسيا والشرق الأوسط وإفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى نمو مطرد.[٤٦]

وأحيانا شكك زملاء روستو فى أعماله المجلدية بكونها سهلة أكثر منها ذكية (والت يستطيع أن يكتب بأسرع مما أستطيع أن أقرأ، لاحظ بذكاء الرئيس كنيدى، سريع القراء). لكنه كان لا يمل، عنيدًا، يمتلك ثقة فولاذية.[٤٧] لقد رأى الحاجة للتغلب على تمردات مثل الڤييتكونج واعتقد أن «النجاح فى مقاومة تركيبة التدمير وحرب العصابات يعتمد مباشرة على التعافى السياسى والاقتصادى والاجتماعى للمنطقة المهاجمة».[٤٨] ولذلك عندما فاز كنيدى(*) بالرئاسة فى عام ١٩٦٠، وعين روستو والمثقفين المشابهين فى التفكير فى مكتب الرئاسة، اقترب الأمريكيون من الجانب الآخر من العالم فى رحلتهم التاريخية. فالذين بدءوا حياتهم القومية ينأون عن الحملات الصليبية، هم الآن يتحركون إلى حرب تحسين العالم فى منتصف الطريق حول العالم.

❊❊❊

بدأ القتال من أجل العالم الثالث فى عام ١٩١٧، عندما نادى لينين بثورة عالمية ضد الإمبريالية، وأجاب ويلسون بنقاطه الأربع عشرة. ولكن بينما أمل لينين فى استخدام الفتنة الاستعمارية ليلهى الإمبرياليين فى حين يثبت هو حكمه فى روسيا، اعتقد ويلسون أن معظم شعوب المستعمرات يحتاجون إلى عقود من التنمية والإصلاح قبل أن يصبحوا مستعدين للحكم الذاتى. تلك المنافسة أخذت شكلا ملتويا تهكميا منذ البداية، ربما لأن الماركسيين (الذين يدعون أن القوى الاجتماعية - الاقتصادية تحرك التاريخ) مارسوا سياسة القوة، كما أن الليبراليين (الذين أعلنوا الإيمان فى قوة الأفكار) تصرفوا بنوع من الحتمية الاقتصادية. وبعد خمسين سنة،

(*) چون ڤيتزچرالد كنيدى (١٩١٧ - ١٩٦٣) الرئيس الخامس والثلاثون للولايات المتحدة (١٩٦١ - ١٩٦٣). ديمقراطى. أول رئيس كاثوليكى وأصغر شخص انتخب لرئاسة أمريكا. اغتيل عام ١٩٦٣.. (المترجم)

سيتحدث الشيوعيون عن ثورة اجتماعية ولكنها تعول على المؤامرة والمدافع لكى يسيطروا فى ڤيتنام، وسيدخل الأمريكيون فى حرب محدودة ولكن بالاعتماد على برامج (تنمية ثورية) لبناء الأمم وكسب القلوب والعقول.

وباسترجاع الأحداث، يمكن أن نرى أن التشجيع السوڤييتى (والصينى) للحركات المعادية للاستعمار كان أكثر من تكتيك، فقد عكس الطبيعة الحقيقية للينينية. فالبولشفيون قد أوقفوا ماركس على رأسه عندما قاموا بالثورة فى البلد الرأسمالى الأقل نضجًا فى أوروپا، وحولوا الشيوعية إلى وكالة للتنمية التكنولوچية والاجتماعية السريعة.

ولينين أيضا نظَّر أن سيطرة الإمپرياليين على عمل وموارد المستعمرات هو ما سمح لهم بمنع الأزمة النهائية للرأسمالية، وبذلك، أصبحت الشيوعية، فى التأثير، تمرد المتخلف وستعيش أو تموت بسجلها فى وطنها وفى العالم الثالث. وعندما أعلن ماوتسى تونج وخروشوف: ستكون هناك حروب تحرر وطنى مادامت الإمپريالية موجودة. شعر كنيدى بأنه مجبر على الرد: «كل واحد يعلم بتفاخر أن الأمريكيين سيدفعون أى ثمن ويتحملون أى عبء». ومضى يقول: «لأولئك الناس فى الأكواخ والقرى فى نصف الكرة الأرضية، الذين يصارعون فيه لتحطيم أغلال البؤس الجماعى، نتعهد ببذل أقصى جهودنا لمعاونتهم فى مساعدة أنفسهم لأى فترة مطلوبة. ليس بسبب أن الشيوعيين ربما يفعلون ذلك، وليس بسبب أننا نحتاج إلى أصواتهم، ولكن لأن ذلك صحيح. وإذا كان المجتمع الحر لا يستطيع مساعدة العديد من الذين هم فقراء، فإنه لن يستطيع حماية القليلين الذين هم أغنياء». [٤٩]

وفى ٢٥ من مايو عام ١٩٦١، وفى الخطاب الذى دعا فيه لنزول إنسان على القمر، سمى كنيدى العالم الثالث «ساحة القتال العظمى، للدفاع عن الحرية وامتدادها اليوم»[٥٠]

لقد بدأ تحول كنيدى إلى التطورية مبكرا فى مهنته السياسية. فى عام ١٩٥١، زار الهند الصينية حيث كان الفرنسيون يخسرون معركتهم ضد الڤيتنمة. واستخلص أن «كبح الاندفاع الجنوبى للشيوعية أمر ذو معنى، لكن ليس فقط من خلال الاعتماد على قوة السلاح. فالمهمة أبعد من ذلك، إذ تهدف إلى بناء شعور محلى قوى معاد

للشيوعية». وفى عام ١٩٥٦، نصح بأن «ما يجب أن نقدمه [للفيتناميين] هو ثورة-ثورة سياسية اقتصادية اجتماعية تتفوق كثيرا على أى شىء يمكن أن يقدمه الشيوعيون». [٥١] وفى سنة ١٩٥٨ طالب تعديل كنيدى-كوبر بمليارات كمساعدة لجعل الهند واجهة عرض غير شيوعية. وسأل-كما ذكر روستو-: هل ستبلغ هذه الدول القوية الجديدة النضج من وضع توتاليتارى؟ أو من وضع ديمقراطى بنى على قيم إنسانية مشتركة مع الغرب؟[٥٢]

وطور كنيدى كذلك اهتمامًا حماسيًا بأمريكا اللاتينية، بعد أن رشق الدهماء نيكسون نائب الرئيس، خلال رحلة فى سنة ١٩٦٠، كما أن فيدل كاسترو كان قد راهن على الاتحاد السوفييتى.

ولذلك، وفى ١٣ من مارس سنة ١٩٦١، وهو اليوم نفسه الذى أسس فيه أطقم السلام التطورى، عرض كنيدى ٢٠ مليار دولار لتمويل التحالف من أجل التقدم، وحذر فى صدى لمبدإ مونرو «ضد القوى الأجنبية التى تتوسل مرة أخرى إلى فرض استبداد العالم القديم على شعب العالم الجديد». [٥٣]

وأصبح التحالف من أجل التقدم المكون المركزى فى عقد التنمية العالمية لكنيدى: «توجد فى الستينيات فرصة تاريخية فى مساندة اقتصادية رئيسية من الأمم الصناعية الحرة، لدفع أكثر من نصف سكان الأمم الأقل تطورا إلى النمو الاقتصادى المتواصل ذاتيا.. ويجب أن نأخذ هذه الخطوة ليس كجمهوريين أو ديمقراطيين ولكن كزعماء للعالم الحر» [٥٤]. ومر أول قانون للمساعدة الخارجية لكنيدى بأغلبية ٢٦٠ مقابل ١٣٢ فى مجلس النواب و ٦٩ مقابل ٢٤ فى مجلس الشيوخ. وزادت المعونة الخارجية للولايات المتحدة من ٢,٧ مليار دولار إلى ٣,٦ مليار دولار بحلول عام ١٩٦٤.

بسرعة، شغل كنيدى المنصب تواقًا لإثبات أن «النمو الاقتصادى والديمقراطية السياسية يمكن أن يتطورا يدًا بيد»[٥٥]. ولكن يغلف تلك المسألة لغز. **هل يقود النمو الاقتصادى إلى الديمقراطية؟ أو يجب أن توجد حكومة مستقرة تمثيلية قبل أن تتحقق فورة اقتصادية؟** ولم يتفق مساعدو كنيدى. مجموعة وصفها المؤرخ پاتريك لويد هاتشر بـ «الهويج»، أكدت الحاجة لحكومة شعبية فى بلدان مثل فيتنام الجنوبية

وتطلعت لسفارات الولايات المتحدة ووكالة المخابرات المركزية لتشجيع الإصلاحات الضرورية. والمجموعة الأخرى، المحافظون عند هاتشر، ركزت على التقدم الاقتصادى، وفضلت العمل من خلال وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية (USAID)، وكانوا معدين للتسامح مع النظم التسلطية طالما كانت فعالة(٥٦). وفى حالة ڤيتنام، سأل «الهويج» بعض الأسئلة مثل: كم عدد الصحف ومحطات الإذاعة كانت هناك؟ هل تمتعت الأقليات الدينية بحرية العبادة؟ إلى أى مدى كانت الانتخابات نزيهة ومنتظمة؟ هل استطاع المواطنون أن ينالوا العدل فى المحاكم؟ إلى أى مدى كان البوليس إنسانيا؟

أما المحافظون، فقد اعتقدوا أنه ليس من نضج التفكير توقع أن تجتاز دولة جديدة تُهاجم بعصابة متشددة، اختبار المجتمع المدنى الأمريكى. وسألوا عدة أسئلة مثل: كم عدد القرى كان لديها صرف صحى ومياه شرب نظيفة؟ ماذا كان معدل الأطباء للمواطنين؟ كم عدد التليفونات والدراجات النارية كانت هناك؟ ماذا كانت كمية السماد المطلوب؟ ماذا كان عائد الأرز ومتوسط دخل الفرد؟ وبمسئوليتها عن توفير هذه المعلومات، أصبحت «قيادة ڤيتنام للمساعدة العسكرية» تشبه موظف شئون اجتماعية شكّاء بأكثر من أن تكون رفيقة سلاح لنظام سايجون(٥٧).

إنه جدال المبشرين بكامله مرة أخرى، وقد حلت الديمقراطية محل المسيحية. هل يجب تحديث مجتمع غريب لتمهيد الأرض للديمقراطية، أو أن غرس حكومة شعبية كاف لإيناع التنمية الاجتماعية؟ وأصبح النقاش أكثر من أكاديمى عندما بدأ نظام نجو دن دييم ـ الذى علق عليه الأمريكيون آمالا عليا ـ فى الانحلال.

وتعمق تورط الولايات المتحدة فى ڤيتنام فى اللحظة التى اندلعت فيها الحرب الكورية. وكان التوسع فى الاحتواء إلى آسيا ليس فقط قد عظم مسئوليات الولايات المتحدة، ولكنه فعل ذلك فى جزء من العالم خال من حلفاء محليين أقوياء. وبعكس الناتو، كانت منظمة معاهدة جنوب شرقى آسيا (SEATO) ضمانا أمريكيا من طرف واحد لمجموعة من شعوب ما بعد الاستعمار. وكما قال السناتور مايك ما نسفيلد (ديمقراطى ـ مونتانا) موبخًا فى سنة ١٩٦٢: «لنا حلفاء فى (السيتو) بالتأكيد، ولكنهم حلفاء إما غير راغبين أو غير قادرين على أن يأخذوا على عاتقهم إلا الجزء الأصغر من أعباء حلف». (٥٨) ولذلك كان على الولايات المتحدة أن تهيمن على، أو حتى تخترع

القومية الآسيوية الأصلية التى قصدتها لتدافع عنها. ولذلك، من سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٦٣ أخبر الأمريكيون دييم بأن يكون زعيما قويا ومستقلا، ولكن يأخذ أوامره من واشنطن إذا وصلت الأمور إلى حقوق الإنسان والاقتصاد وكيفية صد الڤييتكونج. واستغل الشيوعيون ذلك التناقض خلال حرب ڤيتنام، «ووقع قادة سايجون المتهمون بكونهم دمى بين مطرقة عدو عنيد فى هانوى، وحليف مزعج فى واشنطون»(٥٩).

كان نجو دن دييم كاثوليكيا، وكان أيضا موظفًا صينيا (ماندارين)، ثمرة تقليد هيراركى كونفوشيوسى، حاول حكم نصف بلد مصطنع، مخترق من عصابات شيوعية وعملاء ظلوا فى الجنوب بعد التقسيم. ولذلك، لم تكن هناك مسألة المجازفة بالديمقراطية ذات الأسلوب الأمريكى فى عقلى دييم وشقيقه الذى كان يرأس البوليس. حقّا، كان نجاحهما فى اقتلاع الكوادر الشيوعية التى حضت هانوى على منع النشاط السياسى وتفضيل العصيان المسلح. وفى مايو سنة ١٩٥٩، أبلغ المكتب السياسى الڤيتنامى الشمالى قوة مهمات خاصة بوقف ما أصبح تعقب هوشى منه، من خلال لاوس وكمبوديا، لإعادة تقوية ودعم التمرد الجنوبى. وبحلول عام ١٩٦٠، كان الڤييتكونج يقتلون رؤساء القرى، وكان موظفو سايجون تحت التهديد، حيث (كما كتب كيسنجر) «أصبحت المعضلة المركزية، أن هدف أمريكا السياسى بتقديم ديمقراطية مستقرة فى ڤيتنام الجنوبية، لا يمكن الحصول عليه فى الوقت المناسب ليتسنى إنهاء حرب العصابات الذى كان هدف أمريكا الإستراتيجى. وكان على أمريكا أن تعدل إما أهدافها العسكرية أو السياسية».(٦٠) ذلك هو ما جعل الولايات المتحدة تساند تسلطية دييم غير الشعبية ولكن الفعالة، وإلا كان عليها أن تحذف ڤيتنام الجنوبية كما فعلت مع ڤيتنام الشمالية. غير أن رجال كنيدى كانوا متعلقين ليس بتكتيكات الاحتواء على الطريقة الكورية وإنما بتكيكات تحسين العالم. لذلك رفضوا التخلى عن أهدافهم العسكرية أو السياسية. وبدلا من ذلك، تخلوا عن دييم.

وقال المنتقدون المتأخرون إنه فى محاولة أن تكون «موظف شئون اجتماعية العالم» مارست الولايات المتحدة «إمپريالية الرفاهة».(٦١) وقالوا إن ڤيتنام لم تكن حيوية للأمن القومى للولايات المتحدة، واختلفوا حول الافتراضات وراء حرب ڤيتنام وضمنها نظرية الدومينو والكتلة الشيوعية الموحّدة. وقالوا إن هوشى منه كان وطنيا أكثر منه شيوعيا ولم يكن دمية لبكين أو موسكو. كان لكل تلك الحجج بعض الميزات، فقط افتقدت الأمر الذى طالما كان مستشارو كنيدى مهتمين به. كان خوفهم

أن النصر الشيوعى فى ڤيتنام سيكون إشارة للقوى الشيوعية والعالم الثالث بأكمله، بأن التمردات تعمل، وإستراتيجيات التنمية الغربية لاتعمل. ذلك يفسر لماذا كان پول نيتز يجادل بأنه إذا اعترفت الولايات المتحدة «بأننا لم نستطع هزيمة الڤييتكونج، فإن شكل العالم سيتغير»، ولماذا أعلن روستو «فى هذه اللحظة علينا وقف حرب التحرير، وإذا لم نوقفها سيكون علينا أن نواجهها ثانية، فى تايلاند، ڤنزويلا، وأى مكان آخر. ڤيتنام هى أرض اختبار واضح لسياستنا فى العالم». (٦٢)

والآن، عندما تحركت الولايات المتحدة لاعتراض سبيل الشيوعية فى اليونان وتركيا أو كوريا، لم تكن تطلب أن تصبح هذه البلدان ديمقراطيات نموذجية أو تصنع إصلاحات اقتصادية ثورية.

غير أنه فى مايو سنة ١٩٦١ أعلن مجلس الأمن القومى أن سياسة الولايات المتحدة فى ڤيتنام الجنوبية «يمكن أن تخلق فى ذلك البلد مجتمعًا قابلا للحياة ومتزايد الديمقراطية» (٦٣) . وبذلك السؤال، جاء السؤال التالى الواضح عما إذا كان نظام دييم الديكتاتورى الفاسد غير الشعبى جزءاً من الحل أو جزءاً من المشكلة؟. وكان التطوريون المحافظون ميالين للتغاضى عن تكتيكات الذراع القوية لدييم، ولكن عندما لفت الرهبان البوذيون المحتجون فى سايجون كاميرات العالم وهم يضحون بأنفسهم، أصبح للهويج اليد العليا. وقال السفير هنرى كابوت لودج لدييم بأن يصلح حكومته أو يواجه «عواقب غير متوقعة». . والآن، أيا كانت أخطاؤه، كان دييم قوميا حقيقيا عرف عداوات وانقسامات شعبه بأكثر من الأمريكيين. وحذر لودج من أن القوة الحقيقية تقع فى الجيش، وأنه إذا خلع من منصبه فإن خلفاءه سيكونون «قمعيين بضعف ما كان» (٦٤) ولكن لودج ترك الچنرالات الڤيتناميين غير المتأثرين يعرفون أن الولايات المتحدة لن تنظر شذراً إلى خلع دييم. ولذلك، قتلوا إخوان نجو فى انقلاب نوڤمبر عام ١٩٦٣. وكانت الطغم العسكرية المتعاقبة أقل فعالية فى كسب تأييد الجمهور وقتال الڤييتكونج. وفى المقابل لم يعط ذلك الولايات المتحدة أى فرصة إلا أن تضطلع بالحرب وتصنع فى ذات الوقت ثورات البيت الساخن السياسية والاقتصادية التى رآها الهويج والمحافظون أساسية من أجل النصر. وما يصدم فى استرجاع الأحداث هو الكيفية التى كانوا بها واثقين من أنهم يستطيعون صنع ذلك. ولكن كما أجاب مسئول فى الپنتاجون عندما تذكر أن فرنسا قد هزمت فعلا فى ڤيتنام: «لقد حاول الفرنسيون أيضا شق قناة پنما»(٦٥) . لقد

كانت المسألة كما لو أن بناء الدولة وحرب العصابات كانتا فقط مشكلتين هندسيتين، مثل إنزال رجل فوق القمر.

وفى تلك المسألة وجد التناقض الثانى فى الإستراتيچية الأمريكية فى العالم الثالث. حتى لو تخلت الولايات المتحدة عن تظاهرها بأن نظام سايجون كان حليفا ذا سيادة ومتكافئًا، فأى منطق يقترح أن شعبا ما قبل صناعى، أسيويا شديد الفخر، أراد أن يتبع النماذج الأمريكية السياسية والاقتصادية؟ لسوء الحظ، بكلمات چورچ بال «إن المقدمين والمؤخرين فى إدارة كنيدى كانت لديهم، إذا كان لديهم من شىء، تخمة من النظريات فيما يخص التنمية الاقتصادية للعالم الثالث». (٦٦)

وتذكر استشارى للپنتاجون المزاج فى ذلك الزمن، «كمزاج تغيير، غليان أفكار، ثقة ذاتية فى معرفة ما كان يجب عمله، بدون التساؤل هل يمكن؟ وكل ذلك سيقود إلى عالم أفضل. لقد كان زمن كاميلوت» (٦٧) . وكان هناك حقيقة مشروع كاميلوت ألهمه اعتقاد ماكنمارا بأن هزيمة حروب التحرر القومى «سوف تتطلب جهدا بناء يتضمن إجراءات سياسية واقتصادية وأيديولوچية وكذلك عسكرية». وباعتباره تكنوقراطيا ثلجيا من أتباع هوڤر (بدون المسالمة) وضع ماكنمارا أكثر من مائة من علماء الاجتماع والعرق والنفس، لعمل «نمذجة» للمجتمع الڤيتنامى الجنوبى وطلب المعلومات الكافية «لوصفه كميا ولتوقع سلوكه على كمپيوتر». وبالطبع اعتمد المشروع على التعقل الدورى - كيف يستطيع أحد أن يحكم أى معلومات مناسبة، إذا لم يكن لديه فعلا نموذج فى ذهنه؟ ومع ذلك طلب ماكنمارا من الدارسين أن يأخذوا نموذجهم «إلى الميدان» خلال ثمانية شهور حتى يستطيع أن يحسب بالكمپيوتر التقدم الذى تحقق فى مجالى المسالمة والتنمية الثورية. وقال ماكنمارا: **«إذا كانت الحرب العالمية الأولى حرب الكيميائيين، وكانت الحرب الثانية حرب الفيزيائيين، «إذن فالصراع من أجل العالم الثالث قد يصح أن يعتبر حرب علماء الاجتماع»**. (٦٨)

نعم كانت ڤيتنام الحرب الأولى التى أرسلت فيها الولايات المتحدة قواتها العسكرية وراء البحار ليس لغرض الفوز، ولكن فقط لشراء الوقت من أجل الحرب التى تكسب بالبرامج المدنية الاجتماعية. ولو كلفت العسكرية الأمريكية بمهمة

الانتصار، لاستحال على كنيدى أن يوافق على اتفاق لاوس سنة ١٩٦٢، الذى ترك البلد «المحايد» مفتوحا للاختراق من ڤيتنام الشمالية، ولم يكن چونسون يقيد العمل الأرضى والجوى ضد العدو الحقيقى الذى كان ڤيتنام الشمالية. وبدلا من ذلك، كان الچنرال ويليام ويستمور لاند مضطرًا إلى أن يشتت قواته ويضيع قوة نيرانه فى عمليات للبحث عن وتدمير جبهة التحرير الوطنية، التى كانت - حقيقة - مخلب قط هانوى والمنافس فى السيطرة على الجنوب. وكما أوضح الكولونيل هارى سامرز، فإن هذا التوجه حقق انتصارات تكتيكية وهزائم إستراتيچية، لأنه فشل فى عزل ساحة المعركة، وأهمل فى مهاجمة مركز ثقل العدو فى ڤيتنام الشمالية، وأوكل - فى الحقيقة - الدور الهجومى ليس للجيش ولا للقوة الجوية وإنما للمخابرات المركزية الأمريكية ووكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية والوكالات السلمية التى كانت مهمتها بناء اقتصاد ڤيتنام الجنوبية وكسب شعبها.

«وهكذا كانت ڤيتنام «الطبعة الدولية من برامج مجتمعنا الديمقراطى العظيم، حيث افترضنا أننا نعرف ما كان أفضل للعالم بمفاهيم التنمية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ورأينا أنه واجب علينا إجبار العالم على أن يتشكل وفقًا للقالب الأمريكى - كمربية للعالم أكثر من رجل شرطة العالم» (٦٩).

❋❋❋

فى الخمسينيات، وصف جراهام جرين فى روايته «الأمريكى الصامت» الشاب الأمريكى الجاد بالأرجل الطويلة والوجه غير المعتاد الذى وصل إلى جنوب شرقى آسيا، «وصمم على عمل الخير ليس لشخص بمفرده ولكن لبلد، قارة، عالم»(٧٠).

ولم يكن أحد أكثر تصميما من چونسون على عمل الخير. وللتأكيد، هو لعن ڤيتنام كـ «ساقطة حرب» وزاد كراهية لجانبها العسكرى، ولكنه أحب جانبها التطورى العالمى. «أريد أن أترك آثار أقدام أمريكا [فى ڤيتنام]. أريدهم أن يقولوا ذلك ما تركه الأمريكيون - مدارس ومستشفيات وسدود». وفى سنة ١٩٦٦، تحدث عن «قاعدة حاكمة»: يجب أن تكون سياستنا الخارجية دائما امتدادا لسياستنا الداخلية. إن مرشدنا الأمين لما نفعله فى الخارج هو دائما ما نفعله فى الداخل. من هنا «فإن ڤيتنام كانت أصولها فى

نفس الدوافع الرئاسية التى منحت الميلاد للمجتمع العظيم، ولعرض برنامج المليار دولار على ڤيتنام الشمالية فى إبريل سنة ١٩٦٥ من أجل تنمية نهر الميكونج». (٧١)

ونادت خطة روستو سنة ١٩٦٥ «السياسة والنصر فى جنوب ڤيتنام» بلا شىء أقل من «حزب ثورى حديث» يمكن أن يشجع «وضع الاستقلال تجاه الأجانب، والوحدة الوطنية فى الجنوب، وإنهاء الفساد، والتنمية الصناعية المتسارعة، والإصلاح الزراعى وإجراءات أخرى ستخفف الأعباء عن الفلاح، ومعاداة الشيوعية، إلخ».

وأضاف - أيضًا - چون پول ڤان، المستشار العسكرى المحنك لجنوب ڤيتنام، «الثورة الاجتماعية»، أنه إذا أبطأ حكام سايجون السير، «فعندئذ يجب أن يجبروا على قبول قرار الولايات المتحدة واتجاهها»(٧٢). وسرعان ما تعلم مالا يحصى من الأمريكيين الصليبيين، إحباطات محاولة البناء وسط ساحة المعركة، وكم كانت خاطئة وغير ذات مناسبة، الإحصاءات عن القرى المسالمة، وعائدات الأرز والحضور المدرسى، التى كان واجب إرسالها إلى ماكنمارا وروستو(٧٣). غير أن چونسون انتزع سيف التطورية بكلتا يديه وزاد نفاد صبره بسرعة، حتى إنه فى فبراير سنة ١٩٦٦ (فقط بعد ١٢ شهرا من بدء تصعيده للحرب) دعا الرئيس نجوين ڤان ثيو ونائب الرئيس نجوين كاو كاى ووزيرى الصحة والرفاه فى ڤيتنام الجنوبية إلى قمة فى هونولولو. وأراد من كل واحد أن ينصرف وهو «عاقد العزم ليس فقط على تحقيق النصر ضد العدوان، ولكن على أن يكسب النصر على الجوع والمرض واليأس». وحاضر ثيو وكاى بأن الصراع يمكن الفوز فيه فقط بصنع «ثورة اجتماعية من أجل شعبكم»، وذلك «صنف من الكتاب المقدس الذى ستتبعه» وحذر كل واحد من أنه سيعود ليسألهم فى وجوههم «كيف بنيتم الديمقراطية فى المناطق الريفية؟ بأى قدر بنيتموها ومتى وأين؟ أعطونا المواعيد والأوقات والأرقام.. مردودات أوسع.. إنتاجا كفؤا لتحسين الثقة، الصناعة الحرفية، الصناعة الخفيفة، إنارة القرى.. وهل تلك مجرد عبارات وكلمات مدوية، وشعارات تزينون بها الجدران؟ »(٧٤).

وأجاب ڤيتنامى بجرأة «السيد چونسون، إننا بلد صغير وليست لدينا طموحات بناء مجتمع عظيم». غير أن ثيو وكاى أخذا على عاتقهما اتباع «ثورة اجتماعية»، و«حكومة ذاتية حرة» و«مكافحة الجهل والمرض» كما طلب چونسون (٧٥).

وعين چونسون روبرت كومر مساعده الخاص لكل البرامج المدنية فى ڤيتنام. وفى سنة ١٩٦٧ أرسله فى مهمة خاصة كنائب لقائد قيادة المساعدة العسكرية فى ڤيتنام فى «دعم العمليات المدنية للتنمية الثورية».

وأكد العميل السابق للمخابرات المركزية بلوتورك بوب على حقيقة أن الجهد العسكرى للولايات المتحدة أفاد قليلا فى مقابل أنه غذى التضخم ومعاداة الأمركة، وشارك چونسون فى الاعتقاد بأن نبذ الحرب كان «محوريا فى القرار النهائى للحرب- ڤيتنام الجنوبية القابلة للنمو- وطريقة للحد من التورط الأمريكى والخسائر»[٧٦]. وكانت الحرب بالوعة. «الطريق التى نبعثر بها الأموال هنا» هكذا صرخ أحد الصحفيين، وأضاف إنه من المحتمل أن نستطيع شراء الڤييتكونج بخمسمائة دولار للرأس. ورد كومر «لقد وظفناها.. ألفان وخمسمائة دولار للرأس». وبالمقارنة كان المقابل الذى يدفع لكل جثة عدو يقدر بستين ألف دولار.[٧٧]

ومهما كان قرار الأمريكيين حاسمًا ونيتهم طيبة وجيوبهم مليئة، فإنهم لم يستطيعوا إقامة الديمقراطية والازدهار فى غياب السلام. وكما اعترف ماكسويل تايلور فيما بعد «كان يجب علينا أن نتعلم من أسلافنا الحدوديين بأنه لا فائدة من زراعة الذرة خارج سور المزرعة طالما هناك هنود بالأحراش المحيطه»[٧٨]. ولكن كومر، و«وكالة دعم الأعمال المدنية والثورة الاجتماعية»، كانا يعملان بافتراض إصلاحى بأن التنمية وحدها تستطيع الإتيان بالسلام: يجب كسب ولاء القرويين للقضاء على المجال الذى تسبح فيه حرب العصابات. وتصرف ممثلو «وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية» حسب نص تقرير ويلارد ثورپ فى عام ١٩٥١ «الأرض والمستقبل».. الذى هلل لانهيار نظام ملاك الأرض فى اليابان وتايوان. غير أن الإصلاح الزراعى قد جُرب بالفعل مرتين فى ڤيتنام- نظام دييم «الأجر وڤيل» و«القبعات الخضراء» و«النجوع الإستراتيچية»- وكل الذى أنجزه هو إجبار آلاف العائلات على التخلى عن قبور أسلافهم وإعادة تجميعهم فى معاقل محصنة («سجون» بقول دعاية الڤييتكونج) وتحت سلطة موظفى سايجون المهزومين. لذلك، أطلقت القيادة العسكرية الأمريكية فى ڤيتنام حملة ثالثة فى سنة ١٩٦٥، أطلق عليها شيان ثانج (إرادة النصر) ثم رابعة سميت هوب تاك (النصر)، التى

حاولت الحد من تغيير أماكن إقامة الفلاحين والاهتمام بقضاء حوائجهم، وتوسعة المناطق الآمنة، بدلاً من محاولة إحلال السلام فى البلد كله مرة واحدة. (٧٩)

غير أن الحرب والسياسة وفساد نظام سايجون أفسدوا الأمر دائمًا. حتى التوسع فى عائدات المحاصيل وقطعان الماشية من خلال معونة الولايات المتحدة أفادت الڤييتكونج الذين فرضوا الضرائب على قرى عديدة ليلا، بالغرم نفسه الذى فرضته سايجون نهاراً. وبحلول سنة ١٩٦٧، شاهد ٢٥٠ ألف مزارع محاصيلهم وقد خربت بالاقتلاع. وزاد التهجير وتخريب الحرب اللاجئين مليونًا. وكانت الثورة المصنوعة من الأمريكيين مقوضة للاستقرار مثل الثورة الشيوعية، بينما دمر العمل العسكرى من الجانبين جانبا كبيرا من البنية التحتية التى حاولت بناءها وكالة دعم العمليات المدنية والتنمية الثورية(٨٠) . وفى الواقع، فالحقيقة أن ملاك الأراضى فى أى مقاطعة غير آمنة مالوا إلى الفرار إلى سايجون، وذلك أوقف تحصيل الإيجارات (غالبا تصل إلى من ٥٠ ٪ من الحصاد) مما أعطى الفلاحين حجة للاحتفاظ بالڤييتكونج على مقربة. وما هو أكثر أن كل زعيم ڤيتنامى جنوبى من دييم إلى ثيو سحب قدمه من الإصلاح الريفى مفضلا ذلك على فقد تأييد طبقة ملاك الأراضى أو مواجهة ريفيين أصحاب سلطة. .

وحث الأمريكيون، كالعادة، سايجون على توحيد البيروقراطيات الاجتماعية والاقتصادية والتنسيق مع وكالات الولايات المتحدة، والدفع بإصلاح حقيقى. ولكنهم لم يستطيعوا تشكيل عملائهم دون أن يظهروا بمظهر الحاكم الاستعمارى - على كل كبيرة وصغيرة - المستبد كما كان الفرنسيون.

وحتى لو كانوا مستبدين ما كانت الأمور لتسير. وعندما قال چنرال شاب فى جيش ڤيتنام الجنوبية فى سنة ١٩٦٦ لكبير محللى وكالة المخابرات المركزية إنها وحدها الولايات المتحدة التى تستطيع تنفيذ الثورة الاجتماعية الضرورية، رفض السفير لودچ الفكرة وقال: «ليس من المحتمل أن نفعل ذلك. . فذلك سيكون بالضرورة لعب دور الإله»(٨١) .

وتمسك ماكنمارا وكومر بدور البنوك ومحاولة التنسيق بين ١٠٠٠ من المدنيين الأمريكيين و ٧ آلاف من الموظفين بالجيش الأمريكى ومليون ڤيتنامى فى القوى

الإقليمـيـة وأطقم الدفـاع الذاتى الشـعـبى و١٠٠ ألف رجل بوليس وطنى، كـانوا مشاركين كلهم فى مجهود حفظ السلام. أكد انطلاق مشروعهم على أمن القرية، إصـلاح الأرض، إصـلاح البـوليس، إغـاثة اللاجـئين وإنـهـاك البنيـة التـحـتـيـة للڤييتكونج. أفرخت تلك الحملة الأخيرة المشروع الخلافى فونج هوانج أو برنامج الفونيكس (العنقاء) الذى أداره رئيس وكالة المخابرات ويليام كولبى. واتهم النقاد فيما بعد «العنقاء» بالاعتماد على مخبرين مشكوك فيهم، الاعتقالات العشوائية، والتعذيب والإعدام. وأنكر كولبى بشدة تلك التهم. ولكن ما من شك فى أنه من خلال «العنقاء» بدأ الأمريكيون يلجئون - إلى حد ما - لتلك الأساليب القاسية التى أطاحوا بدييم وشقيقه لاستخدامهما لها قبل خمس سنوات فقط.

وفى غضون ذلك، وفى داخل المدن والبلدات المكتظة قرب القواعد الأمريكية، فإن المساعدة الأمريكية قد أعاقت الاقتصاد الڤيتنامى عن أن يكون جاهزاً للانطلاق.

وبحلول سنة ١٩٦٦، كانت ڤيتنام الجنوبية تتلقى ٤٣٪ من تمويل وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية للعالم كله، ولكن الـ ٨,٥ مليارات دولار من المساعدات الاقتصادية من عام ١٩٥٤ إلى عام ١٩٧٤، والـ ١٧ مليار دولار من المساعدات العسكرية، والمليارات الإضافية التى أنفقها الأمريكيون فى البلد، غذت بالوقود سوقا سوداء من السلع الاستهلاكية المختلفة، واقتصاد «بازار» عمل بالقوادة للرغبات الأمريكية فى المشروبات الكحولية والمخدرات والبغايا (بين أشياء أخرى). وسرعان ما أصبحت مدن ڤيتنام الجنوبية - مثل العديد من المدن الداخلية فى أمريكا - فاسدة ومناطق تعيش على معونات دولة الرفاهية.

ومع ذلك، كان كومر راضيا جداً بلوغاريتماته، ومؤشراته، حتى إنه فى أوائل سنة ١٩٦٧ تباهى أمام ديڤيد ليلينثال: «لقد كسبنا الحرب»(٨٢). وفى آخر ذلك العام، أطلق البيت الأبيض وهيئة القيادة العسكرية الأمريكية فى ڤيتنام حملات علاقات عامة خاطفة وعدت أيضا بنصر قريب، ولكن ما أتى بدلا من ذلك كان سلسلة تهكمات. من جانب بدا هجوم تيت من الشيوعيين فى سنة ١٩٦٨ الذى تحدى بإزدراء الحديث عن «ضوء فى آخر النفق» وحوّل رأى النخبة الأمريكية ضد الحرب. ومن الجانب الآخر، كان هلاك الڤييتكونج فى هجمات تيت على الحضر قد سمح ببرنامج كومر «السلم المتسارع» لإحراز تقدم جدى. وبقدر ما ألغت وكالة

دعم العمليات المدنية والتنمية التطورية من عملية المسح التقييمى للنجوع كل المعايير عديمة الصلة بالأمن (الصحة والتعليم وما شابه) يتساءل المرء بأى قدر عكَس ادعاؤها بالسيطرة على ٩٠ ٪ من البلد تأييدا شعبيا حقيقيا لسايجون. [٨٣] ولكن صدمة تيت أقنعت ثيو بممارسة الديمقراطية، وأخيراً أن يبدأ الإصلاح الحقيقى.

وقيد قانون «الأرض لمن يحرثها» عام ١٩٧٠ ملكية الأرض إلى ١٥ هكتارا (سمح القانون السابق بملكية ١٠٠ هكتار)، وخفض معدل الإيجار بين الفلاحين من ٦٠ ٪ إلى ١٠ ٪. [٨٤] ومع تحول الحياة اليومية فى جنوبى ڤيتنام لأن تصبح أكثر أمنا من أى وقت منذ سنة ١٩٥٨، يستطيع المرء أن يقول إن الولايات المتحدة نجحت فى هزيمة التمرد الجنوبى - فقط لتعلم كم هو صغير تأثير ذلك الهدف الصعب أمام النصر الحقيقى، عندما أطلقت هانوى هجومها التقليدى الهائل عبر المنطقة منزوعة السلاح فى سنة ١٩٧٢. وكما كتب نورمان حنا بذكاء شديد: «لقد قاتلت الولايات المتحدة فى الحرب كما يهاجم الثور غطاء رأس مصارع الثيران وليس مصارع الثيران نفسه»[٨٥].

ولجعل الأمور أسوأ، فإن هجوم تيت نفسه الذى حطم الڤييتكونج دفع أيضا چونسون إلى أعلى، ونيكسون إلى انسحاب القوات الأمريكية التى كانت وحدها قادرة على إحباط العدو الحقيقى فى ڤيتنام الشمالية. فوق كل شىء، ومهما كان تقييم المرء لعملية إحلال السلام بالريف، فإن سياسات التطوير لم تفلح حتى في الاقتراب من جعل ڤيتنام الجنوبية دولة قومية مكتفية ذاتيا قادرة على حماية نفسها وناضجة للانطلاق الاقتصادى. ولنأخذ فى الاعتبار أنه ما بين ١٠٠ ألف إلى ٣٠٠ ألف شاب كانوا يدخلون سوق العمل كل سنة فى آخر الستينيات وبداية السبعينيات، وقدر الاقتصاديون أن تشغيل أولئك العمال «سيحتاج إلى استثمارات سنوية فى حدود ٤٠٠ مليون دولار، أو استثمار صاف بحوالى ١٥ ٪ من الدخل القومى لڤيتنام، فقط فى القطاع الصناعى». وبفضل الولايات المتحدة كانت الأموال متاحة، ولو أصبحت ڤيتنام الجنوبية متعافية لكان بيرواقرطيوها وأغنياؤها الجدد أعادوا استثمار المكاسب الجيدة أو الضعيفة التى حصلوها، وبدءوا النمو المتواصل ذاتيا. ولكن انعدام الأمان بسبب الحرب وتسهيل العم سام للمعيشة، تشاركا فى هبوط معدل الادخار فى جنوب ڤيتنام إلى مستوى صفر فى المائة. (فى المقابل، رفعت تايوان معدل الادخار من ٦ ٪ إلى ٣٠ ٪ بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٧٥، وجنوب كوريا من صفر إلى ٢٢ ٪). [٨٦]

وفى الحق، كان «ازدهار» جنوب ڤيتنام هشا جداً، وبعد أن تركه الأمريكيون فى تحسن عام ١٩٧٣، هبطت العملة بنسبة ٢٥٪ مقابل الدولار، وحلق التضخم إلى ٦٥٪، والتهم عجز التجارة بـ ٧٥٠ مليون دولار ثلاثة أرباع احتياطى سايجون من النقد الأجنبى، ووصلت البطالة إلى ٢٠٪. ولإنصاف ثيو فقد كان حظه سيئا. أخفق محصول الأرز فى سنة ١٩٧٢ وتضاعف سعر البترول ٤ مرات بعد الحظر العربى فى سنة ١٩٧٣. والنقطة هنا أن ڤيتنام الجنوبية، دون معونة الـ ٤٠٠ مليون دولار سنويا، لم يكن لديها قوة داخلية تستند عليها. وطاف ثيو العالم بحثا عن رأس المال (٦٠٪ من ميزانية بلده كانت تذهب للجيش)، ولكنه عاد خالى الوفاض. وعمت «عدوى البؤس» البلد وانخرط الموظفون فى الفساد الكبير والصغير، مما قوّض شرعية النظام وبدد عشر سنوات من الجهد الأمريكى[٨٧].

لقد قتلت سياسات إدارة چونسون إمكانات الصناعة والموارد الڤيتنامية، أولا بسبب أنها فشلت بمفاهيمها فى حفز التنمية الاقتصادية، وثانيا لأنها أخذت مكان الإستراتيچيات العسكرية المتينة التى كان يمكن أن تحمى جنوب ڤيتنام من يد الشيوعية القاتلة. ولا عجب أن يستنتج لوسيان باى أن ڤيتنام أظهرت التشوش التام للأساس المنطقى للمعونة الخارجية للولايات المتحدة. وسابقًا، أوضح المؤرخ نيوت جينجريتش: «لقد صممنا حربًا سوف نخسرها، وأدرنا خسارتها بالطريقة التى صممناها»[٨٨].

هل يعنى ذلك أن المحتجين المعادين للحرب كانوا على حق؟ يعتمد ذلك على أى منهم يقصد المرء. فالناشطون الراد يكاليون الذى عرفوا الصراع - ببساطة - كحرب أهلية، وهوشى منه بأنه قومى طيب أكثر منه ستالينى، كانوا على خطإ.

وأولئك الذين رأوا بلا مبالاة أن بلدانا مثل ڤيتنام كانت - على أى حال - أفضل تحت الشيوعية، كانوا على خطإ. وأولئك الذين اعتقدوا أن ڤيتنام عرض لأمريكا الفاشية كانوا على خطإ. ڤيتنام كانت حربا ليبرالية. وبالأحرى فإن النقاد المعادين للحرب الذين يبدون الآن على حق كانوا من الذين أولوا أذانا صاغية للسناتور چى. ويليام فولبرايت (ديمقراطى - أركانسو) وچورچ كينان ووالتر ليپمان، والقدامى الذين رأوا فى «تحسين العالم» خروجًا مغرورًا وخطيرًا عن الفطنة الأقدم للأمريكيين.

وكتب فولبرايت: «كان الافتراض الضمنى لتلك البرامج، أن وجود بعض موظفى

المساعدة الأمريكية، نعمة يجب ألا نحرم أى بلد نام منها، فيما عدا تلك الشيوعية المظلمة. أنا أعتقد أن تلك الرؤية للمساعدة هى تعبير عن غطرسة القوة[٨٩]».

وجعل فرانك شيرش (ديمقراطى - إيداهو) عضو لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، من النقد التقليدى لحرب ڤيتنام دراميًا، فى مناسبة التقاط الصور فى سنة ١٩٦٦. فقد وقف فى مواجهة خريطة للعالم، قاتمة فيما عدا أمريكا، واتخذ وضعًا تصويريًا مبتسما. بينما حدق فولبرايت وواين مورس (ديمقراطى - أوريجون) فى الصورة بتعبيرات إعجابية رصينة، وبدا مايك ما نسفيلد مأخوذا بالمفاجأة لا يعرف ماذا يفكر فيه.[٩٠] وكان الوجه فى الصورة لويليام بوراه.

***

صفعت ڤيتنام سياسة «تحسين العالم»، بضربة مذلة، لكنها غير قاتلة. وأظهرت استطلاعات الرأى فى سنة١٩٧٢ أن ٦٨٪ من الأمريكيين استمروا فى تأييد المعونة الخارجية. وكان أحدهم الرئيس نيكسون الذى انجذب إلى «الاهتمامات الإنسانية» و«خلق عالم مسالم» بافتراض أن «الاستقرار السياسى لا يحتمل تحققه دون تنمية اقتصادية متينة»[٩١]. ولكن قانونه الجديد للمساعدة الخارجية، وجه وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية لتجنب «إستراتيچيات النمو الموجه للتصدير والاكتفاء الذاتى» لحساب الضمانات التى تتيح الفرصة لتحسين مستويات المعيشة[٩٢].

ولسوء الحظ فقد ضاعت أى فرصة لذلك، عندما أدى تصعيد أوپك لأسعار البترول إلى إفلاس الدول الفقيرة وأسلم الولايات المتحدة لسنوات إلى «الكساد التضخمى».[٩٣] وكانت أكثر إشكالا مليارات الدولارات فى شكل قروض مضمونة وقمح مدعم التى جرى التنازل عنها للكتلة السوڤييتية باسم «انفراج العلاقات الدولية». وكان افتراض هوڤر من وراء ذلك السخاء أن توفير الغذاء والقروض والتكنولوچيا سوف تفتح النظام الشيوعى وتعطيه فسحة لعلاقات طيبة مع الغرب. وقد يتجادل المؤرخون حول ما إذا كانت تلك السياسات فعالة، ولكن من الواضح أن نياتها كانت تطورية.

خاض چيمى كارتر معركة الرئاسة فى سنة ١٩٧٦، ببرنامج يرفض ما رآه السياسة الواقعية اللاأخلاقية لسابقيه، وتعهد بإعادة النظر فى الإنفاق العسكرى لمصلحة المساعدة الخارجية.

ولكن مع وجود اقتصاد الولايات المتحدة فى ضائقة، لم يكن هناك الكثير الذى يستطيع كارتر عمله: حتى بعد زياداته، لم تنفق الولايات المتحدة إلا خمس الحصة ذاتها من الناتج المحلى الإجمالى التى أنفقتها على المعونة الخارجية عام ١٩٦٠، بينما أكل التضخم ـ الذى أصبح معدله من رقمين ـ الزيادة. وبنهاية السبعينيات فإن علماء الاجتماع أنفسهم الذين كانوا قد وعدوا أخيرا بمعجزات العالم الثالث، نزلوا إلى الجدال حول ما إذا كان يجب أن توزع المساعدة بنظام الغربلة (ترك الدول العاجزة لمصيرها) أو التخلى عن برامج التنمية فى مجملها لصالح الوفاء بالاحتياجات الإنسانية الأساسية. (٩٤) **وكان الإثبات الأوضح لفشل المساعدة الخارجية بحلول عام ١٩٨١ أن فوائد الدين المستحقة على الدول الفقيرة زاد عن إجمالى المساعدة الجديدة التى تلقتها. لقد كانت سائرة إلى الخلف.**

ورمى ماكنمارا، الآن رئيس البنك الدولى، بموارده خلف «نظام اقتصادى عالمى جديد»، بافتراض أن «الغنى لديه مسئولية لمساعدة الأمم الأقل تطوراً. إنها ليست مسألة عاطفية تتعلق بالإحسان، ولكنها على طول الخط مسألة عدل اجتماعى»(٩٨).

وقضى النقاد المحافظون يومًا شاقًا حول ذلك.

إن ازدراء ماكنمارا لدافع الخير، لم ينح فقط دافعا مهمًا كان لدى دافعى الضرائب للمساعدة الخارجية، بل أيضًا لمح إلى مسئوليتهم فى دعم نظم عاجزة أو فاسدة.

وفى المقابل، عَدّ النقاد اليساريون المساعدة الخارجية أداة لجعل الدول الفقيرة رهائن للحرب الباردة، ودعم الدكتاتوريين، وإبقاء تبعية العالم الثالث، وتقويض الثقافات غير الغربية. وبالنسبة لهم، كانت المساعدة الأمريكية إمبريالية. (٩٦)

وأظهر كارتر ثقة أكبر عندما أطلق السهم الهويجى فى جعبة التطوريين: تشجيع الديمقراطية وحقوق الإنسان. لقد ابتهج فى خطاب نوتردام الشهير «إننا الآن متحررون من ذلك الخوف المبالغ فيه من الشيوعية الذى قادنا ذات مرة لاحتضان أى دكتاتور شاركنا ذلك الخوف»(٩٧).

وقوله هذا، كان بمثابة رجع الصدى لكونجرس ما بعد ووترجيت الذى أعلن فى عام ١٩٧٦ «هدفا رئيسيا للسياسة الخارجية الأمريكية للولايات المتحدة أن تشجع فى كل الدول مراعاة حقوق الإنسان المعترف بها دوليّا». وطلب من وزارة الخارجية تقارير عن أداء كل الدول. (٩٨)

واعتبر الأجانب هذه الموعظة الأخيرة من واشنطن متخمة مثل السياسات النيكسونية التى عنيت بأن تحل محلها، إلا أن الرسميين مثل پارتريشيا ديريان منسقة حقوق الإنسان ـ فى إدارة كارتر وفيما بعد مساعدة وزير الخارجية ـ صعدت الشعار التطورى. فاستنكرت وقوف الولايات المتحدة طويلا إلى جانب حلفاء مثل ـ الرجعيين الفاشيين ـ الذين حكموا بالقهر والتعذيب، ووسعت تقارير حقوق الإنسان السنوية من ١٠٠ صفحة إلى ما يزيد على ألف صفحة، وألحت على أن تقطع الولايات المتحدة المساعدة عن ٢٨ بلدا، حتى لو زاد تأثير الاتحاد السوڤييتى فى آسيا وإفريقيا وأمريكا الوسطى.

كذلك لام سفير أمريكا فى الأمم المتحدة أندرو يونج سياسات الحرب الباردة الأمريكية التى شجعت «نظاما قمعيا، والإمپريالية، والاستعمار الجديد، والرأسمالية أو ماذا لديك» وقال: «كل الرءوساء قبل كارتر كانوا عنصريين، وقد اخترع البريطانيون عمليا العنصرية». (٩٩)

إن سياسات كارتر فشلت فى تقدم المصالح التطورية أو الإستراتيچية للولايات المتحدة. وعندما استولى الساندنيستا على السلطة فى نيكاراجوا فى سنة ١٩٧٩، طلب كارتر من الكونجرس إعطاءهم ٧٥ مليون دولار كمعونة. وأظهر دانييل أورتيجا امتنانه بالتحالف مع كوبا والاتحاد السوڤييتى، فارضا حكم حزب واحد وأشعل تمردًا آخر فى السلڤادور. ولم يؤد تخلى كارتر عن مساندة شاه إيران لكسب ثقة آية الله خومينى الذى سارع أتباعه بأخذ السفارة الأمريكية كرهينة. ذلك إضافة إلى أن الغزو السوڤييتى لأفغانستان فى سنة ١٩٧٩ أشعل مواجهة حاسمة بين مستشار الأمن القومى زبجنيو (السياسة العالمية ليست روضة أطفال) بريزنسكى ووزير الخارجية التطورى سايروس ڤانس (١٠٠). فعندما أمر كارتر فى النهاية الجيش بمحاولة إنقاذ الرهائن، أصبح ڤانس أول وزير للخارجية منذ ويليام چننجز يستقيل من منصبه بسبب المبادئ.

وبحلول عام ١٩٨٠ ، كان أربعة من كل خمسة أمريكيين تم استطلاعهم يرفضون كارتر لسياسته الخارجية ، ولكن الرفض النهائى لموقفه التطورى جاء بعد ١٣ سنة . فقد دعته الأمم المتحدة فى ضوء عمله بعد الرئاسى كصانع سلام متنقل ، ليكون رئيسًا شرفيًا لمؤتمر حقوق الإنسان فى ڤيينا فى يونيو سنة ١٩٩٣ . وعندما قُدم كارتر ، سخر منه وقاطعه مئات من أعضاء وفود العالم الثالث حتى نزل من على المنصة . فقد مثّل بالنسبة لهم أسوأ نوع للتدخلية الأبوية الأمريكية . (١٠١)

كما أن ارتباكات كارتر أضرت أيضا بسياسة «تحسين العالم» ، ولكنها لم تكن كافية لقتلها . وبعد فجوة ١٢ سنة ، وظف خلالها ريجان وبوش شعارا ويلسونيا مع الاحتواء والصد ، أعلن فريق السياسة الخارجية للرئيس كلينتون الأچندة الأوضح حتى الآن لـ «تحسين العالم» ، باعتقاد أن نهاية الحرب الباردة معناها أن ساعتها قد حانت . كم كان ساخرا ذلك السناتور فولبرايت ـ والمظنون أنه المعلم الخاص لكلينتون ، وبلدياته من أركانسو ـ والذى تساءل بحدة عن «قدرة الولايات المتحدة أو أى أمة غربية أخرى على خلق الاستقرار حيثما توجد الفوضى . . . . . وإرادة القتال حيثما توجد الانهزامية . . . . . والديمقراطية حيثما لا توجد تقاليدها ، والحكومة الأمنية حيثما يكون الفساد تقريبا طريقة حياة» . (١٠٢)

الخاتمة

البهجة الحاضرة

قال و. هـ. أودن ذات مرة عن تى . إس. إيليوت إنه ليس رجلا بل «بيتى، مطران كنيسة رفيع، جدة عجوز ريفية حكيمة وعاطفية، وصبى ميال إلى نكات ماكرة وعملية، وكل ذلك يعيش بداخله بطريقة ما». ولخص والت روستو أن الأمم أيضا تعكس «عناصر منفصلة ـ ومتفقة ـ من الوراثة والبيئة وتتفاعل، لترتفع لمستوى المشكلات (أو تفشل فى ذلك) فى شكل متواتر لتبنى ـ عبر الزمن ـ تبعا لذلك أنماطا ثابتة من الأداء». (١)

لقد بدأت ـ أولا ـ برؤية الأنماط المتواترة للسياسات الخارجية للولايات المتحدة فى عام ١٩٨٧، بينما أراقب جدالنا حول أمريكا الوسطى. بدا أن الساندنيستا ميالون لنشر ثورتهم بمساعدة كوبا والاتحاد السوفييتى. كيف يجب أن ترد الولايات المتحدة؟ استشهدت إدارة ريجان بسياسة الاحتواء لتبرير دعمها للسلفادور والكونترا، واستدعى آخرون مبدأ مونرو، باقتراح أنه بالرغم من أن الولايات المتحدة يجب ألا تتدخل فى آسيا وإفريقيا، فإن عليها واجب تأمين نصفها الغربى من الكرة الأرضية. وآخرون من الصقور عديمى الحياء استعاروا صفحة من الإمبريالية التقدمية، آملين فى أن ريجان سيرسل جنود البحرية كما كان قد فعل فى جرينادا. واستدعى بعض النقاد الاستثنائية الأمريكية، وعنفوا الريجانيين على إخفاء صراع دموى تحت ستار حملة صليبية من أجل الديمقراطية. وعبر آخرون عن مشاعر «انعزالية جديدة» مستنكرين أن نيكاراجوا هددت أمن الولايات المتحدة ومحذرين من ڤيتنام أخرى. وبقى آخرون أرادوا سياسة ويلسونية تعتمد على مفاوضات متعددة الأطراف من خلال الأمم المتحدة أو منظمة الدول الأمريكية.

حدد أصحاب النظرة التحسينية للعالم الفقر والقهر مصدرين أساسيين لعدم الاستقرار، وطالبوا بمساعدات اقتصادية واجتماعية لأمريكا الوسطى.

وعلى الأقل، فمن بين دارسى أمريكا، كان هناك السفير السوفييتى أندريه جروميكو، قد لاحظ كيف أن كل تقاليدنا الدپلوماسية استمرت تغذى وتشوش نقاشاتنا.

فالعيب الأعظم فى مقاربتنا لشئون العالم، كما قال، إنه كانت كان لدينا «مفاهيم ومبادئ عديدة أعلنت فى أوقات مختلفة»، وهكذا كنا غير قادرين على صياغة

«سياسة ثابتة ومتماسكة ومتناسقة»[٢] طبعا كانت الإستراتيچية السوڤييتية متماسكة بالمقارنة، ولكن سرعان ما أظهرت نفسها لتكون مفلسة. غير أنه بعد نهاية الحرب الباردة اتفق معظم الخبراء الأمريكيين على أن الوقت قد حان للأخذ من مخزون الدروس التى تعلمناها خلال سنواتنا الخمسين تحت الطوارئ، وممارسة رؤية فى ملاحقة أولويات جديدة وربما نظام عالمى جديد.

وقدم أناس لامعون رؤى حول: كيف تغير العالم وكيف يجب على سياسة الولايات المتحدة أن تتكيف. وكانت الصعوبة أنهم كلهم لم يتفقوا. كتب فرانسيس فوكوياما عن النصر النهائى لديمقراطية السوق الليبرالية على الأيديولوچيات التى ابتلى بها العالم منذ الثورة الفرنسية. وقال، بمعنى فلسفى، إننا قد وصلنا «نهاية التاريخ»[٣]. وقال هنرى كسينجر: لا، ليست فقط الجغرافيا السياسية ستستمر فى تشكيل النظام العالمى، ولكن توزع القوة الاقتصادية والعسكرية قد عنى أن عالم ما بعد الحرب الباردة يعود إلى التعددية القطبية. من هنا يجب أن تتعلم الولايات المتحدة أن تلعب دور «الأول بين أكفاء» فى نظام توازن القوى.[٤] وقال صمويل هنتنجتون: لا.. ليس انتصار الديمقراطية الليبرالية أو توازن القوى التقليدى سيحدد الحقبة الجديدة، ولكن بالأحرى فإن تعميق الانقسامات بين المناطق الحضارية ـ الإسلامية والكونفوشية والهندية والغربية ـ ومن ثَمّ صَعَّد مخاطر بـ «صدام الحضارات»[٥]. وقال إدوارد لوتواك: لا.. الجغرافيا الاقتصادية ستشكل المنافسة العالمية فى القرن الحادى والعشرين، ولذلك فإنه من الأفضل للولايات المتحدة التخلص من عجز تجارتها وميزانيتها وتعزز المدخرات والبحث وتجدد إنتاجيتها.[٦] وقال پول كيندى وچيسيكا توخمان ماثيوز وروبرت د. كاپلان: لا.. فالتحديات العظمى فى القرن المقبل ستتضمن انتشار أسلحة الدمار الشامل والكوارث الديموجرافية البيئية التى ستتسبب فى انتشار المجاعات والهجرات الجماعية والإبادة المحلية.[٧]

وأوحت المستقبليات المقبولة بنظام خيارات للسياسة. وحث البعض الولايات المتحدة لاستغلال هذه «اللحظة أحادية القطبية» النادرة التى وجدت فيها نفسها القوة العظمى الوحيدة، «لمد ديمقراطية النموذج الأمريكى عبر العالم» وخدمة «القيم الأمريكية التى حافظت عليها طويلا، خصوصا أفكار الكمال والتقدم المستمر».[٨] ولم تكن المشاعر المنحصرة بين الليبراليين الويلسونيين، كما ظهرت من خلال النداء

الواضح للمثقف المحافظ ويليام كريستول «بالهيمنة الخيرة» الأمريكية على العالم كله.[٩] وهكذا، تحدى بعض الواقعيين مثل هنرى كيسنجر وپيتر رودهان وچين كيرك پاترك وفريد زكريا وإرڤنج كريستول، وكلهم اقترحوا أنه يجب على الولايات المتحدة أن تظل منخرطة فيما وراء البحار ولكن كـ «أمة عادية» تتصرف بالمبادئ السياسية للقوة لثيودور روزڤلت بأكثر من «أخلاقيات الحق الذاتى الطنانة» لوودرو ويلسون.[١٠] وبقى رفاق آخرون جدد، نتاج ترويج سياسات اليسار واليمين حول القومية والتراجع. قالوا إنه وقت مناسب للأمريكيين ليتركوا أوروپا واليابان تهتمان بدفاعهما الخاص، وتلبية احتياجاتهما المحلية، بل وتحولوا إلى حمائيين (فى حالة ريتشارد جيبهارت، روس پيرو، وپاتريك بوكنان). وذهب لمدى أبعد المحنك إريك نوردلنجر «الانعزالى الجديد». فلم يقترح فقط أن «الذهاب للخارج لحماية الأمن الأمريكى غير ضرورى» اليوم، بل تحدى مفهوم أن أمن الولايات المتحدة قد تهدد بالفاشيين فى سنة ١٩٤١ والاتحاد السوڤيتى بعد سنة ١٩٤٥. ونادى نورد لنجر بخفض حاد لميزانية الدفاع، وبأنه لاحاجة للقواعد الخارجية فيما عدا دييجو جارسيا فى المحيط الهندى (لحماية الشحن البحرى للبترول)، ولا حاجة للانخراط فى أحلاف، وبسياسة خارجية متوافقة مع «فعالية مبدئية». لحماية حقوق الإنسان».[١١]

***

لم تؤثر أى من تلك الاقتراحات الحادة تأثيرا كبيرا فى واشنطن. فبعد انهيار الكتلة السوڤييتية، تحدث چورچ بوش بغموض عن نظام عالمى جديد، لكنه افتقر إلى الوقت والرغبة لإعادة التفكير فى المقاربات التقليدية للسياسةالخارجية. وكان مستشارو السياسة الخارجية لبيل كلينتون مقتنعين بأن نهاية الحرب الباردة نظفت الأسطح لإصلاحية عالمية أكثر عسكرية. فوزير الخارجية وارن كريستوفر ومستشار الأمن القومى أنتونى ليك وكلينتون نفسه، كانوا نقاداً قاسين لحرب ڤيتنام، ولكنهم الآن يبدون متلهفين لإرسال قوات الولايات المتحدة للخارج فى بعثات بناء دول طموحة، كما كانت بعثات ليندون چونسون. أولا، وسَّعت سفيرة الأمم المتحدة مادلين أولبرايت مشروع بوش للإغاثة فى الصومال لهدف واحد هو «استعادة بلد كامل كعضو فخور وفعال وقابل للحياة فى جماعة الأمم». وصاغت مصطلح «تعددية الأطراف المؤكدة» لوصف اعتزام الإدارة وضع قوة وأموال الولايات

المتحدة تحت تصرف الأمم المتحدة. بعد ذلك، أعلن ليك مبدأ التوسع، وبموجبه ستحاول الولايات المتحدة نشر الديمقراطية واقتصاديات السوق حول العالم بوسائل «ملائمة» متعددة الأطراف أو أحادية. واستخدم كلينتون نفسه عبارات أخذت حرفيا من ترومان وكيندى وچونسون عندما أعلن أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة: «للمرة الأولى فى تاريخ العالم، لدينا الفرصة لمد وصول الديمقراطية والتقدم الاقتصادى عبر كامل أوروپا وإلى الامتدادات البعيدة للعالم». (١٢)

وهاجم النقاد سياسات كلينتون من منطلقات مختلفة. قالوا إنه بعيدا عن حماية المصالح الأمريكية، بدت الإدارة مرتاحة للتدخل الخارجى فقط عندما أصبحت المصالح الحيوية للولايات المتحدة بمنأى عن خطر. كما وضعت السياسة الأمريكية حياة الأمريكيين فى أيادى هيكل قيادة للأمم المتحدة معقد وعاجز، ومارست نفس التدرجية، تحت غياب الأهداف الواضحة، تلك التى وسمت حرب ڤيتنام.

إنها (الإدارة) وقد ركزت على هدف دون كيشوتى (وهمى) لبناء الدول فى أقطار هامشية وفوضوية مثل الصومال، وهاييتى، والبوسنة، بينما كانت تسمح بانجراف العلاقات مع اليابان والصين وأوروپا، وبتقبل الديمقراطية الروسية كأمر مفروغ منه. وبكلمات مايكل ماندلبوم القاطعة، هذه «السياسة الخارجية للأم تريزا» صممت «لتحويل السياسة الخارجية الأمريكية إلى فرع للشئون الاجتماعية»(١٣).

ومن جانبهم، وبّخ الليبراليون الإدارة لأنها لا تعمل ما يكفى. وقد يتباهى كريستوفر بأن الأمم كانت مأخوذة «برؤية الأمة الأقوى على الأرض تقف إلى جانب الشعوب المضطهدة فى كل مكان». ولكن أنتونى لويس وصحفيين آخرين والذين انتقدوا عسكرية الولايات المتحدة فى الماضى، عنفوا كلينتون بسبب التردد طويلا فى قصف واحتلال البوسنة. وعندئذ، بعد أن تدخلت الولايات المتحدة هناك، سأل چيمى كارتر: لماذا نرسل ٢٠ ألف جندى إلى البوسنة «ولا نولى أى اهتمام بليبريا ورواندا وبوروندى والسودان؟». وأجاب: لأن تلك البلدان كانت مأهولة بسكان سود، ومن هنا، كانت سياسة كلينتون «عنصرية»(١٤).

ولم يكن النقاد الأجانب أدنى نبرة. فقادة بلدان حافة المحيط الهادى من اليابان وكوريا الجنوبية إلى الصين وڤيتنام وسنغافورة، استنكروا «التوسع» كشكل للإمپريالية وادعوا تفوق «القيم الآسيوية». وامتعض الأوروپيون والآسيويون من مطالب الولايات

المتحدة بأن يزيلوا الحواجز أمام التجارة. ومحاضرة هيلارى رودهام كلينتون فى القضايا المعاد إنتاجها أمام مؤتمر المرأة فى بكين، أغضبت المسلمين والكاثوليك.(١٥) واستاءت البرازيل ودول نامية أخرى من الأجندة الأمريكية للبيئة.

وأغضبت قيود الولايات المتحدة على بيع التكنولوچيا النووية وتكنولوچيا الصواريخ باسم منع الانتشار، الصين والهند وإيران وپاكستان وأمما أخرى غيورة على حقها فى الدفاع عن النفس. وللكل، بدا أن إدارة الولايات المتحدة التى مجدت التعددية الثقافية والتنوع فى الداخل، لم تتحل فى الخارج بنفس التسامح مع الدول الأجنبية.

لا بوش ولا كلينتون ترأس على أساس إعادة تقويم حقيقية لتقاليد الولايات المتحدة القديمة. وبدلا من ذلك استولى الكلينتونيون على تقليدينا الأكثر إشكالا - الويلسونية وتحسين العالم - وجعلوهما مثل مغناطيس السياسة فى حقبة ما بعد الحرب الباردة.

هل كانوا على خطإ بالبحث فى تاريخنا عن نماذج لاتباعها اليوم؟ أم كانوا على صواب فى الاهتمام بالتاريخ، ولكنهم حسبوا الحماقة التى وجدوها هناك حكمة؟ تمرين تاريخى أخير - نوع من الرسم التصويرى للسيرة الذاتية القومية - قد يساعدنا فى الإجابة عن هذين السؤالين.

❄❄❄

فى البداية، ولد المشروع الأمريكى من تيارين فى القرن الثامن عشر: العقلانية التنويرية بمفاهيمها العالمية عن القانون الطبيعى ومبدإ حقوق الإنسان، والأنثروپولوچيا المسيحية التى أكدت طبيعة الإنسان الناقصة وغير المتغيرة.

أطلق التيار الأول فى عروق الأمريكيين الطموح السامى، ولكنه أغراهم بتخيل أنفسهم نخبة غنوصية يتملكها منهج عالمى لإدارة الشئون الإنسانية.

فالذين أطّروا الدستور كانوا مدركين بذكاء لذلك الإغراء الطوباوى، ولذلك أسسوا «الضبط والتوازن» لمنع أى فريق من احتكار الحكومة الفيدرالية لحسابه، وتجنبوا كل السياسات الخارجية «الثورية».

وصبغ التيار الثانى، الدينى، الأمريكيين بالتواضع والحذر، ولكن أغراهم بتخيل أنفسهم نخبة روحية، استحوذ عليها احتكارها ـ بشكل ما ـ للحقيقة، ودعوة العناية الإلهية لها لتصحيح الأخطاء.

وكان من أطّروا الدستور مدركين لذلك الخطر أيضا، ولذلك وضعوا لائحة الحقوق وحظروا تأسيس الدولة للدين. ولحسن الحظ اتجه التياران لضبط كل منهما الآخر، لتسمح للولايات المتحدة أن تنشأ كجمهورية علمانية وحرة بشكل ملاحظ، والتى قوتها وتلاحمها ـ بالرغم من ذلك ـ مؤسستان بشكل كبير من ضمير اجتماعى احترم تقاليد الكتاب المقدس.

وتعكس تقاليدنا الأربعة الأولى للسياسة الخارجية ـ العهد القديم للدپلوماسية الأمريكية ـ ذلك التوازن بين العقل والإيمان: الحرية فى الداخل، الأحادية، النظام الأمريكى، التوسعية الحدودية والتجارية. لم يُقو كل منهما الآخر فقط، بل خدم باقتدار مصالح أمة زراعية، وبأدنى مخاطرة. ولم يكن واضعو تلك التقاليد «انعزاليين»، ولكنهم أيضا لم يطلبوا فرض قيمهم على ما وراء حصتهم من الأراضى والمياه التى أعطتها لهم الطبيعة ـ أو رب الطبيعة.

وفضلا عن ذلك، فإن أحداً منهم لم ير صراعًا مميتا بين الأخلاقية والمصلحة الوطنية. فكانت تقاليد: الحرية، وعدم الانخراط فى الأحلاف، ومبدأ مونرو، أخلاقية لأنها كانت تعبيرات واقعية عن مكان «أرض الميعاد» فى العالم. وكانت واقعية لأنها منعت مغامرة من نوع التقوى والصلاح الذاتيين، قد تفسد الأساس الأخلاقى للجمهورية.

طبعا، فإن الآلية التى أدمجت العقل التنويرى مع الإيمان المسيحى لم تكن أبداً تامة الكفاءة. وللاستشهاد بالأمثلة الأكثر وضوحًا، فإن الرق والكنائس المؤسسية فى بعض الولايات فضحت أمة قامت على الحقوق العالمية، وتشارك نشطاء متدينون وعلمانيون متعددون لتصحيح تلك الإساءات عبر الزمن. ولكن ما إن أخذ القرن التاسع عشر فى الانتهاء، حتى دخل الأمريكيون تدريجيا فى إعادة تفسير تياريهم الأصليين، بطرق أدت إلى تآكل قدرة كل منهما على العمل كضابط للآخر.

أولا، الهجوم المباح على الدين مدفوعا بنقد متعاظم للكتاب المقدس، الهيبة المتزايدة للعلم، قدرة ووعود التكنولوچيا الصناعية فى تشجيع المفكرين العلمانيين

للتصرف كما لو أن مبدأهم فى التقدم قد أسس دينًا حقيقيا. واكتمالاً بوعد علم الغائية يعد بأنه من خلال أمريكا فإن العالم نفسه سيقترب من الكمال. توقع والت وايتمان وحده المستقبل (ذلك ما يفعله الشعراء الجيدون) عندما كتب: (١٦)

يفكر المرء دائما فى القادم.

ذلك أنه فى السفينة الإلهية، يواجه العالم، الزمن والفضاء.

مرتبطة بالمصير ذاته، تبحر كل شعوب الأرض معا.. تبحر فى الرحلة ذاتها.

وببزوغ فجر القرن العشرين، واستيقاظ أمريكا الحضرية الصناعية الجديدة على قدرتها بين الأمم، أصبحت فريسة أسهل من ذى قبل لرسل التقدم الذين تلهفوا على إصلاح العالم.

فى البداية أقنع ماكنلى وثيودور روزفلت، ثم ويلسون وفرانكلين روزفلت الأمريكيين بقبول نمو حكومة مركزية قادرة على تحريك القوة لتصدير المثاليات الأمريكية.

ولا حاجة للقول بأن ذلك ألزم الأمريكيين بأن يضعوا جانبا عهدهم القديم للسياسة الخارجية. فماذا أصبح عليه تيار التواضع والحذر الذى نبههم من قبل، من أنهم أيضا ناقصون، وأن التراكم المتعمد للسلطة يفسد، وأن لا أحد يستطيع أن يجبر الناس أن يكونوا أحرارا!

والإجابة (التى أصبحت واضحة بما فيه الكفاية الآن) أن غصن المسيحية الأمريكية كان مائلا منذ البداية بالمقياس الأرثوذكسى. فميل المقدسات البروتستانتية فى وقت الثورة للمماثلة بين إسرائيل الجديدة والولايات المتحدة مفضلة ذلك على الكنيسة العالمية كان وهمًا مفزعًا، أيا كان القدر الذى شجع به ذلك أمة شابة تخاطر بنفسها فى سبيل حريتها. ومن ثم فإن «الألفانية»، ليس فقط فى الطوائف الهامشية بل وفى مواعظ طوائف التيار العام فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، شهدت بانتشار الهرطقة: افتراض أن الإنسان يمكن أن يعد مكانا لـ«المسيح» (بدلا من العكس) وبذلك يصنع الجنة على الأرض.

وللتأكيد، فإن عدم مهادنة الظلم حرك المخلصين من الرجال والنساء لمكافحة الرق وتشجيع الإصلاح الاجتماعى. ولكن طالما طلبت الكنائس من الحكومة أن تؤيد بثقلها أهداف الكنيسة، أو ألحقت الكنيسة أهدافها فى أهداف الدولة، أصبحت

الكنيسة غير قادرة على كبح أنبياء التقدم العلمانيين. واعتقد ويليام آپلمان ويليامز أن ذلك الاتجاه يمكن اقتفاء أثره رجوعًا إلى التطهريين. وكتب: «كان لديهم خلل فى لاهوتهم». ومن هنا:

عندما كانوا يخطئون، كانوا يمعنون فى الخطإ. وكمخلصين لمثال إنسانى مشترك يرشده معنى أخلاقى قوى، فقد طوروا موهبة عظمى فى القراءة الخاطئة لأى معارضة. ومن الخارج، وعلى سبيل المثال، كانوا ميالين لرؤية الهنود عملاء للشيطان.. والنزوع لوضع الشيطان خارج نظامهم، لم يشوه فقط مبدأ التطهريين، بل انحدر بهم باتجاه حل تضمن فرض نظامهم الخاص على الآخرين.(١٧)

وجعل بعض النقاد الراديكاليين من ذلك الخوف من الأجنبى وازدرائه عجلة قيادة التاريخ الأمريكى كله. وهذا هين، طالما أن طالبى الكمال من المتدينين والعلمانيين عندنا كانوا - سواء بسواء - ميالين لإصلاح رجال بلدهم هم أكثر من الهنود والأجانب. ولكن إذا كان التطهريون قد اعتزموا الحكم على العالم طبقا لمفهومهم للمجتمع الكامل، فإلى أى مدى أكبر من ذلك كان يمكن للأمريكيين أن يذهبوا، عندما أفسحت الكالڤينية الصارمة الطريق للتوحيدية، والتحررية الأسقفية، والمنهجية، والإنجيل الاجتماعى، مدعمة فى القرن العشرين باليهودية الإصلاحية وحركة دوروثى داى الكاثوليكية العمالية، ولاهوت التحرير - والتى عكست كلها أعمالا طيبة أرضية، أو قللت من أو أنكرت الخطيئة الأصلية؟ وبكلمات أخرى، فإن نوع التواضع الذى غل يد چون كوينسى آدامز، وجعل لنكولن يكدح على كل توكيد للسلطة الرئاسية، كف عن كبح جماح فن الحكم الأمريكى، إلى درجة أنه مع قدوم القرن العشرين أصبحت السياسة - بشكل متعاظم - توظف كدين، وانحط الدين داخل السياسة.

لذلك، فإنه فى حين أن أمريكا أرض الميعاد تمسكت بأن محاولة تغيير العالم كانت غبية (وغير أخلاقية)، فإن أمريكا الدولة الصليبية تمسكت بأن الإحجام عن محاولة تغيير العالم كان غير أخلاقى (وغبيًا).

ولكن لننتظر.. بالتأكيد كان هناك أى شىء إلا «الإجماع الأخلاقى» فى سنوات تلك التحولات. فتيدى روزڤلت وودرو ويلسون، على سبيل المثال، ازدرى كل منهما الآخر ودافع بحدة عن سياسات خارجية مختلفة. نعم، قد فعلا، لكن كان

لديهما مشترك بينهما بأكثر جدًا مما مع جروڤر كليڤلاند. وبالرغم من خلافاتهما، فقد اعتقدا معًا أن سياساتهما كانت استجابات أخلاقية وپراجماتية للعالم الذى عرفاه فى زمانهما.

وشعر فولبرايت بذلك التحول العظيم، عندما كتب أن «**عدم اتساق السياسة الخارجية الأمريكية ليس طارئا، بل هو تعبير عن جانبين بارزين فى الشخصية الأمريكية. وكلاهما تميز بأخلاقية ما. واحدة هى أخلاقية الميزات المهذبة التى شكلت مزاجها المعرفة بالنقص الإنسانى، والأخرى أخلاقية التوكيد المطلق للذات التى أشعلتها الروح الصليبية**».(١٨)

وبدءا بعام ١٨٩٨، بدأ النوع الأول من الأخلاقية فى إفساح الطريق للنوع الثانى، فعندئذ قدس أنبياء الدولة الصليبية عهدا جديدا للسياسة الخارجية. وقام الإمبرياليون التقدميون بدور يوحنا المعمدان الذى بشر بالمسيح ومملكة الرب. ولعب ويلسون دور المخلص، الذى صلب فى التو، كما قال كاتب سيرته. وبعد ذلك، كتب مهندسو الاحتواء وتحسين العالم، الرسائل المقدسة التى علمت الأمريكيين كيف يعيشون إيمانهم الجديد. واعتقدوا كذلك أن سياساتهم كانت استجابات أخلاقية وپراجماتية للعالم الذى خبروه فى زمنهم.

والآن، لا يستطيع المسيحيون أن يدعوا جانبا العهد القديم الحقيقى، لسبب بسيط هو أن عهدهم الجديد مشتق مكمل للعهد القديم. وبصيغة أخرى، إذا كانت اليهودية زائفة، تكون المسيحية أيضا زائفة. وفيما يشبه المودة فإن أمريكيى القرن العشرين لم ينسوا عهدهم القديم للعلاقات الخارجية. فالمتحفظون فى مجلس الشيوخ انجذبوا إلى مبادئه فى سنة ١٩١٩، مثلما فعل ذلك الأحاديون فى الثلاثينيات، وقلة الصامدين ضد الحرب الباردة و«الانعزاليون الجدد» فى حقبة ما بعد الحرب الباردة. فالحضور البارز للعهد القديم لسياستنا الخارجية ثابت لدى الكل بحقيقة أن المعتقدين بالتدبير الإلهى الجديد أبدوا إجلالا لعهدنا القديم، على أرضية أنه كان صالحا فى الزمن الذى انتشر فيه، كما كان المصدر لمبادئ عديدة مثل الحرية وتقرير المصير والباب المفتوح، والتى اعتقدوا أن أمريكا القرن العشرين نوديت للتشارك فيها مع العالم.(١٩) وكانوا على حق فى إبداء الإجلال لتلك التقاليد الأربعة الأولى التى كانت صالحة فى زمانها، كما كانت مصدر مثالياتنا الراهنة ـ فيما عدا حالة واحدة.

إن الآباء المؤسسين استنكروا - بشكل واضح - أن يكون على الولايات المتحدة تغيير العالم، خشية أن تغير نفسها فقط إلى الأسوإ. هل يعنى هذا أن أقول إن الولايات المتحدة لم تفعل شيئا حسنا فى القرن العشرين! بالعكس، أعتقد أن سنواتنا الخمسين فى محاربة الفاشية والشيوعية يمكن أن تثبت أنها كانت ساعتنا الأزهى. ولكن الدولة الصليبية قد ارتكبت أيضا أخطاء عديدة، قد فعلت الكثير مما يعتبر سيئًا وقبيحًا، وليس فى حقها فقط.

حلل رينهولد نيبهور معضلات الأخلاقية السياسية عندما كتب أن الإنسان يمكن أن يحقق «عدالة تقدمية متنامية وسلاما أكثر استقراراً»، فقط إذا «لم يحاول المستحيل». وما هو أكثر، ليس من حق الحكومات الأخلاقى سؤال مواطنيها التضحية من أجل مصالح الآخرين. واستنتج أنه مع ذلك «لا نستطيع أن نشيد معارجنا الفردية إلى الجنة ونترك المشروع الإنسانى بكامله غارقا فى شططه وفساده». ومن هنا فإن فكرة أن «الحياة الجماعية للبشرية يمكن أن تحقق عدلا كاملا» هى «وهم ذو قيمة» ولو يكن من ذلك الذى «يشجع الخيال الجامع. ولذلك فإنه يجب أن يؤتى به تحت سيطرة العقل، ويأمل المرء فقط فى أن العقل لن يدمره قبل أن يكون قد أنجز عمله»[٢٠]

وكان نيبهور اللاهوتى المفضل لدى رجال الدولة الأمريكيين فى الثلاثينيات والأربعينيات، والذى كان عليه بطريقة ما تسويغ «الصفقة الجديدة» والأمم المتحدة بمصطلحات الواقعية، والقنبلة الذرية والاحتواء بمصطلحات المثالية.

وأيا كانت الرسالة التى تلقوها من صوت الرب، كان عليهم أن يستجيبوا كما لمح نيبهور، إلى صوت الشعب.

وهكذا فإن السؤال الأساسى فى هذا النقاش حول الواقعية مقابل المثالية هو: فى المحصلة، ماذا يريد الأمريكيون؟ هل هم حقيقة مصرون على أن تعكس سياستهم الخارجية بعض «الوهم ذى القيمة»، ربما حتى لو كان مناقضا لمصلحتهم الوطنية؟ أم أنهم مازالوا متمسكين بوصية عهدهم القديم بأن سياسة ما تكون أخلاقية لأنها تساير المصلحة الوطنية؟ أسلم بأن الأخير هو الصحيح. وإن لم يكن يبدو حقيقيا. اعكس الأمر واسأل: ماذا سيقول الناخبون لرئيس اتبع سياسات تحترم مصالح غريبة

لأن مصالح الولايات المتحدة، كانت بهذه النظرة غير أخلاقية؟ هذا الرئيس سيكون محظوظا إذا خدم مدة رئاسية واحدة كاملة.

وقد أحس چوناثان كلارك الدپلوماسي الإنجليزي، بزيف ثنائية الواقعي ضد المثالي، عندما قال: «إن السؤال ذا المغزى كان: أين تتلاقى الأخلاقية والواقعية!»[٢١] وكذلك فعل أوين هاريس، الذي لاحظ أن «نقاد الواقعية يدعون أنها غريبة عن التقليد والمزاج الأمريكيين وغير ملائمة لهما. ولكنها ليست أيا من ذلك»[٢٢]. وحتى روبرت د. كابلان، المؤرخ اللاذع لبؤس العالم الثالث، اقترح أنه بما أن الولايات المتحدة لا تستطيع إنقاذ العالم كله، فإنها يجب أن تتدخل فقط حيث «تتقاطع المصالح الأخلاقية والاقتصادية والإستراتيجية».[٢٣]

وفي الحقيقة، كل الزعماء الأمريكيين في أي حقبة، ادعوا أن سياساتهم كانت واقعية وأخلاقية في آن معًا. ويعني ذلك أن مهمتنا الحقيقية ليست الاختيار بين العهد القديم والعهد الجديد أو بين ثيودور روزڤلت وويلسون، ولكن بالأحرى اختبار كل تعريفاتنا الماضية للأخلاقية والمصلحة الذاتية حسبما تجسدت في تقاليدنا الثمانية، وفقا لمبادئها وافتراضاتها وصياغاتها في السياسة. وبعد ذلك، يمكن أن نتجنب ما يبدو لنا أحمق أو عتيقا ونؤكد ما هو حكيم، ونسعى لصنع فلسفة وبلاغة شعارات سياستنا الخارجية، كما كانا من قبل. وأجرؤ على القول، بمخاطرة إحياء الميت، أن چون كوينسي آدامز سيصدق على ذلك.

❊❊❊

ودعونا، لذلك، نقود تقاليدنا الثمانية إلى اتجاه معاكس واستعراض استرجاعي أمامنا بنظام الإعادة.

إلى أي مبدإ استندت سياسة «تحسين العالم»؟ لقد استندت إلى الحكم بأن أكثر الظواهر التي تهددنا خلال القرن ـ القوى المعتدية، النظم المجنونة، الثورة، الإرهاب، العداوات الإثنية والعرقية والدينية ـ هي في الجزء الأكبر نتاج للقهر والفقر.

ومن هذا المبدإ، فإن السياسة الخارجية الحكيمة سوف تهاجم أسباب النزاع أكثر من الأعراض، بتشجيع الديمقراطية، والدفاع عن حقوق الإنسان، وتبني النمو الاقتصادي. وتفترض سياسة «تحسين العالم» أن الولايات المتحدةوحدها تملك القوة والهيبة والتكنولوچيا والثروة، وإيثار الغير، المطلوبة لإصلاح العالم كله.

إنها تفترض أن حكومة الولايات المتحدة التى نسقت حدودها، وساعدت شعبها على تحقيق حرية وثروة غير مسبوقتين، ودمقرطت ألمانيا واليابان وأعادت بناء أوروبا، وقادت العالم الحر إلى النصر على الفاشية والشيوعية، تعرف كيف تنشر سجاياها لإغاثة الفقير والمقهور. وأخيرا، تفترض أن الأمريكيين يريدون حكومتهم أن تسخر حيواتهم وثرواتهم والشرف المقدس لذلك الغرض.

إن أيا من هذه الادعاءات لم يثبت. وفى الحقيقة، يمكن أن يكون كل منها زائفًا. فالارتباط السببى بين الفقر والقهر من جانب، والحرب والثورة من جانب آخر، يبدو مقبولا. ولكن الواضح أنه ليست كل الدول الفقيرة والتسلطية تهدد جيرانها، وبدرجة أكثر من أن نفترض أن يصبح كل الفقراء مجرمين. وبالإضافة إلى ذلك، فإن تصنيفات مثل «فقير» و«مقهور» و«غنى» و«فقير» تبدونسبية لدرجة أنها تكاد تصبح - عمليّا - عديمة المعنى. وكذلك تصنيف «الديمقراطية» إذا كان فقط يعنى الانتخابات، وحكم الأغلبية، أو حكومة باتفاق المحكومين، فلا شىء جدير بالاحترام فى ذلك. فالدكتاتوريون غالبا ما يقودون بتأييد طاغ. والديمقراطيات يمكن أن تدوس حقوق الإنسان وحكم القانون. ولا نستطيع أن نفترض أن كل الأمم تفضل الديمقراطية، كيفما عرفت، أو تتحرك باتجاه المصير ذاته.

حقا، أن تشخص وتصف العلاج لكل الشعوب الأخرى على الأرض، ليس شيئا أقل من أن ترى فى المرآة البولشفيين الذين ادعوا الاعتقاد بأن القانون العلمى كان يحرك العالم باتجاه الشيوعية، وتصرفوا كما لو أن التاريخ احتاج إلى عونهم.

والأمريكيون يمكن أن يعتقدوا جيدا أن مبادئهم السياسية والاقتصادية صالحة عالميا، أما أن تتمسك بأن كل واحد آخر فى العالم موافق على ذلك، فهو احتضان لـ «الأنانة»، كما فعل ويلسون عندما قال إن عمق إيمانه أقنعه بأنه كان يتحدث بصوت الشعب الأمريكى. وكنتيجة، يمكن أن تكون سياسة تحسين العالم ذات نتائج عكسية للأسف. وبعيدا عن إقناع الصينيين والسنغافوريين والعراقيين والليبيين أو الروس بأن يصبحوا «مثلنا»، فإن مواعظنا عن حقوق الإنسان، والتجارة المنصفة، والبيئة، والمسائل الجنسية والعائلية، فقط ستدعو الأجانب للهمز

واللمز والتعليق على الفقر والجريمة والمخدرات والإباحية، وانهيار العائلة، وعدم المساواة، والصورة الزائفة من العدل، التى تميز المجتمع الأمريكى.

إن توكيد أن حكومة الولايات المتحدة تعرف كيف تغرس الديمقراطية وتطلق التنمية الاقتصادية فى الخارج هى قفزة مضلة فوق المنطق. لقد كانت تجربتنا لنصف قرن مع المعونة الخارجية خسارة كلية تقريبًا، وليس من الصعب معرفة سبب ذلك. فهو يكمن فى التناقض الموروث فى البرامج التى هدفها إظهار تفوق نموذج السوق الحر ولكن بطرق فى جوهرها تعتمد على الدولة.

ذلك كان صحيحا فى الخمسينيات والستينيات عندما مرت أموال الضرائب عبر قنوات إلى وزرات الحكومات الأجنبية، وبذلك دعمت الاشتراكية على الأحسن والفساد على الأسوإ. وكان ذلك صحيحا - أيضا - فى السبعينيات عندما دعمت القروض المضمونة من خزانة الولايات المتحدة إمبراطورية بريچنيف. حتى إنها هى الحالة نفسها، عندما نحاول أن نعلم الشعوب السوڤييتية سابقًا كيف تصبح رأسمالية جيدة بواسطة ضمانات حكومية تدار من خلال وكالات حكومية لمصلحة بيروقراطيتنا والبيروقراطيات الأجنبية.

الذى لم يدهش على الإطلاق الأمريكى من جيلى، فى لحظة هدوء من شبابه، مسألة كم هو محظوظ بأن يولد فى أمريكا القرن العشرين بدلا من الهند أو أوروپا العصور الوسطى أو فى الأكواخ الحجرية الجديدة؟! ولماذا لم يحس - أبدًا - الأمريكى المبارك بوخزة الذنب لحقيقة أن الناس جوعى فى الصين؟!

ولا عجب أن الليبراليين رقيقى القلوب ومتحجريها من العنيدين أيضا، قفزوا إلى الاقتراح بأن الخبز سلاح أقوى من المدافع، وأن التكنولوچيا الأمريكية ونظرية التنمية تستطيعان التغلب على المذهب الشيوعى الزائف. ولذلك، فإن سياسة تحسين العالم هى الأقل فعالية، وبشكل ما الأكثر تبجحًا بين تقاليدنا الدپلوماسية. فانتصاراتها العظمى - خطة مارشال واحتلال ألمانيا واليابان - محل شك ونقاش، وليست نموذجًا لأى أجزاء أخرى من العالم على أى حال. كما أن هزائمها الكبرى - ڤيتنام ومدننا الداخلية - فضيحة.

وبخصوص المعونة الخارجية، فقد كشفت دراسة حديثة ومضنية قامت بها مدرسة لندن للاقتصاد، عن أنه «فى ٩٢ أمة نامية لم توجد علاقة بين مستويات

المعونة ومعدلات النمو فى الدول المتلقية للمعونة. وبدلا من ذلك، اتجهت المعونة الخارجية لعدم تشجيع خفض معدلات الضرائب والحواجز الأخرى أمام الاستثمار والنمو فى الدول المستهدفة، بينما، زادت من حجم الحكومات المتلقية للمعونة، وملأت جيوب النخبة».(٢٤)

وهناك مدخل بديل فى التنمية الأجنبية اشتق من تنميتنا الاقتصادية (الأكثر نجاحًا فى التاريخ) وتقاليدنا المبكرة فى السياسة الخارجية، وتياراتنا التنويرية والدينية كذلك. يقول البديل إنه إذا كان الأمريكيون مهتمين بأن يشاركوا الشعوب الأقل حظاً وفرتهم وخيرهم، دعهم يفعلون ذلك من خلال الهبات الخاصة وصناديق التنمية، مثل مؤسسة سورس التى تستحق التقدير. وإذا كانت أمم مهيضة فى آسيا وإفريقيا والعالم الشيوعى السابق تحتاج إلى رأسمال، فلتحترم حكوماتها الملكية الخاصة، وتؤسس حكم القانون، وتطبق العقود والاتفاقات التجارية، وتضبط معدلات الضرائب بما يجذب المستثمرين من القطاع الخاص. والمبدأ الذى يعتمد عليه ذلك هو فهم عام: بأنه إذا كانت أمم أخرى تريد نموذجنا فى الديمقراطية و/ أو معدلات مرتفعة للنمو الاقتصادى، فإنها تعرف ما الخطوات التى عليها اتخاذها لتحقيق ذلك. وإذا لم ترد اتخاذ تلك الخطوات، فإن الولايات المتحدة لا يمكن أن تجبرها، أو تتخذ تلك الخطوات بدلا منها. لأنها حين ذلك تقوم فقط بإضاعة أموال وحيوات الأمريكيين مقابل السلوك الذى تأمل فى اختفائه، وتتلقى بالمقابل ازدراء، لأن «الحالات الخيرية» تقوم بتلميع المحسنين.

إن الولايات المتحدة يمكنها ببساطة إغلاق متجرها الإصلاحى وإلغاء كل وكالات الإحسان. وإذا اتفق الرئيس والكونجرس على أن تحويلات الأموال يُحتاج إليها لتشحيم تروس الدبلوماسية (أى رشوة القادة الأجانب) أو لأداء خدمة لمصلحة الولايات المتحدة (على سبيل المثال، تفكيك الرءوس الحربية السوفييتية)، فلندع وزارة الخارجية أو وزارة الدفاع تنشئ صناديق تمويل لذلك من ميزانيتها. من جانب آخر، فإن أفضل طريق لترويج مؤسساتنا وقيمنا فى الخارج، هو تقويتها فى الداخل. فالشعوب الأخرى،

مهما كـانت ثقافاتها، سيظل اهتمامهـا أكبر بما أصبح عليه الأمريكيون من اهتـمامها بما سيفعلونه، أو على الأسوإ، بما يعدون أن يفعلوه ولكن لا يفعلون.

والاحتواء، بالمقابل، كان الأكثر نجاحًا بين تقاليدنا الحديثة. فالمبدأ الذى بنى عليه أن الازدهار والأمن الأمريكيين يتطلبان ألا يسيطر حيوان واحد مهيمن على أوروپا أو شرقى آسيا. فمثل تلك الإمبراطوية ستجبر الأمريكيين على التسلح حتى أسنانهم. وتعوق الوصول الأمريكى إلى المواد الخام والأسواق والممرات البحرية فى معظم العالم، وأنها إذا تملكت ـ تلك القوة المهيمنة ـ قوة بحرية وجوية عالية الكفاءة، فستهدد أمريكا نفسها. وقد يحاجج المؤرخون حول ما إذا كان الاتحاد السوڤييتى مثل ذلك التهديد، أم أن إدارة ترومان هولت ذلك عن قصد. ولكن بمجرد أن حارب الأمريكيون حرب محيطين لمنع الهيمنة الفاشية، فإنهم بعد عام ١٩٤٥ لم يكونوا فى مزاج أن يثقوا فى النوايا الطيبة لستالين.

لقد كان للحرب الباردة حدها الأيديولوچى الحاد، لكن أصولها يمكن أن تعود إلى التحولات فى توزيع القوى التى تحققت قبل ظهور ويلسون ولينين.

ولنبسط الأمر بأن الانتشار الحتمى للتكنولوچيا الصناعية من بريطانيا إلى القارة الأوروپية وأمريكا ثم بعدئذ اليابان وروسيا، دمر توازن القوى للقرن التاسع عشر. وكان الأمريكيون بطيئين فى تقدير المخاطر التى فرضها ذلك، وشوش ويلسون حكمهم بإطلاق أن دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى عمل أخلاقى أكثر منه چيوسياسى، وبمحاولة تعديل توازن القوى بأكثر من المحافظة عليه. وفى الواقع، فإن إخفاق الويلسونية بعد الحربين العالميتين، وصعود إمبراطورية توتاليتارية أخرى بشهية من القلب، أقنع رجال ترومان (الذى بدوره أقنع كل الأمريكيين تقريبا) بأنه كان من الأفضل الدفاع عن توازن القوى قبل أن تندلع الحروب العالمية. إن غرضنا هذا كان أخلاقيا ـ الأمر الذى فى غنى عن الذكر ـ إذ يحتاج المرء فقط إلى أن يقارن الحياة فى فرنسا أو كندا بمثيلتها فى ألمانيا الشرقية أو كوريا الشمالية. لقد كان الاحتواء عمليا، بالرغم من توتراته ومخاطره التى أثبتت من خلال استقامة حكم مهندسيه، بأنه طالما بقى الغرب قويا ومتحدًا، فإن الإمبراطورية السوڤييتية ستنهار عاجلا أو آجلا بفعل تناقضاتها.

ولكن هل يظل الاحتواء مناسبًا الآن بعد انتهاء الحرب الباردة؟

لماذا لا؟ فالولايات المتحدة مازالت لها مصلحة حيوية فى منع قيام أى قوة مهيمنة فى أوروپا وشرقى آسيا. وهذا يفسر قصر النظر البالغ فى حل الناتو أو الحلف الأمريكى اليابانى. وعلى وجه التأكيد، فإن استمرار تلك الارتباطات بعد الظروف الطارئة التى خلقتها، قد يبدو أنه انتهاك للقاعدة العظمى لچورچ واشنطن. وسأجيب بأنه فى أيام واشنطن كانت بريطانيا وفرنسا أخطر منافستين لنا، والآن هما أفضل صديقتين. وفى زمن واشنطن كان يمكن الوثوق فى القوى الأوروپية للحفاظ على توازنها. واليوم فإن قوة الولايات المتحدة عامل حيوى فى المعادلات الأوروپية والشرق آسيوية. فى أيام واشنطن، كانت الولايات المتحدة حتما ـ الشريك الأصغر فى أى حلف. واليوم هى الشريك الأكبر فى أى تكوين تدخله، دون أن يحتاج ذلك إلى أن تتخلى عن حريتها فى التصرف ـ أو عدم التصرف ـ منفردة ومن أجل المصلحة القومية. ولذلك، فإن أحلافنا الجوهرية اليوم يجب أن يفكر فيها باعتبارها أقل انتهاكًا للأحادية، من امتدادات النظام الأمريكى للشواطئ المقابلة للمحيطين الأمريكيين.

ويقول البعض إن الناتو افتقد مبرر وجوده، وإنه يجب أن «يبعد عن المنطقة أو عن العمل». ولكن حلفاءنا الأوروپيين عانوا ما يكفى من انضمامهم بعضهم إلى بعض ـ حتى خلال الحرب الباردة ـ ومطالبتهم بتنسيق سياساتهم إزاء كل الأزمات غير الأوروپية تحملهم أعباء زائدة.

ويسأل البعض لماذا يستمر الأمريكيون فى الإنفاق من أجل الدفاع عن أوروپا؟. وهذا تساؤل حساس. مهما ظل الناتو معتمداً على القوة البحرية والقدرة الجوية ونظم الفضاء وأسلحة التكنولوچيا العالية، الأمريكية، فليس هناك سبب لأن يحتل قسم من القوات الأرضية للولايات المتحدة البوسنة، فى حين أن الألمان ـ على سبيل المثال ـ ظلوا فى بيوتهم. ولكن أيّا ما كانت التعديلات المطلوب إجراؤها على أحلافنا، فإننا سنكون حمقى إذا ألقينا بها جانبا، كما لو أننا ألقينا تكنولوچيا ساترن/ أپوللو فى اللحظة التى عدنا فيها من القمر. وأخيراً، فإن الاحتواء والردع يظلان التكنيكين المجربين ـ بنجاح ـ لنا ضد التهديدات الفظة التى يقف وراءها أعداء إقليميون مثل العراق وإيران، خصوصًا بمجرد أن يحصلوا على الصواريخ والأسلحة النووية.

وبقول ما سبق، لا يمكن إنكار أن تجربتنا فى الحرب الباردة كانت مختلطة بشكل مؤلم. فالحفاظ على ردع مأمون للجبهات الأوروبية والنووية كان واجبا مكلفًا وخطيراً، بينما هبط بنا الاحتواء فى آسيا إلى حربين مرعبتين محدودتين. ثبت أن إحداهما لم تكن مهمة مطلقًا لأمتنا(*). وما هو أكثر، فإن قرار مقاومة الاندفاعات السوڤييتية والماوية والكاسترووية للتأثير فى العالم الثالث، قادتنا لمحاولة ثورات ساخنة فى بعض الأقطار والانسجام مع «أصدقاء طغاة» فى أقطار أخرى. ولذلك يجب علينا أن نتجنب حتى الهمس بكلمة احتواء مع الصين على سبيل المثال، خشية أن نسقط ـ بدون وعى ـ فى حرب باردة أخرى مطولة.

وبدلا من ذلك، علينا أن نقوم بثلاثة أشياء على طريق التكيف مع ثقل الصين. الأول هو تشجيع إطار أمن إقليمى بأمل أن تشارك فيه بكين. والثانى هو تحديد إلى أى مدى وفى أى اتجاه يمكن أن تتوسع القوة الصينية قبل أن تمثل لنا تهديدًا حقيقيًا. والثالث، فى حالة فشل الأول وتحقق الثانى، هو كيفية الحفاظ على تحالفاتنا ووجودنا العسكرى، بما نحتاج إليه نحن والأطراف المحلية فى حالة ما إذا توجب علينا موازنة القوة الصينية بشكل فعال. ويجب ألا نجرؤ على أن ننسى أن الغرض من الاحتواء ليس مقاومة ظهور قوى جديد، وبالطبع ليس الغرض أن نؤسس إمبراطورية خاصة بنا، ولكن لندعم التوازن الأوروبى الآسيوى الذى خدمنا جيداً من عام ١٧٧٦ إلى عام ١٩١٧.

يقترح ذلك التعريف المتواضع لسياسة الاحتواء، لماذا تُعَدّ الويلسونية ـ بالمقارنة ـ ضئيلة القيمة من الناحية العملية. فالمبدأ الذى اعتمدت عليه هو أن الصراع ليس حتميا فى المسائل الإنسانية، بل ولكنه منتج ـ يُمكن منعه ـ للطمع والغل والعسكرة وقمع تقرير المصير، والدبلوماسية السرية والعبادة الوثنية لتوازن القوى. لقد تخيل ويلسون عالما بريئًا من تلك الخطايا، ولد ثانيًا كعصبة ديمقراطية تمارس نزع التسلح والتجارة الحرة والتحكيم والأمن الجماعى من خلال هيئة للكل. . (الكل من أجل الواحد والواحد من أجل الكل).

واليوم، كيف يمكن أن نأخذ بجدية نقاط ويلسون الأربع عشرة؟

(*) صرح ماكنمارا وزير الدفاع أيام حرب ڤيتنام، بأن تلك الحرب كانت خطأ.

بالتأكيد أن حرية التجارة وحرية البحار مصلحتان حيويتان يجب أن تروج لهما الولايات المتحدة، والثانية تعض عليها الولايات المتحدة بالنواجز، لأنه ليست هناك قوة بحرية أخرى جديرة بالقيام بتلك الوظيفة. وبالنسبة لنقاط ويلسون الأخرى، فإن دبلوماسيته الجديدة التى تقوم على «التعاقدات المفتوحة»، لم تستطع البقاء حتى أسبوع بعد مؤتمره للسلام. ونزع السلاح الذى بشر به، كان وما زال، الطريق الأسرع للولايات المتحدة لخسارة كل حلفائها، وجلب نوع الضرر الذى أراد ويلسون إيقافه. والديمقراطية هى مفهوم زلق إذا لم تعن «بالضبط مثلنا». كما أن مبدأ ويلسون لتقرير المصير (كما تنبأ به وزير خارجيته لانسينج) مثل صندق البنادورا الذى يخرج ويتصاعد منه الرعب حتى اليوم. وبخصوص عصبة أمم ويلسون، فقد تطلب بالتحديد من الدول الأعضاء أن تتنازل عن سيادتها، وستصبح مشروعا طوباويا حتى لو لم تكن القوى العظمى انقسمت سريعا إلى كتل ليبرالية وفاشية وشيوعية.

واليوم، كما يلاحظ كسينجر، فإن حلم النظام الويلسونى ليس لديه أدنى فرصة للنجاح، بما أن القوى الرئيسية ستتضمن عاجلا بعض الأمم غير الغربية مثل روسيا والصين والهند واليابان وإندونيسيا وإيران ونيجيريا. وأى منها ليست له قرابة بالمبادئ الغربية الليبرالية.

ازداد ظهور الويلسونية فى المنظور التاريخى، كفكرة أنجلو أمريكية، تقدمية، بروتستانتية، من إنتاج نهاية القرن التاسع عشر المتوتر. ويشهد الانجذاب الواسع إليها على رؤيتها للعالم الخارجى، ولكنها فى السياسات العملية أصبحت غير مناسبة على أحسن الفروض، وخبل عقلى على أسوئها. وعلى كل، وبخصوص بعض الأزمات عندما تكون القوى العظمى والقوى المحلية المرتبطة بها على اتفاق، أو على الأقل غير منقسمة، فإن تمثيليات مجلس الأمن والجمعية العامة ليست ضرورية. وعندما لا تتفق تلك القوى، فإن الأمم المتحدة تصبح عاجزة. ولا تحتاج الولايات المتحدة إلى ختم موافقة الأمم المتحدة فى تحركاتها. لأن الأمريكيين إما أن يلتزموا بمقاييسهم فى الصواب والخطإ، وفى هذه الحالة لن يكون للآخرين إلا الاستشارة، وإما أن يؤمنوا (الأمريكيون) بنسبية الأخلاق، وفى هذه الحالة فمن يهتم بما يعتقده الآخرون؟

وفى الحق أن بعض وكالات الأمم المتحدة تساعد فى عمل نظم عالمية للمحيطات وأعماق البحار والفضاء الخارجى والاتصالات، وتؤدى أعمالا جيدة فى مجالات

مثل الصحة. وهل تُؤدى تلك المهمات بفاعلية أكبر لكونها تحت مظلة الأمم المتحدة؟ والسؤال جدير بالطرح، لأنه إذا كانت برامج المعونة الخارجية للولايات المتحدة هى غالبا مبذرة، مثقلة بالإدارة، مكبلة ببيروقراطية متنافسة، مشوشة ببرامج سياسية محلية وخارجية. فبأى قدر يمكن أن تكون برامج الأمم المتحدة أكثر مشابهة؟

جيل طفرة المواليد - جيلى - الذى ولد أثناء أوج ويلسونية ما بعد الحرب العالمية الثانية، تعلم أن يبجل الأمم المتحدة ويلوم الروس - الذين يقولون لا - على اختلالها، ويدعى لأن يستنتج أن البديل الوحيد لسلام العالم كان محرقة نووية مفاجئة. ولا عجب أننا وضعنا أناشيد فى ترانيم شعبية حزينة مثل «النفخ فى الريح» و«تخيل» و«نحن العالم». وباستعادة الأحداث، فإن نشيد «أعط السلام فرصة» رد فعل للصراع الكلى فى الشئون البشرية، يظهر كاحتجاج ضد الصليبية الأمريكية بأقل ما يبدو تعبيراً عن البراءة شبه الطفولية التى ألهمت حملاتنا الويلسونية الصليبية فى هذا القرن. وأيا كانوا صقوراً أو حمائم، فمعنى الراشدين استبعاد العبث الطفولى.

والإمبريالية التقدمية مسألة أكثر تعقيداً لأنها صعدت على النتوء ما بين حقبة العهد القديم وحقبة العهد الجديد. فالإمبرياليون عند انعطاف القرن، سوغوا فرض أنفسهم على العالم الخارجى بخطاب بلاغى عن الرسالة الأمريكية إلى المدى الذى استبقوا فيه مغالاة الويلسونية وإصلاح العالم. فالأشياء الطيبة التى قام بها الأمريكيون فى مستعمراتهم، فى شئون مثل النظافة الصحية وعلم الأوبئة، تصميمهم على طرد الإسبان الأشرار، وأمركة السياسة والمجتمع وحتى الدين، كان ذلك انتهاكا فاضحًا للعهد القديم الذى يمنع تبشير الأغيار بحملات أيديولوچية. وأكثر من ذلك فإن السجل الاستعمارى للولايات المتحدة شائن. فهل الفلبين نموذج للديمقراطية؟ أو لأى شىء، بعد قرن من النفوذ الأمريكى؟! وهل كوبا أو پنما أو نيكاراجوا أو هايتى كذلك؟ وتبقى پورتوريكو جزيرة هادئة، ولكنها كانت كذلك حتى تحت الحكم الإسپانى، كما أن اقتصادها المدعم يعد بصعوبة مفخرة للهندسة الاجتماعية الأمريكية.

وكان مبدأ القوة السياسية لإمپريالية الولايات المتحدة أعلى صوتًا. وبحلول عام ١٩٠٠ كان النظام الأمريكى معرضًا للخطر أكثر من أى وقت منذ حرب عام ١٨١٢. وكانت الإمپريالية الأوروپية فى ذروتها وبريطانيا وروسيا وفرنسا واليابان - وعاجلا ألمانيا - تطلق أساطيلها البخارية فى أعالى البحار إلى مدى قريب بشكل غير مريح

للمياه التى يُعدّها الأمريكيون مياههم. وهكذا فإنه إذا كان لنصفها الغربى من الكرة الأرضية وتجارتها أن يظلا آمنين فى القرن التكنولوچى المقبل، كان يتوجب على الولايات المتحدة أن تؤكد بقوة أكبر، مجالات نفوذها فى الكاريبى والهادى، وتبنى أسطولا عظيما مع قواعد بحرية ثابتة ومحطات إمداد بالفحم، تحرس المداخل لمضايق بنما، وتضمن أن السياسات المحلية غير المستقرة لا تعطى ذريعة للقوى الخارجية للتدخل. إن ما قام به الأمريكيون لم يكن لطيفا، ولكن ما كنلى ورزڤلت وتافت كان لديهم السبب للتلويح بالعصا الغليظة. وللحكم بمنطق دفاع كليتتون عن احتلاله هايتى وكفالته المكسيك، فإن استنتاج رزوڤلت ما زال صالحًا اليوم. فالأمريكيون مازال لديهم اهتمام متوقد بتأمين جوارهم، ليس على الأقل بسبب أن التحديات الواضحة لحدودنا ولقوانيننا، تنبثق من نصفنا الغربى للكرة الأرضية. لقد عَدّ إيرڤنج كريستول المكسيك مشكلتنا الخارجية الأكثر أهمية، ويحتاج المرء فقط لتخيل الهجرة غير الشرعية وتهريب المخدرات، كهجمات على حدودنا ليصل إلى ما يعنيه. (٢٥)

وأيضا اهتم الأمريكيون اهتمامًا شديدًا بالحفاظ على قوات برية وجوية لا يتفوق عليها أحد، والقواعد الأجنبية التى نحتاج إليها. والذى يجب ألا نفعله، هو أن نترك قدرتنا على استخدام القوة فى الدفاع عن حياة الأمريكيين وممتلكاتهم وحقوقهم التجارية، تتقلص للحد الذى يجعل الآخرين لا يخافوننا ولا يحترموننا. والذين سموا انعزالين فى القرن التاسع عشر لم يفعلوا ذلك أبدا، **كما أثبتت حقيقة أنه بين عامى ١٨٠١ (عندما طارد چيفرسون للمرة الأولى القراصنة البرابرة) و ١٩٠٤ (عندما قال ثيودور روزڤلت لمراكش إننا نريد پيرد يكاريز حيًا أو ريسولى ميتًا)، أرسلت الولايات المتحدة بحريتها ومشاة البحرية إلى آسيا وإفريقيا والبحر المتوسط وأمريكا اللاتينية ليس أقل من ١١٠ مرة، لمنع أو الثأر من التهجم على مواطنين أمريكيين أو أملاكهم.** (٢٦)

طبعا، فى تلك الأيام لم نتجول فى الأنحاء حولنا لضم أى جزر تبدو إستراتيچية. هذا النوع من الإمپريالية كان محرما، كما لم تبق أراض شاغرة أو غير مدعاة لأحد فيما عدا آنتراكتكا أو جزيرة متطرفة مثل رانجل شمالى سيبريا. ولذلك، فبما أن التوسع القارى والبحرى الذى مارسته الولايات المتحدة من قبل، ليس له مجال فى القرن العشرين، قد يبدو أن تقليدنا الخاص بالتوسع ميت. ذلك لم يثبت.

وقد يتخيل المرء، على سبيل المثال، أن بورتوريكو ستطلب يوما الحقوق الكاملة لمواطنى الولايات المتحدة، وأن تصبح الولاية الحادية والخمسين، أو أن مقاطعات كندية عديدة وسط تصدع قومى تطلب الالتحاق بالولايات المتحدة. ولكن حتى إذا لم تتوسع الولايات المتحدة حدوديا (وباعتراف الجميع، فإن العوائق السياسية والقانونية أمام الدول الجديدة مثبطة) فإن المبدأ وراء التوسعية لم يزل فاعلاً. إنه يحذر من أنه إذا لم تتواصل فرص النمو لسكان يتزايدون باستمرار، فإن سياسة الولايات المتحدة ستنحط إلى حروب افقر جارك، اقتسام الفطيرة مع الجار. فى القرن التاسع عشر عنى ذلك أن أرضا زراعية جديدة كان يجب أن توجد. وفى بداية القرن العشرين عنى أن أسواقًا جديدة كان يجب أن توجد، ليس فقط فى الداخل وإنما فى الخارج أيضًا. وبعد سنة ١٩٤٥ عنى أن اقتصادًا عالميا مزدهرًا ومنفتحًا كان يجب أن يرتفع على أطلال الكساد والحرب. وفى القرن الحادى والعشرين ما بعد الصناعى، لا نستطيع أن نتأكد مما سيعنيه: ربما «التوسع الرأسى» سيكون ممكنا من خلال وصول آمن وأرخص للفضاء الخارجى، أو «التوسع غير المرئى» الذى سيكون ممكنا بالاستخدام المكثف للضوء الألكترومغناطيسى وشبكات اتصال الألياف البصرية الموجهة بالكمبيوتر، ومدارات التزامن الجغرافى التى تترابط بأقمار صناعية للاتصالات، أو حتى «التوسع البحرى» الذى سيكون ممكنا بتقنيات فعالة لحفر المناجم والزراعة فى أعماق البحار.

الشكل الأكثر تقليدية للتوسع الاقتصادى هو تكريس أسواق جديدة، أو زيادة تكريس القائمة.

وذلك يفسر لماذا كان اتفاق التجارة الحرة لشمالى أمريكا (نافتا) بعيدا عن أن يكون غير وطنى كما يدعى منتقدوه، هو واحدا من أعظم تحليقات النسر الأمريكى فى هذا القرن. وفى خمسينيات القرن التاسع عشر، حلم ويليام هنرى سيوارد بسوق واحدة مزدهرة من أركتيك إلى تيرا ديل فويجو. لم يتبين هذا المصير فى زمنه ولكنه اليوم فى متناول اليد.

لذلك، كانت إدارة كلينتون محقة فى جعل التوسع فى الفرص الاقتصادية هدفا رئيسيا لسياستها الخارجية. ومع ذلك أخطأت فى الإسراف فى الإيمان بأن الجغرافيا الاقتصادية لها كل شىء وتحل محل الجغرافيا السياسية. وبالمقابل، فإن كل النشاط الاقتصادى - من متجر على الناصية فى برونكس إلى مؤسسة أعمال عالمية قاعدتها فى هونج كونج - يعتمد على بنية آمنة.

وقد نـأمل فى رؤية الاقتـصاد يتـحكم بالشئـون الدولية فى أجـزاء أكثـر فأكثـر من العالـم، ولكن الطريق الوحـيد لتحقيـق وتأمين ذلك الوضع السعيد، يتـحقق من خلال براعة عـسكرية ودبلومـاسية عنـيفة. فـما الذى يجـعل بكين تكافئ شركـات الولايات المتحدة بعقود قيمتها تريليون دولار، إذا كان شرقى آسيا على وشك الانحدار للحرب؟

ولا يجب أن ننسى مع ذلك، أن الفـرص الأغنى للأمـريكيين كـانت دائمـا فى الولايات المتحدة نفسها. ولذلك، فإنه حتى ونحن نسعى لأسواق خارجية لا يجب أن نتخيل أن حرية الاستثمار والبيع فى الخارج يمكن أن تنتقص من تلك الحرية فى الداخل. فالسياسيون يمكن أن يتشاحنوا (وسوف) يتشاحنون للأبد حـول المبيعات والتكاليف ونماذج السياسات الاقتصادية والمالية والاجتماعية، ولكن مـا يجب أن يتـشـاحنوا حـوله، هـو مـا هى أفـضل الطرق لإطلاق الإبداع والتلهف الأمـريكى للعـمل. تلك المؤهلات الإنسـانيـة هى التى جـعلت أشكالنا الأولى للتـوسع ممكنة وضرورية فى المقام الأول.

تستحضر نافتا فى الذهن **النظام الأمريكى** كتقليد آخر قد يبدو بالنظرة الأولى ميتا وملوثا. وذلك فـقط لأن أنواع التحديات التى عنى مبدأ مونرو بمواجهـتها لا توجد حاليا، وقد لا توجد ثانية لزمن طويل (امسك الخشب). ولكن هب أن «صين» عدائية تجمع أصدقاء وتبنى قواعداً فى أمريكا الوسطى، أو أن «يابان» أعيد تسليحها وألغت ارتباطها بحلفها مع الولايات المتحدة وتدخلت فى أمريكا الجنوبية، أو دولة مسلمة معادية ترعى الإرهاب فى الأمريكتين، وخطب كخطبة أولنى «مدفع ٢٠ بوصة» على مكتب الرئيس يدق لها القلب. ويكفى أن نقول إن الفشل الرئيسى الوحيد للولايات المتحدة فى إعمال مبدإ مونرو ـ وعد كنيدى عام ١٩٦٢ بألانزعج حتى كوبا الموالية للسوڤييت ـ سبب أكثر من ثلاثة عقود من الأسى. وفى الحق أن الرد الحاسم على أن الريجـانيين كـانوا يمكن أن يجـعلوا من نيكاراجـوا «ڤيـتنام أخرى» هو أن الفـشل فى التصرف هناك كان يمكن أن يصنع «كوبا أخرى».

المسألة أن النظام الأمريكى كما تخيله چون كوينسى آدامز لم يكن حول سياسة النصف الغربى للكرة الأرضية بالمرة، بل كان سياسة القوى العظمى والتى يجب ألا تنطبق على نصف الكرة الغربى. وطالما أن الولايات المتحدة نفسها قوة عظمى يبقى مبدأ مونرو متحفزاً (بأى تسمية يسير بها) فى الجراب الأمريكى ليوم الاستعراض.

وأصبحت الأحادية وراء سد منيع لأن العالمين أصروا على وسم أى امرئ يرى فيها بعض الفضيلة بأنه «انعزالى»[٢٧] . فعديد من المعلقين اقترحوا ـ مع ذلك ـ أن الولايات المتحدة شذبت من جديد التزاماتها عبر المحيط إثر الانهيار السوفييتى . وربما تكون ـ أو لا تكون ـ توصياتهم حصيفة ، ولكنها تستحق الجدل ، وطبقا للمبدإ الأحادى لواشنطن چيفرسون : بأن التورط فى الأحلاف قد يمس سيادة الولايات المتحدة ، ويضر بمصالحها أو يقيد حريتها فى التصرف . وطالما أن كليهما يقر الأحلاف المؤقتة تحت ظروف محددة ، فإن المبدأ يعلق على كلمتيهما «التورط» . فهل يكون الناتو اليوم حلفا تورطيًا فيه تتقيد سيادة الولايات المتحدة أو أنه يساعد فى الحقيقة على تأمينها؟ وهل التورط فى الحلف الأمريكى اليابانى يضر بمصلحتنا القومية أو أنه يخدمها فى الحقيقة؟ وهل تقيد شراكتنا مع إسرائيل حريتنا فى التصرف أم أن الرئيس والكونجرس مازالا فى حرية لاختيار متى وكيف نتصرف فى الشرق الأوسط؟ وإذا كانت الإجابات على كل تلك الأسئلة مظلمة ، كما يدعى بعض الأحاديين ، فعندئذ يجب إلغاء كل تلك الارتباطات . وإذا كانت تلك الشراكات ، على الجانب الآخر ، تساعد فى تأمين مصالح الولايات المتحدة ، دون المساومة على السلطات الدستورية للسلطة التنفيذية أو الكونجرس ، فعندئذ كيف تنتهك قاعدة واشنطون؟

إن بعض الالتزامات الأمريكية وراء البحار قد يمكن تسويغها على ضوء مبدإ السيادة القومية . فعمانويل كانت ، أملاً فى سلام أبدى (تسلية تنويرية مفضلة) ، نظّر بأن النظام العالمى الجديد الوحيد الممكن ، سيتكون من نسيج متنام من معاهدات محددة تساندها الأمم ذات التفكير المتماثل ، لأن سيادتها ستكون أكثر أمانا وقوتها ستتعزز ، كما أن مصالحها ستصان داخل النظام التعاونى أكثر من خارجه . هل ذلك صحيح بالنسبة لـ «النافتا» أو «الناتو» أو الأمم المتحدة ووكالاتها المختلفة ، أو للبنك الدولى ومنظمة التجارة العالمية؟ إذا كان الأمر كذلك ، فإن تلك الارتباطات لا يجب الانفكاك عنها . وإن لم يكن ، فإنه يجب على الولايات المتحدة أن توقف تمويلها بدولارات دافع الضرائب .

وأيا كانت القرارات التى نتخذها عن متى نتصرف بأحادية أو بتعددية ، لا يجب أن نتخيل أبدا أن التنظيم العالمى بديل عن القوة الوطنية . وكان تيدى روزفلت والسناتور لودج على حق تمامًا فى ذلك . فإذا بقيت الولايات المتحدة قوية ، فإنها ستجذب

الحلفاء والزبائن كما يجذب الضوء الفراشات، سواء كان بعض المنظمات متعددة الجنسيات متضمنا فى ذلك أم لا. وإذا أصبحت الولايات المتحدة واهنة فإن أى قدر من التسول أو الرشوة أو التوسل بالقواعد الدولية، لن يحث الآخرين على احترام مصالحنا والوقوف إلى جانبا عند الخطر.

ما يأتى بنا إلى التقليد الأصلى أن التقاليد اللاحقة قصد بها خدمة: **الحرية فى الوطن**. لقد تعلمنا أن القادة فى حقبة عهدنا القديم لم يفسروا الاستثنائية لتعنى أن دبلوماسية الولايات المتحدة رافضة للحرب، شديدة التشكك أو مكرسة لتصدير المثاليات المحلية. وبالأحرى، لقد رأوا السياسة الخارجية كأداة للحفاظ على الحرية الأمريكية والتوسع فيها، وحذروا من أن الحملات الصليبية يمكن أن تشين مثالياتنا وتنتهك مصالحنا الحقيقية وتلطخ حريتنا. وفى الوقت ذاته، فإن بعضا منهم نبه إلى أن مؤسسة فيدرالية ضخمة للدفاع عن مصالح أمريكا ضد القوى الخارجية ستهدد- بطبيعة الحال- حرية المواطن والولايات.

هؤلاء المنشقون الأوائل، المعادون للفيدرالية، كانوا على حق فى أن يقلقوا. فالمقابل الذى دفعه الأمريكيون هو من حياتهم وحريتهم وأملاكهم كقوة عالمية، مهما كانت ضرورية وصحيحة الالتزامات التى أخذوها على عاتقهم. وتضمن ذلك المقابل مستويات صادمة من الضرائب عند نهاية القرن: حكومة مركزية أوسع كثيرا وأكثر تدخلية، واقتصاداً نصف عسكرى، وتجنيداً عسكريّاً إلزاميّاً، ورقابة محلية تحت اسم الأمن القومى. وساعدت أيضا حاجتنا لإثبات تفوق الليبرالية على الشيوعية، خصوصا لشعوب العالم الثالث، فى تبرير توسع دولة الرفاهة، التى زادت تكاليفها عن تكاليف دولة الحرب، حتى بدت الأخيرة كالقزم مقارنة بالأولى. كما أن التزاماتنا الخارجية المثقلة حرمت اقتصادنا المدنى من الموهبة ورأس المال وعجلت بانهيار نسبى قريب لاقتصادنا. وتصرف الشعب الأمريكى- الغنى والفقير والطبقة الوسطى- كما يفعل الناس دوما فى أثناء حرب مؤجلة: انفلتوا عن زمام أخلاقهم التقليدية. ولذلك، فخلال العقود التى ضحى فيها الأمريكيون فى الخارج كما لم يفعل شعب فى التاريخ، عاثوا فسادا فى الوطن، بقدر لهفتهم على الاستحقاقات العامة، وفساد الحكومة والأعمال، والمخدرات والجريمة، وتدهور التعليم، وفقدان احترام كل السلطات، وحرية الجنس وانهيار العائلة.

ولا عجب أن الأمريكيين، بعيدا عن إحساس «نفخة الغرور» بسقوط الاتحاد السوفييتى، نظروا، بالمقابل إلى أنفسهم وتحدثوا عن «نهاية الحلم الأمريكى». ويفسر ذلك لماذا ضحك الكونفوشيوسيون والمسلمون على مفهوم أن بلدنا «المتفسخ» يجب أن يكون نموذجا لهم. ولهذا فإن بداية الحكمة هى أن نتذكر أن الاستثنائية الأمريكية ـ كما جرى تخيلها فى الأصل ـ كانت مقياسا لكل ما نكونه وليس لما نفعله بعيدا فى الخارج.

❄❄❄

عند نقطة مبهجة،
من بين أمم أخرى حرة،
أعطيتنا أيها الرب الكثير.
وندين، ندين لك
باستقلال أرضنا،
وكم هى سعيدة أمتنا. (٢٨)

كانت تلك واحدة من الترانيم الأكثر شعبية فى بداية القرن التاسع عشر. وكان يمكن أن تكون أيضا لازمة لحن موافقة للقرن العشرين. ربما لم تكن الولايات المتحدة ـ فى أى يوم ـ أكثر أمانًا مما هى اليوم. ولكن هذا يعنى أننا لم نتعرض من قبل لمثل هذا الخطر الناجم من الرضا عن النفس. فهل نحن آمنون لأن الرب يرعى الولايات المتحدة؟ ربما، ولكن إذا اعتقدنا فى ذلك، يمكن أن نقرر ألا نرعى أنفسنا. هل ذلك بسبب صراعاتنا ـ فى سبيل الفضيلة ـ فى الخارج فى هذا القرن؟ ربما، ولكن إذا اعتقدنا فى ذلك يمكن أن نتجاهل كل ما هو غير فاضل فى بلدنا، ونظهر الفخر قبل السقوط. هل ذلك بسبب أننا أعظم من أن يجرؤ أحد على أن يتخطانا؟ ربما، ولكن إذا اعتقدنا ذلك، فإننا إنما نستعدى التحدى، ونخاطر بنسيان أن الولايات المتحدة ليست الأكثر اتساعا أو الأكثر سكانا أو الأكثر تجانسًا أو الأكثر نظاما بين الأمم، وأن اقتصادنا أصغر من اقتصاد أوروبا، وأن تكنولوچيتنا متقدمة لسنوات قليلة عن منافسينا

وبدلا من ذلك، يجب أن نعتقد أننا آمنون اليوم لأن الأمريكيين كانوا دوما شعبا ذا تصميم متيقظا غيوراً ومخلصا بجسارة، عندما يواجه استقلالنا وحريتنا بتحد: لا تدس

قدمى! وبتغافل تلك الإرادة، تتبخر وتضيع قوتنا. وبكلمات أخرى، فإنه للمدى الذى أصبحنا فيه مواطنين صالحين فى العالم، فإنه بسبب أننا كنا أمريكيين صالحين.

فى مؤتمر براج الذى عقد فى سنة ١٩٩٦ بالمبادرة الأطلنطية الجديدة، قالت رئيسة الوزراء السابقة مرجريت ثاتشر للوفود إنه لو كنا انتظرنا الجماعة الأوروپية والأمم المتحدة أو البنك الدولى لإسقاط الإمبراطورية السوڤييتية، لكنا مازلنا فى الانتظار. وقالت إن ما جعل انتصارنا فى الحرب الباردة ممكنا، كان حلف شمالى الأطلنطى الذى نظم للدفاع عن أعضائه وقيمهم الغربية المشتركة، بما فى ذلك «الالتزام بحقوق الإنسان، وحكم القانون، والديمقراطية التمثيلية، والحكومة المحدودة، والملكية الخاصة، والتسامح». وقوة ذلك الحلف لا تكمن فى حقيقة تجاوز السيادة الوطنية، بل استندت إلى الاحترام المتبادل لـ «الهويات القومية القديمة»(٢٩).

وما فهمته ثاتشر هو أن العالمية التى تصلح، هى فقط تلك التى لها جذور فى «القومية الصحية»، وعُرفت وحددت طبيعتها فى أمريكا من خلال واشنطن وچيفرسون وآدامز، واقترن بها (فقط بتلك المفاهيم) ثيودور روزڤلت وهنرى كابوت لودچ. وليس لبيروقراطية عالمية؛ ومن باب أولى ليس لأمة واحدة، مهما كانت قوية ومثالية، أن تفرض نفسها محل قومية متعافية لشعب أجنبى. وتقريبا، يوافق كل امرئ، على سبيل المثال، على أن صدام حسين سيئ لبلده. ولكن هل يستطيع الأمريكيون أن يكونوا عراقيين أفضل من العراقيين أنفسهم؟ أو أن يقولوا للصينيين كيف يصبحون صينيين أفضل؟ إذا حاولنا، فلن يسفر هذا إلا عن أن نصبح أمريكيين أسوأ.

وقد يستاء البعض من نصيحة من ثاتشر علما بأن كثيرا من مبادئنا السياسية قد جاءت من بريطانيا: الحرية، الأحادية، الاعتماد على توازن القوى الأوروپى، التوسع التجارى والحدودى، مبدأ مونرو، الرسالة الأنجلو ساكسونية، الرسالة الپروتستانتية الأنجليكانية، إلغاء الرق، البحرية، الوطنية المتطرفة، عبء الرجل الأبيض، الباب المفتوح، عصبة الأمم، حتى الحرب الباردة (من خلال خطبة تشرشل عن الستار الحديدى)، وموقف ثاتشر من الحرب الباردة الذى أعقبته باحتضان جورباتشوف.

وكما لاحظ كريستوفر هتشنز - بسخرية - فإنه فى أى وقت كانت فيه الولايات المتحدة على شفا تحول دپلوماسى، «كان هناك بالقرب مستشار إنجليزى، متخاذل

خادع، ينصح بـ «نعم» بلهجات ليست لهجة وعيد ولا لهجة توسل ولكنها دائما ـ بشكل ما ـ مضللة» . (٣٠)

ولا يعنى هذا إلا القول بأن بريطانيا والولايات المتحدة اشتركتا فى كثير من الخصال الثقافية والسياسية.

ولذلك، عندما تقول ثاتشر لاتحيلوا «الناتو» على الاستيداع، وعندما يهمس چونا ثان كلارك بأن «عصر الصليبيين قد ولى» فإن ذلك يدفعنا لأن نولى الانتباه . (٣١)

وإذا كان لهذا الكتاب قدْر يسير من الإقناع، فإن القراء ـ على أى حال ـ سيعلمون أننا لا نحتاج إلى أن نذعن للأجانب ولا أن نخمد الغريزة الصليبية ـ التى لم تكن لدينا حتى مطلع هذا القرن ـ أو أن نشغل أنفسنا بجدالات فارغة حول الأخلاقية والواقعية. نحن نحتاج فقط إلى أن نتبع سياسة الفهم العام لكينان، كما تأسست :

فى الاعتراف بالمصلحة القومية ـ المقبولة بالعقل ـ بحسبانها الدافع الشرعى للقسم الأكبر من سلوك الأمة، والاستعداد للسعى وراء المصلحة دون ذريعة أخلاقية أو اعتذار، ستكون السياسة التى تبحث الإمكانات التى تخدم مبادئنا الأخلاقية فى سلوكنا وليس فى حكمنا على الآخرين. إنها ستقيد تعهداتنا إلى الحدود التى تأسست بتقاليدنا ومواردنا. أنها سترى الفضيلة فى اقتصارنا على الاهتمام بشئوننا، ما لم تكن هناك أسباب قاهرة للاهتمام بشئون الآخرين (٣٢) .

لقد اعتقد كينان أن مبادئ چون كوينسى آدامز، ولو مع تعديلات محددة لمقابلة ظروفنا والتزاماتنا الراهنة، هى «بالكامل مناسبة ومطلوبة حقا بشكل عظيم كدليل للسياسة الأمريكية فى الفترة المقبلة» . (٣٣) وسأترك لأناس أكثر تخصصًا منى البحث فى تفاصيل تلك التعديلات. ومن جانبى يقودنى هذا التاريخ لأستنتج على بيِّنة، أنه بينما نقترب من الألفية، فإننا ننحى جانبًا ـ للأبد ـ مذهب الألفية الذى، أرى الآن أنه مزاج غير صالح وغير بناء، بل مزاج فظ وغير ممتن، وهدام أكثر الأحيان. كم هو أكثر صحة، مجرد أن «تقيم العدل وتسير فى تواضع مع الرب»، وتتذكر أن الإحسان يبدأ فى البيت، وتقرن الحرية النادرة والوحدة الهشة التى كسبها أجدادنا، وتشكر أن أعداءنا الأخيرين أصابهم الاضطراب، وتأمل أن يتمتع أحفادنا ـ لقرنين من الآن فصاعداً ـ بمثل البهجة التى نحياها الآن .

الهوامش

مدخل

1. See Kenneth C. Davis, "Ethnic Cleansing Didn't Start in Bosnia," *New York Times* (Sept. 3, 1995), sect. 4, p. 1: "The United States may not have written the book on ethnic cleansing, but it certainly provided several of its most stunning chapters — particularly in its treatment of the American Indian in the transcontinental drive for territory justified under the quasi-religious notion of 'manifest destiny.'"
2. *The Federalist: A Commentary on the Constitution of the United States* (New York: Modern Library, 1937), p. 3. For an extended argument, see Frederick W. Marks III, *Independence on Trial: Foreign Affairs and the Making of the Constitution* (Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1973).
3. *The Federalist,* p. 9.
4. See Louis Hartz, *The Liberal Tradition in America* (New York: Harcourt, Brace, and World, 1955): "Surely, then, it is a remarkable force: this fixed, dogmatic liberalism of a liberal way of life. It is the secret root from which have sprung many of the most puzzling of American cultural phenomena" (p. 9). See also William Appleman Williams, *The Tragedy of American Diplomacy* (New York: Harper and Row, 1959): "Taken up by President Theodore Roosevelt and his successors, the philosophy and practice of secular empire that was embodied in the Open Door Notes became the central feature of American foreign policy in the twentieth century. . . . In essence, this twentieth-century Manifest Destiny was identical with the earlier phenomenon of the same name" (p. 59).
5. Thomas A. Bailey, *A Diplomatic History of the American People,* 8th ed. (New York: Appleton-Century-Crofts, 1969), p. 2.
6. Bradford Perkins, *The Cambridge History of American Foreign Relations,* vol. 1, *The Creation of a Republican Empire, 1776–1865* (Cambridge: Cambridge University Press, 1993), pp. 6–16.
7. Robert H. Ferrell, *Foundations of American Diplomacy, 1775–1872* (Columbia: University of South Carolina Press, 1968), pp. 9–15.
8. Cushing Strout, *The American Image of the Old World* (New York: Harper and Row, 1963), pp. ix–x, 14–18.
9. Paul Varg, *The Foreign Policies of the Founding Fathers* (East Lansing: Michigan State University Press, 1963), pp. 1–10, 304 (quote).
10. Felix Gilbert, *To the Farewell Address: Ideas of Early American Foreign Policy* (Princeton: Princeton University Press, 1961), pp. 4–6, 16–18.
11. Arthur M. Schlesinger, Jr., *The Cycles of American History* (Boston: Houghton Mifflin, 1986), p. 19.
12. Henry Kissinger, *Diplomacy* (New York: Simon and Schuster, 1994), pp. 29ff; Michael

Kammen, *People of Paradox: An Inquiry Concerning the Origins of American Civilization* (New York: Knopf, 1973), p. 298.

13. Edward Weisbrand, *The Ideology of American Foreign Policy: A Paradigm of Lockean Liberalism* (Beverly Hills: Sage Publications, 1973), p. 9. Weisbrand does not say that American policy makers practiced those norms punctiliously, only that they justify their policies on those hallowed grounds.
14. Michael H. Hunt, *Ideology and U.S. Foreign Policy* (New Haven: Yale University Press, 1987), pp. 17–18.
15. Eugene V. Rostow, *A Breakfast for Bonaparte: U.S. National Security Interests from the Heights of Abraham to the Nuclear Age* (Washington, D.C.: National Defense University Press, 1993), p. 22.
16. Walter A. McDougall in *Orbis: A Journal of World Affairs* 38, no. 3 (summer 1994): "So long as the U.S. government follows good principles, it can probably do without doctrine . . . at least in normal times. The principles of John Quincy Adams, for instance, or those of Adams plus Theodore Roosevelt, would suit our book fine for the time being" (p. 353).
17. George F. Kennan, "On American Principles," *Foreign Affairs* 74, no. 2 (March-April 1995): 116–26. Kennan erroneously placed the speech in 1823.

الفصل الأول

1. "America," lyrics by Samuel Francis Smith, in *The Hymnal of the Protestant Episcopal Church* (New York: Church Pension Fund, 1940), no. 141.
2. Lerner, *America as a Civilization* (New York: Simon and Schuster, 1957).
3. See, for instance, Paul Varg's *Foreign Policies of the Founding Fathers* (East Lansing: Michigan State University Press, 1963): "Jefferson and Madison gave expression to widely held views and their approach to foreign policy became the American approach that found its culmination in the moralizing of Woodrow Wilson at Versailles" (p. 147).
4. Felix Gilbert, *To the Farewell Address: Ideas of Early American Foreign Policy* (Princeton: Princeton University Press, 1961), pp. 4–6.
5. Thomas G. Paterson, ed., *Major Problems in American Foreign Policy,* vol. 1, *To 1914*. 3d ed. (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1989), p. 29.
6. Winthrop S. Hudson, ed., *Nationalism and Religion in America: Concepts of American Identity and Mission* (New York: Harper and Row, 1970), p. xxviii.
7. Philadelphia's George Duffield in 1873, cited by Hudson, *Nationalism and Religion,* p. 55.
8. Elhanan Winchester, *An Oration on the Discovery of America* (London, 1792), cited by Hudson, *Nationalism and Religion,* pp. 71–72.
9. Ezra Stiles, *The United States Elevated to Glory and Honor: A Sermon* (New Haven, 1783), in Paterson, *Major Problems,* pp. 38–41.
10. See Richard W. Van Alstyne, *Genesis of American Nationalism* (Waltham, Mass.: Blaisdell Publishing, 1970), p. 2.
11. See Stanley M. Burstein, "Greece, Rome, and the American Republic," *Laebertis: The Journal of the California Classical Association* 10, new series (1993–94): 1–24. Reading

Thucydides and Tacitus, wrote John Adams, was like "reading the History of my own Times and my own Life" (p. 13).

12. Van Alstyne, *Genesis*, p. 11.
13. Paine, "Common Sense" (1776), in Paterson, *Major Problems*, pp. 30–33.
14. Van Alstyne, *Genesis*, p. 63.
15. Bernard Bailyn, *The Ideological Origins of the American Revolution* (Cambridge: Harvard University Press, 1967), p. 1.
16. Gordon S. Wood, *The Radicalism of the American Revolution* (New York: Vintage, 1991), p. 179.
17. Samuel Flagg Bemis, *American Foreign Policy and the Blessings of Liberty, and Other Essays* (New Haven: Yale University Press, 1962): "We have not lacked a clear purpose as a nation. What we seem to have been lacking is a continued consciousness of that purpose, of these congenital Blessings of Liberty" (p. 2).
18. See Daniel J. Boorstin, *The Republic of Technology: Reflections on Our Future Community* (New York: Harper and Row, 1978), chap. 4.
19. Bernard Bailyn, ed., *Pamphlets of the American Revolution, 1750–1776* (Cambridge: Harvard University Press, 1965), 1:84.
20. Michael Kammen, *Empire and Interest: The American Colonies and the Politics of Mercantilism* (Philadelphia: Lippincott, 1970), pp. 126–27.
21. Gilbert, *To the Farewell Address*, p. 22.
22. Gilbert, *To the Farewell Address*, p. 28.
23. Gilbert, *To the Farewell Address*, pp. 11–12.
24. Gilbert, *To the Farewell Address*, p. 73.
25. Gilbert, *To the Farewell Address*, p. 67.
26. James H. Hutson, *John Adams and the Diplomacy of the American Revolution* (Lexington: University of Kentucky Press, 1980), pp. 1–10; Max Savelle, *The Origins of American Diplomacy: The International History of Angloamerica* (New York: Macmillan, 1967), pp. 446–51.
27. *The Works of John Adams*, ed. Charles Francis Adams, 10 vols. (Boston: Little, Brown, 1853–56), 10:269.
28. Lawrence S. Kaplan, *Colonies into Nation: American Diplomacy, 1763–1801* (New York: Macmillan, 1973), p. 143.
29. Richard B. Morris, *The Peacemakers: The Great Powers and American Independence* (New York: Harper and Row, 1965), p. 459.
30. Jerald A. Combs, *The Jay Treaty: Political Battleground of the Founding Fathers* (Berkeley: University of California Press, 1970), p. 24.
31. The object of the Constitutional Convention, said Madison to Jefferson, was "to unite a proper energy in the Executive and a proper stability in the Legislative departments, with the essential characters of Republican Government" (Gordon S. Wood, *The Creation of the American Republic, 1776–1787* [Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1969], p. 551).
32. Wood writes that "what remains extraordinary about 1787–88 is not the weakness and disunity but the political strength of Antifederalism" (*Creation of the American Republic*, p. 498).
33. This, too, was an elaboration, or attempted perfecting, of England's system of "mixed" government and "self-balancing equilibrium" of institutions, with the radical difference (as Madison put it) that whereas in Europe "charters of liberty

have been granted by power," America would set the example of "charters of power granted by liberty." See Bailyn, *Ideological Origins*, chap. 3 (quotes from pp. 273, 55).

34. See Frederick W. Marks III, *Independence on Trial: Foreign Affairs and the Making of the Constitution* (Wilmington: Scholarly Resources, 1986), and Forrest McDonald, *Novus Ordo Seclorum: The Intellectual Origins of the Constitution* (Lawrence: University Press of Kansas, 1985), esp. pp. 247–52.
35. *The Federalist: A Commentary on the Constitution of the United States* (New York: Modern Library, 1937), pp. 13–17.
36. *The Federalist*, pp. 30–31 (*Federalist* #6). John Quincy Adams argued the same in a heated response to James Monroe, who was incautious enough to suggest that "free people seldom intrigue together." If Mr. Monroe had read his history, wrote Adams, "he would have found that the government of a Republic was as capable of intriguing with the leaders of a free people as neighboring monarchs" (*The Writings of John Quincy Adams*, ed. Worthington C. Ford, 7 vols. [New York: Macmillan, 1913–17], 2:323–24).
37. *The Federalist*, p. 69 (*Federalist* #11).
38. *Letters of Benjamin Rush*, ed. Lyman Henry Butterfield, 2 vols. (Princeton: Princeton University Press, 1951), p. 207.
39. Norman A. Graebner, *Foundations of American Foreign Policy: A Realist Appraisal from Franklin to McKinley* (Wilmington: Scholarly Resources, 1985), pp. 82–83.
40. Thomas A. Bailey, *A Diplomatic History of the American People*, 8th ed. (New York: Appleton-Century-Crofts, 1969), pp. 75–76.
41. Kaplan, *Colonies into Nation*, p. 243.
42. *The Writings of Thomas Jefferson*, ed. Andrew A. Lipscomb and Albert E. Bergh, 20 vols. (Washington, D.C.: Jefferson Memorial Assoc., 1903–4), 9:10.
43. Charles Warren, *Jacobin and Junto* (Cambridge: Harvard University Press, 1931), p. 90.
44. Joyce Appleby, *Capitalism and a New Social Order: The Republican Vision of the 1790s* (New York: New York University Press, 1984), p. 58.
45. Harry Ammon, *The Genêt Mission* (New York: W. W. Norton, 1973), p. 86.
46. The central government, wrote Jefferson, should "make us one nation as to foreign countries, and keep us distinct in domestic ones" (Marks, *Independence on Trial*, p. 206).
47. Washington's Farewell Address in Paterson, *Major Problems*, pp. 74–76.
48. Thomas G. Paterson, J. Garry Clifford, and Kenneth J. Hagan, *American Foreign Policy: A History*, vol. 1, *To 1914*, 3d ed. (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1988), p. 52.
49. "Were I to indulge my own theory, I should [wish the states] to practice neither commerce nor navigation, but to stand with respect to Europe precisely on the footing of China. We should thus avoid wars, and all our citizens would be husbandmen" (Van Alstyne, *Genesis*, p. 67).
50. Bradford Perkins, *The Cambridge History of American Foreign Relations*, vol. 1, *The Creation of a Republican Empire* (Cambridge: Cambridge University Press, 1993), p. 112.
51. Paterson et al., *American Foreign Policy*, p. 58.
52. Historian Paul A. Varg most clearly contrasted Jeffersonian idealism (unfavorably) with Hamiltonian realism in his *Foreign Policies of the Founding Fathers.* But Lawrence S. Kaplan argues from the same evidence (convincingly, in my opinion) that the Hamilton-Jefferson debates on foreign policy were more over tactics than ideology,

and that if Jefferson is to be labeled an idealist, he was a strikingly pragmatic one. See Kaplan, "Thomas Jefferson: The Idealist as Realist," in Frank Merli and Theodore A. Wilson, eds., *Makers of American Diplomacy* (New York: Scribner's, 1974).

53. In 1814 Federalists gathered at the Hartford Convention to protest the war. Some spoke of secession, but the convention contented itself with a recommendation that the Constitution be amended to make it harder for Congress to impose embargoes or declare war. Their campaign expired with the coming of peace.
54. Bradford Perkins, *Prologue to War, 1805–1812: England and the United States* (Berkeley: University of California Press, 1961), pp. 403–4.
55. Perkins, *Prologue to War*, pp. 393, 434–35.
56. Raymond Walters, Jr., *Albert Gallatin: Jeffersonian Financier and Diplomat* (New York: Macmillan, 1957), p. 288.
57. John Quincy Adams, *An Address Delivered at the Request of the Citizens of Washington; on the Occasion of Reading the Declaration of Independence, on the Fourth of July, 1821* (Washington, D.C.: Davis and Force, 1821).
58. See Hutson, *John Adams*, pp. 30–32.
59. John Winthrop's "City on a Hill," in Paterson, *Major Problems*, p. 29.
60. John A. Schutz and Douglas Adair, eds., *The Spur of Fame: Dialogues of John Adams and Benjamin Rush, 1805–1813* (San Marino, Calif.: Huntington Library, 1966), p. 76.

الفصل الثانى

1. Isaiah 30:1–2 (*The Oxford Annotated Bible*, RSV [New York: Oxford University Press, 1962]).
2. George Washington's Farewell Address, 1796, in Thomas G. Paterson, ed., *Major Problems in American Foreign Policy*, vol. 1, *To 1914*, 3d ed. (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1989), p. 77.
3. Jerald A. Combs, *American Diplomatic History: Two Centuries of Changing Interpretations* (Berkeley: University of California Press, 1983), pp. 39–55.
4. *Washington Post* (June 2, 1898), cited by Thomas G. Paterson et al., *American Foreign Policy: A History*, vol. 1, *To 1914*, 3d ed. (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1988), p. 213.
5. Walpole to Lord Townshend (1723), and Pomfret in the House of Lords (Dec. 10, 1755), cited by Felix Gilbert, *To the Farewell Address: Ideas of Early American Foreign Policy* (Princeton: Princeton University Press, 1961), pp. 22, 27.
6. *The Works of John Adams*, ed. Charles Francis Adams, 10 vols. (Boston: Little, Brown, 1853–56), 8:35.
7. Gilbert, *To the Farewell Address*, p. 72.
8. Poetry of Timothy Dwight (1794), cited by Thomas A. Bailey, *The Man in the Street: The Impact of American Public Opinion on Foreign Policy* (New York: Macmillan, 1948), p. 244.
9. Thomas Pownall, *A Memorial most humbly addressed to the Sovereigns of Europe* (London, 1780), cited by Gilbert, *To the Farewell Address*, pp. 107–11.
10. Bailey, *Man in the Street*, p. 244.
11. *Journals of the Continental Congress*, ed. Worthington C. Ford, 34 vols. (Washington, D.C.: GPO, 1904–37), 24:394.
12. Samuel Flagg Bemis, "Washington's Farewell Address: A Foreign Policy of Inde-

pendence," *American Historical Review* 39, no. 2 (1934), reprinted in Bemis, *American Foreign Policy and the Blessings of Liberty* (New Haven: Yale University Press, 1962), pp. 240–58 (quote p. 251). See J. Fred Rippy and Angie Debo, "The Historical Background of the American Policy of Isolation," *Smith College Studies in History* 9 (spring 1914).

13. Letters of "Columbus" and "Marcellus," *The Writings of John Quincy Adams*, ed. Worthington C. Ford, 7 vols. (New York: Macmillan, 1913–17), 1:157–59, 140. Bemis, *American Foreign Policy*, pp. 272–75, compares John Quincy Adams's texts with the wording of Washington's Farewell Address.
14. On the evolution of the text, see Gilbert, *To the Farewell Address*, pp. 121–34.
15. Washington's Farewell Address, 1796, in Paterson, *Major Problems*, pp. 74–77.
16. Though it went down in history as Washington's Farewell Address, it was in fact published, not delivered as a speech.
17. Thomas Wentworth Higginson, *A Larger History of the United States of America to the Close of President Jackson's Administration* (New York: Harper and Bros., 1886), p. 332.
18. See Combs, *American Diplomatic History*, pp. 6–7; Harvey Wish, *The American Historian: A Social-Intellectual History of the Writing of the American Past* (New York: Oxford University Press, 1960), pp. 41–51; and especially Garry Wills, *Cincinnatus: George Washington and the Enlightenment* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1984).
19. *The Writings of Thomas Jefferson*, eds. Andrew A. Lipscomb and Albert E. Bergh, 20 vols. (Washington, D.C.: Jefferson Memorial Assoc., 1903–4), 9:405–6, in Albert Hall Bowman, *The Struggle for Neutrality: Franco-American Diplomacy during the Federalist Era* (Knoxville: University of Tennessee Press, 1974), pp. 268–69.
20. Bowman, *Struggle for Neutrality*, p. 415.
21. See Irving Brant, "James Madison and His Times," *American Historical Review* 57 (Nov. 1952): 853–70, reprinted in Nicholas Cords and Patrick Gerster, *Myth and the American Experience*, vol. 1, 3d ed. (New York: Harper Collins, 1991), pp. 191–203 (esp. p. 201).
22. Bailey, *Man in the Street*, p. 238.
23. George Tucker, *The History of the United States from Their Colonization to the End of the Twenty-sixth Congress, in 1841*, 4 vols. (Philadelphia, 1856), cited by Combs, *American Diplomatic History*, p. 15.
24. W. H. Trescot, *The Diplomatic History of the Administrations of Washington and Adams, 1789–1801* (Boston, 1857), p. 3; cited by Combs, *American Diplomatic History*, p. 13.
25. Paul A. Varg, *United States Foreign Relations, 1820–1860* (East Lansing: Michigan State University Press, 1979), pp. 20–42 (quote p. 39).
26. "Free security" advanced by C. Vann Woodward, "The Age of Reinterpretation," *American Historical Review* 66, no. 4 (1960), reprinted in Woodward, *The Future of the Past* (New York: Oxford University Press, 1989), pp. 75–84; the role of the British fleet elaborated in Lawrence S. Kaplan, *Entangling Alliances with None* (Kent, Ohio: Kent State University Press, 1987), p. xvii.
27. Alexis de Tocqueville, *Democracy in America* (New York: Vintage, 1945 [1834]), p. 446.
28. *The Collected Works of Abraham Lincoln*, ed. R. P. Basler (New Brunswick: Rutgers University Press, 1953), 1:109.
29. Between 1840 and 1870 the French navy attempted to make several quantum leaps in the adaptation of steam power and iron plating, prompting on each occasion parliamentary inquiries and public hand-wringing in Britain.

30. Bradford Perkins, *The Cambridge History of American Foreign Relations,* vol. 1, *The Creation of a Republican Empire* (Cambridge: Cambridge University Press, 1993), p. 205.
31. Thomas A. Bailey, *A Diplomatic History of the American People,* 8th ed. (New York: Appleton-Century-Crofts, 1969), p. 201.
32. Bailey, *Diplomatic History,* pp. 204–7.
33. Wilbur Devereux Jones, *The American Problem in British Diplomacy, 1841–1861* (New York: Macmillan, 1974), p. 6.
34. As it happened, Webster's misplaced trust in Harvard professor Jared Sparks cheated the United States of about 5,000 square miles of timber. Sparks thought he had seen a map drawn by Benjamin Franklin that confirmed the British claim, leading Webster to believe he had got the best of Ashburton through compromise. Meanwhile, Palmerston found a map in a British archive that confirmed the extreme American claim, so he knew he had got the best of Webster. On the other side of the ledger, Britain reaffirmed the 1818 boundary in what is now Minnesota, unwittingly conceding to the United States 6,500 square miles of the richest iron ore deposits in the world.
35. Tocqueville, *Democracy in America,* p. 446.
36. Perkins, *Creation of a Republican Empire,* p. 206.
37. Eugene V. Rostow, *A Breakfast for Bonaparte: U.S. National Security Interests from the Heights of Abraham to the Nuclear Age* (Washington, D.C.: National Defense University Press, 1993), p. 155.
38. The best expression of American ambivalence toward the British may be the observation that George MacDonald Fraser puts in the mouth of his fictional military raconteur Sir Harry Flashman, c. 1848: "By and large I'm partial to Americans. They make a great affectation of disliking the English and asserting their equality with us, but I've discovered that underneath they dearly love a lord, and if you're civil and cool and don't play it with too high a hand . . . they'll eat out of your hand and boast to their friends in Philadelphia that they know a man who's on terms with Queen Victoria and yet, by gosh, is as nice a fellow as they've ever struck" (*Flash for Freedom!* [New York: New American Library, 1985 (1981)], p. 112).
39. See Henry Adams, *The Degradation of the Democratic Dogma* (New York: Peter Smith, 1919), pp. 28–31 (quote p. 30).
40. Robert A. Divine, *The Illusion of Neutrality: Franklin D. Roosevelt and the Struggle over the Arms Embargo* (Chicago: University of Chicago Press, 1962), p. 44.

الفصل الثالث

1. Bradford Perkins, *The Cambridge History of American Foreign Relations,* vol. 1, *The Creation of a Republican Empire, 1776–1865* (Cambridge: Cambridge University Press, 1993), p. 166.
2. Armin Rappaport, *A History of American Diplomacy* (New York: Macmillan, 1975), p. 92.
3. *L'Étoile* (Jan. 4, 1824), cited by Dexter Perkins, *The Monroe Doctrine, 1823–1826* (Gloucester, England: Peter Smith, 1965 [1927]), p. 30.
4. Thomas A. Bailey, *The Man in the Street: The Impact of American Public Opinion on Foreign Policy* (New York: Macmillan, 1948), p. 266.

5. C. K. Webster, ed., *Britain and the Independence of Latin America, 1812–1830*, 2 vols. (London: Oxford University Press, 1938), 2:508.
6. *New York Times* (Dec. 2, 1923).
7. Bailey, *Man in the Street*, p. 256.
8. See, for instance, Wayne S. Cole, "Myths Surrounding the Monroe Doctine," in Nicholas Cords and Patrick Gerster, eds., *Myth and the American Experience*, vol. 1, 3d ed. (New York: Harper Collins, 1991), pp. 207–11.
9. On this last point, see Jerald A. Combs, *American Diplomatic History: Two Centuries of Changing Interpretations* (Berkeley: University of California Press, 1983), pp. 32–33, 67.
10. Howard I. Kushner, *Conflict on the Northwest Coast: American-Russian Rivalry in the Pacific Northwest, 1790–1867* (Westport, Conn.: Greenwood, 1975), p. 40.
11. *The Memoirs of John Quincy Adams*, ed. Charles Francis Adams, 12 vols. (Philadelphia: Lippincott, 1874–77), 5:252.
12. Samuel Flagg Bemis, *John Quincy Adams and the Foundations of American Foreign Policy* (New York: Knopf, 1965), p. 515 (italics in original).
13. *The Writings of James Monroe*, ed. Stanislaus Murray Hamilton, 7 vols. (New York: G. P. Putnam's Sons, 1898–1903), 7:361–65. Almost all the histories describe the scene. See Ernest R. May, *The Making of the Monroe Doctrine* (Cambridge: Harvard University Press, 1975), p. 3.
14. *Writings of James Monroe*, 7:365–66. For convenience, see May, *Making of the Monroe Doctrine*, pp. 5–6, or Thomas G. Paterson, ed., *Major Problems in American Foreign Policy*, vol. 1, *To 1914*, 3d ed. (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1989), pp. 181–82.
15. Parkman, *Pioneers of France in the New World* (1865), cited by Harvey Wish, *The American Historian: A Social-Intellectual History of the Writing of the American Past* (New York: Oxford University Press, 1960), p. 95.
16. Bemis, *John Quincy Adams*, p. 346.
17. Samuel Flagg Bemis, "Early Missions from Buenos Aires," in *American Foreign Policy and the Blessings of Liberty* (New Haven: Yale University Press, 1962), p. 309.
18. William Roderick Sherman, *The Diplomatic and Commercial Relations of the United States and Chile, 1820–1924* (New York: Russell and Russell, 1926), p. 12.
19. Arthur Preston Whitaker, *The United States and the Independence of Latin America, 1800–1830* (New York: W. W. Norton, 1964 [1941]), pp. 116–17.
20. Manuel Torres, "An Exposition of the Commerce of Spanish America," in Morrell Heald and Lawrence S. Kaplan, *Culture and Diplomacy: The American Experience* (Westport, Conn.: Greenwood, 1977), p. 82.
21. Heald and Kaplan, *Culture and Diplomacy*, p. 68.
22. Bemis, "Early Missions from Buenos Aires," in *Blessings of Liberty*, p. 320.
23. Heald and Kaplan, *Culture and Diplomacy*, pp. 74–75.
24. Heald and Kaplan, *Culture and Diplomacy*, p. 83.
25. Heald and Kaplan, *Culture and Diplomacy*, pp. 75–77.
26. John Quincy Adams, *An Address Delivered at the Request of the Citizens of Washington; on the Occasion of Reading the Declaration of Independence, on the Fourth of July, 1821* (Washington, D.C.: Davis and Force, 1821). For convenience, see the text in *John Quincy Adams and American Continental Empire*, ed. Walter LaFeber (Chicago: University of Chicago Press, 1965), pp. 42–46, and Adams's own explanation of his intentions in Whitaker, *The U.S. and the Independence of Latin America*, pp. 354–61.
27. *Memoirs of John Quincy Adams*, 5:324–25.

28. *Memoirs of John Quincy Adams*, 5:176.
29. Whitaker, *The U.S. and the Independence of Latin America*, pp. 210–11.
30. Bemis, *John Quincy Adams*, p. 353.
31. (Oct. 24, 1823), *Writings of Monroe*, 6:391–94, or *The Writings of Thomas Jefferson*, ed. Andrew A. Lipscomb and Albert E. Bergh, 20 vols. (Washington, D.C.: Jefferson Memorial Assoc., 1903–4), 15:477–80. See Norman A. Graebner, *Foundations of American Foreign Policy: A Realist Appraisal from Franklin to McKinley* (Wilmington: Scholarly Resources, 1985), pp. 169–70, or Paterson, *Major Problems*, pp. 182–83.
32. Adams wrote to the U.S. minister in Madrid in April 1823, "Cuba, forcibly disjoined from its own unnatural connection with Spain, and incapable of self-support, can gravitate only towards the North American Union." See *The Writings of John Quincy Adams*, ed. Worthington C. Ford, 7 vols. (New York: Macmillan, 1913–17), 7:372–73.
33. *Memoirs of John Quincy Adams*, 6:186.
34. *Memoirs of John Quincy Adams*, 6:179.
35. American citizens versed in the classics were especially zealous for the Greek cause (taking their cue, as ever, from Britain, where societies of Philhellenes mushroomed). But when John Quincy Adams himself was asked to donate to a Greek relief fund, he refused: "We had objects of distress to relieve at home more than sufficient to absorb all my capacities of contribution." See *Memoirs of John Quincy Adams*, 6:324–25, or Walter LaFeber, *The American Age: United States Foreign Policy at Home and Abroad Since 1750* (New York: W. W. Norton, 1989), p. 82.
36. *Memoirs of John Quincy Adams*, 6:197–98.
37. Annual Message from the President (Dec. 2, 1823): *Writings of James Monroe*, 7:325–42. For convenience, see the excerpt in Paterson, *Major Problems*, pp. 184–85.
38. Though still the first nation to do so, the United States did not recognize Colombia and Mexico until 1822, Buenos Aires (Argentina) and Chile in 1823, Central America and Brazil in 1824, and Peru in 1826.
39. Perkins, *Monroe Doctrine, 1823–1826*, pp. 186–91.
40. See the discussion in Paul A. Varg, *United States Foreign Relations, 1820–1860* (East Lansing: Michigan State University Press, 1979), pp. 52–53.
41. Paul Schroeder, *The Transformation of European Politics, 1763–1848* (Oxford: Clarendon, 1994), p. 635.
42. Paterson, *Major Problems*, p. 180.
43. (Jan. 24, 1824), *Annals of Congress*, 18th Cong., 1st sess., cols. 1182–90. See Graebner, *Foundations of American Foreign Policy*, p. 178. According to Edith Hamilton (*Mythology* [New York: New American Library, 1940], p. 171), Nessus was a centaur slain by Hercules. Before expiring he bade Deianira to carry off some of his blood to use as a charm in case Hercules should ever love another woman. She anointed a robe with the blood, which then burned its wearer like fire but did not permit him to die.

الفصل الرابع

1. Frederick Jackson Turner, "The Significance of the Frontier in American History," a paper read at the meeting of the American Historical Association in Chicago, July 12, 1893, reprinted in Turner, *The Frontier in American History* (New York: Henry Holt, 1920), pp. 1–38 (quote p. 37).

2. "The Great Nation of Futurity," *The United States Magazine and Democratic Review* 6 (Nov. 1839). For convenience, see the excerpt in Thomas G. Paterson, ed., *Major Problems in American Foreign Policy*, vol. 1, *To 1914* (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1989), pp. 255–56.
3. Bradford Perkins, *The Cambridge History of American Foreign Relations*, vol. 1, *The Creation of a Republican Empire, 1776–1865* (Cambridge: Cambridge University Press, 1993), p. 170.
4. John Quincy Adams to John Adams (Aug. 31, 1811): *The Writings of John Quincy Adams*, ed. Worthington C. Ford, 7 vols. (New York: Macmillan, 1913–17), 4:209.
5. (1858) in Harry Jaffa, *Crisis of the House Divided* (Seattle: University of Washington Press, 1973), p. 406.
6. See Robert V. Remini, *Andrew Jackson and the Course of American Freedom, 1822–1832* (New York: Harper and Row, 1981), esp. pp. 109–15, 294–99, 382–92.
7. "Democracy Must Finally Reign," *Democratic Review* (March 1840), 215–29, reprinted in Norman Graebner, ed., *Manifest Destiny* (Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1968), pp. 22–29 (quote p. 23).
8. See Michael Kammen, "Revolutionary Iconography in the National Tradition," in Kammen, *A Season of Youth: The American Revolution and the Historical Imagination* (New York: Knopf, 1978), pp. 76–109; and Stanley M. Burstein, "Greece, Rome, and the American Republic," *Laebertis: The Journal of the California Classical Association* 10, new series (1993–94): 1–24.
9. Robert H. Wiebe, *The Opening of American Society: From the Adoption of the Constitution to the Eve of Disunion* (New York: Knopf, 1984), p. 252.
10. Jackson Lears, "Playing with Money," *The Wilson Quarterly* (autumn 1995): 6–32 (quote p. 12).
11. W. J. Rorabaugh, *The Alcoholic Republic* (New York: Oxford University Press, 1979), esp. pp. 68–83.
12. Alexis de Tocqueville, *Democracy in America* (New York: Vintage, 1945 [1834]), p. 239. Another Philadelphian, E. C. Booz, marketed his whiskey in log-cabin-shaped bottles in 1840, the year of the "log cabin and hard cider" presidential campaign, and so inspired the slang word "booze" (Robert Gray Gunderson, *The Log Cabin Campaign* [Lexington: University of Kentucky Press, 1957], p. 129).
13. Rorabaugh, *Alcoholic Republic*, pp. 100–101. On the temperance movement see Robert Lacour-Gayet, *Everyday Life in the United States before the Civil War, 1830–1860* (New York: Frederick Ungar, 1969), pp. 42–43; and Alice Felt Tyler, *Freedom's Ferment* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1944), chap. 13.
14. Thomas A. Bailey, *The Man in the Street: The Impact of American Public Opinion on Foreign Policy* (New York: Macmillan, 1948), p. 58.
15. George Will, "The Fourth Awakening," summarizing a lecture by the University of Chicago's Robert Fogel, in *Newsweek* (Oct. 2, 1995).
16. See Timothy L. Smith, "Righteousness and Hope: Christian Holiness and the Millennial Vision in America, 1880–1900," *American Quarterly* 31, no. 1 (spring 1979): 21–45 (quotes pp. 38–39). On the varieties of American religion in this era, see Tyler, *Freedom's Ferment*. Mormonism, based on a fiercely American claim to new revelation, might be considered the extreme example of this trend in the Jacksonian era.
17. *New York Evening Post* (Jan. 28, 1803), in Albert K. Weinberg, *Manifest Destiny: A Study*

of Nationalist Expansionism in American History (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1935), p. 31.

18. Weinberg, *Manifest Destiny*, p. 41.
19. "Cuba and the Floridas," *Niles' Weekly Register* 17 (1820), in Weinberg, *Manifest Destiny*, p. 48.
20. *The Memoirs of John Quincy Adams*, ed. Charles Francis Adams, 12 vols. (Philadelphia: Lippincott, 1874–77), 4:438–39.
21. Weinberg, *Manifest Destiny*, pp. 194, 202.
22. Weinberg, *Manifest Destiny*, pp. 228–30.
23. John Winthrop, *Conclusions for the Plantation in New England* and *The History of New England from 1630 to 1649*, in Weinberg, *Manifest Destiny*, pp. 74–75.
24. Weinberg, *Manifest Destiny*, p. 79.
25. Emory Hollway, ed., *The Uncollected Poetry and Prose of Walt Whitman*, 2 vols. (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1921), 1:159.
26. *New York Morning News* (Dec. 27, 1845), in Julius W. Pratt, *A History of United States Foreign Policy* (New York: Prentice-Hall, 1955), p. 216.
27. Frederick Merk, *Manifest Destiny and Mission in American History* (New York: Vintage, 1966 [1963]), p. 25.
28. "The Mexican War," *Democratic Review* 22 (1848), in Weinberg, *Manifest Destiny*, p. 178.
29. Weinberg, *Manifest Destiny*, pp. 104–5.
30. See, for example, Frederick Merk, *Albert Gallatin and the Oregon Problem* (Cambridge: Harvard University Press, 1950), p. 13. Benton was fond of the allusion: by way of protesting the Maine boundary settlement, he later proposed to "veil with black the statue of the god Terminus, degraded from the mountain which overlooked Quebec" (Jesse Reeves, *American Diplomacy under Tyler and Polk* [Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1907], pp. 44–45). Terminus was in fact one of the Penates, or household gods. He guarded the boundaries of a family farm, not those of the Roman Republic or Empire.
31. See Thomas R. Hietala, *Manifest Design: Anxious Aggrandizement in Late Jacksonian America* (Ithaca: Cornell University Press, 1985).
32. Theodore Roosevelt, *The Winning of the West: An Account of the Exploration and Settlement of Our Country from the Alleghanies to the Pacific*, 6 vols. (New York: G. P. Putnam's Sons, 1889–96), 1:30.
33. The filibuster — a sort of civilian guerrilla operation carried out by Americans who occupied foreign soil, then demanded self-determination and forced their *own* government's hand — was a novel tactic. According to William H. Goetzmann (*When the Eagle Screamed: The Romantic Horizon in American Diplomacy, 1800–1860* [New York: John Wiley and Sons, 1966], p. xvi), it was "virtually the only original American contribution to the technique of worldwide imperialism."
34. See, respectively, Richard Drinnon, *Facing West: The Metaphysics of Indian-Hating and Empire-Building* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1980); Tom Engelhardt, *The End of Victory Culture* (New York: Basic Books, 1995); Alexander Saxton, *The Rise and Fall of the White Republic: Class Politics and Mass Culture in Nineteenth-Century America* (New York: Verso [New Left Books], 1990).
35. Reginald Horsman, *Race and Manifest Destiny: The Origins of American Racial Anglo-Saxonism* (Cambridge: Harvard University Press, 1981), pp. 107–8.

36. See Robert F. Berkhofer, *The White Man's Indian: Images of the American Indian from Columbus to the Present* (New York: Knopf, 1978).
37. *Cherokee Nation v. State of Georgia,* 1831, in Thomas G. Paterson, ed., *Major Problems in American Foreign Policy,* vol. 1, *To 1914* (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1989), pp. 216–20 (quote p. 219).
38. Remini, *Andrew Jackson and the Course of American Freedom,* pp. 257–79 (quote p. 265). Jackson's complicated mix of hostility and paternalism (he even adopted an orphaned Indian child) is well treated in Anthony F. C. Wallace, *The Long, Bitter Trail: Andrew Jackson and the Indians* (New York: Hill and Wang, 1993).
39. Thomas G. Paterson, J. Garry Clifford, and Kenneth J. Hagan, *American Foreign Policy: A History,* vol. 1, *To 1914,* 3d ed. (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1988), p. 87.
40. See Horsman, *Race and Manifest Destiny,* on Jefferson, the British roots of Anglo-Saxonism, and its growing influence in the United States.
41. Caldwell's 1830 book *Thoughts on the Original Unity of the Human Race* was highly influential. See Horsman, *Race and Manifest Destiny,* pp. 117–20.
42. Drew Gilpin Faust, "A Southern Stewardship: The Intellectual and the Pro-Slavery Argument," *American Quarterly* 31, no. 1 (spring 1979): 63–80 (Simms quote p. 73); Clay quote in Horsman, *Race and Manifest Destiny,* p. 198.
43. *The Emigrants' Guide to Oregon and California* (1845), in Horsman, *Race and Manifest Destiny,* p. 211; *Evening Post* in Walter LaFeber, *The American Age: United States Foreign Policy at Home and Abroad Since 1750* (New York: W. W. Norton, 1989), p. 97. It must be said that American bigotry was reinforced by the Mexican *hidalgos* themselves, who held their own peons in contempt and even directed racial slurs at the Yankee "rabble" in Texas who "scarcely had the look of men": Alexander DeConde, *Ethnicity, Race, and American Foreign Policy: A History* (Boston: Northeastern University Press, 1992), p. 33.
44. *Compilation of the Messages and Papers of the Presidents,* ed. James D. Richardson, 20 vols. (Washington, D.C.: GPO, 1897–1917), 3:1084.
45. Claude Milton Newlin, *The Life and Writings of Hugh Henry Brackenridge* (Princeton: Princeton University Press, 1932), in Horsman, *Race and Manifest Destiny,* pp. 113–14 (Tennessee quote p. 110).
46. Graebner, *Manifest Destiny,* p. 73.
47. Julius Pratt, *A History of United States Foreign Policy* (New York: Prentice-Hall, 1955), p. 244.
48. Norman A. Graebner, *Foundations of American Foreign Policy: A Realist Appraisal from Franklin to McKinley* (Wilmington: Scholarly Resources, 1985), p. 232.
49. *The Diary of James K. Polk,* ed. Milo Milton Quaife, 4 vols. (Chicago: McClung, 1910), 1:155.
50. Paul A. Varg, *United States Foreign Relations, 1820–1860* (East Lansing: Michigan State University Press, 1979), p. 150. On Buchanan's moderating influence, see Frederick Moore Binder, *James Buchanan and the American Empire* (Selinsgrove, Pa.: Susquehanna University Press, 1994).
51. Pletcher, *Diplomacy of Annexation,* pp. 334–45; "not an inch" in Thomas A. Bailey, *A Diplomatic History of the American People,* 8th ed. (New York: Appleton-Century-Crofts, 1969), p. 230.
52. (Feb. 16, 1846), in Bailey, *A Diplomatic History,* p. 230.

53. Charles Wilkes, *Narrative of the United States Exploring Expedition during the Years 1838, 1839, 1840, 1841, 1842*, 5 vols. (Philadelphia: Lee and Blanchard, 1845), 5:171–72.
54. Webster (March 11, 1845), in Graebner, *Foundations of American Foreign Policy*, pp. 212–14; "California," *The American Review: A Whig Journal of Politics, Literature, Art and Science* (Jan. 1846), in Graebner, *Manifest Destiny*, pp. 143–52 (quote p. 147).
55. *New York Herald* (Feb. 3, 1846) in Graebner, *Foundations of American Foreign Policy*, p. 216; "California in view" in *Diary of James K. Polk*, 1:71.
56. Pletcher, *Diplomacy of Annexation*, pp. 423–24.
57. Polk's War Message (May 9, 1846) in *Compilation of the Messages and Papers of the Presidents, 1789–1897*, ed. James D. Richardson, 9 vols. (Washington, D.C.: GPO, 1897–1900), 4:442. For convenience, see Paterson, *Major Problems*, pp. 258–62.
58. Pletcher, *Diplomacy of Annexation*, p. 459.
59. See Jerald A. Combs, *American Diplomatic History: Two Centuries of Changing Interpretations* (Berkeley: University of California Press, 1983), pp. 56–61.
60. Weinberg, *Manifest Destiny*, p. 179.
61. Perkins, *Creation of a Republican Empire*, p. 193.
62. Whitman in the *Brooklyn Daily Eagle* (Sept. 23, 1847) and Stockton, "Redeem Mexico from misrule and civil strife," *Niles' National Register* (Jan. 22, 1848), in Graebner, *Manifest Destiny*, pp. 207–9, 209–15.
63. Pratt, *History of U.S. Foreign Policy*, p. 279, says: "If the 1840s are labeled the decade of Manifest Destiny Triumphant, the succeeding ten years may well be called the era of Manifest Destiny Frustrated." Bailey, *Diplomatic History of the American People*, p. 297, speaks of "Manacled Manifest Destiny," and Paterson, *American Foreign Policy*, p. 124, of "Sputtering Expansion."
64. The lecturer John Fiske, cited by Bailey, *Man in the Street*, pp. 272–73.

الفصل الخامس

1. Foster Rhea Dulles, *The Imperial Years* (New York: Thomas Crowell, 1956), pp. 16–17.
2. Beveridge's Salute to Imperialism (1900) in Thomas G. Paterson, ed., *Major Problems in American Foreign Policy*, vol. 1, *To 1914* (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1989), pp. 389–91.
3. Richard H. Collin, *Theodore Roosevelt, Culture, Diplomacy, and Expansion: A New View of American Imperialism* (Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1985), p. 30.
4. Walter LaFeber, *The American Age: United States Foreign Policy at Home and Abroad Since 1750* (New York: W. W. Norton, 1989), p. 160. On the varieties of responses to the perceived closing of the frontier, see David M. Wrobel, *The End of American Exceptionalism: Frontier Anxiety from the Old West to the New Deal* (Lawrence: University Press of Kansas, 1993).
5. James C. Bradford, ed., *Admirals of the New Steel Navy* (Annapolis: Naval Institute Press, 1990), p. 42.
6. Frederick W. Marks III, *Velvet on Iron: The Diplomacy of Theodore Roosevelt* (Lincoln: University of Nebraska Press, 1979), pp. 11–19.
7. Josiah Strong, *Our Country: Its Possible Future and Present Crisis* (1885), in Julius W.

Pratt, *Expansionists of 1898: The Acquisition of Hawaii and the Spanish Islands* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1936), p. 6 (*Our Country* sold 175,000 copies); Strong, *The New Era, or The Coming Kingdom* (New York: Baker and Taylor, 1893), pp. 78–79.

8. David Healy, *U.S. Expansionism: The Imperialist Urge in the 1890s* (Madison: University of Wisconsin Press, 1970), p. 115.
9. See Pratt, *Expansionists of 1898;* Frederick Merk, *Manifest Destiny and Mission in American History* (New York: Vintage, 1966); Richard Hofstadter, *The Paranoid Style in American Politics and Other Essays* (New York: Knopf, 1966), pp. 145–87; Walter LaFeber, *The New Empire: An Interpretation of American Expansion, 1860–1898* (Ithaca: Cornell University Press, 1963); Ernest R. May, *American Imperialism: A Speculative Essay* (New York: Atheneum, 1968).
10. George Kennan, "The War with Spain," *American Diplomacy* (Chicago: University of Chicago Press, 1985 [1951]), p. 17.
11. William Appleman Williams, *The Tragedy of American Diplomacy,* rev. ed. (New York: Dell, 1962).
12. Ernest N. Paolino, *The Foundations of the American Empire: William Henry Seward and U.S. Foreign Policy* (Ithaca: Cornell University Press, 1973), quotations from pp. 26, 212. See also Walter A. McDougall, *Let the Sea Make a Noise: A History of the North Pacific from Magellan to MacArthur* (New York: Basic Books, 1993), pp. 269–70, 300–301.
13. LaFeber, *American Age,* p. 165.
14. David M. Pletcher, "Rhetoric and Results: A Pragmatic View of American Economic Expansion, 1865–1898," *Diplomatic History* 5 (spring 1981): 93–104. For a critique of the Open Door school, see Arthur M. Schlesinger, Jr., *The Cycles of American History* (Boston: Houghton Mifflin, 1986), pp. 128–52.
15. Frederick G. Drake, *The Empire of the Seas: A Biography of Rear-Admiral Robert N. Shufeldt* (Honolulu: University of Hawaii Press, 1984), p. 116.
16. See Charles Callan Tansill, *The Foreign Policy of Thomas Francis Bayard* (New York: Fordham University Press, 1940), chaps. 1–4, on Samoa. German quote from LaFeber, *The New Empire,* p. 55.
17. Dulles, *Imperial Years,* p. 10.
18. Pratt, *Expansionists of 1898,* p. 25.
19. David M. Pletcher, *The Awkward Years: American Foreign Policy under Garfield and Arthur* (Columbia: University of Missouri Press, 1962), p. 70.
20. Thomas G. Paterson et al., *American Foreign Policy: A History,* vol. 1, *To 1914* (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1988), p. 173.
21. Lodge in Marshall Bertram, *The Birth of Anglo-American Friendship: The Prime Facet of the Venezuelan Boundary Dispute* (Lanham, Md.: University Press of America, 1992), p. 14; Senator Collum in Dexter Perkins, *The Monroe Doctrine, 1867–1907* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1937), p. 184.
22. Olney to Bayard (London), July 20, 1895: *Foreign Relations of the United States, 1895,* pp. 545–62. For convenience, see Paterson, *Major Problems,* pp. 350–53.
23. Bertram, *Anglo-American Friendship,* p. 118.
24. The German kaiser showed a brief flurry of interest, but when it became clear that Britain intended to give the United States a free hand in Cuba, the rest of Europe

left Spain to its fate. See Ernest R. May, *Imperial Democracy: The Emergence of America as a Great Power* (New York: Harcourt, Brace, and World, 1961), pp. 196–200.

25. Foster Rhea Dulles, *Prelude to World Power: American Diplomatic History, 1860–1900* (New York: Macmillan, 1965), p. 178.
26. Thomas J. Osborne, *"Empire Can Wait": American Opposition to Hawaiian Annexation, 1893–1898* (Kent, Ohio: Kent State University Press, 1981), pp. 132–33.
27. May, *Imperial Democracy*, p. 244.
28. Dewey in H. Wayne Morgan, *America's Road to Empire: The War with Spain and Overseas Expansion* (New York: Knopf, 1965), p. 94; John Foreman in *Contemporary Review* (July 1898): May, *Imperial Democracy*, p. 254.
29. Charles S. Olcott, *Life of William McKinley*, 2 vols. (Boston: Houghton Mifflin, 1916), 2:109–11.
30. Thomas A. Bailey, *The Man in the Street: The Impact of American Public Opinion on Foreign Policy* (New York: Macmillan, 1948), p. 204.
31. Pratt, *Expansionists of 1898*, p. 282.
32. May, *Imperial Democracy*, p. 248.
33. Foster Rhea Dulles, *America's Rise to World Power* (New York: Harper and Row, 1954), p. 48.
34. May, *Imperialism: A Speculative Essay*, pp. 188–89.
35. TR sent it on to Lodge with the note "Rather poor poetry, but good sense from the expansionist viewpoint": Christopher Hitchens, *Blood, Class, and Nostalgia: Anglo-American Ironies* (New York: Farrar, Straus, and Giroux, 1990), p. 66.
36. On the mugwump opposition (the term dated from the election of 1884), see Robert L. Beisner, *Twelve Against Empire: The Anti-Imperialists, 1898–1900* (New York: McGraw-Hill, 1968), pp. 5–17 (quote p. 10).
37. Hoar in Pratt, *Expansionists of 1898*, p. 347; Schurz and *World* in Beisner, *Twelve Against Empire*, pp. 34, 219–20.
38. Morrell Heald and Lawrence S. Kaplan, *Culture and Diplomacy: The American Experience* (Westport, Conn.: Greenwood, 1977), p. 146.
39. Akira Iriye, *From Nationalism to Internationalism: U.S. Foreign Policy to 1914* (London: Routledge and Kegan Paul, 1977), p. 337. On the American career in the Philippines, see Stanley Karnow, *In Our Image: America's Empire in the Philippines* (New York: Random House, 1989).
40. Walter LaFeber, *The Cambridge History of American Foreign Relations*, vol. 2, *The American Search for Opportunity, 1865–1913* (Cambridge: Cambridge University Press, 1993), p. 180.
41. Paterson, *Major Problems*, p. 461.
42. *The Letters of Theodore Roosevelt*, ed. Elting E. Morison, 8 vols. (Cambridge: Harvard University Press, 1951–54), 4:734. Secretary of State John Hay, alarmed by rumors of German interest in Denmark's Virgin Islands, did attempt to purchase the islands in 1902. The Danish parliament refused (until 1917), but the United States made clear it would not tolerate their transfer to any other power.
43. Speech at University of Pennsylvania (June 15, 1910): Walter V. and Marie V. Scholes, *The Foreign Policies of the Taft Administration* (Columbia: University of Missouri Press, 1970), p. 35.
44. Businessman H. B. LaRue complained in 1904, "To demand an open door in China

and maintain a closed door here is an outrage on common sense": Delber L. McKee, *Chinese Exclusion Versus the Open Door Policy, 1900–1906* (Detroit: Wayne State University Press, 1977), p. 112. Frederick Merk appears to have been the first historian to ask, "Is it not likely that racism prior to the war with Spain was a deterrent to imperialism rather than a stimulant of it?": *Manifest Destiny*, p. 247.

45. The movement for arbitration of international disputes provides a prime example of U.S. devotion to Unilateralism. At the first Hague Conference in 1899 the U.S. delegation affirmed a Permanent Court of Arbitration only on condition that it in no way require the United States to depart from its policy of non-entanglement or "traditional attitude toward purely American questions." In 1902 Roosevelt refused to submit the Venezuelan dispute to the Hague Court because it was "in my judgment better that I should arbitrate it myself . . . in such case there would be no possibility of the court rendering a decision which might be in conflict with the Monroe Doctrine." See Calvin DeArmond Davis, *The United States and the Second Hague Peace Conference: American Diplomacy and International Organization, 1899–1914* (Durham: Duke University Press, 1975), quotes on pp. 33, 83.
46. Guano was a major source of nitrates for fertilizer and, later, explosives, hence the object of brisk competition. See Jimmy M. Skaggs, *The Great Guano Rush: Entrepreneurs and American Overseas Expansion* (New York: St. Martin's, 1994).
47. Dulles, *Imperial Years*, p. 12.
48. Rubin Francis Weston, *Racism in U.S. Imperialism: The Influence of Racial Assumptions on American Foreign Policy, 1893–1946* (Columbia: University of South Carolina Press, 1972), p. 258.
49. See Glenn Anthony May, *Social Engineering in the Philippines: The Aims, Execution, and Impact of American Colonial Policy, 1900–1913* (Westport, Conn.: Greenwood, 1980).
50. Samuel Flagg Bemis, *Latin American Policy of the U.S.: A Historical Interpretation* (New York: Harcourt, Brace, 1943), p. 385.
51. *Speeches and Addresses of William McKinley* (New York: Doubleday and McClure, 1900), pp. 361–66, in Morgan, *Road to Empire*, p. 113.
52. Dulles, *Imperial Years*, p. viii.
53. Robert Dallek, *The American Style of Foreign Policy: Cultural Politics and Foreign Affairs* (New York: Knopf, 1983), pp. 8–10.
54. William Leuchtenberg first argued this case in "Progressivism and Imperialism: The Progressive Movement and American Foreign Policy, 1898–1916," *Mississippi Valley Historical Review* 39 (Dec. 1952): 483–504. See the summaries of the debate he provoked in Jerry Israel, *Progressivism and the Open Door* (Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1971), xii–xxiv; and Jerald A. Combs, *American Diplomatic History: Two Centuries of Changing Interpretations* (Berkeley: University of California Press, 1983), pp. 269–71.
55. Combs, *American Diplomatic History*, pp. 84–97. Archibald Cary Coolidge, author of the influential *United States as a World Power* (1908), did fret about American expansion, but on the grounds that it was too *idealistic:* "vague moralistic passions" might lure the United States into overextension.
56. Robert V. Friedenberg, *Theodore Roosevelt and the Rhetoric of Militant Decency* (Westport, Conn.: Greenwood, 1990), p. 17.
57. Herbert Croly, *The Promise of American Life* (New York: Bobbs-Merrill, 1965 [1909]), pp. 289–314 (quote p. 309).

58. Dallek, *American Style*, p. 30.
59. Louis Hartz, *The Liberal Tradition in America* (New York: Harcourt, Brace, and World, 1955), p. 41.
60. Schlesinger, *Cycles of American History*, p. 17.
61. Norman A. Graebner, *Foundations of American Foreign Policy: A Realist Appraisal from Franklin to McKinley* (Wilmington: Scholarly Resources, 1985), p. 352.
62. Robert L. Beisner, *From the Old Diplomacy to the New, 1865–1900* (Arlington Heights, Ill.: AHM Publishing, 1975), p. 76.

الفصل السادس

1. Thomas J. Knock, *To End All Wars: Woodrow Wilson and the Quest for a New World Order* (New York: Oxford University Press, 1992), p. 76.
2. Knock, *To End All Wars*, pp. 76–78.
3. George D. Herron, *Woodrow Wilson and the World's Peace* (New York: Mitchell Kennerley, 1917), pp. 76–77; and Mitchell Pirie Briggs, *George D. Herron and the European Settlement* (Stanford: Stanford University Press, 1932), p. 249, cited by Lloyd E. Ambrosius, *Wilsonian Statecraft: Theory and Practice of Liberal Internationalism during World War I* (Wilmington: Scholarly Resources, 1991), pp. 11–13.
4. E. D. Morel, *The Morrow of the War* (1915), and Bertrand Russell, *The Foreign Policy of the Entente* (1914), in Michael Howard, *War and the Liberal Conscience* (New Brunswick: Rutgers University Press, 1978), pp. 75–77.
5. Wilson first used this phrase in reference to senators who filibustered his request to arm U.S. merchant ships in March 1917. See Ray Stannard Baker, *Woodrow Wilson: Life and Letters*, 8 vols. (Garden City, N.Y.: Doubleday Page, 1927–39), 6:481. It was later applied to those who blocked ratification of the Treaty of Versailles without reservations.
6. Just a sample of authors who dispute the influence of Wilson includes Walter Lippmann, *U.S. Foreign Policy: Shield of the Republic* (Boston: Little, Brown, 1943); George F. Kennan, *American Diplomacy, 1900–1950* (Chicago: University of Chicago Press, 1951); Hans J. Morgenthau, *In Defense of the National Interest: A Critical Examination of American Foreign Policy* (New York: Knopf, 1951); Robert E. Osgood, *Ideals and Self-Interest in America's Foreign Relations* (Chicago: University of Chicago Press, 1953); David F. Trask, *Victory Without Peace: American Foreign Relations in the Twentieth Century* (New York: John Wiley and Sons, 1968); Arthur S. Link, *The Higher Realism of Woodrow Wilson and Other Essays* (Nashville: Vanderbilt University Press, 1971); Ernest R. May, *The World War and American Isolation, 1914–1917* (Cambridge: Harvard University Press, 1959). For discussions of the historiographical debate, see Ambrosius, *Wilsonian Statecraft*, pp. ix–xvi, and Jerald A. Combs, *American Diplomatic History: Two Centuries of Changing Interpretations* (Berkeley: University of California Press, 1983), pp. 113–31, 259–68, 378–81.
7. Akira Iriye, *The Cambridge History of American Foreign Relations*, vol. 3, *The Globalizing of America, 1913–1945* (Cambridge: Cambridge University Press, 1993), p. 72.
8. "The only place" and "Presbyterian priest" in John Morton Blum, *Woodrow Wilson and the Politics of Morality* (Boston: Little, Brown, 1956), pp. 6–7.
9. "Very stupid indeed" and "ouija" in Henry Wilkinson Bragdon, *Woodrow Wilson:*

The Academic Years (Cambridge: Harvard University Press, 1967), pp. 23, 312. Wilson loved the fact that his name had thirteen letters (after he dropped his given first name, Thomas), that he was the thirteenth president of Princeton and took that office in his thirteenth year there. He would also become president of the United States in the year 1913.

10. Arthur S. Link, *Woodrow Wilson: Revolution, War, and Peace* (Arlington Heights, Ill.: Harlan Davidson, 1979), p. 6.
11. Blum, *Politics of Morality,* p. 15.
12. Thomas G. Paterson et al., *American Foreign Policy: A History,* vol. 3, *Since 1900,* 3d ed. (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1991), p. 263.
13. Bragdon, *Wilson: The Academic Years,* p. 113.
14. Bragdon, *Wilson: The Academic Years,* pp. 131–33.
15. Woodrow Wilson, "The Ideals of America," *Atlantic Monthly* (Dec. 26, 1901), in Niels Aage Thorsen, *The Political Thought of Woodrow Wilson, 1875–1910* (Princeton: Princeton University Press, 1988), p. 175.
16. Woodrow Wilson, *Congressional Government: A Study in American Politics,* 15th ed. (Boston: Houghton Mifflin, 1900), pp. xi–xii.
17. John Milton Cooper, Jr., *The Warrior and the Priest: Woodrow Wilson and Theodore Roosevelt* (Cambridge: Harvard University Press, 1983), pp. 106–7.
18. Blum, *Politics of Morality,* p. 31.
19. Thorsen, *Political Thought of Woodrow Wilson,* pp. 8, 16.
20. Ambrosius, *Wilsonian Statecraft,* p. 11.
21. See Ernest Lee Tuveson, *Redeemer Nation: The Idea of America's Millennial Role* (Chicago: University of Chicago Press, 1968), and Robert M. Crunden, *Ministers of Reform: The Progressives' Achievement in American Civilization, 1889–1920* (New York: Basic Books, 1982).
22. Link, *Revolution, War, and Peace,* p. 6.
23. Cooper, *Warrior and the Priest,* p. 195.
24. Blum, *Politics of Morality,* p. 40.
25. Baker, *Woodrow Wilson: Life and Letters,* 4:55.
26. Arthur S. Link, *Woodrow Wilson and the Progressive Era, 1910–1917* (New York: Harper and Bros., 1954), p. 83.
27. Circular note of Nov. 2, 1913, in Tony Smith, *America's Mission: The United States and the Worldwide Struggle for Democracy in the Twentieth Century* (Princeton: Princeton University Press, 1994), pp. 66–70.
28. Thomas A. Bailey, *A Diplomatic History of the American People,* 8th ed. (New York: Appleton-Century-Crofts, 1969), p. 556.
29. C. R. Conyne, *Woodrow Wilson: British Perspectives, 1912–21* (New York: St. Martin's, 1992), pp. 31, 37.
30. Tyrrell duly reported this to Sir Edward Grey, adding, "If some of the veteran diplomats could have heard us, they would have fallen in a faint." See Smith, *America's Mission,* p. 60.
31. *The Public Papers of Woodrow Wilson,* ed. Ray Stannard Baker and William E. Dodd, 6 vols. (New York: Harper and Bros., 1925–27), 3:127.
32. Knock, *To End All Wars,* p. 39.
33. Samuel Flagg Bemis, "Woodrow Wilson and Latin America," *American Foreign Policy*

and the Blessings of Liberty and Other Essays (New Haven: Yale University Press, 1962), pp. 379–95 (quotes p. 392).

34. Kurt Wimer, "Woodrow Wilson and World Order," in Arthur S. Link, ed., *Woodrow Wilson and a Revolutionary World, 1913–1921* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1982), pp. 146–73 (quote p. 150).
35. Thomas A. Bailey and Paul B. Ryan, *The* Lusitania *Disaster* (New York: Free Press, 1975), p. 99.
36. *Public Papers of Woodrow Wilson,* 1:321.
37. Bailey, *A Diplomatic History,* p. 579.
38. *Public Papers of Woodrow Wilson,* 2:124.
39. *Public Papers of Woodrow Wilson,* 4:127–28. The biblical passage on love (or "charity") is in I Corinthians 13.
40. See S. D. Lovell, *The Presidential Campaign of 1916* (Carbondale: Southern Illinois University Press, 1980), esp. pp. 90–91.
41. Lloyd C. Gardner, *Safe for Democracy: The Anglo-American Response to Revolution, 1913–1923* (New York: Oxford University Press, 1987), p. 119.
42. *Public Papers of Woodrow Wilson,* 2:407–14.
43. Arthur S. Link, "President Wilson and His English Critics: An Inaugural Lecture" (Oxford: Clarendon, 1959), p. 15.
44. Paterson, *American Foreign Policy,* p. 271.
45. Cooper, *Warrior and the Priest,* p. 310.
46. What if the United States had constructed a navy "second to none" (Wilson's own phrase) and convoyed ships to Europe in the teeth of both blockades? Neither side would have dared interfere lest it push the Americans into the enemy camp. In that event, Wilson might have been able to pressure the Allies and the Germans into settling for "peace for victory." See John W. Coogan, *The End of Neutrality: The United States, Britain, and Maritime Rights, 1899–1915* (Ithaca: Cornell University Press, 1981), pp. 249–56.
47. *Public Papers of Woodrow Wilson,* 1:6–16.
48. Robert Dallek, *The American Style of Foreign Policy: Cultural Politics and Foreign Affairs* (New York: Knopf, 1983), pp. 64–65.
49. "War Message to Congress" (April 2, 1917): *Public Papers of Woodrow Wilson,* 1:6–16. For convenience, see Thomas G. Paterson, ed., *Major Problems in American Foreign Policy,* vol. 2, *Since 1914* (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1989), pp. 51–55.
50. Foster Rhea Dulles, *America's Rise to World Power, 1898–1954* (New York: Harper and Bros., 1954), p. 103.
51. *National Review* (Jan. 1913): 736–50; cited by Edward H. Buehrig, *Woodrow Wilson and the Balance of Power* (Bloomington: Indiana University Press, 1955), pp. 180–85.
52. Norman A. Graebner, *America as a World Power: A Realist Appraisal from Wilson to Reagan* (Wilmington: Scholarly Resources, 1984), p. 2. For a summary of the debate over U.S. entry into World War I, see Robert D. Schulzinger, *American Diplomacy in the Twentieth Century* (New York: Oxford University Press, 1984), pp. 79–81.
53. Link, *War, Revolution, and Peace,* p. 85.
54. Herbert Hoover, *The Ordeal of Woodrow Wilson* (Washington, D.C.: Woodrow Wilson Center Press, 1992 [1958]), pp. 24–25 (emphasis added).
55. Cooper, *Warrior and the Priest,* p. 331.

56. Hoover, *Ordeal of Woodrow Wilson*, pp. 14–15.
57. Wilson did name one Republican, the diplomat Henry White, but he was a nonentity. The other delegates were Secretary of State Lansing (whom Wilson distrusted), his personal crony Colonel House (whom he learned to distrust), and General Tasker Bliss, on whom he relied for military advice only.
58. "Weatherwise" and "the only thing" in Gardner, *Safe for Democracy*, p. 1. Wilson was alluding to Matthew 16:2–3: "When it is evening, you say, 'It will be fair weather; for the sky is red.' And in the morning, 'It will be stormy today, for the sky is red and threatening.' You know how to interpret the appearance of the sky, but you cannot interpret the signs of the times."
59. The Anglo-American battle over postwar shipping was at least as virulent as the one over naval power. See Jeffrey J. Safford, *Wilsonian Maritime Diplomacy, 1913–1921* (New Brunswick: Rutgers University Press, 1978).
60. The leftist *New Republic* wrote in March 1919 that since final justice was clearly not going to be done by the Peace Conference, "America should not be pledged to uphold injustices. . . . The result of Article Ten will be to guarantee the mistakes made at Paris": Knock, *To End All Wars*, pp. 252–53.
61. Hoover, *Ordeal of Woodrow Wilson*, p. 267.
62. Cooper, *Warrior and the Priest*, p. 333.
63. Lloyd E. Ambrosius, *Woodrow Wilson and the American Diplomatic Tradition: The Treaty Fight in Perspective* (Cambridge: Cambridge University Press, 1987), p. 155.
64. Lodge thought Wilson's duplicity "very characteristic": Ambrosius, *Wilson and the American Diplomatic Tradition*, p. 83.
65. Denna Frank Fleming, *The United States and the League of Nations, 1918–1920* (New York: Russell and Russell, 1968), p. 134.
66. Henry Cabot Lodge, *The Senate and the League of Nations* (New York: Scribner's, 1925), pp. 117–21.
67. Paterson, *American Foreign Policy*, p. 286.
68. Ambrosius, *Wilson and the American Diplomatic Tradition*, p. 165.
69. Beatrice Farnsworth, *William C. Bullitt and the Soviet Union* (Bloomington: Indiana University Press, 1967), pp. 61–62.
70. Ambrosius, *Wilson and the American Diplomatic Tradition*, p. 139.
71. The chairman of the Republican National Committee, Will H. Hays, spied in Borah's appeal to Americanism a theme that would "play in Peoria": "While we seek earnestly and prayerfully for methods lessening future wars, . . . we will accept no indefinite internationalism as a substitute for fervent American nationalism" (Borah and Hays in Ambrosius, *Wilson and the American Diplomatic Tradition*, pp. 89–90, 102).
72. Ambrosius, *Wilson and the American Diplomatic Tradition*, p. 149.
73. Armin Rappaport, *A History of American Diplomacy* (New York: Macmillan, 1975), p. 278.
74. Ambrosius, *Wilson and the American Diplomatic Tradition*, p. 250.
75. Knock, *To End All Wars*, pp. 270–71.
76. Rappaport, *History of American Diplomacy*, p. 275.
77. Ambrosius, *Wilson and the American Diplomatic Tradition*, p. 139. Characteristic of many Protestants, Sherman also feared Vatican influence over the League, since seventeen of the twenty-eight charter members were largely Catholic countries.
78. Link, *War, Revolution, and Peace*, p. 127.

79. Julius W. Pratt, *A History of United States Foreign Policy* (New York: Prentice-Hall, 1955), pp. 525–26.
80. As a Chicago paper wrote, "At the end of a long rope, the other end of which is held by the Senate, the United States enters the World Court provided with a bottle of disinfectant and a portable fire-escape": Thomas A. Bailey, *The Man in the Street: The Impact of American Public Opinion on Foreign Policy* (New York: Macmillan, 1948), p. 249. See Denna Frank Fleming, *The United States and the World Court* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1945).
81. "Think not that I am come to send peace on earth: I came not to send peace, but a sword": Matthew 10:34 KJV.

الفصل السابع

1. Roosevelt and Vandenberg in Foster Rhea Dulles, *America's Rise to World Power, 1898–1954* (New York: Harper and Bros., 1954), p. 207.
2. (March 1917) in Robert H. Ferrell, *Woodrow Wilson and World War I, 1917–1921* (New York: Harper and Row, 1985), p. 12.
3. Al Smith's 1928 campaign for president symbolized the new acceptance of Catholics, and one scholar named Jews "the most active single ethnic group in foreign policy questions in recent years" (Gabriel A. Almond, *The American People and Foreign Policy* [New York: Harcourt, Brace, 1950], p. 185).
4. Fredrick B. Pike, *FDR's Good Neighbor Policy: Sixty Years of Generally Gentle Chaos* (Austin: University of Texas Press, 1995), pp. 46–55 (quote p. 54).
5. Manfred Jonas, *Isolationism in America, 1935–1941* (Ithaca: Cornell University Press, 1966), p. 5.
6. Senators Borah and Johnson even opposed Nye's extreme legislation on the grounds that it surrendered America's rights on the high seas: C. David Tompkins, *Senator Arthur H. Vandenberg: The Evolution of a Modern Republican, 1884–1945* (East Lansing: Michigan State University Press, 1970), p. 127.
7. Senator Robert Taft (R., Ohio) in Jonas, *Isolationism in America*, p. 87.
8. Jonas, *Isolationism*, p. 81.
9. Herbert Johnson cartoon, *Saturday Evening Post* (Jan. 8, 1938).
10. FDR in 1932 in Robert A. Divine, *Roosevelt and World War II* (New York: Penguin, 1969), p. 55; speech at Chautauqua, New York (Aug. 14, 1936), in Thomas G. Paterson, ed., *Major Problems in American Foreign Policy*, vol. 2, *Since 1914*, 3d ed. (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1989), pp. 173–75.
11. Arsenal of Democracy fireside chat (Dec. 29, 1940), in Paterson, *Major Problems*, pp. 175–77.
12. Robert A. Divine, *The Illusion of Neutrality: Franklin D. Roosevelt and the Struggle over the Arms Embargo* (Chicago: University of Chicago Press, 1962), p. 301. For an excellent compilation of the documents of the America First Committee, see Justus D. Roenicke, ed., *In Danger Undaunted: The Anti-Interventionist Movement of 1940–1941 as Revealed in the Papers of the America First Committee* (Stanford: Hoover Institution Press, 1990).
13. Charles A. Lindbergh address in New York (April 22, 1941), in Richard D. Challener, ed., *From Isolation to Containment, 1921–1952* (New York: St. Martin's, 1970), p. 106.

The committee included, for a brief time, the young Gerald R. Ford. He resigned because he thought Yale University, where he was employed as an assistant football coach, might frown on his activism.

14. Wallace speech to the Foreign Policy Association (April 1941): Robert A. Divine, *Second Chance: The Triumph of Internationalism in America during World War II* (New York: Atheneum, 1971), p. 41.
15. R. E. Sherwood, *Roosevelt and Hopkins: An Intimate History* (New York: Harper and Bros., 1948), pp. 359–60.
16. Divine, *Second Chance*, p. 103.
17. Daniel Yergin, *Shattered Peace: The Origins of the Cold War and the National Security State* (Boston: Houghton Mifflin, 1978), p. 46.
18. Divine, *Second Chance*, pp. 152, 160.
19. Charles A. Beard, *The Republic* (1944); Carl Becker, *How Better Will the New World Be?* (1944); Nicholas J. Spykman, *America's Strategy in World Politics* (1942); Robert Strausz-Hupé, *Geopolitics* (1942); Reinhold Niebuhr, *The Children of Light and the Children of Darkness* (1944); Walter Lippmann, *U.S. War Aims* (1944), cited by Divine, *Second Chance*, pp. 174–76, 181.
20. Divine, *Second Chance*, p. 213. FDR died before the U.N. was up and running, but President Truman, at the close of the San Francisco Conference on June 26, 1945, called the U.N. Charter "a victory against war itself" which realized "the ideal of that great statesman of a generation ago — Woodrow Wilson. . . . Let us not fail to grasp this supreme chance to establish a world-wide rule of reason — to create enduring peace under the guidance of God."
21. Tompkins, *Senator Arthur H. Vandenberg*, p. 233.
22. William Roger Louis, *Imperialism at Bay: The United States and the Decolonization of the British Empire, 1941–1945* (Oxford: Clarendon, 1986 [1977]), p. 515.
23. Challener, *From Isolation to Containment*, pp. 118–19 (emphasis added).
24. Henrik Shipstead (R., Minn.) in Divine, *Second Chance*, p. 313.
25. Fireside chat after the Teheran Conference (Dec. 1943), in Divine, *Roosevelt and World War II*, p. 61, 64–65.
26. The American Federation of Labor, having observed the death of free unions in Russia and fought Communists in its own ranks, opposed any action "which could be construed as assistance to or approval of the Soviet government" (Morrell Heald and Lawrence S. Kaplan, *Culture and Diplomacy: The American Experience* [Westport, Conn.: Greenwood, 1977], p. 173).
27. Joseph E. Davies, *Mission to Moscow* (1941), and Wendell Willkie, *One World* (1943), cited by John Lewis Gaddis, *The United States and the Origins of the Cold War* (New York: Columbia University Press, 1972), pp. 34–42 (quotes pp. 36, 40, 41); Walter Duranty, *The Kremlin and the People* (1941), cited by Ralph B. Levering, *American Opinion and the Russian Alliance, 1939–1945* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1976), p. 58.
28. Levering, *American Opinion and the Russian Alliance*, photo inserts.
29. Norman A. Graebner, *America as a World Power: A Realist Appraisal from Wilson to Reagan* (Wilmington: Scholarly Resources, 1984), p. 99.
30. Graebner, *America as a World Power*, p. 110.
31. Yergin, *Shattered Peace*, p. 68.
32. Readers curious about my views on this question may refer to my article "20th-

Century International Relations," *Encyclopaedia Britannica*, 15th ed. (1989), vol. 20, pp. 732–824 (esp. pp. 789–99), and the relevant chapters of Walter A. McDougall, *. . . the Heavens and the Earth: A Political History of the Space Age* (New York: Basic Books, 1985).

33. *The Forrestal Diaries*, ed. Walter Mills (New York: Viking, 1951), p. 127. See also Townsend Hoopes and Douglas Brinkley, *Driven Patriot: The Life and Times of James Forrestal* (New York: Knopf, 1992), pp. 262–63.
34. (April 1, 1945): Jean-Baptiste Duroselle, *From Wilson to Roosevelt: Foreign Policy of the United States, 1913–1945* (New York: Harper and Row, 1968 [1963]), p. 419.
35. Stephen T. Ambrose, *Rise to Globalism: American Foreign Policy Since 1938*, 4th ed. (New York: Penguin, 1985), p. 70.
36. Marc Trachtenberg, "The Myth of Potsdam" (Jan. 18, 1996), p. 13: unpublished conference paper based on the Potsdam series of the *Foreign Relations of the United States*.
37. Trachtenberg's interpretation of American thinking at Potsdam may seem provocative, but years ago Bruce Kuklick concluded, "The phraseology adopted . . . rejected dismembership, but in fact the opposite was true. Ironically, when the Americans discarded partition in theory, they accomplished it in fact" (Kuklick, *American Policy and the Division of Germany: The Clash with Russia over Reparations* [Ithaca: Cornell University Press, 1972], p. 166).
38. "I've never been talked to like that," said Molotov after Truman chewed him out. "Carry out your agreements and you won't get talked to like that," bluff Harry replied: Harry S. Truman, *Memoirs: Year of Decisions* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1955), pp. 79–82.
39. Arthur M. Schlesinger, Jr., *The Cycles of American History* (Boston: Houghton Mifflin, 1986), p. 184.
40. Joseph C. Grew, *Turbulent Era: A Diplomatic Record of Forty Years, 1904–1945*, 2 vols. (Boston: Houghton Mifflin, 1952), 2:1445–46.
41. Michael A. Guhin, *John Foster Dulles: A Statesman and His Times* (New York: Columbia University Press, 1972), p. 135.
42. Fraser J. Harbutt, *The Iron Curtain: Churchill, America, and the Origins of the Cold War* (New York: Oxford University Press, 1986), p. 160.
43. Harbutt, *Iron Curtain*, p. 161.
44. George F. Kennan, *Memoirs, 1925–1950* (New York: Bantam, 1969 [1967]), pp. 260–64, 309 (quote).
45. "Telegraphic Message from Moscow of February 22, 1946": Kennan, *Memoirs*, pp. 583–98 (quotes pp. 586, 594–95).
46. *Times* in Harbutt, *Iron Curtain*, p. 156; Vandenberg in John Lewis Gaddis, *The United States and the Origins of the Cold War, 1941–1947* (New York: Columbia University Press, 1972), p. 295.
47. Harbutt, *Iron Curtain*, p. 172.
48. Winston S. Churchill's Iron Curtain speech (March 5, 1946), in Paterson, *Major Problems*, pp. 288–92.
49. Harbutt, *Iron Curtain*, p. 204.
50. Dulles, "Thoughts on Soviet Foreign Policy and What to Do About It," *Life* (June 3, 1946): 112–26, (June 10, 1946): 118–30; State Department memo in Henry Kissinger, *Diplomacy* (New York: Simon and Schuster, 1994), pp. 449–50; Clifford

memo in Walter Isaacson and Evan Thomas, *The Wise Men: Six Friends and the World They Made* (New York: Simon and Schuster, 1986), p. 376.

51. Ambrose, *Rise to Globalism*, p. 83.
52. Dean Acheson, *Present at the Creation: My Years in the State Department* (New York: W. W. Norton, 1969), p. 219.
53. Paterson, *Major Problems*, pp. 297–300.
54. Graebner, *America as a World Power*, p. 140. See also Henry A. Wallace, "The Path to Peace with Russia," *New Republic* (Sept. 30, 1946): 401–6.
55. Walter Lippmann, *The Cold War: A Study in U.S. Foreign Policy* (New York: Harper and Bros., 1947), p. 16.
56. James Warburg, *Faith, Purpose, and Power* (New York: Farrar, Straus, 1950), in David Steigerwald, *Wilsonian Idealism in America* (Ithaca: Cornell University Press, 1994), p. 163.
57. "The Sources of Soviet Conduct," *Foreign Affairs* (July 1947): 566–82, reprinted in George F. Kennan, *American Diplomacy: Expanded Edition* (Chicago: University of Chicago Press, 1984), pp. 107–28; John Lewis Gaddis, *Strategies of Containment: A Critical Appraisal of Postwar American National Security Policy* (New York: Oxford University Press, 1982), p. 28; Kennan, *Memoirs*, pp. 376–79.
58. John Gimbel, "The Origins of the Marshall Plan," in Charles S. Maier, ed., *The Origins of the Cold War and Contemporary Europe* (New York: Franklin Watts, 1978), p. 164.
59. Taft in Richard S. Kirkendall, *A Global Power: America Since the Age of Roosevelt*, 2d ed. (New York: Knopf, 1980), p. 26; other quotes in Divine, *Since 1945*, p. 15.
60. Armin Rappaport, *A History of American Diplomacy* (New York: Macmillan, 1975), p. 390.
61. Guhin, *John Foster Dulles*, p. 160.
62. Dulles, *America's Rise to World Power*, pp. 244–45. On the Euro-American origins of NATO, see Timothy P. Ireland, *Creating the Entangling Alliance: The Origins of the North Atlantic Treaty Organization* (Westport, Conn.: Greenwood, 1981).
63. See Yergin, *Shattered Peace*, pp. 196–200.
64. Truman said in May 1947, "The police state is a police state; I don't care what you call it": John Lewis Gaddis, *The Long Peace: Inquiries into the History of the Cold War* (New York: Oxford University Press, 1987), p. 36.
65. Divine, *Since 1945*, p. 35.
66. Walter LaFeber, *The American Age: United States Foreign Policy Since 1750* (New York: W. W. Norton, 1989), p. 490.
67. Robert Dallek, *The American Style of Foreign Policy: Cultural Politics and Foreign Affairs* (New York: Knopf, 1983), p. 183.
68. Thomas G. Paterson, J. Garry Clifford, and Kenneth J. Hagan, *American Foreign Policy: A History*, vol. 2, *Since 1900*, 3d ed. (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1991), p. 446.
69. Stanley Hoffmann, *Gulliver's Troubles, or the Setting of American Foreign Policy* (New York: McGraw-Hill, 1968), p. 96.
70. Melvyn P. Leffler, "The American Conception of National Security and the Beginnings of the Cold War, 1945–48," *American Historical Review* 89 (April 1984), p. 379. See also Leffler, *A Preponderance of Power: National Security, the Truman Administration, and the Cold War* (Stanford: Stanford University Press, 1992).

71. Europeans, Latins, and Japanese knew this from the start, which explains their growing resentment of American bossiness during the Cold War.
72. Tony Smith, *America's Mission: The United States and the Worldwide Struggle for Democracy in the Twentieth Century* (Princeton: Princeton University Press, 1994), p. 143.
73. "NSC 68: United States Objectives and Programs for National Security" (April 14, 1950), reprinted in Ernest R. May, ed., *American Cold War Strategy: Interpreting NSC 68* (Boston: Bedford Books, 1993), pp. 23–82.
74. "NSC 68" in May, *American Cold War Strategy*, p. 52.
75. *Public Papers of the Presidents: Harry S. Truman, 1951* (Washington, D.C.: GPO, 1966), pp. 548–49. Intellectual historian Bruce Kuklick, while granting the possible role of "hidden intentions" in U.S. Cold War policy, likewise sees in NSC 68 an expression of traditional "American ideals and even of their comparatively positive, not to say metaphysically benign, character" (May, *American Cold War Strategy*, p. 159).
76. "America and the Russian Future," *Foreign Affairs* 29, no. 3 (April 1951): 351–70, reprinted in Kennan, *American Diplomacy*, pp. 129–54 (quote p. 153).
77. Gaddis, *Strategies of Containment*, pp. 129, 135.
78. Raymond Moley in LaFeber, *American Age*, p. 380.
79. Townsend Hoopes, *The Devil and John Foster Dulles* (Boston: Little, Brown, 1973), p. 130.

الفصل الثامن

1. Thomas G. Paterson, ed., *Major Problems in American Foreign Policy*, vol. 2, *Since 1914*, 3d ed. (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1989), pp. 572–76.
2. Stanley Karnow, *Vietnam: A History* (New York: Viking, 1983), p. 419.
3. Lloyd C. Gardner, *Pay Any Price: Lyndon Johnson and the Wars for Vietnam* (Chicago: Ivan R. Dee, 1995), pp. 185–91.
4. Luke 13:48 (*The Oxford Annotated Bible*, RSV [New York: Oxford University Press, 1962]).
5. *Memoirs of John Quincy Adams*, ed. Charles Francis Adams, 12 vols. (Philadelphia: Lippincott, 1874–77), 6:324–25, cited by Walter LaFeber, *The American Age: United States Foreign Policy at Home and Abroad Since 1750* (New York: W. W. Norton, 1989), p. 82.
6. Ralph S. Kuykendall, *The Hawaiian Kingdom*, 3 vols, vol. 1, *Foundation and Transformation, 1778–1854* (Honolulu: University of Hawaii Press, 1947), pp. 101–2.
7. See Walter A. McDougall, *Let the Sea Make a Noise: A History of the North Pacific from Magellan to MacArthur* (New York: Basic Books, 1993), esp. pp. 173–84.
8. Stephen Neill, *A History of Christian Missions* (New York: Penguin, 1977 [1964]), p. 179.
9. William R. Hutchison, *Errand to the World: American Protestant Thought and Foreign Missions* (Chicago: University of Chicago Press, 1987), pp. 77–84, 102–4. Quotes are from Anderson (p. 82) and William Newton Clarke (p. 104).
10. Rockefeller ("The Christian Church: What of Its Future?" [1918]), Buck, and R. Wayne Anderson in Hutchison, *Errand to the World*, pp. 148, 168, 203.
11. Joan Hoff Wilson, *Herbert Hoover: Forgotten Progressive* (Boston: Little, Brown, 1975),

pp. 5–7. Hoover's 1922 bestseller *American Individualism* specifically rejected "ruthless individualism."

12. David Burner, *Herbert Hoover: A Public Life* (New York: Atheneum, 1984), p. 115. Several of Hoover's ARA officials went on to distinguished careers. One of them, Eisenhower's secretary of state Christian Herter, said of Hoover, "He was the Chief, we were his boys, and we would have done anything in the world for him" (George H. Nash, *Herbert Hoover: The Humanitarian, 1914–1917* [New York: W. W. Norton, 1988], p. 376).
13. Benjamin M. Weissman, *Herbert Hoover and Famine Relief to Soviet Russia, 1921–1923* (Stanford: Hoover Institution Press, 1974), pp. 29–30.
14. Richard Norton Smith, *An Uncommon Man: The Triumph of Herbert Hoover* (New York: Simon and Schuster, 1984), p. 91.
15. Congressional opinion in Weissman, *Hoover and Famine Relief*, pp. 96–100; "battleships" quote in David Hinshaw, *Herbert Hoover: American Quaker* (New York: Farrar, Straus, 1950), p. 113; "helped to set the Soviet" quote in Wilson, *Forgotten Progressive*, p. 198.
16. See William J. Barber, *From New Era to New Deal: Herbert Hoover, the Economists, and American Economic Policy, 1921–1933* (New York: Cambridge University Press, 1985); Joan Hoff Wilson, *American Business and Foreign Policy, 1920–1933* (Lexington: University Press of Kentucky, 1971); Michael J. Hogan, *Informal Entente: The Private Structure of Cooperation in Anglo-American Economic Diplomacy, 1918–1928* (Columbia: University of Missouri Press, 1977).
17. One of Hoover's least-known projects was to prosper the American South, end black "peonage," and attract Negroes and "better white elements" to the Republican Party. See Donald J. Lisio, *Hoover, Blacks, and Lily-Whites: A Study of Southern Strategies* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1985).
18. Walter Isaacson and Evan Thomas, *The Wise Men: Six Friends and the World They Made* (New York: Simon and Schuster, 1986), p. 220.
19. The remark was made by Louis Douglas, financial adviser to General Lucius D. Clay: Robert Murphy, *Diplomat among Warriors* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1950), p. 251.
20. David Culbert, "American Film Policy in the Re-Education of Germany," and other essays in Nicholas Pronay and Keith Wilson, eds., *The Political Re-Education of Germany and Her Allies* (Totowa, N.J.: Barnes and Noble, 1985).
21. Poll data in Richard L. Merritt, *Democracy Imposed: U.S. Occupation Policy and the German Public, 1945–1949* (New Haven: Yale University Press, 1995), pp. 97, 322. The swaggering U.S. official was chief of the military government in Bavaria: John Gimbel, *The American Occupation of Germany: Politics and the Military, 1945–1949* (Stanford: Stanford University Press, 1968), pp. 252, 257.
22. James F. Tent, *Mission on the Rhine: Re-education and Denazification in American-Occupied Germany* (Chicago: University of Chicago Press, 1982), p. 318; Edward N. Peterson, *The American Occupation of Germany: Retreat to Victory* (Detroit: Wayne State University Press, 1977), pp. 351–52.
23. Merritt, *Democracy Imposed*, p. 395.
24. Jean Edward Smith, *Lucius D. Clay: An American Life* (New York: Holt, 1990), p. 244.
25. Richard B. Finn, *Winners in Peace: MacArthur, Yoshida, and Postwar Japan* (Berkeley: University of California Press, 1992), p. 29.

26. Joseph Grew, *Turbulent Era: A Diplomatic Record of Forty Years, 1904–1945*, 2 vols. (Boston: Houghton Mifflin, 1952), 2:1420.
27. See, for instance, the critical appraisal of MacArthur in Michael Schaller, *The American Occupation of Japan: The Origins of the Cold War in Asia* (New York: Oxford University Press, 1985); the favorable appraisals in Theodore Cohen, *Remaking Japan: The American Occupation as New Deal* (New York: Free Press, 1987), and Richard B. Finn, *Winners in Peace: MacArthur, Yoshida, and Postwar Japan* (Berkeley: University of California Press, 1972); and the problematical ones in Meirion and Susan Harries, *Sheathing the Sword: The Demilitarization of Japan* (New York: Macmillan, 1972), and John W. Dower, *Empire and Aftermath: Yoshida Shigeru and the Japanese Experience, 1878–1954* (Cambridge: Harvard University Press, 1979).
28. Yoshida Shigeru, *The Yoshida Memoirs: The Story of Japan in Crisis* (Westport, Conn.: Greenwood, 1973 [1961]), pp. 284–88.
29. On the origins and meaning of the Marshall Plan, contrast the interpretations of Hadley Arkes, *Bureaucracy, the Marshall Plan, and the National Interest* (Princeton: Princeton University Press, 1972); Michael J. Hogan, *The Marshall Plan: America, Britain, and the Reconstruction of Western Europe, 1947–1952* (New York: Cambridge University Press, 1987); and Charles L. Mee, Jr., *The Marshall Plan: The Launching of the Pax Americana* (New York: Simon and Schuster, 1984).
30. Harry Bayard Price, *The Marshall Plan and Its Meaning* (Ithaca: Cornell University Press, 1955), p. 398.
31. *U.S. News* suggested, "The real idea behind the program, thus, is that the United States, to prevent a depression at home, must put up the dollars that it will take to prevent a collapse abroad" (July 4, 1947): Robert E. Wood, *From Marshall Plan to Debt Crisis: Foreign Aid and Development Choices in the World Economy* (Berkeley: University of California Press, 1986), p. 36.
32. Charles S. Maier, "The Two Postwar Eras and the Conditions for Stability in Twentieth-Century Western Europe," *American Historical Review* 86 (April 1981): 327–52. On the variety of interpretations, see Hogan, *Marshall Plan*, 1–25, 430–32.
33. A British official groused, "The Americans want an integrated Europe looking like the United States of America — 'God's own country'": Hogan, *Marshall Plan*, p. 427. See also Alan S. Milward, *The Reconstruction of Western Europe, 1945–1951* (Berkeley: University of California Press, 1984), pp. 462–502.
34. McCloy in Isaacson and Thomas, *The Wise Men*, p. 732; Clayton in Wood, *From Marshall Plan to Debt Crisis*, p. 45.
35. Wallace in Peter W. Rodman, *More Precious Than Peace: The Cold War and the Struggle for the Third World* (New York: Scribner's, 1994), p. 62; State Department officer Joseph Marion Jones, *The Fifteen Weeks* (New York: Harcourt, Brace, and World, 1955), pp. 262–63.
36. Sallie Pisani, *The CIA and the Marshall Plan* (Lawrence: University Press of Kansas, 1991), p. 121.
37. Walter M. Daniels, ed., *The Point Four Program* (New York: H. W. Wilson, 1951), pp. 10–11.
38. Chester Bowles (May 13, 1951), *Far East Advertiser* (May 1951), and Galbraith in *Commentary* (Sept. 1950) in Daniels, *The Point Four Program*, pp. 34–38, 38–42, 47. See also Nelson A. Rockefeller et al., *Partners in Progress: A Report to President Tru-*

man by the International Development Advisory Board (New York: Simon and Schuster, 1951).

39. *The Herblock Book* (Boston: Beacon Press, 1952), in Robert S. Alley, *So Help Me God: Religion and the Presidency from Wilson to Nixon* (Richmond: John Knox Press, 1972), p. 74.
40. Morgenthau in Robert A. Goldwin, ed., *Why Foreign Aid?* (Chicago: Rand McNally, 1963), p. 82; Kissinger, *The Necessity for Choice: Prospects for American Foreign Policy* (New York: Harper and Bros., 1961), pp. 290–91.
41. Eisenhower's televised speech on foreign aid (May 21, 1957) in Rodman, *More Precious Than Peace*, p. 66.
42. Nicholas Eberstadt, *Foreign Aid and American Purpose* (Washington, D.C.: American Enterprise Institute, 1988), pp. 79–80.
43. John Lewis Gaddis, *Strategies of Containment: A Critical Appraisal of Postwar American National Security Policy* (New York: Oxford University Press, 1982), pp. 208–9.
44. Walt W. Rostow, *The Diffusion of Power: An Essay in Recent History* (New York: Macmillan, 1972), p. 89.
45. As early as 1960 he noted that the "instinctive effort to apply in the transitional areas the moral and institutional canons of American diplomatic practice yielded a series of frustrations and failure," most notably in China, thus challenging the "assumption that democracy in the American image was automatically and everywhere the wave of the future and morally right" (Walt W. Rostow, *The United States in the World Arena* [New York: Harper and Row, 1960], p. 479).
46. Walt W. Rostow, *The Stages of Economic Growth: A Non-Communist Manifesto* (New York: Cambridge University Press, 1960), p. 143.
47. David Halberstam, *The Best and the Brightest* (New York: Fawcett Crest, 1973), pp. 193–200 (quote p. 195).
48. Walt W. Rostow, *An American Policy in Asia* (Cambridge: MIT Press, 1955), p. 42.
49. Roger C. Riddell, *Foreign Aid Reconsidered* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1987), p. 6.
50. "Special Message to the Congress on Urgent National Needs," May 25, 1961, *Public Papers of the Presidents: John F. Kennedy, 1961* (Washington, D.C.: GPO, 1962), pp. 396–406.
51. Walt W. Rostow, *Eisenhower, Kennedy, and Foreign Aid* (Austin: University of Texas Press, 1985), pp. 61–63.
52. Rostow, *Eisenhower, Kennedy, and Foreign Aid*, pp. 6–7.
53. Gaddis Smith, *The Last Years of the Monroe Doctrine, 1945–1993* (New York: Hill and Wang, 1994), p. 17. Latin elites jokingly said, "Gracias, Fidel" for this U.S. aid, but when the Americans asked in return for social reforms to benefit the poorest classes, authoritarian governments cried "*Yanqui* imperialism" and resisted interference in their internal affairs.
54. Rostow, *Eisenhower, Kennedy, and Foreign Aid*, pp. 170–71.
55. Rostow, *Diffusion of Power*, p. 185.
56. Rostow himself sat on the fence. He was the guru of developmental economics, but later stressed "that the most important pre-condition for take-off is often political" (*The Economics of Take-off into Sustained Growth* [New York: St. Martin's, 1968], p. xxvi).

57. Patrick Lloyd Hatcher, *The Suicide of an Elite: American Internationalists and Vietnam* (Stanford: Stanford University Press, 1990), pp. 19–20.
58. Hatcher, *Suicide of an Elite*, p. 66.
59. Rodman, *More Precious Than Peace*, p. 115.
60. Henry Kissinger, *Diplomacy* (New York: Simon and Schuster, 1994), p. 649.
61. Thomas G. Paterson et al., *American Foreign Policy: A History*, vol. 2, *Since 1900*, 3d ed. (Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1991), p. 551.
62. Nitze in Larry Cable, *Unholy Grail: The U.S. and the Wars in Vietnam, 1965–1968* (London: Routledge, 1991), p. 4; Rostow in Lawrence S. Wittner, *Cold War America: From Hiroshima to Watergate* (New York: Praeger, 1974), p. 244.
63. NSAM 52 (May 11, 1961) in *The Pentagon Papers*, ed. Neil Sheehan et al. (New York: Quadrangle, 1971), p. 131.
64. British guerrilla war guru Sir Robert Grainger Ker Thompson in *Defeating Communist Insurgency* (1966), cited by Hatcher, *Suicide of an Elite*, p. 137.
65. LaFeber, *American Age*, p. 579.
66. George Ball, *The Past Has Another Pattern: Memoirs* (New York: W. W. Norton, 1982), p. 208. Ball was the sole Johnson administration official who questioned the deepening U.S. involvement and warned of disaster.
67. Seymour J. Deitchman, *The Best-Laid Scheme: A Tale of Social Research and Bureaucracy* (Cambridge: MIT Press, 1976), p. 4.
68. Quotes in Deitchman, *Best-Laid Scheme*, pp. 116, 7, 28. See also Irving Louis Horowitz, ed., *The Rise and Fall of Project Camelot* (Cambridge: MIT Press, 1967).
69. Harry G. Summers, Jr., *On Strategy: A Critical Analysis of the Vietnam War* (New York: Dell, 1984 [1982]), p. 229.
70. Cecil B. Currey, *Edward Lansdale: The Unquiet American* (Boston: Houghton Mifflin, 1988), p. 197. U.S. agronomists, doctors, and teachers in Vietnam did great good as individuals and, like missionaries, were often martyred. When Joseph Grainger was captured in 1964 the Vietcong held him up for ridicule, but villagers gave him food and water and said he was a good man. Realizing their error, the VC marched him to a province in which he was unknown for his ritual humiliation and torture. Grainger was "shot while trying to escape" in January 1965. See George K. Tanham, *War Without Guns: American Civilians in Rural Vietnam* (New York: Praeger, 1966), pp. 128–29.
71. "Footprints" in Paterson, *American Foreign Policy*, p. 553; "overriding rule" in Robert Dallek, *The American Style of Foreign Policy: Cultural Politics and Foreign Affairs* (New York: Knopf, 1983), p. 243; "had its origins" in Richard A. Hunt, *Pacification: The American Struggle for Vietnam's Hearts and Minds* (Boulder: Westview, 1995), p. 1.
72. William Conrad Gibbons, *The U.S. Government and the Vietnam War: Executive and Legislative Roles and Relationships*, part 4, *July 1965–January 1968* (Princeton: Princeton University Press, 1995), pp. 56–57, 61–62.
73. As one marine general growled about a pacification plan called Battle for Five Mountains: "It would be far easier to seize the high ground on five actual mountains than win over the people in these villages. This is a people's war. Terrain here doesn't mean a goddamn thing. If you have the people you don't need the terrain. And the only ones who can win back the people are the Vietnamese" (Richard Critchfield,

The Long Charade: Political Subversion in the Vietnam War [New York: Harcourt, Brace, and World, 1968], p. 279).

74. Hunt, *Pacification*, p. 71; Gardner, *Pay Any Price*, p. 284.
75. Frances FitzGerald, *Fire in the Lake: The Vietnamese and the Americans in Vietnam* (Boston: Little, Brown, 1972), pp. 232–35.
76. Hunt, *Pacification*, p. 80.
77. Gardner, *Pay Any Price*, p. 303. Based on U.S. spending of $135 billion from 1965 to 1972 and an estimated 400,000 enemy dead, the "price per enemy corpse" was really more like $337,500 (Hatcher, *Suicide of an Elite*, p. 270).
78. Maxwell D. Taylor, *Swords and Plowshares* (New York: W. W. Norton, 1972), p. 165.
79. Hunt, *Pacification*, pp. 25–30.
80. Hatcher, *Suicide of an Elite*, p. 107.
81. Interview with George Allen (May 3, 1996) in Cameron Pforr, "Pacification in Vietnam: America's Experiment in Nation-Building" (unpublished paper). As Pforr notes, Lodge's statement is especially fatuous given his complicity in the overthrow of Diem just three years before.
82. David M. Barrett, *Uncertain Warriors: Lyndon Johnson and His Vietnam Advisers* (Lawrence: University Press of Kansas, 1993), p. 90.
83. John Prados, *The Hidden History of the Vietnam War* (Chicago: Ivan R. Dee, 1995), pp. 209–19.
84. Thomas C. Thayer, *War Without Fronts: The American Experience in Vietnam* (Boulder: Westview, 1985), p. 237. Fifteen hectares equal about 37 acres; 100 hectares equal 247 acres.
85. Norman B. Hannah, *The Key to Failure: Laos and the Vietnam War* (Lanham, Md.: Madison Books, 1987), p. 306.
86. Douglas Dacy, *Foreign Aid, War, and Economic Development: South Vietnam, 1955–1975* (New York: Cambridge University Press, 1986), pp. 20–21, 259.
87. The data and "contagion of despair" in Samuel Lipsman and Stephen Weiss, *The False Peace, 1972–1974* (Boston: Boston Publishing, 1985), pp. 136–42.
88. Pye in Anthony Lake, ed., *The Vietnam Legacy* (New York: New York University Press, 1976), p. 380; Gingrich in George Donelson Moss, *Vietnam: An American Ordeal*, 2d ed. (Englewood Cliffs: Prentice-Hall, 1994), p. 311.
89. J. William Fulbright, *The Arrogance of Power* (New York: Random House, 1966), p. 236.
90. Paterson, *American Foreign Policy*, p. 562.
91. Poll data in Vernon W. Ruttan, *United States Development Assistance Policy: The Domestic Politics of Foreign Economic Aid* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1996), p. 110; Nixon quoted in David Wall, *The Charity of Nations: The Political Economy of Foreign Aid* (New York: Basic Books, 1973), pp. 41–42.
92. Nicholas Eberstadt, *Foreign Aid and American Purpose* (Washington: American Enterprise Institute, 1988), pp. 37–38.
93. A thorough statistical survey of the foreign aid issue in the 1970s is Martin M. McLaughlin, *The United States and World Development: Agenda 1979* (New York: Praeger, 1979).
94. See Donald S. Spencer, *The Carter Implosion: Jimmy Carter and the Amateur Style of Diplomacy* (New York: Praeger, 1988), p. 127.

95. World Bank, *The McNamara Years, 1968–1981* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1981), p. 120.
96. For a summary of rightist critiques, see P. T. Bauer, *Development Aid: End It or Mend It* (San Francisco: Institute for Contemporary Studies Press, 1993), and Desmond McNeill, *The Contradictions of Foreign Aid* (London: Croom Helm, 1981). A typical leftist critique is Teresa Hayter, *Aid as Imperialism* (Harmondsworth, England: Penguin, 1971).
97. *Public Papers of the Presidents: Jimmy Carter, 1977* (Washington, D.C.: GPO, 1978), 2:955–62.
98. Gaddis Smith, *Morality, Reason, and Power: American Diplomacy in the Carter Years* (New York: Hill and Wang, 1986), p. 50.
99. Spencer, *The Carter Implosion*, pp. 54–59.
100. Gaddis Smith, *Morality, Reason, and Power*, p. 37.
101. Timothy P. Maga, *The World of Jimmy Carter: U.S. Foreign Policy, 1977–1981* (West Haven: University of New Haven Press, 1995), pp. 24–25.
102. Spencer, *The Carter Implosion*, p. 5.

الخاتمة

1. Walt W. Rostow, "The National Style," in Elting E. Morison, ed., *The American Style: Essays in Value and Performance* (New York: Harper and Bros., 1958), pp. 248–49.
2. Arkady N. Shevchenko, *Breaking With Moscow* (New York: Knopf, 1985), p. 279, cited by Peter W. Rodman, *More Precious Than Peace: The Cold War and the Struggle for the Third World* (New York: Scribner's, 1994), p. 541.
3. Francis Fukuyama, *The End of History and the Last Man* (New York: Free Press, 1992).
4. Henry Kissinger, *Diplomacy* (New York: Simon and Schuster, 1994).
5. Samuel P. Huntington, "A Clash of Civilizations?" *Foreign Affairs* 72 (summer 1993): 22–49. I anticipated this notion in my "Speculations on the Geopolitics of the Gorbachev Era," Alfred J. Rieber and Alvin Z. Rubinstein, eds., *Perestroika at the Crossroads* (Armonk, N.Y.: M. E. Sharpe, 1991), pp. 326–62.
6. Edward N. Luttwak, *The Endangered American Dream: How to Stop the United States from Becoming a Third World Country and How to Win the Geo-Economic Struggle for Industrial Supremacy* (New York: Simon and Schuster, 1993).
7. Paul Kennedy, *Preparing for the Twenty-first Century* (New York: Random House, 1993); Jessica Tuchman Mathews, "Redefining Security," *Foreign Affairs* 68 (spring 1989): 162–77; Robert D. Kaplan, "The Coming Anarchy and the Nation-State Under Siege" (Washington, D.C.: U.S. Institute of Peace, 1995). For a summary of contrasting theories, see Alexander Nacht, "U.S. Foreign Policy Strategies," *Washington Quarterly* 18, no. 3 (summer 1995): 195–210.
8. Norman J. Ornstein and Mark Schmitt, "Post–Cold War Politics," in Charles W. Kegley, Jr., and Eugene R. Wittkopf, eds., *The Future of American Foreign Policy* (New York: St. Martin's, 1992), p. 122. Proponents of aggressive American leadership with a bias toward international organization range from the Harvard political scientist Joseph P. Nye, *Bound to Lead: The Changing Nature of American Power* (New York: Basic Books, 1990), to American Enterprise Institute fellow Joshua Muravchik, *The Im-*

perative of American Leadership: A Challenge to Neo-Isolationism (Washington, D.C.: AEI Press, 1996).

9. William Kristol and Robert Kagan, "Toward a Neo-Reaganite Foreign Policy," *Foreign Affairs* 75, no. 4 (July-August 1996): 18–32.
10. Zakaria, "Back to a 'Big Stick' Foreign Policy," *Wall Street Journal* (July 31, 1995); Kristol, "America Dreaming," *Wall Street Journal* (Aug. 3, 1995); Kissinger, *Diplomacy,* chap. 31; and Rodman, *More Precious Than Peace,* chap. 18. The quote is from Kristol.
11. Eric A. Nordlinger, *Isolationism Reconfigured: American Foreign Policy for a New Century* (Princeton: Princeton University Press, 1995). Nordlinger died before the book appeared. For the argument about 1941, he relied on Bruce M. Russett's provocative *No Clear and Present Danger: A Skeptical View of U.S. Entry into World War II* (New York: Harper and Row, 1972), which asserts that the Nazis, having failed by December 7, 1941, to defeat the USSR, were bound to lose the war whether or not the United States became a belligerent.
12. Albright on U.N. Resolution 814 (March 26, 1993), *Facts on File,* April 1, 1993, p. 224; Lake, "From Containment to Enlargement," speech to the Paul H. Nitze School of Advanced International Studies, Johns Hopkins University (Sept. 21, 1993); Clinton, "Confronting the Challenges of a Broader World," *Department of State Dispatch* (Sept. 27, 1993): 650.
13. Michael Mandelbaum, "Foreign Policy as Social Work," *Foreign Affairs* 75, no. 1 (Jan.-Feb. 1996): 16–32 (quote p. 18). Anthony Lake himself said, "I think Mother Teresa and Ronald Reagan were both trying to do the same thing — one helping the helpless, one fighting the Evil Empire. One of the nice things about this job is you can do both at the same time and not see them as contradictory" ("The Man Inside Bill Clinton's Foreign Policy," *New York Times Magazine* [Aug. 20, 1995]: 35).
14. Warren Christopher, "Leadership for the Next American Century," speech at Harvard University (Jan. 18, 1996), *Department of State Dispatch;* "Jimmy Carter Says U.S. Foreign Policy Is Racist," *Philadelphia Inquirer* (Jan. 28, 1996). The phenomenon of Lewis and other former doves turning into post–Cold War hawks is treated at length in Alvin Z. Rubinstein, "The New Moralists on a Road to Hell," *Orbis* 40, no. 2 (spring 1996): 277–95.
15. See Camille Paglia, "A White Liberal Women's Conference," *New York Times* (Sept. 1, 1995).
16. Cited by Walt W. Rostow, *Essays on a Half-Century: Ideas, Policies, and Action* (Boulder: Westview, 1988), p. 30.
17. Williams, *The Contours of American History* (Cleveland: World Publishing, 1961), pp. 95–96. On Williams's thought and career, see Paul M. Buhle and Edward Rice-Maximin, *William Appleman Williams: The Tragedy of Empire* (New York: Routledge, 1995).
18. J. William Fulbright, *The Arrogance of Power* (New York: Random House, 1966), pp. 245–46.
19. As Michael Vlahos recently put it, the American mission has been made up of two opposing parts: "It must preserve itself from the world at the same time it proselytizes to that world," and both political parties, in all eras of our history, have had "to balance 'purifiers' and 'progressives.'" See "The End of America's Postwar Ethos," *Foreign Affairs* 66, no. 5 (summer 1988): 1091–1107 (quote p. 1093).

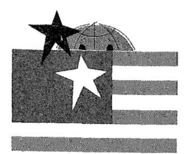
20. Reinhold Niebuhr, *Moral Man and Immoral Society* (New York: Scribner's, 1932), pp. 256, 266–67, 277.
21. Churchill cited by Clarke, "The Conceptual Poverty of U.S. Foreign Policy," *Atlantic Monthly* (Sept. 1993): 54–66 (quote p. 63).
22. Owen Harries, "My So-called Foreign Policy: The Case for Clinton's Diplomacy," *New Republic* (Oct. 10, 1994): 24–31 (quote p. 31).
23. Robert D. Kaplan, "Where America Stands amid the Mini-Holocausts," *Washington Post Weekly Edition* (April 25–May 1, 1994).
24. *Forbes* (March 11, 1996), p. 193. The study was directed by economist Peter Boone for the National Bureau of Economic Research.
25. Irving Kristol, "Who Now Cares About NATO," *Wall Street Journal* (Feb. 6, 1995).
26. Richard F. Grimmett, "Instances of Use of United States Armed Forces Abroad, 1798–1995" (Washington, D.C.: Congressional Research Service, 1996).
27. See, most recently, Joshua Muravchik, *The Imperative of American Leadership: A Challenge to Neo-Isolationism* (Washington, D.C.: AEI Press, 1996), which adds still another antinomy, or false dichotomy, to the discourse by dividing everyone up into "Washingtonians" and "Wilsonians."
28. From Isaac Watts's popular hymnal of the early nineteenth century, in William Gribbin, *The Churches Militant: The War of 1812 and American Religion* (New Haven: Yale University Press, 1973), p. 98.
29. Margaret Thatcher's address to the Congress of Prague, "The West after the Cold War," *Wall Street Journal* (May 14, 1996).
30. Christopher Hitchens, *Blood, Class, and Nostalgia: Anglo-American Ironies* (New York: Farrar, Straus, and Giroux, 1990), p. 360.
31. Clarke, "Conceptual Poverty," p. 65. At least the Brits are polite about it. In 1956 a choleric Gaullist fumed, "There would be less anti-Americanism in the world if America abandoned its philanthropic aspirations, its vocation of Santa Claus, its transcendental morality, all its missionary trappings, all its boy scout gear, and if, at last, it followed openly and intelligently the policy of its own self-interest" (Raymond Cartier in Rodman, *More Precious Than Peace*, p. 72).
32. George F. Kennan, *At a Century's Ending: Reflections, 1982–1995* (New York: W. W. Norton, 1996), p. 282. The article from which the quotation is drawn was written in 1985.
33. Kennan, "On American Principles," *Foreign Affairs* 74, no. 2 (March-April 1995): 116–26 (quote p. 125).

محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحـة
مقدمة المترجم	٥
مقدمة	١٥
مدخل : الكتاب الأمريكى المقدس للشئون الخارجية	١٩
الجزء الأول: عهدنا القديم	٣٥
الفصل الأول: الحرية (أو المسماة) الاستثنائية	٣٧
الفصل الثانى: الأحادية (أو المسماة) الانعزالية	٦٧
الفصل الثالث: النظام الأمريكى (أو ما يسمى) مبدأ مونرو	٩١
الفصل الرابع: التوسعية (أو المسماة) المصير المبين	١١٧
الجزء الثانى: عهدنا الجديد	١٤٧
الفصل الخامس: الإمبريالية التقدمية	١٤٩
الفصل السادس: مبدأ ويلسون (المسمى) العالمية الليبرالية	١٧٧
الفصل السابع: الاحتواء	٢٠٩
الفصل الثامن: تحسين العالم	٢٤٥
الخاتمة: البهجة الحاضرة	٢٧٩
الهوامش	٣٠٩
المحتويات	٣٤٣

رقم الإيداع ١٥٠٤٦/٩٩
I.S.B.N. 977 - 09 - 0574 - 7

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



● يحطم هـذا الكتاب كل الأصنام فى معبد التاريخ للسياسة الأمريكية الخارجية منذ عام 1776 وحتى اليوم.

● ويكشف الكتاب الأساطير التى تحجب المعانى الحقيقية للمبادئ الأمريكية الأساسية: الاستثنائية الأمريكية ـ العزلة ـ المصير المبين ـ الويلسونية ـ الاحتواء. ومستهدياً بچورچ كينان، يقوم والتر ماكدوجال ـ الحائز على جائزة پولتزر ـ بتخليص الحوار الدائر حول أمريكا والعالم من الأوهام والمفاهيم الزائفة.

● وبالتمعن فى أحداث القرنين الماضيين، يبين المؤلف المفارقة الهائلة بين السياسة الخارجية الأمريكية فى القرن التاسع عشر، والتى كانت على أساس العهد القديم وأرض الميعاد، وتلك السياسة فى القرن العشرين، والتى قامت على أساس العهد الجديد والدولة الصليبية، بدءاً بالحرب الإسپانية الأمريكية، وحتى حرب ڤيتنام.

● تتصارع الرؤيتان، وحتى اليوم على: كيف ترى الولايات المتحدة دورها فى العالم؟

المؤلف: والتر أ. ماكدوجال

● حصل على جائزة پولتزر فى التاريخ عام 1986 عن كتابه «السموات والأرض: تاريخ سياسى لعصر الفضاء» ومن مؤلفاته الهامة: «لنترك البحر يصدر ضوضاءه: تاريخ شمال المحيط الهادى من ماجلان وحتى مالو آرثر».

● وهو أستاذ التاريخ وأستاذ العلاقات الدولية فى جامعة پنسلڤانيا، وزميل مخضرم فى معهد بحوث السياسة الخارجية ورئيس تحرير أوربس. ويعيش فى برين ماور ـ پنسلڤانيا.

المترجم: رضا هلال

● درس الاقتصاد والعلوم السياسية فى جامعتى القاهرة ونيويورك. وعمل مراسلاً صحفياً لدى الأمم المتحدة وبورصة «وول ستريت».

● كاتب صحفى بجريدة الأهرام. من مؤلفاته: صناعة التبعية (1987)، الصراع على الكويت (1991)، لعبة البترودولار (1992)، تحديث التخلف: الإسلام والدولة والمجتمع فى مصر (1993)، تفكيك أمريكا (1998)، السيف الصراع بين المؤسسة ال والإسلام السياسى فى تركيا أمريكا: الحلم والسياسة

دار الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت: ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨٠٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)